المجلس الأعلى للثقافة

الجزيرة

تأليف : أولدس هكسلى
ترجمة : محمود محمود

الجزيرة

تأليف

أولدس هكسلى

ترجمة

محمود محمود

القاهرة
١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يسرنى أن أقدم الى قراء العربية هذه القصة التى اقترحت على لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ترجمتها فتفضلت اللجنة مشكورة بالموافقة ·

مؤلف هذه القصة هو الكاتب الانجليزى المعاصر أولدس هكسلى الذى ولد فى عام ١٨٩٤ ومات فى عام ١٩٦٤ · وقد قضى حياته كلها بين الكتب يقرأ ويكتب فى محاولة لاصلاح المجتمع بالنقد البناء ورسم صورة لعالم جديد تتوافر فيه السعادة والحرية للناس أجمعين ·

وهو من ناحية أبيه حفيد توماس هنرى هكسلى العالم الشهير ، وينتمى من ناحية أمه الى أسرة توماس أرنولد ناظر مدرسة رجبى المعروف فى عالم التربية فى بلاد الانجليز · ومن بين أفراد أسرته من كان أستاذا ، ومن كان عالما ، أو شاعرا ، أو روائيا · فهو من بيت علم وأدب ، تأثر فى نشأته بهذا الوسط الثقافى ، وتزود بقسط وافر من المعارف وقدر كبير من الألفاظ المعبرة ، ولما كان من الأدباء الموهوبين فقد كانت كتاباته دسمة تنطوى على فكر عميق وأسلوب رائع خلاب ·

قاسى كثيرا فى طفولته من ضعف بصره الذى كاد أن

يفقده ويعيش ضريرا كفيف البصر ، وقضى أياما كثيرة وحده في غرفة مظلمة لايستطيع القراءة ولا تقع عيناه على شيء ، فانقلب الى دخيله نفسه يفكر ويتأمل • وكان لهذه الفترة من حياته أثرها الكبير في كل ماكتب فيما بعد ، بعد مازال عنه خطر العمى الكامل واسترد شيئا من قدرته على الرؤيا • فهو يميل دائما الى التفكير المستقل والتأمل الصوفي •

غير أن ما أصابه في عينيه لم يصرفه عن التعلم وادمان القراءة • وقد بدأ حياتة الأدبية شاعرا محتذيا في ذلك حذو أكثر الكتاب من جيله ، ولبث شاعرا طوال حياته حتى عندما تحول من التعبير بالكلام المنظوم الى النثر الفني يكتب به القصص والمقالات • فهو في نثره ينضح من الوجدان أكثر مما يبنى على العقل والمنطق ، يحلق في الخيال ويستخدم الطريف من التشبية والاستعارة والكناية •

ولما أتم تعليمه الجامعي في أكسفورد رحل الى لندن واشتغل بالصحافة ، يكتب المقالات والقصص القصيرة •

ثم شرع بعد ذلك يكتب الروايات الطويلة متأثرا بمنهج الكاتب الروائي توماس بيكوك الذي عاش في القرن التاسع عشر واشتهر بسعة الاطلاع وروح التهكم والخيال الجامح • وأخرج هكسلي العديد من الروايات التي اتخذ منها وسيلة لبث كثير من آرائه التي بشر بها •

وهو كاتب متنوع المواهب متنوع الموضوعات • يقول عنه أخوه العالم جوليان انه الرجل الوحيد الذي يحمل معه دائرة المعارف البريطانية حينما يقوم برحلة طويلة أو يطوف حول العالم • ولكنه ـ على الرغم من عمق ثقافته

وغزارة علمه ـ لم يقصر نفسه على مجرد التفكير ، بل كان يمارس كثيرا من الأعمال ويعاشر الكثير من الرجال ـ وكانت حياته الاجتماعية خصبة تمده بكثير من التجارب والخبرات ·

يقول فى احدى قصصه التى كتبها فى باكورة حياته الأدبية :

« أكثر الناس يقبل على معركة الحياة يخوضها بآراء مسبقة عن كل شيء وله فلسفة جاهزة يحاول أن يخضع لها أمور هذه الدنيا بأسرها · وهذا وضع مقلوب ، والصحيح هو أن يمارس المرء حياته أولا ، ثم يحاول بعد الخبرة أن يصوغ فلسفته وآراءه التى تتفق مع الحياة كما عرفها» ·

وعلى هذا النهج سار هكسلى فى حياته · يمارس العمل ويكتسب الخبرة قبل أن يصوغ الرأى ، لا تكبله قيود المبادىء والأصول والتقاليد الموروثة · ومن أجل هذا كان ثائرا على المألوف · وكانت له آراء عجيبة لايسيغها المجتمع ، ولكنه وضع حريته فى الرأى فوق استرضاء الجماهير ·

وشغل نفسه طوال حياته بالعلاقة بين العلم والمجتمع ، فكتب روايته الشهيرة «العالم الطريف» التى سبق لى أن نقلتها الى اللغة العربية · وفى هذه الرواية عبر هكسلى عن خوفه من سيطرة العلم سيطرة كاملة على حياة الناس · وأشفق على المجتمع البشرى من المغالاة فى تطبيق العلم الى الحد الذى تنتفى معه فى حياته العاطفة والشعر وتقدير الجمال ·

فى مثل هذا العالم الذى يقوم على قواعد العلم دون غيرها تصبح الحياة آلية يتشابه فيها زيد مع عمرو وتتلاشى المميزات الخاصة لكل فرد ·

كان هكسلى فى كتابه هذا متشائما فى مستقبل البشرية الى أقصى الحدود . وبعد ما مرت السنون أدرك أن هذا التشاؤم لايؤدى الى اصلاح أسباب المعاناة والشقاء ، فأخرج كتابا آخر أسماه «عود الى العالم الطريف» راجع فيه آراءه السابقة ، وكان أكثر تفاؤلا وأشد ميلا الى الفكر البناء ، ودعا الى المزيد من الديمقراطية والحرية ، والى رفع مستوى المعيشة بضبط النسل وتنظيم الأسرة .

ولبث يفكر فى تصوير عالم جديد تتوافر للمرء فيه الحرية والسعادة ، وأخيرا انتهى الى رسم صورة خيالية لهذا العالم فى قصته «الجزيرة» التى أقدمها اليوم الى القراء .

ولى مع هذا الكتاب قصة . فلقد كنت دائما شغوفا بكل ماكتب هكسلى أقرأه وأتدبره وأنقل بعضه الى العربية بنصه الكامل أحيانا وفى صيغة ملخصة أحيانا أخرى . حتى كان صيف عام ١٩٦٢ حينما أتيحت لى فرصة لزيارة الولايات المتحدة الامريكية ، وطفت بالعديد من ولاياتها . ولما بلغت سان فرانسسكو بولاية كاليفورنيا وقابلت هناك المسئولين عن تنظيم رحلتى ، بادرنى أحدهم بقوله انهم يعلمون عنى أنى من المولعين بأدب هكسلى ، ولما كان الرجل فى ذلك الحين يقيم فى بركلى على مقربة من مدينة سان فرانسسكو أستاذا زائرا فى جامعة كاليفورنيا يلقى على طلبتها محاضرات فى الأدب المعاصر ،فقد اتصلوا به يخطرونه بقدومى ، وتفضل بدعوتى الى زيارته بمنزله . ولبيت الدعوة بسرور بالغ لأننى وجدت فيها فرصة ألتقى فيها بهذا الكاتب العظيم ، وأجرى معه حديثا يزيدنى علما وبصيرة بفكره ونظراته فى الحياة .

ودهشت لبساطة المنزل ، وتواضع الرجل ، وأخذنا

نتجاذب أطراف الحديث زهاء ساعتين ، وأذهلني منـه عمق ثقافته واتساعها وشمولها ، فهو على دراية تامة بتقدم العلوم الطبيعية ، وبالتاريخ السياسى وتاريخ الاديان ، وبكثير من اللغات الحية واللغات البائدة ، وآداب الشـعوب ، ومشكلاتها السياسية والاقتصادية ، ونظـريات التطـور وعلم النفس الحديث ، والفنون القديمة والحديثة بضروبها كافة ، وعلوم الفلسفة والتربية ٠٠٠ ماذا أقول ! اننى لا أكون مغاليا اذا قلت ان الرجل موسوعة علمية كاملة ، امتزجت فى شخصه مختلف المعارف والثقـافات ، وكون لنفسه من هـذا المزيج فلسفته الخاصة التى أخـرجها فى كتب أدبية رائعـة تتسم بروعة الاسلوب والأداء ٠

وراعنى من الرجل خاصة وعيه لمشكلات هذه المنطقة من العالم التى نعيش فيهـا ، منطقـة الشرق الأوسط ، مهبط الوحى والديانات ، وعطفه على العروبة وآمالها ، وميله الى التصوف وتقديره له ، وايثاره التصوف الاسلامى على التصوف البوذى الهندى ، لأن النوع الأول من التصوف منشىء بناء ، فى حين أن التصوف البوذى سلبى هدام ، لا يحث على عمل ، ولا يدفع الى خلق أو ابتكار وأخذ يروى لى أبياتا من الشعر بالانجليزية هى ترجمة لشعر جلال الدين الرومى الذى أبدى اعجابا شديدا به ٠ كما عبر عن أسفه الشديد لأنه لايعرف اللغة العربية لكى يتمكن من أن ينهل من الثقافة الاسلامية من مصادرها الأصيلة ٠

وأردت أن أظفر من الرجل فى نهاية الزيارة بحديث عن أحدث آرائه فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد وتقدم العلوم والحضارة البشرية عامة ، أنشره بعد عودتى لبلادى ، فقال :

خير من حديث مطول ربما لايلم بكل أطراف الموضوع أن أهدى اليك آخر مؤلفاتى لعلك واجد فيه بغيتك ، ونهض الى مكتبته وعاد منها بكتاب أمهره بعبارة اهداء لطيفة ، فقبلته منه شاكرا ، ثم انصرفت ٠

والكتاب الذى أهدانى اياه هو قصة «الجزيرة» التى أشرت اليها من قبل فى هذه المقدمة ، ولعل هذه القصة هى آخر ماكتب قبل وفاته ٠ وعكفت على الكتاب أقرأه ، وعزمت على أن أنقله الى اللغة العربية ، ومضت السنون دون أن أحقق ما اعتزمت حتى كانت هذه الفرصة الطيبة التى أتاحها لى المجلس الأعلى للثقافة ٠

والكتاب عبارة عن قصة حول جزيرة خيالية اسمها بالا تقع فى بقعة نائية بالمحيط الهادى بعيدة عن حضارات الشرق والغرب ، عاش أهلها مائة وعشرين عاما فى مجتمع مثالى توافرت فيه كل أسباب الحرية والسعادة ، لايتقيد بما ألفنا من نظم ، فلا هو بالمجتمع الرأسمالى ، ولا هو بالمجتمع الشيوعى ٠ أهله متصوفون يؤمنون بالعلم الحديث وامكاناته، العلم الذى يتحرر به الانسان ، وليس العلم الذى يستعبد الانسان ٠ وان كان العلم فى قصة «العالم الطريف» قد جعل الحياة على الأرض جحيما ، فالعلم ذاته فى هذا العالم الجديد قد أقام على الأرض نعيما ٠

وقد تم هذا اللقاء بين الشرق والغرب ، وهذا التزاوج بين العلم والايمان عندما وفد الى جزيرة بالا طبيب من أهل الغرب يمثل العلم الحديث استدعاه حاكم الجزيرة لمعالجته من مرض عضال ألم به وكاد أن يودى بحياته ، وهذا الحاكم رجل بوذى مغرق فى تصوفه ، وأفلح الطبيب فى علاج الرجل

فنشأت بينهما صداقة قوية ترمز للجمع بين العلم والدين ، واتخذ الحاكم طبيبه وزيرا له ، وتعاهدا على اصلاح الأمور فى مملكة بالا على هذا الأساس . وسرعان ما أخذ الناس جميعا بهذا الاسلوب الجديد من العيش الذى يجمع بين العلم والايمان .

وبهذه الجزيرة ثروات طائلة من البترول والمعادن اثارت حسد العالم المحيط بها ومطامع المستعمرين وشركات الاستثمار فى أوربا وأمريكا . فرأى أحد مديرى هذه الشركات الذى يملك كذلك الكثير من الصحف أن يبعث الى بالا وكيلا عنه - هو ويل فارنبى - أحد المحررين فى صحفه، ليستطلع مجالات الاستثمار فى الجزيرة ، ويلتقى بالمسئولين فيها يدرس معهم امكان ابرام اتفاق مشترك شبيه بما يحدث عادة فى بلاد الثروة البترولية .

ويصل ويل فارنبى بعد مشقة الى الجزيرة ويجوس خلالها ويتعرف على أهلها وأمورها فيرى العجب الذى يستنكره أولا ، ولكنه لايلبث أن يقتنع به ويعتقد فيه .

ماذا رأى ويل فارنبى فى جزيرة بالا ؟

رأى قوما يأخذون بالصوفية البوذية مسلكا فى حياتهم وبالعلم الحديث طريقا الى التقدم والتطور .

والصوفية فوق هذه الجزيرة سبيل لتحرير النفوس من سلطان المادة ، وطريق الى بلوغ الاستنارة الكاملة والوعى الشامل بالتأمل العميق فى الحياة ومغزاها .

وقد أفاض الكاتب فى مواضع عدة من الكتاب فى تفصيل الكلام عن البوذية وأشار الى كثير من معالمها وأعلامها ، وقد

أوضحت في هوامش من عندى بنبذ قصيرة مايشير اليه الكاتب من اسرار هذة العقيدة الدينية ، كما حاولت في الهوامش كذلك أن افسر ماقد يغمض على القارىء من الاشارات والاعلام التاريخية الكثيرة التي يوردها في سياق القصة بفرض أن القارىء على علم مسبق بها ٠

واهل بالا يفيدون من قوة الايحاء والتنويم المغناطيسى في تعليم الأطفال وعلاج المرضى ، ويمكنهم بتأثير عقار يتعاطونه اسمه «الموكشا» أن يعيشوا في احلام حلوة عذبة يتصلون فيها بالواحد الأحد ويتأملون في خلق السموات والأرض ، ويتحدون مع الكون بمظاهره كافة ـ وذلك هدف من اهداف التصوف السامية ٠

ولأهل بالا فلسفتهم الخاصة في التربية وتنظيم الأسرة ، وفي الاقتصاد والسياسة ، وفي العلاقات الانسانية ، والفنون والثقافه ، ونظرة الانسان الى الموت ، والتكنولوجيا الحديثة ، وكل شأن من شئون الحياة ، متحررين تماما من العقد وقيود الماضى ومن الاستعمار البغيض ٠

وفي رواية «الجزيرة» مجال فسيح لعرض هذة الآراء وأمثالها في حوار ممتع ، لأنها ليست قصة بالمعنى المألوف ٠ فهي تكاد أن تخلو من العقدة ، ولا تأبه بتحليل الشخصيات ٠ انما هى قصة لعرض الآراء والأفكار ٠

ولست أريد أن أسترسل في مقدمة الكتاب في بسط كل ما جاء به من طريف هذة الآراء والأفكار ، وأوثر على ذلك ان أضع الكتاب بين يدى القارىء يستغرق فيه مع خيال الكاتب الذى آمل ان يجد فيه متعة ذهنية ولذة روحية ٠

ولم يكن هكسلى فى كتابه هذا متفائلا كل التفاؤل بسيادة النظام الجديد ، لأن العالم ماتزال به كثير من الشرور التى تفتك بمحاولات التقدم وبما تحرزه الشعوب من نعمة الحرية والاستقرار والاستقلال ·

وفى قمة هذه الشرور نقمة المطامع المادية والاستعمار · ولذلك نرى هكسلى يتخيل فى نهاية القصة بأن الطامعين من أهل الغرب يحيكون مع أحد الحكام المستبدين فى بلد مجاور لبالا مؤامرة للاستيلاء عليها ، فيدخل هذا الحاكم المستبد الجزيرة غازيا ليحكمها حكما مطلقا ويمنح المستثمر الاجنبى امتيازات يستولى بها على ثروة البلاد · وبهذا تنتهى القصة وتخضع أرض الأحلام الى الواقع المرير ·

ومما شجعنى على القيام بترجمة هذا الكتاب هو تلك الدعوة التى ينطوى عليها الى الأخذ بالعلم والايمان والى الجمع بين فلسفة الشرق الروحية وفلسفة الغرب المادية فى كيان واحد ، وهو مانهدف اليه فى نهضتنا الجديدة ، وما يتطلع اليه المفكرون والمصلحون فى العالم الحديث ·

محمود محمود

الجـــزيرة

تأليف : أولدس هكسلى
ترجمة : محمود محمود

« عندما نضع مثلا أعلى
لنا أن نفترض ما نشاء
على أن نتجنب المستحيلات»
آرسطو

- ١ -

« انتباه »

بهذه الكلمة صاح المنادى ، وكأن مزمارا قد نطق فجأة بصوت واضح .

« انتباه ، انتباه »

هكذا أخذ الصوت يكرر النداء بنفس النغمة العالية الرتيبة التى تخرج من الأنف .

وكان ويل فارنبى مستلقيا بين أوراق الاشجار الذابلة وكأنه جثة هامدة ، شعره مشعث ، ووجهه ملطخ بصورة بشعة، به كدمات ورضوض ، وثيابه رثة ملوثة بالوحل ، عندما تيقظ من غفوته مذعورا .

وكان مولى قد نادته صائحة : لقد آن أن تنهض وترتدى ثيابك لكى لاتتأخر عن موعدك بالمكتب .

فاعتدل قائما وقال لها «شكرا لك ياعزيزتى» .

وأحس ألما حادا بركبته اليمنى ، وبصنوف أخرى من الألم فى ظهره ، وذراعيه ، وجبهته .

« انتباه »

أخذ الصوت يردد هذه الكلمة دون أدنى اختلاف فى النغم . فاتكأ فارنبى على أحد مرفقيه ، وتلفت حواليه ، ولشد

ماكانت حيرته عندما لم تقع عينه على الحائط المكسو بالورق الرمادى • وعلى السجف الصفراء التى تغطى غرفة نومه فى لندن ، وانما وقعت على أرض فضاء وسط الاشجار ، وعلى الظلال المستطيلة والاضواء المائلة التى تظهر فى الغابة فى الصباح الباكر •

« انتباه »

لماذا قالت «انتباه» ؟

ولكن الصوت أخذ يردد القول «انتباه ، انتباه» بشكل يدعو الى العجب ويخلو من المعنى !

وتساءل : مولى ؟ مولى ؟

وكأن هذا الاسم قد فتح فى داخل رأسه نافذة ، وفجأة وبذلك الشعور الرهيب بالذنب الذى يحسه المرء فى أعماقه شم رائحة «الفورمالدهايد» ، ووقعت عينه على تلك الممرضة النحيلة خفيفة الحركة وهى تخب فى السير أمامه على طول الدهليز الاخضر ، وطرقت أذنه خشخشة ردائها المنشى • وكانت تكرر قولها «رقم ٥٥» ، ثم توقفت ، وفتحت بابا أبيض اللون ، فولجه ، ورأى مولى فوق سرير مرتفع أبيض ـ مولى بالضمائد تغطى نصف وجهها ، فاغرة فاها •

وناداها «مولى ، مولى •••»

وتهدج صوته ، وأخذ يبكى ، ويناشدها «حبيبتى !» وليس من مجيب • ومن فمها المفتوح صعدت زفرات خافتة متلاحقة بغير معنى • وهو يكرر النداء «حبيبتى ، حبيبتى ••• »

وعندئذ دبت الحياة فجأة وللحظة قصيرة فى اليد التى كان يمسك بها • ثم عادت الى السكون •

وقال « هذا أنا ، أنا ويل »

ومرة أخرى اهتزت أصابعها • وفى بطء زائد وبجهد باد أطبقت على يده ، وضغطت عليها لحظة ، م أرخت أصابعها ثانية ولا حراك فيها •

وصاح ذلك الصوت غير الانسانى : «انتباه ، انتباه» •

وسارع الى اقناع نفسه بأنها لم تكن سوى حادثة ، فلقد كان الطريق مبتلا ، وانزلقت العربة عبر الخط الأبيض ، وهو أمر يتكرر حدوثه ، والصحف مليئة بأمثاله ، وما أكثر ما أبلغ عن أشباهها ، فروى مثلا «ان أما وأطفالها الثلاثة قد لاقوا حتفهم فى تصادم عنيف •••»

ولكن هذا لايهم الآن ، وانما المهم هو أنها عندما سألته ان كانت تلك هي النهاية حقا ، رد عليها بالايجاب • المهم أنه فى أقل من ساعة زمن بعد ماخرجت تحت المطر من تلك المقابلة الأخيرة المخجلة كانت (مولى) فى عربة الاسعاف تلفظ أنفاسها الأخيرة •

ولم يكن قد أعارها التفاتا عندما أولته ظهرها لكى تنصرف • بل ولم يجرؤ على ذلك ، فان نظرة أخرى الى ذلك الوجه الشاحب الذى يعانى الألم قد تفوق قدرته على الاحتمال وكانت قد نهضت من مقعدها وتحركت ببطء شديد تذرع الغرفة من جانب الى جانب ، بل تحركت ببطء لتختفى من حياته • فهل يسترجعها ، ويطلب عفوها ، ويقول لها انه مازال يحبها ؟

وللمرة المائة ناداه المزمار بصوت واضح الى الانتباه ·

وهل أحبها فعلا فى أى وقت مضى ؟

وعادت به ذاكرته الى همستها وهى تتلفت خلفها عند عتبة الباب قائلة «تصحبك السلامة يا ويل» · ولقد كانت «هى» التى قالت «انني مازلت أحبك يا ويل ، على الرغم من كل ماحدث» بصوت هامس يخرج من أعماق القلب ·

وبعد هنيهة انغلق باب الغرفة خلفها دون أن يحدث صوتا مسموعا ، ثم كانت طقطقة المزلاج التى توارت بعدها عن الأنظار ·

وقفز من مكانه وانطلق نحو الباب الخارجى وفتحه واستمع الى خطوات تراجعها على الدرج ، وكأنها شبح عند منبلج الصباح خلف وراءه عطرا خفيف الرائحة مألوفا أخذ يتلاشى فى الهواء · وأغلق الباب مرة أخرى وأخذ يجول فى غرفة النوم الرمادية والصفراء وتطلع من النافذة · وبعد بضع ثوان رآها وهى تعبر الطريق وتركب السيارة · واستمع الى صوت مفتاح التحريك وهو يدور بصوت عال ، دفعة أولى، ثم دفعة ثانية · وبعدئذ استمع الى طنين المحرك ، فهل يفتح النافذة ؟ وأصغى الى نفسه وهو يصيح فى خياله «مهلا يامولى ، مهلا ! »

وظلت النافذة مغلقة ، وبدأت السيارة فى التحرك ، ودارت عند الناصية ، وأصبح الطريق خاليا · وفات الأوان، واستمع الى صوت ساخر أجش وهو يكرر القول «الحمد لله لقد فات الأوان !» ومع ذلك فقد كان الاحساس بالذنب فى صميم الفؤاد · وتأنيب الضمير يحز فى نفسه · ولكنه

استطاع برغم هذا التأنيب أن يشعر بشىء من السرور • فلقد كان هناك شخص وضيع فاسق همجى ، شخص غريب بغيض ـ ولكنه يعبر فى الواقع عما فى نفسه ـ تساوزه الفرحة بأنه لم يعد أمامه الآن مايعوقه عن الظفر بما يريد ، ومايريد هو عطر آخر • هو الدفء والمرونة ينبعثان عن جسم أكثر نضارة وشبابا •

ثم نادى المزمار «انتباه» •

نعم «انتباه» انتباه الى مخدع بابز الذى يفوح بالمسك ، والذى يتوارى فى فجـوة قرنفلية اللون كالفـراولة ، لها نافذتان تطلان على شارع تشارنج كروس يتسرب من خلالهما طوال الليل وميض خاطف يصدر عن لوحة مرتفعة عالية تعلن عن «بورترجين» وتقع على الجانب الآخر من الطريق • وكلمة «جين» قرمزية اللون ـ وقد أمست الفجوة لعشر ثوان «قلبا مقدسا» • ولعشر ثوان معجزة تلألأ الوجه المتورد ـ الذى كان يلاصقه ـ وكأنه وجه صاروفيم ، وقد صاغته نار الحب الدفينة فى صورة أخرى • ثم حدث بعد ذلك تحول أشد عمقا فى ظلام الليل • ودقت الساعة دقة أولى ، وثانية ، وثالثة ، ورابعة ••• ربى اجعلها تـدق أبد الآبدين ! وعنـدما دقت الساعة الكهربائية دقتها العاشرة تبدت له رؤية أخرى ـ رؤية الموت والفزع الأكبر •ذلك أن الاضواء هذهالمرة كانت خضراء وتحولت فجوة بابز الوردية لعشر ثوان مقيتة الى بؤرة من الوحل ، واستحالت بابز الى مايشبه الجثة التى أصابها صرع بعد الموت • وعندما اتخذ اعلان «الجين» اللون الأخضر تعذر نسيان ماحدث وحقيقة الانسان الذى كان • ولم يعد بوسعه الا أن يغمض عينيه ويغوص ـ ان استطاع ـ بدرجة أشد عمقا

في العالم الآخر ، عالم الشهوات الحسية ، وأن يغوص بعنف، وعن عمد ، في تلك النوبات التي تطير بصوابك ، وهي نوبات كانت مولى المسكينة غريبة عنها تماما ــ (انتباه !) مولى التي هي الآن في ضمائدها ، وفي مثواها الرطب في هايجيت

ولقد كانت هايجيت ــ بطبيعة الحال ــ هي السبب الذى يجعله يغمض العين كلما سقط الضوء الأخضر على بابز وهي عارية فيحيلها الى لون الجثة • ولم تكن مولى وحدها هي ماجال بخاطره ، فلقد رأى ويل من خلف جفنيه المطبقين أمه شاحبة اللون كالكاميو (حجر كريم) روحانية الوجه مستسلمة للألم، يداها في صورة بشعة وقد أصابهما التهاب المفــاصل فهبط بهما الى مستوى دون مستوى البشر ، كما رأى أخته مود واقفة خلف كرسى المقعدين الذى كانت تعتليه الأم وقد كساهاالشحم واهتز جسمها كما يهتز الهلام واستولت عليها المشاعر التي لم تعبر عنها قط تعبيرا صحيحا بالحب الذى يبلغ ذروته •

« كيف تستطيع ذلك يا ويل ؟ »

ورددت مود العبــارة قائلة «نعم • كيف تســتطيع ؟ » بصوتها الرنان المرتعش والدمع يساقط من عينيها •

ولم يحر جوابا ، أى جواب في ألفاظ يستطيع أن يتفوه بها في حضورهما ، وان استطاع فان هاتين الشهيدتين ــ الأم التي استشهدت في زواج غير سعيد ، والأخت التي استشهدت في برها بأمها ــ لايمكن أن يفقها قوله • لاجواب اللهم الا ان كان في لفظ اشد مايكون موضــوعية علمية فاحشة ، وفي صراحة مرفوضة • يسألانه «كيف استطاع أن يفعل ذلك» لقــد اســتطاع ، بل لعله أرغم عمليا على ذلك ، لأن لبــابز

خصائص بدنية معينة لم تكن من صـفات مولى ، كما كانت في بعض اللحظات تسلك سلوكا لايمكن ان يتطرق الية ذهن مولى ٠

وسادت فترة طويلة من الصمت ، ثم ــ وعلى غير انتظار ــ عاد الصوت الغريب يرددقوله :

« انتباه ، انتباه »

انتباه الى مولى ، وانتباه الى مود والى امه ، وانتباه الى بابز ، وفجأة برزت من ضباب الغموض والاضطراب ذكرى ثانية ، فلقد آوى الى ركن بابز القرنفلى ضيف آخر ، وارتعش جسمها نشوة من عناقه ٠ فشعر بالاضافة الى الاحساس بالذنب ــ بهم فى قلبه وغصة فى حلقه ٠

« انتباه »

اقترب الصوت ، ونادى من مكان ما جهة اليمين ٠ وادار ويل رأسة ، وحاول ان ينهض حتى يشهد المنظر بصورة اوضح ٠ غير ان الذراع التى كان يستند اليها بدأت ترتعش، ثم هوت وسقط بين أوراق الشجر ٠ ولما كان مجهدا الى حد لايستطيع معه استرجاع الماضى فقد استلقى مكانه لفترة طويلة محدقا الى أعلى من خلال جفنين نصف مغمضين نحو عالم من حوله لم يدرك له كنها ٠ أين هو ؟ وكيف وصل الى هذا المكان ؟ ولم يكن ذلك مهما فى حد ذاته ، اذ لم يكن يهمه فى تلك اللحظة سوى مايحس من ألم ومن ضعف قاتل ٠ ومع ذلك فقد دفعه اهتمامه العلمى الى ٠٠٠

هذه الشجرة ــ مثلا ــ التى الفى نفسه (لسبب ليس يعرفه) ملقى تحتها ، وهذا الجذع المرتفع بقشرته الرمادية ،

وبأعلاه عقدان متقاطعان من الاغصان المرقشة بضوء الشمس ــ هذه الشجرة على هذه الصورة لابد أن تكون من أشــجار الزان • ولكنها ان كانت كذلك فان أوراقها لايصح أن تكون دائمة الخضرة كما بدت ــ وهنا أعجب ويل بنفسه لوضوح منطقه • ولماذا ترفع شجرة الزان جــذورها كالأكواع فوق سطح الأرض على هــذا النحو ؟ وهــذه الدعامات الخشــبية العجيبة التى تستند اليها الشجرة الشــبيهة بشــجرة الزان ما مكانها من الصورة ؟

وما أعجب هذه الفراشات التى تنقض هناك فى ضــوء الشمس الشديد • لماذا هى فى هذا الحجم الكبير ، لازوردية بشكل غير مألوف أو سوداء كالمخمل ، واسعة العينين بها كلف غير معهود ؟ والارجوان يطل من الكستناء ، والفضة منثورة فوق الزمرد ، وفوق التــوباز (حجر كريم) ، وفوق الياقوت الأزرق !

« انتباه »

وصــاح ويل فارنبى بصوت ظنــه عاليا مزعجا ، «من هناك ؟ » فى حين أن كل ماخرج من فيه لم يكن سوى صوت منخفض رفيع مرتعش •

ثم ساد سكون طويل ومخيف للغاية فيما بدا • وبرزت من الفجوة التى تقع بين دعامتين خشبيتين من دعامات الشــجرة حشرة لها أربع وأربعون رجلا ، ضخمة سوداء اللون ، وظهرت للعيان لحظة ، ثم أسرعت مبتعدة وهى تجرى بأرجلها العديدة القرمزية واختفت فى فجوة أخرى •

وبصوته الخفيض صاح مرة أخرى «من هناك ؟»

وسمع خشخشة في الاشجار التي كانت على يساره ، وفجأة ظهر طائر اسود ضخم في حجم الغراب ــ وليست بي حاجة الى القول بأنه لم يكن غرابا ــ وكأنه وقواق قد أطل من ساعة حائط • وصفق بجناحين أطرافهما بيضاء ، ثم اندفع في الفضاء الذي يفصله عن ويل ، واستقر فوق أدنى أغصان شجرة صغيرة ذابلة تبعد أقل من عشرين قدما عن المكان الذي كان يرقد فيه • ولاحظ ويل أن منقار الطائر برتقالي اللون، وتحت كل عين بقعة صفراء جرداء ، وان له الغادا صفراء فاتحة تغطي رأسه ومؤخرته ، مع لمة كثيفة من اللحم العاري• وهز الطائر رأسه في خيلاء وحدق فيه بعينه اليمنى أولا ثم بعينه اليسرى بعد ذلك ، وبعدئذ فتح منقاره البرتقالي ، وصفر عشر مرات أو اثنتي عشرة مرة بنغم منخفض على المستوى الخماسي من السلم الموسيقي ، وصدر عنه صوت شبيه بالفواق ، وفي كلمات غنائية بنغمة (دو دو سول دو) صاح قائلا «الآن وفي هذا المكان ياقوم ، الآن وفي هذا المكان ياقوم» •

وكأن هذه الكلمات قد ضغطت على زناد ، وفجأة تذكر كل شيء • هنا بالا الأرض المحرمة ، المكان الذي لم يزره صحافي قبل اليوم • ولابد أن يكون هذا الوقت هو الصباح الذي تلا ذلك المساء الذي فقد فيه رشده فأبحر وحده خارج ميناء راندانج لوبو • تذكر كل شيء : الشراع الأبيض الذي انتفخ بالريح فاتخذ شكل ورقة المنغوليا ، والماء يتدفق عند مقدم السفينة ، وبريق الماس على قمم الامواج ، والقنوات التي تشبه اليشم المجعد ، وعبر المضيق شرقا تلك السحب ، وعجائب ذلك اللون الأبيض المنحوت الذي يعلو براكين بالا-

وفى جلسته عنـد ذراع الدفة تنبـه الى نفسه فاذا به يغنى ويشعر بسعادة لاتشوبها شائبة وبدرجة لايتصورها العقل.

وحملت الرياح فوق موج البحر الصاخب نشيده الذى تغنى فيه بوحدته الموحشة .

وليست بنا حاجة الى القول بأن ماحذر منه كل الملاحين الحذرين المجربين قد حدث ـ العاصفة الهوجاء تهب من أين لايدرى ، والريح العاتية والمطر والموج تثور فجأة مسعورة مجنونة ....

وتغنى الطائر «الآن وفى هذا المكان ياقوم ، الآن وفى هذا المكان ياقوم» .

وخطر له أنه من العجيب حقا أن يكون هنا تحت الاشجار ولايكون هناك فى قاع مضيق بالا ، بل ـ وهو أسوأ من ذلك ـ ألا يكون حطاما عند سفح الجبل . لانه حتى بعد أن استطاع بمحض المعجزة أن يقود سفينته الغارقة خلال الموج ويرسيها على الشاطىء الرملى الوحيد بين تلك الاميال من سواحل بالا الصخرية ـ حتى مع ذلك لم تكن النهاية . فلقة كانت التلال شامخة ـ ولكن فى أعلى مكانه المنخفض كان هناك واد ضيق يجرى فيه تيار من الماء تقطعه مساقط شفافة متتابعة ، وكانت هناك أعشاب وأشجار تنمو بين جـدران من الجير الرمادى ـ ستمائة أو سبعمائة قدم من الصـخر عليه أن يتسلقها ـ فى حذاء خفيف كحذاء لعبـة التنس . وكل مواقع الاقدام زلقة تغمرها المياه . وفوق ذلك تلك الأفاعى ، واحـداها سوداء تلتف فوق الغصن الذى كان يتشبث به . وبعد خمس دقائق تكورت الأفعى الخضراء الضخمة هناك فوق صخرة ناتئة فى

المكان الذى كان يتأهب ليخطو عليه • فزع يتلوه فزع أشد • وقد انخلع قلبه لمرأى الأفعى وسحب قدمه بشدة • وأفقدته توازنه هذه الحركة المفاجئة التى لم يحسب لها حسابا • ومرت به برهة طويلة من الغثيان وهو موقن فى جزع شديد أن هذه هى نهايته • وترنح عند الحافة ثم هـوى • الموت ، الموت ، الموت ! وبعدئذ الفى نفسه ــ وفى أذنيه صوت الخشب يتطاير شظايا ــ معلقا فى أغصان شجرة صغيرة ، وجهه مخدوش ، وركبته اليمنى مجروحة تسيل منها الدماء ، ولكنه مابرح على قيد الحياة • فتابع تسلقه فى عناء شـديد ، وقد آلمته ركبته وأوجعته ،ولكنه واصل التسلق• ولم يكن له عن ذلك بديل• ثم أخـذ النور يتلاشى ، وفى النهـاية كان يتسلق فى شـبه الظلام ، يدفعه الايمان واليأس القاتل •

وصاح الطائر «الآن وفى هذا المكان ياقوم» •

غير أن ويلفارنبى لم يكن فىهذه الآونة ولا هذا المكان• بل كان هناك فوق الصخور وفى لحظـة السـقوط المفزعة • وخشخشت الأوراق الجافة تحت قدميه وأخذته الرعشة ، فكان يرتجف فى عنف شديد وعلى غـير ارادته من قمة رأسـه الى أسفل قدميه •

- ٢ -

وفجأة لم يعد الطائر واضح العبارة وبدأ يصيح . وطرق أذنيه صوت بشرى حاد يقول «المينة» (طائر آسيوى) . وأضاف بعد ذلك شيئا فى لغة لم يفهمها ويل . ثم استمع الى صوت خطى فوق أوراق الشجر الجافة ، أعقبتها صيحة ذعر . وساد الصمت بعد ذلك . وفتح ويل عينيه فرأى طفلين رائعين يتفرسانه وعيونهما تحملق فى دهشة وفزع مريع . أصغرهما صبى نحيل الجسم ربما كان فى الخامسة أو السادسة من عمره لايستره سوى ازار أخضر اللون . والى جواره تقف فتاة صغيرة تكبره بأربع أو خمس سنوات تحمل فوق رأسها سلة من الفاكهة . وكانت ترتدى ثوبا قرمزى اللون يكسوها من خصرها حتى عقبيها . أما ما فوق الخصر فقد كان عاريا ، بشرتها تتلألأ فى ضوء الشمس فتتخذ لون النحاس الباهت المطلى بلون وردى . ووجه ويل نظرته من طفل الى آخر . ما أجملهما ، وما أكملهما ، وما أشد ما هما عليه من أناقة ، وما أشبههما بالسلالة الأصيلة . أما الصبى فهو مخلوق رائع الحسن قوى متكور وجهه كالملاك . والفتاة مخلوقة أخرى رائعة الجمال ، دقيقة الملامح ، وجهها صغير الحجم مستطيل جاد النظرات تحوطه ضفيرتان من الشعر الاسود .

ثم كانت صيحة أخرى مباغتة . والطائر فى مجثمه فوق الشجرة الذابلة يتلفت فى عصبية يمنة ويسرة ، وبعد صيحة أخيرة من الذعر انطلق فى الفضاء . ومدت الفتاة

يدها لمصافحة ويل دون أن ترخي نظرتها الى وجهه • أما الطائر فرفرف جناحيه ، ثم استقر ، واهتز هزة كبرى ، اتزن بعدها ،وبعدئذ طوى جناحيهوشرع فورا فى فواق متواصل• وشخص اليه ويل بغير دهشة ، فأى شيء كان حينذاك ممكن الوقوع ــ حتى الطيور الناطقة التى تجثم فوق اصبع طفل صغير • وحاول ويل أن يبسم لهما ، غير أن شفتيه كانتا لاتزالان ترتعشان • وقد قصد بابتسامته أن يتودد اليهما ولكنها بدت كأنها حركة فى الوجه تدعو الى الخوف • واختفى الصبى خلف أخته •

وكف الطائر عن الفواق وبدأ يكرر لفظة لم يفهم ويل لها معنى • هل كانت هذه اللفظة «رونا» ؟ كلا ، كانت «كارونا» بالتأكيد •

ورفع يدا مرتجفة وأشار الى الفاكهة فى السلة لمستديرة : المنجة والموز ••• وسال اللعاب من فمه الجاف •

وقال «أنا جائع» • ثم أحس أن الطفل فى مثل هذه الظروف الغريبة قد يكون أكثر تفهما له اذا هو اصطنع اللهجة التى يتحدث بها رجل صينى يلعب دورا فى ملهاة موسيقية ، فغير من عبارته وجعلها كحديث الاجنبى عن اللغة •

وفى لغة انجليزية سليمة قال الطفل «هل تريد أن تأكل ؟ »

فرد عليه بقوله «نعم ، آكل ، آكل»

فهزت الطفلة رأسها وقالت للمينة «ابتعدى» • وصدر عن الطائر صوت احتجاج وعاد الى مجثمه فوق الشجرة الذابلة

ورفعت الطفلة ذراعيها الصغيرتين النحيلتين بحركة كحركة الراقصة ورفعت السلة من فوق رأسها ووضعتها فوق الأرض، وانتقت اصبع موز وقشرته ، وبمزيج من الاحساس بالخوف والشفقة تقدمت نحو الرجل الغريب ، وبلغة غير مفهومة صاخ الطفل منذرا وتشبث برداء أخته • ونطقت الطفلة كلمة تدل على الاطمئنان ثم وقفت على مبعدة من المخاطن ورفعت اصبع الموز وسالت الرجل :

« هل تريده ؟ »

ومد ويل فارنبى يده وهى ماتزال ترتعش • وبحذر شديد تقدمت الفتاة ثم وقفت ، ثم قبعت ، وتطلعت اليه فى امعان شديد •

وقال وقد نفد صبره «اسرعى» •

ولكن الفتاة الصغيرة لم تتعجل ، وظلت تحدق فى يده تحاول أن تتبين ان كانت بها أدنى اشارة الى حركة مريبة ، ثم انحنت الى الامام ، ومدت ذراعها فى حذر شديد •

وتوسل اليها قائلا « لله » •

وباهتمام مباغت كررت الفتاة قولها « الله ؟ »

وسألته «أى اله ، فهناك آلهة كثيرة» •

وأجابها وقد نفد صبره «من تشاءين منهم» •

وأجابته «اننى فى الواقع لا أحب أيا منهم ، انما أنا أحب الواحد الرحيم» •

وتوسل اليها قائلا «اذن فكونى رحيمة بى واعطنى هذا الاصبع من الموز» •

وتغير تعبيرها ، وقالت معتذرة « آسفة » ٠

ونهضت منتصبة القامة وخطت الى الامام خطوة سريعة وأسقطت الفاكهة في يده المرتعشة ٠

وقالت «هاكها» ثم قفزت الى الخلف بعيدا عن متناوله كالحيوان الصغير الذى يتفادى المصيدة ٠

وصفق الصبى الصغير بيديه وضحك ضحكة عالية ٠ فالتفتت وقالت له شيئا ما ، وأومأ برأسه المستدير قائلا «ليكن ذلك ياسيدتى» وهرول بعيدا متسللا وقد شق طريقه خلال جسر من الفراشات الزرقاء والكبريتية ، وتوغل بين ظلال الغابة في الجانب البعيد من الوادى ٠

وفسرت موقفها للرجل قائلة «قلت لتوم كريشنا اذهب وعد ومعك شخص ما» ٠

وأكل ويل اصبع الموز وطلب اصبعا ثانية وثالثة ٠ ولما تخفف من ألم الجوع أحس الحاجة الى اشباع رغبته في الاستطلاع ٠

وتساءل «كيف تتحدثين الانجليزية بهذه الفصاحة ؟»

قالت «لأن كل انسان يتحدث الانجليزية» ٠

« كل انسان ؟ »

قالت «أقصد عندما لايتحدثون لغة أهل بالا» ٠

ولما كان الموضوع لايشوقها أدارت وجهها ولوحت بيد صغيرة سمراء ، وأخذت تصفر ٠

ومرة أخرى أخذ الطائر يردد «الآن وفي هذا المكان

ياقوم» ، ثم هبط من مجثمه فوق الشجرة الذابلة واستقر فوق كتف الفتاة التى أخذت تقشر موزة أخرى أعطت ويل ثلثيها وقدمت ماتبقى للمينة ٠

وسألها ويل «هل هذا طائرك ؟»

وهزت رأسها

وقالت « المينات كالضوء الكهربائى لاتخص أحدا دون الآخر » ٠

« ولماذا يتفوه بهذا الكلام »

وأجابته صابرة «انه تعلمها» وكأنها بنغمة حديثها تقول له : ياحمار !

« ولماذا علموه هذا الكلام ؟ «انتباه» و «الآن وفى هذا المكان ؟ »

وأخذت تفكر فى اللفظ الصحيح الذى تعبر به لهذا الأبله العجيب عن الأمر الواضح فقالت «لأن ذلك ماينساه المرء ، أليس كذلك ؟ أقصد أنك تنسى أن تتنبه الى ماهو حادث ، وهو مايعنى أنك لست هنا ولا فى هذا الزمان ٠

« والمينات تطير هنا وهناك لتذكركم ــ أليس كذلك ؟»

فأومأت برأسها بالايجاب ، لأن تلك بطبيعة الأمر هى الحال ٠ ثم ساد الصمت ٠

وسألته «ما اسمك ؟»

وعرفها ويل بنفسه

« واسمى مارى ساروجينى ماك فيل »

« ماك فيل ؟ » غير معقول ٠

وأكدت له أن اسمها ماك فيل ٠

« وأخوك الصغير اسمه توم كريشنا ؟ »

وأومأت بالموافقة ٠

« ياللعجب ! »

« وهل أتيت الى بالا بالطائرة ؟ »

« جئت من البحر »

« من البحر ؟ وهل لديك سفينة ؟ »

« كانت لى سفينة » وتمثلت فى ذهن ويل الأمواج وهى تتكسر فوق حطام السفينة التى جنحت الى الشاطىء ، واستمع فى أذنه الباطنية الى صوت اصطدامها ـ وأخذت توجه اليه الأسئلة فيروى لها ماحدث : العاصفة ، والتجاء السفينة الى الساحل ، ومخاطر التسلق المزعجة ، والأفاعى ، وفزعه من السقوط ٠٠٠ ثم أخذ يرتعش مرة أخرى بدرجة أشد من أى وقت مضى ٠

وأصغت اليه مارى ساروجينى باهتمام وبغير تعليق ٠

ولما خفت صوته ثم سكت بعد ذلك تقدمت نحوه والطائر مايزال جاثما فوق كتفها ، وركعت الى جواره ٠

وقالت وهى تضع يدها فوق جبهته «اسمع يا ويل ، علينا أن نتخلص من هذا الفزع » وكانت تتكلم بنغمة الخبير وهدوء الواثق من أمره ٠

واصطكت أسنانه وقال «خبرينى كيف يكون ذلك» ٠

فقالت «كيف ؟ بالطريقة المألوفة طبعا · اذكر لى ثانية قصة الأفاعى وكيف سقطت » ·

وهز رأسه قائلا «لا أحب ذلك » ·

قالت «بالتـأكيد أنت لاتحب ، ولكن عليك أن تفعل · اصغ الى ماتقوله المينة» ·

وكان الطائر مافتىء ينصح بقوله «الآن وفى هذا المكان أيها القوم» ·

واستطردت قائلة «انك لاتستطيع أن تكون هنا وفى هذه الآونـة الا أن تخلصت مـن هـــذه الأفــاعى · قص عــلى قصتها » ·

وكادت عيناه أن تدمعا وهو يقول «لا أريد ، لا أريد» ·

فأضافت مارى ساروجينى قولها جادة «اذن لن تتخلص منها أبدا · وستظل تزحف داخل رأسك دائما · وأنت تستحق هذا الجزاء » ·

وحاول أن يتحكم فى رعشته ، ولكن جسمه لم يعد ملكا له · وكأن شخصا آخر كان صاحب الأمر ، وقد عقد العزم على اذلاله بنية سيئة بغية ايقاع الأذى به ·

وقالت مارى ساروجينى «تذكر ماحدث لك وأنت طفل صغير · ماذا صنعت أمك عندما ألحقت بنفسك أذى ؟»

وكانت أمه عنــد ذاك قد احتضــنته وقالت له «ولدى العزيز ، طفلى العزيز» ·

وفى نغمة تنم عن الدهشة والذهــول قالت مارى «هل

فعلت ذلك ؟ ياللفظاعة ! انها بذلك تضاعف الايذاء» وكررت القول فى شىء من السخرية ، ولدى العزيز ، «لست أحسب الا أن الايذاء قد لازمك ساعات متواصلات ، وانك لن تنساه » .

ولم يعلق على ذلك ويل فارنبى بشىء ، بل استلقى مكانه فى صمت ، وهو يرتعد فى رجفة لايستطيع كبتها .

« اذا أنت لم تفعل ، فلابد لى من أن أفعل ذلك أنا بنفسى . اسمع ياويل : كانت هناك أفعى كبيرة لونها أخضر، وكدت أن تدوسها . كدت ان تدوسها فأصابتك بذعر أفقدك توازنك فسقطت . والآن قل هذا الكلام بنفسك ــ هيا» .

وفى صوت خافت طائع قال «كدت أن أدوسها ، ثم . . .» ولم يستطع أن يكمل العبارة . وأخيرا استطاع أن يخرج من بين شفتيه قوله «ثم سقطت» بصوت يكاد لايسمع .

وعندئذ استرجع حالة الفزع ــ غثيان الخوف ، وهزة الذعر التى أفقدته توازنه ، ثم ازدياد المخاوف ، والثقة المروعة بأن تلك هى نهايته .

« قلها مرة أخرى » .

« كدت أن أدوسها ، ثم . . . »

واستمع الى نفسه وهو ينشج .

« حسن ياويل ، اصرخ ! اصرخ ! »

وتحول النشيج الى أنين . ولما شعر بالخجل ضغط على أسنانه وكف عن الأنين .

وصاحت به «لاتفعل ذلك . أخرج أنتك ان كانت تريد

أن تنطلق · واذكر تلك الحية ياويل ، وتذكر كيف سقطت » ·

وخرج الأنين من فيه مرة أخرى وبدأ يرتعش بصورة لم يعهدها من قبل ·

« والآن أذكر لى ماحدث » ·

« اننى أستطيع أن أرى عينيها ، وأستطيع أن أرى لسانها وهى تخرجه وتدخله » ·

« نعم انك تستطيع أن ترى لسانها · وماذا حدث بعد ذلك ؟

« فقدت توازنى وسقطت » ·

« قل ذلك مرة أخرى ياويل » وكان يتنهد باكيا ·

وأصرت على أمرها «قل ذلك مرة أخرى» ·

« سقطت » ·

« مرة ثانية » ·

فقال «سقطت» وهو يكاد يتمزق اربا اربا ·

« مرة ثانية ياويل ، مرة ثانية » وقالت ذلك فى عناد شديد ·

« لقد سقطت ، سقطت ، سقطت ···· »

وكف عن النحيب شيئا فشيئا ، وخرج اللفظ من فيه فى يسر ، وخفت آلام الذكرى التى أثارتها الكلمات ·

وكرر قوله «لقد سقطت» للمرة المائة ·

وهنا قالت له مارى ساروجينى «ولكنك لم تسقط سقطة كبرى » ·

« نعم ، لم أسقط سقطة كبرى » ·

وقالت الفتاة «ففيم اذن هذه الضجة» ·

ولم يكن فى نغمتها حقد أو سخرية ، ولا أقل اشارة الى ملامة · انما كانت توجه اليه سؤالا سهلا صريحا يتطلب ردا سهلا صريحا · أجل ، فيم كانت كل هذه الضجة ؟ ان الحية لم تلدغه ، وعنقه لم يندق · ومهما يكن من أمر فكل ماحدث قد وقع بالامس · أما اليوم فهناك هذه الفراشات ، وهذا الطائر الذى يدعو الى الانتباه ، وهذه الفتاة التى تحدثت اليه مؤنبة ناقدة ، وبدت كالملاك مما جاء ذكره فى الأساطير العجيبة وعلى بعد خمس درجات من خط الاستواء ، واسمها ـ صدقت أم لم تصدق ـ ماك فيل ·

وضحك فارنبى بصوت عال ·

وصفقت الفتاة بيديها وضحكت هى الأخرى · وبعد لحظة شارك الطائر القابع فوق كتفها فى الضحك وكأنه شيطان ملأ الوادى بجلجلة صوته الذى رددت صداه الأشجار وكأن العالم بأسره قد انشطر نصفين من هذهالمهزلة الكبرى ـ مهزلة الوجود ·

- ٣ -

وفجأة سمع ويل فارنبى صوتا عميقا يعلق على ماحدث ويقول «يسرنى أن كل ما وقع انما يدعو الى الضحك» .

وتلفت ويل خلفه ورأى رجلا صغير الحجم نحيلا فى زى أوربى ويحمل حقيبة سوداء . وابتسم الرجل لويل . وقدر ويل أن الرجل فى أواخر خمسينياته . وكانت فوق رأسه قبعة من القش تخفى تحتها شعرا أبيض غزيرا ، وأنفه عجيب الشكل يشبه المنقار ، وعيناه زرقاوان لاتتفقان مع وجهه الأسمر .

ونادته مارى ساروجينى صائحة «جدى !»

وتلفت الرجل الغريب من ويل الى هذه الطفلة .

وسألها «مم تتعجبين ؟»

وبدأت مارى تتكلم ثم سكتت عن الكلام برهة لتجمع أفكارها ، ثم قالت «كان فى سفينة بالأمس وهبت العاصفة فتحطمت السفينة ولجأ الى الشاطىء هناك . فكان عليه أن يتسلق الجبل . وكان فوق الجبل بضعة أفاع ، ثم سقط ، ولكن لحسن حظه كانت هناك شجرة ولذلك فلم يحدث شىء سوى اصابته بدرجة من الرعب ، الذى سبب له رعشة شديدة ، ولذلك أعطيته بعض الموز ، وحثثته على أن يكرر ماحدث ألف ألف مرة . وبغتة أدرك أن الأمر لم يستحق ما أحسه من

ذعر • أقصد أن كل شيء قد مضى وانتهى مما جعله يضحك ، ومع ضحكه ضحكت ، وبعدئذ ضحكت المينة •

وقال الجد موافقا على مافعلت «حسنا جدا» •

والتفت الى ويل فارنبى وخاطبه بقوله «والآن بعد الاسعاف السيكولوجى دعنى أفحص مايمكننى أداؤه لأخينا هذا الحمار المسكين • وبهذه المناسبة أقول لك أنا الدكتور روبرت ماك فيل • فمن أنت ؟ »

وقبل أن يحير الرجل جوابا قالت مارى ساروجينى «اسمه ويل ، واسمه الآخر فار ••• لست أذكر بقية هذا الاسم الثانى» •

« فارنبى على وجه الدقة • وليام آسكويث فارنبى • وكان والدى ـ كما تتوقعون ـ من الاحرار المتحمسين • حتى وهو مخمور ، بل وبخاصة وهو مخمور» وصدرت عنه ضحكة ساخرة عالية لا تشبه فى شيء تلك الضحكة المرحة التى ملأ بها شدقيه وعبر بها عن ترحيبه بما تنبه اليه من أنه لم يحدث فى الواقع شيء يستحق ما أثار من ضجة •

وسألته مارى ساروجينى باهتمام شديد «وهل أحببت والدك ؟ »

وأجابها ويل «ليس بالقدر الذى ينبغى» •

وأفهم الدكتور ماك فيل الفتاة «أن مايعنيه هو أنه كان يكره أباه» ثم أضاف عرضا «ان كثيرين يكرهون آباءهم» •

ثم جلس القرفصاء وشرع يفك أحزمة حقيبته السوداء

وقال مخاطبا ويل «أظن أنك أحـد رجالنا الامبرياليين السابقين » ٠

وقال فارنبى مؤكدا «ولدت فى بلومزبرى» ٠

فاستنتج الدكتور انه «من الطبقة العليا ، ولكنه ليس فردا من فئة الجيش أو أعيان المقاطعة» ٠

وعاد فارنبى الى الحديث فقال «هذا صحيح ، ولقد كان والدى محـاميا وصحافيا سـياسيا ، وذلك عنـدما لم يكن مشتغلا بتعاطى الخمور ٠ أما أمى ـ فقد لاتصدقون أنها ابنة رئيس الشمامسة ، أى والله رئيس الشمامسة» وضحك مرة أخرى كما ضحك من قبل على حب والده للبراندى ٠

وحدق الدكتور ماك فيل فى الرجل لحظـة ، ثم التفت مرة أخرى الى أحزمة حقيبته ٠

وبنغمة العالم الموضوعى قال «عندما تضحك بهذا الشكل يصبح وجهك قبيحا بدرجة عجيبة» ٠

وأخذ ويل بهذه الملاحظة وحاول أن يخفى اضطرابه بشيء من التظرف ، فقال «انه قبيح دائما» ٠

«بل على العكس انه جميل من وجهة نظر بودلير ، الا عندما يعن لك أن تصدر أصواتا كعواء الضبع ٠ لماذا تحدث هـذه الاصوات ؟ »

وقال ويل «أنا صـحافى ، مـراسل خاص ، يؤجر على تجوله فى أنحاء العالم ليروى مايشـاهد من أسـباب الفزع الشائعة ٠ أى صوت آخر كنت تتوقع منى ؟ كوكو ؟ بلا بلا ؟ ماركس ماركس ؟ » وضحك مرة أخـرى ، ونطق باحـدى

طرائفه التى أتقنها · وقال «أنا رجل من الرافضين لكل شيء » ·

وقال الدكتور ماك فيل «حسنا ، حسنا جدا · والآن دعنا نباشر العمل »وأخرج من حقيبته مقراضا وشرع يمزق الجانب المهلهل الملطخ بالدماء من السروال الذى كان يكسو ركبة ويل الجريحة ·

وحدق فيه ويل وتعجب الى أى حد بقى هذا الرجل اسكتلنديا على أصله والى حد استحال الى بالانيزى (من أهل بالا) · عيناه زرقاوان وأنفه بارز ولاشك · أما بشرته السمراء ، ويداه الدقيقتان ، ورشاقة حركته فهى بالتأكيد من مكان يقع جنوبى تويد (فى اسكتلنده) ويبعد عنها كثيرا ·

وسأله «هل ولدت هنا ؟»

وهز الدكتور رأسه ايجابا «فى شيفابيورام ، فى يوم وفاة الملكة فكتوريا» ·

وبعد قصة أخيرة من المقراض وقع جانب السروال وانكشفت ركبة ويل · وفحصها أولا بدقة الدكتور ماك فيل وقرر أنها «ملطخة» ثم أضاف «ولكن لا أظن أن الجرح خطير» والتفت الى حفيدته وقال لها «أريدك أن تعودى الى المحطة وتطلبى الى فيجايا أن يحضر الى هذا المكان ومعه أحد الرجال الآخرين · وقولى لهم أن يأخذوا نقالة من المستشفى» ·

وأومأت مارى ساروجينى برأسها ونهضت دون أن تنبس ببنت شفة وأسرعت مهرولة فى الوادى ·

وتابع ويل بنظرته هذه الفتاة ذات الجسم الصغير ــ ونظر الى ردائها السفلى الأحمر وهو يتأرجح من جانب الى آخر ، والى جذعها ذى البشرة الملساء وقد تلألأ فى لون ذهبى وردى فى ضوء الشمس .

وقال للدكتور ماك فيل «حفيدتك رائعة حقا» .

وبعد فترة من الصمت قال الدكتور «كان أبوها أكبر أبنائى ، وقد مات منذ أربعة أشهر فى حـــادث وهو يتسلق الجبل» .

وتمتم ويل معزيا ، ثم كانت فترة أخرى من الصمت .

وفتح الدكتور ماك فيل زجاجة الكحول ، ثم مسح يديه

وقال لويل محذرا «سيؤلمك هذا قليلا ، وأقترح أن تصغى الى الطائر» ولوح بيده فى اتجاه الشجرة الذابلة التى عادت اليها المينة بعد رحيل مارى ساروجينى .

« أنصت اليه جيدا ، وركز الانصات ، وسوف أصرف ذهنك عن الألم » .

وأصغى ويل فارنبى ، وعادت المينة الى موضوعها الأول.

وكان المزمار الناطق ينادى «انتباه ، انتباه» .

وسأل ويل «انتباه الى ماذا ؟» آملا أن يظفر بجواب شاف أفضل من الجواب الذى تلقاه من مارى ساروجينى .

قال الدكتور ماك فيل «الى الانتباه» .

« انتباه الى انتباه ؟ »

« طبعا » .

وتغنت المينـــة بلفظة «الانتباه» وكأنهـــا تؤكـــد قولها ساخرة ·

« هل لديكم العديد من هذه الطيور الناطقة » ؟

« لابد أن يكون هناك ألف منهـــا على الأقل يحلق طائرا فوق الجزيرة · تلك كانت فكرة راجا العجوز · كان يظن ذلك في مصلحة الناس · وربما كان الأمر كذلك · وان كان في ذلك شيء من الظلم على المينـــات المسكينة · غير أن الطيـــور لحسن الحظ لاتفهم حديث البشر ، حتى ان كان الحديث من القديس فرنسيس (١) » واستطرد قائلا «تصـــور أن تكون الموعظة لأنواع مختلفة من الطيور الطيبة ! أى ادعاء هذا ! لماذا لم يسكت ويدع الطيور تعظه هو ؟» وأضاف قائلا بنغمة أخرى «يحسن بك الآن أن تصـــغى الى صـــاحبتنا التى فى الشجرة ، فأنا سوف أنظف جراحك» ·

« انتباه »

« هاهى ذى » ·

وجفل الرجل وعض على شفته ·

« انتباه ، انتباه ، انتباه » ·

نعم لقد صدق . فان أنت أمعنت فى الاصغاء ، خف عنك الألم ·

« انتباه . انتباه ···· »

وقال الدكتور ماك فيل وقد أخذ يضمد الجـــرح «اننى لا أتصور كيف حاولت أن تتسلق هذا الجبل » ·

---

(١) فرنسيس الاسيزى قديس ايطالى (١١٨٢ – ١٢٢٦) عرف بمحبته الشديدة للانسان والحيوان – المترجم ·

واستطاع ويل أن يضحك ، وقال «أذكر بداية قصة اريون (١) (الأرض المجهولة) ، فقد جاء فيها (ومن حسن الحظ أن العناية السماوية كانت الى جانبى» •

وطرقت أذنه أصوات صادرة عن الجانب الآخر من الوادى • فأدار ويل رأسه ورأى مارى ساروجينى وهى تخرج من بين الأشجار ، ازارها يتأرجح وهى تخطو ، وسار من خلفها رجل ضخم كالتمثال البرنزى عاريا الى خصره ويحمل فوق كتفه أعمدة من الخيزران وقماشا ملفوفا لنقالة خفيفة ، ويتبع هذا العملاق شاب مراهق نحيل القوام ، أسمر البشرة ، يرتدى سروالا قصيرا أبيض •

وعندما اقترب الرجل الشبيه بالتمثال البرنزى قال الدكتور ماك فيل «هذا فيجايا باتاشاريا ، وهو مساعدى»

«فى المستشفى ؟»

وهز الدكتور ماك فيل رأسه وقال «فى حالات الطوارىء فقط اذ أننى لم أعد أمارس الطب • هذا الرجل وأنا نعمل معا فى محطة للتجارب الزراعية • أما موروجان مالندرا (ولوح بيده مشيرا الى الفتى الأسمر) فهو معنا مؤقتا ، يدرس علم التربة وتربية النبات » •

وانتحى فيجايا جانبا ووضع يده الضخمة على كتف زميله ، ودفعه الى الامام • ونظر ويل الى ذلك الوجه الغض العابس ، وعرف فورا بشىء من الدهشة والذهول أنه ذلك الشاب أنيق الملبس الذى التقى به منذ خمسة أيام فى راندنج لوبو ، والذى ركب معه سيارة الكولونيل ديبا المرسيدس

(١) قصة لصمويل بتلر (١٨٣٥ ــ ١٩٠٢) الكاتب الانجليزى وهى عبارة عن وصف لمدينة خيالية اتخذها وسيلة للسخرية من العقائد والأفكار السائدة ــ المترجم •

البيضاء وطاف بها أرجاء الجـزيرة • وابتسم ، وانفـرجت شفتاه للكلام ولكنه تحكم فى ارادته • وهز الفتى رأسه بشكل غير ملحوظ ولكن بصورة تؤكد لويل ماطاف بخاطره •

ولمح ويل فى عينيه تعبيرا عن توسل المكروب • وتحركت شـفتاه دون أن يحـدث بهما صوتا وكأنه قال «أرجـوك ، أرجوك •••» وأعاد ويل انضباط وجهه •

وقال فى نغمة تنم عن المعرفة عن العارضة الرسمية •

« أهلا بك يامستر مالندرا » •

وتنفس موروجان الصعداء وقال «أهلا» وانحنى قليلا الى الأمام •

وتلفت ويل حواليه ليرى ان كان الآخرون قد لاحظوا ما حدث • أما مارى ساروجينى وفيجايا فقد كانا مشتغلين بالنقـالة ، وأما الدكتـور فكان يعيـد أدواته الى حقيبته السوداء • وتم أداء المهزلة القصيرة بغير مشاهدين • وواضح أن موروجان الصغير كان لديه مايدعو الى رغبته فى اخفاء أنه كان فى راندنج • فلقد كان الكولونيل ديبا أكثر من والد للفتى الذى كان يرعاه • كمـا كان موروجان أكثر من ابن طائع ـ كان يقدس الكولونيل تقديسا • فهل كانت العلاقة مجرد اعجاب طالب برجل قوى قام بتفجير ثورة ناجحة ، صفى فيها المعارضة ونصب نفسه دكتاتورا ؟ أم هـل كانت هناك مشاعر أخـرى تسـاوره ؟ هل كان مـوروجان يؤدى دور أنطونيوس لهذا الهادريان (١) صاحب الشارب الأسود ؟ ربما كان هذا هو شعوره نحو أعضاء العصابة العسكرية من رجال فى منتصف العمر ،وربما كان هادريان يحب الفتيان الوسيمين •

---

(١) امبراطور رومانى) ٧٦ ـ ١٣٨) كان يصطفى انطونيوس وقد تبناه ليخلفه من بعده ـ المترجم •

وتصور ويل أن ذلك ربما كان السبب فى امتناع الكولونيل ديبا عن أن يقدم اليه موروجان تقديما رسميا ، فكل ماذكره عنه عندما سمح للفتى بالدخول فى مكتب الرياسة هو قوله «هذا هو مورو ، صديقى الصغير مورو» ثم نهض ووضع يده على كتف الفتى وسار معه الى الأريكة وجلس الى جـواره • وسأله موروجان «هل تسمح لى بقيادة المرسيدس ؟» وابتسم الدكتاتور ابتسامة الرضى وهز رأسه ذا الشعر الاسود الناعم • وكان فى ذلك دليل آخر على الظن بأن العلاقة العجيبة بينهما هى أكثر من مجرد صداقة • وكان موروجان كالمسعور أمام عجلة القيادة فى سيارة الكولونيل الرياضية • ولايمكن أن يسمح أحد بقيادة السيارة لمثل هذا السائق وهو مطمئن على نفسه الا عاشق مفتون ، فما بالك والراكب ضيفه • وقـد بلغ مؤشر السرعة العشرة بعد المائة مرتين فى السهل الذى يقع بين راندنج لوبو وحقـول البترول • ثم كانت الحـالة أسوأ كثيرا من ذلك على الطـريق الجبلى بين حقـول البترول ومناجم النحاس • وفى الطريق كانت هناك فجوات غائرة • وعلا صوت عجـلات السيارة وهى تدور عنـد النواصى ، وخرجت العجول المائية من غابات الخيزران وكانت على بعد أقدام قليلة أمام السيارة ، وهبطت اللوريات التى تبلغ حمولة كل منها عشرة أطنان وهى تزأر مخطئة فى جانب الطريق • واستجمع ويل شجاعته وسأل الشاب «ألست فى حالة عصبية الى حد ما ؟» ولكن الشاب كان مخلصا كما كان مفتونا فقال «اذا عرف المرء أنه انما ينفذ مشيئة الله ـ وأنا أعرف ذلك ـ يامستر فارنبى فليس ثمت مايدعوه الى أن يكون عصبيا • عنـدئذ تكون العصـبية نوعا من الكفر بالله» • وحـاول موروجان أن يتفادى عجلا فى الطريق فانحرف فى مسيره ،

وفتح العلبة الذهبية للسجائر وقدم الى ويل واحدة من تبغ البلقان ٠

ونادى فيجايا قائلا «مستعدون !»

وأدار ويل رأسه ورأى النقالة ملقاة على الأرض الى جانبه ٠

وقال الدكتور ماك فيل «حسنا ! دعنا نحمله عليها ، ولنكن جد حريصين ٠٠٠»

وبعد دقيقة واحدة كان الموكب يشق طريقه فى طريق ضيق يقع بين الأشجار ٠ وقد ركبت العربة مارى ساروجينى، وجاء جدها فى المؤخرة ، وسار بينهما موروجان وفيجايا على طرفى النقالة ٠

وتطلع فارنبى من سريره المتحرك واخترق بنظره ظلمة الأشجار الخضراء وكأنه فى قاع البحار ، وفوق رأسه وعند السطح استمع الى خشخشة أوراق الشجر ، والى صوت القردة ٠ ثم رأى عددا من طير أبى قردان يتوثب هنا وهناك، وهى أشبه بكائنات من خلق الخيال المضطرب ، وكأن الطير يسبح فى سحب من الاعشاب ٠

وسأله فيجايا وقد انحنى لينظر فى وجهه وهو جزوع ٠

« هل تشعر بارتياح ؟ »

ورد عليه ويل بابتسامة ٠

وقال «أنا مرتاح راحة الترف» ٠

وطمأنه الآخر بقوله «ليس المكان بعيدا وسوف نبلغه بعد بضع دقائق» ٠

«وأين هو المكان ؟»

« محطة التجارب . انها أشبه بروثامستد . هل زرت روثامستد عندما كنت فى انجلترا ؟ »

وقد سمع ويل طبعا بالمكان غير أنه لم يزره قط .

واستطرد فيجايا قائلا «ان العمل يدور به منذ أكثر من مائة عام» .

وقال الدكتور ماك فيل «منذ مائة وثمانية عشر عاما على وجه التحديد . وقد بدأ لوز وجلبرت العمل فى المخصبات فى عام ١٨٤٣ . وجاء أحد تلاميذهما الى هذا المكان فى أوائل الخمسينات لمساعدة جدى فى تشغيل المحطة . وكانت الفكرة ايجاد روثامستد فى المناطق الحارة ــ فيها ومن أجلها» .

وشاع الضوء فى الخضرة الداكنة وبعد دقيقة واحدة خرجت المحفة من الغابة الى الوهج الشديد الذى يتميز به ضوء الشمس فى المناطق الحارة . ورفع ويل رأسه وتلفت حواليه . وقد باتوا على مقربة من أرض مدرج ضخم . وعلى عمق خمسمائة قدم امتد واد فسيح تتخلله الحقول الخضراء ، وتنتشر فوقه مجموعات من الأشجار ومن البيوت المتلاصقة . وفى الناحية الأخرى كانت السفوح تتصاعد آلاف الاقدام متجهة صوب نصف دائرة من الجبال . ومن الوادى الى القمم التى بدت كالحائط تشقه الشرفات امتدت حقول الأرز على مسطح واحد من الأرض فى شكل مصاطب تمتد فوق مصاطب أخرى ذهبية اللون أو خضراء ، مما أظهر فى وضوح كل ارتفاع أو انخفاض فى المنحدر وكأن الصورة قد صممت عن قصد وبذوق سليم . ان الطبيعة هنا لم تعد مجرد طبيعة،

والمنظر الطبيعى هنا قد صمم ورد الى أصوله الهندسية وقام بأدائه مصور وهب معجزة البراعة الفنية فرسم هذه الخطوط المتعرجة وهذه الأشرطة من الألوان البراقة الصافية ٠

وبعد صمت طويل شق سكونه الدكتور روبرت بسؤاله «ماذا كنت تصنع فى راندنج ؟»

« اجمع مادة لمقال عن نظام الحكم الجديد » ٠

« أظن أن الكولونيل جدير بالاخبار عنه » ٠

وضحك ويل وهو يقول «أنت مخطىء ٠ فهو ليس الا دكتاتورا «عسكريا» ٠ ومعنى ذلك أن الموت يلوح فى الأفق ٠ والموت دائما خبر من الأخبار ٠ حتى رائحة الموت التى تفوح من بعيد خبر من الاخبـــار ٠ ولذلك طلب الى أن أمـــر بهذه الجزيرة وأنا فى طريق عودتى من الصين» ٠

وكانت هناك أسباب أخرى آثر ألا يتعرض لذكرها ، فالصحف ليست الا هما واحدا من همـــوم اللورد الديهايد ٠ وانما هو من ناحية أخرى يمثل شركة بترول جنـــوب شرقى آسيا ، كما يمثل شركة النحاس الأجنبية الامبريالية المحدودة ٠ ومن الناحية الرسمية جاء ويل الى راندنج ليشتم رائحة الموت فى جوه العسكرى ، غير أنه كلف كذلك بالتعرف على آراء الدكتاتور بالنسبة لرأس المال الأجنبى ، ومـــدى اســـتعداده لتخفيض الضرائب ، وأية ضمانات يقدمها لعـــدم التـــأميم ، ومقدار الأرباح التى يسمح بتصديرها ؟ وكم من التقنيين والاداريين الوطنيين يجب استخدامهم ؟ ومجموعة أخرى من التساؤلات العديدة ٠ ولكن الكولونيل ديبـــا كان فى الواقع دمثا للغاية ومتعاونا ، ومن ثم كانت تلك الرحلة بالســـيارة

التى قادها موروجان بسرعة رهيبــة الى منــاجم النحاس .
«لاتزال بدائية ياعزيزى فارنبى ، وبحاجة ماسة كما تلمس بنفسك الى المعدات الحديثة» . وتذكر الآن ويل أنه كان قد اتفق على لقاء آخر فى نفس هذا الصباح. وتصور الكولونيل جالسا الى مكتبه وأمامه بلاغ من رئيس الشرطة بأن «المستر فارنبى قد شوهد أخيرا وهو يبحر فى قارب صغير وحيدا فى مضيق بالا . وبعد ساعتين هبت عاصفة شديدة .. والمفروض أنه قد لاقى حتفه» . ولقد كان الأمر غير ذلك ، فها هو حى يرزق فوق الجزيرة المحرمة .

وكان جوالدهايد قد ذكر له فى آخر مقابلة لهما «أنهم لن يسمحوا لك بتأشيرة دخــول ، ولكنك ربما تســتطيع أن تتسلل الى الشاطىء متنكرا ، فألبس بورنسا أو مايشبهه كما فعل لورنس العرب» .

ووعده ويل جادا «سوف أحاول» .

« على أية حال اذا أنت استطعت أن تطأ بقــدمك أرض بالا فتوجه رأسا الى القصر . فرانى ــ وهى الملكة الأم هناك ــ صديقة لى من زمن بعيد . وقد قابلتها للمرة الأولى منذ ست سنوات فى لوجانو . وكانت تقيم هنــاك مع فوجيلى العجوز وهو صاحب بنك الاستثمار ، وصديقته مهتمة بالروحانيات وقد أعدت لى جلسة روحانية . الوســيط بوق ، والصـــوت مباشر حقيقى ــ الا أن الكلام لســوء الحظ كان بالألمانية . وعلى كل حال ــ بعد ما أعادوا الاضاءة ــ تبادلت معها حديثا طويلا » .

« مع البوق ؟ »

« لا ، لا ، مع رانى ، فهى امـرأة رائعة ، تتزعم حملة صليبية «للاشادة بدور الروح» ٠

« وهل هذه الحركة من اختراعها ؟ »

« قطعا ، وأنا شخصيا أوثرها على حركة «اعادة التسلح الخلقى» ، وهى مفضلة فى آسيا ٠ ولقد تحـدثنا عنها ذلك المساء ، ثم تحدثنا بعد ذلك عن البترول ، وبالا مليئة به ٠ ولقد حاولت شركة بترول جنوب شرقى آسيا لعدة سنوات أن تستولى عليه ٠ وكذلك فعلت جميع الشركات الأخرى ، ولكن دون جدوى ٠ فلم تعط فى هذا السبيل امتيازات لأى فرد ٠ وهذه هى سياستهم الثابتة ، ولكن رانى لاتوافق عليها ، فهى تحب أن ترى للبترول أثرا طيبا فى العـالم ، كأن يمـول الحملة الصيبية للروح مثلا ٠ ولذلك فكما قلت لك اذا ذهبت الى بالا فتوجه رأسا الى القصر ، وتحـدث معها ، لتصـل الى حقيقة أمر الرجال الذين بيدهم اصدار القرارات ٠ واكشف لنا ان كانت هناك قلة تحبذ الافادة من البترول ، واسأل كيف نستطيع أن نعاونهم على الاستمرار فى جهودهم الطيبة» ٠ وفى نهاية حديثه وعد ويل بمكافأة مجـزية اذا توجت جهـوده بالنجاح ، مكافأة تكفيه أن يتفرغ عاما كاملا «لا أريد منك بعد اليوم تقارير ٠ لست أريد الا فنا رفيعـا ، أريد فنا» وضحك ضحكة عالية داعرة كأنه لم يقل « فنا » وانما قال كلمة بذيئة ٠ ياله من مخلوق غير معقول ! ولكنه على الرغم من ذلك كان يكتب لصحف تافهة يملكها مخلوق غير معقول ، وكان على استعداد أن يرتشى لكى يؤدى عمـلا قذرا لرجل وضيع ٠ والآن لايستطيع أن يصدق أنه فوق أرض بالا ٠ ان العناية السماوية لسن حظه كانت حليفته لكى يرتكب

ـ لغرض هام بالتأكيد ـ مهـزلة عملية خبيثة ممـا تكرس السماء لها ارادتها ·

وردته الى الواقع الراهن مارى ساروجينى بصوتها الحاد اذ قالت له «هانحن قد وصلنا» ·

ورفع ويل رأسه مرة أخرى ، وأدرك أن الموكب الصغير قد انحرف عن الطريق وسار من خلال ثغرة فى جدار أبيض يكسوه الجص · وعلى يساره ، وفوق مصاطب مرتفعة متتالية رأى صفا من المبانى المنخفضة تحـوطها الاشـجار · وأمامه مباشرة طريق واسع على جانبيه أشجار النخيل ينحـدر نحو بركة لوتس يقبع على أبعد أطرافها تمثال حجرى ضخم لبوذا· ولما اتجهوا يسرة أخذوا يتسلقون الى أعلى مصطبة بين الأشجار المزهرة وخلال العطور المختلطة · وخلف أحد الجدران وقف عجل ذو سنام ناصع البياض لايتحرك منه سوى فكيـه وهما يجتران الطعام ، متأله بجماله الهادىء غير المهموم · وعندئذ تراجع عاشق اوربا» (١) الى الماضى وشهد ويل زوجا من طيور يونو تجـرر ريشـها فوق العشب ، وفتحت مارى ساروجينى مزلاج باب حديقة صغيرة ·

وقال الدكتور ماك فيل وقد التفت الى موروجان « هذا بيتى ذو الطابق الواحد · اسمح لى أن أعاونك على صـعود السلم » ·

---

(١) فى الاساطير اليونانية أميرة فينيقية عشقها زيوس فاتخذ شكل عجل أبيض اللون وأغراها على ركوبه ليسبح بها وهى فوق ظهره الى جزيرة كريت ـ وهناك حملت منه وأنجبت له ثلاثة أطفال ـ المترجم ·

- ٤ -

توجه توم كريشنا ومارى ساروجينى الى جيرانهما من أطفال البستانى ليسترخيا بعد الظهر · أما سوزيلا ماك فيل فقد جلست وحيدة في غرفة المعيشة المظلمة فى بيتها تسترجع ذكريات سعادتها التى ولت وآلام ثكلها الحاضر · ودقت ساعة المطبخ منتصف الساعة ، وآن لها أن تخرج ، وتنهدت ثم نهضت وانتعلت صندلها وسارت فى الوهج الشديد الذى يسود المناطق الحارة بعد الظهر ، وتطلعت الى السماء ورأت سحبا كثيفة فى أعلى البراكين تصعد نحو سمت رأسها · وعرفت أن المطر سوف يسقط بعد ساعة ، وتنقلت من بقعة ظليلة الى أخرى وشقت طريقها على الطريق الذى تقع على جانبية الاشجار · وانطلق من فوق احدى الاشجار الباسقة سرب من الحمام محدثا بريشه قعقعة مسموعة · وطار الحمام صوب الغابة بأجنحته الخضراء ومناقيره المرجانية وصدوره التى يتغير لونها فى الضياء كعرق اللؤلؤ · ما أجمل الحمام وما أشد روعته ! وأوشكت سوزيلا أن تعود لترى لمحة السرور البادية على وجه ديوجولد ، ولكنها تحكمت فى ارادتها وصوبت نظرها نحو الأرض · فلقد ولى ديوجولد الى الأبد ، ولم يبق لها سوى الألم الذى يشبه التألم الذى يلح على خيال المرء ، بل واحساسه ، من عضو من أعضاء الجسم قد تم بتره ولم يعد الا وهما من الأوهام ، وأخذت تحدث نفسها وتقول «البتر ، البتر · · · » وامتلأت عيناها بالدموع ، ثم كفت فجأة عن

البكاء ، فالبتر ليس عـذرا للأسى ، وعلى الرغم من موت ديوجولد فان الطيور ما برحت على جمالها ، وأطفالها وكل الأطفال الآخرين بحاجة قصوى الى المحبة والعون والتعلم • واذا كان غيابه حـاضرا على الدوام فى ذهنهـا ، فانما ذلك لتذكر أنها منذ لحظة الوفاة يجب أن تحب ولديها وأن تعيش من أجلهما ، وتفـكر فيهما ، كمـا ينبغى لهـا أن تتصـور الامور وتتفهمها لا بعينيها وعقلها فحسب بل بما كان له كذلك من عقل وعينين ، هما كذلك عقلها وعيناها ــ قبل الكارثة ــ فلقد كانا يتحدان فى السرور وفى التفكير •

وبلغت بيت الدكتور ، وصعدت السلم ، وعبرت الشرفة وولجت غـرفة المعيشة ، وألفت حماها جالسا قرب النـافذة يحتسى الشـاى البارد من كأس من الفخـار ويقـرأ (مجلة الفطريات) ورفع بصره حينما اقتربت ، واستقبلها بابتسامة الترحيب •

« كم أنا سـعيد ياعـزيزتى سـوزيلا لانك استطعت الحضور » •

وانحنت وقبلت خده الخشن

وسألته «ماهذا الذى بلغنى من مارى ساروجينى • هل صحيح أنها وجدت رجلا ملقى على الشاطىء ؟ »

« من انجلترا ــ ولكن عن طريق الصين وراندنج • وقد تحطمت سفينته • وهو صحافى » •

« ماشكله ؟ »

« شكله كالمسيح المنتظر ، ولكنه أكثر فطنة من أن يعتقد

فيه أو في رسالته . وهو أرهف حسا ــ حتى ان آمن بها ــ من أن ينفذها . عضلاته تريد الحركة ومشاعره تريد الايمان ، ولكن أطراف أعصابه ومهاراته لاتسمحان له بذلك» .

« أحسب اذن أنه بائس جدا» .

« بلغ من بؤسه أنه يضحك كالضبع » .

« وهل يدرك أنه يضحك كالضبع ؟ »

« نعم يدرك ، وهو بهذا فخور ، بل ويتغنى به فيقول ، أنا رجل أرفض كل شيء» .

وسألت « وهل أصابه أذى شديد ؟ »

« ليس شـــديدا . بيد أن حـــرارته قد ارتفعت ، وقد أعطيته مضادات للجراثيم . وعليك الآن أن تضاعفى مقاومته بالعلاج الطبيعى» .

« سأبذل جهدى » وبعـــد فترة من السكون قالت «لقـــد ذهبت وأنا فى طريق العودة من المدرسة الى لاكشمى» .

« وكيف وجدتها ؟ »

« تقريبا كما هى . كلا . بل ربما كانت أسوأ قليلا مما كانت عليه بالأمس .

« هذا ما أحسسته عندما رأيتها هذا الصباح» .

«من حسن الحظ أن آلامها لاتسوء كما يبدو . ونستطيع أن نعالجها نفسيا . وقد عالجنا اليوم الغثيان ، واستطاعت أن تتناول شرابا . ولا أظن أنها فى حاجة بعد ذلك الى السوائل تتعاطاها عن طريق الأوردة » .

قال «الحمد لله ! فان الحقن التى كانت تتعاطاها كانت مصدرا للعذاب • ما أحوج المرء الى شجاعة كبرى لمواجهة أى خطر حقيقى ، ولكن عندما تكون الحقنة تحت الجلد أو فى العرق فالفزع مدقع غير معقول» •

وعاد بذاكرته الى أيام الزواج الأولى ، حينما فقد أعصابه ذات مرة ووصفها بالجبن لأنها أثارت ضجة كبرى • وكانت لاكشمى قد صرخت واستسلمت لاستشهادها وتوسلت اليه أن يعفو عنها فأشعلت فى قلبه نارا • وصاح «لاكشمى ، لاكشمى • • •» وبعد بضعة أيام سوف تلفظ أنفاسها الأخيرة ، بعد سبعة وثلاثين عاما • ثم سأل بصوت مرتفع «فيم كنتما تتحدثان ؟ »

وأجابته سوزيلا «فى لاشىء بالذات» • ولكنهما فى الواقع تحدثا عن ديوجولد ، وانها لم تستطع أن تستعيد ماحدث بينهما • وقالت الأم فى همس وهى تموت «هذا وليدى الأول • لم يطرأ على ذهنى أن الأطفال يمكن أن يكونوا على هذه الصورة الجميلة» • وتلألأت عيناها الفائرتان فى محجريهما ، وابتسمت شفتاها اللتان هربت منهما الدماء • وواصلت الكلام بصوتها الضعيف الخشن «ما أصغر يديه ، وما أحوج فمه الصغير الى الطعام ! » وبيد مرتعشة عجفاء لمست موضع ثديها الذى كان يعلوه قبل العملية التى أجريت لها فى العام السابق • وكررت قولها «لم أعرف ذلك قط من قبل» وكيف كان يتسنى لها أن تعرف قبل الحادث ؟ لقد كان كشفا جديدا ، رؤيا مارستها باللمس والمحبة •

« هل تدركين ما أعنى ؟ » وأومأت سوزيلا برأسها •

وبطبيعة الحال كانت تدرك ـ أدركت ذلك من علاقتها بطفليها، أدركته في رؤى أخرى من اللمس والمحبة أحست بهما مع ديوجولد الرجل وقد استحال صغيرا يداه دقيقتان وفمه جائع شره • وهمست المرأة وهي في فراش الموت «كنت أخشى عليه ، فلقد كان قويا ، مستبدا يستطيع أن يوقع بغيره الأذى وأن يهدد وأن يحطم • ولو أنه تزوج من امرأة أخرى ••• ولكنني أحمد الله أنك كنت له زوجا !» وتحركت يدها العجفاء من المكان الذي كان موضعا لثديها ولمست بها ذراع سوزيلا ، وأحنت رأسها وقبلتها ، وأخذا يبكيان •

وتنهد الدكتور ماك فيل ، ونظر الى أعلى ، وهز بدنه هزة خفيفة وكأنه رجل خرج من الماء ، وقال «اسم الرجل الذي كان ملقى على الشاطيء فارنبي ، ويل فارنبي» •

وكررت سوزيلا قولها «ويل فارنبي ؟ يحسن بي أن أذهب اليه وأرى ماذا أستطيع أن أصنع له» • ثم استدارت بجسمها وانصرفت •

وتابعها الدكتور ماك فيل بالنظر ، ثم مال الى الخلف في كرسيه وأغمض عينيه • وفكر في ولده ، وفكر في زوجته ، لاكشمي التي تذبل رويدا رويدا حتى تنتهي ، فكر في ديوجولد وكأنه شعلة مضيئة مشتعلة انطفأت فجأة • فكر في تتابع التغيرات والمصادفات غير المعقولة التي تتألف منها الحياة ـ فكر في كل ماهو جميل ومفزع وعبث ، الذي يتآلف فيخلق نموذجا لمصير الانسان لايمكن تفهمه ولكنه مع ذلك له خطورته المقدسة • وقال محدثا نفسه وقد تذكر وجه سوزيلا عندما أخطرها بما حدث لديوجولد «ياللّه من امرأة بائسة» • ثم ذكر المقال الخاص بالنبات الفطري المخدر الذي نشرته

«مجلة الفطريات» ـ وهذا أمر آخر ناشز يتخذ له مكانة على صورة ما فى نموذج الحياة • ووردت على ذهنه الكلمات التى جاءت فى احدى القصائد القصيرة العجيبة التى نظمها راجا العجوز •

كل شيء
لا يأبه أبدا بغيره
ولكن الأشياء جميعا
تعمل فى تكامل
وان تباعدت
لخير يتجاوز خيرنا
ولكائن أكثر خلودا مع زواله
وأكثر أبدية مع تضاؤله
من المعبود فى علاه

وسمع ويل للباب صريرا وبعد لحظة استمع الى وقع خطوات خفيفة والى خشخشة ثياب ، ثم أحس يدا فوق كتفه وسمع صوت امرأة ، منخفضا موسيقيا ، يسأله عن حالته •

وأجاب دون أن يفتح عينيه «حالتى سيئة» •

ولم ينم صوته عن الأسى على حاله ، أو على طلب الحنان ـ ولا يحس السامع فيه الا غضب الرواقى من الأمر الواقع ، وكأنه رجل سئم أخيرا مهزلة الكتمان فأفصح مستاء عن الحقيقة •

« حالتى سيئة »

وامتدت اليه اليد مرة اخرى · واستمع الى صوت يقول «انا سوزيلا ماك فيل ام مارى ساروجينى» ·

وادار ويل رأسه وفتح عينيه على مضض ، واذا بصورة مكبرة لمارى ساروجينى أشد منها سمرة تجلس الى جوار سريره تبتسم له فى قلق ينم عن المودة ، ولو انه بادلها ابتسامة بابتسامة لكان ذلك عليه جهدا كبيرا ، فاكتفى بقوله «كيف حالك» ثم شد ملاءة السرير قليلا الى اعلى وأغمض عينيه مرة أخرى ·

ونظرت اليه سوزيلا فى صمت ، نظرت الى الكتفين برزت عظامهما ، والى القفص الصدرى المختفى تحت بشرة شحوبها النوردى جعله يبدو فى عينيها البالانيين ضعيفا بدرجة عجيبة عرضة للامراض ، ونظرت الى وجهه الذى لفحته الشمس وقد تحددت ملامحه كأنه تمثال منحوت لايرى الا على مبعدة ــ وهو مع ذلك شديد الحساسية وقد أصابته رعشة جعلتها ــ أكثر من وجهه العارى ــ تراه وكأنه رجل سلخ جلده وترك لآلامه ·

وأخيرا قالت له «سمعت انك من انجلترا» ·

وتمتم ويل منفعلا «لايهمنى من أين جئت ولا الى أين أنا ذاهب · وليكن من الجحيم الى الجحيم» ·

واستطردت قائلة «كنت فى انجلترا بعد الحرب مباشرة طالبة» وحاول ألا يصغى ، غير ان الآذان ليست لها جفون ، ولم يكن هناك مهرب من الصوت المتطفل ·

وقال هذا الصوت «كانت لى زميلة فى قسم علم النفس ،

يعيش أهلها فى ولز • وطلبت الى أن أعيش معهم فى الشهر الأول من عطلة الصيف • هل تعرف ولز ؟ »

وكان بالطبع يعرفها ، فلماذا تضايقه بذكرياتها السخيفة ؟

واستطردت سوزيلا قائلة « كنت أحب المشى هناك بجوار الماء ، أنظر عبر الخندق المائى الى الكاتدرائية ـ وبينما كانت تنظر الى الكاتدرائية فكرت فى ديوجولد وهو على ساحل البحر تحت النخيل ، فكرت فيه وهى يعطيها الدرس الأول فى تسلق الصخور ويقول لها «انت على الحبل ، فى أمان تام ، ولايمكن أن تسقطى • • •» وكررت هذه العبارة : «لايمكن أن تسقطى» فى مرارة شديدة ـ ثم تذكرت مبدأ «الآن وفى هذا المكان» وتذكرت أن عليها واجبا يجب أن تؤديه ، وتذكرت ـ وهى تلقى نظرة أخرى على الوجه محدد الملامح المسلوخ ـ ان أمامها انسانا يتألم • واستطردت قائلة «ما أروعها ، وما أشد هدوءها »

وأصبح الصوت كما خيل لويل فارنبى أكثر موسيقية وأشد بعدا بشكل عجيب • وربما كان ذلك السبب فى أنه لم يعد يستنكر تطفله •

« احساس بالهدوء غير عادى ـ شانتى ، شانتى ، شانتى ، انه هدوء لايتصوره العقل» •

وكأن الصوت كان يتغنى ويأتى من عالم آخر فيما يبدو • وتغنى الصوت قائلا «اننى أستطيع أن أغمض عينى وأرى كل شىء فى وضوح • أستطيع أن أرى الكنيسة ـ انها ضخمة ، وأكثر ارتفاعا من الأشجار الباسقة التى تحيط بقصر الاسقف •

أستطيع أن أرى العشب الأخضر والماء وضوء الشمس الذهبي وهو يسطع فوق الحجر ، والظلال المائلة بين التلال • ثم انصت ! انني أستطيع أن أسمع الأجراس ، الأجراس والغربان • الغربان في البرج ـ هل تسمع الغربان ؟ »

نعم ، انه يستطيع أن يسمع الغربان في وضوح تماما كما يسمع الآن تلك الببغاوات في الأشجار التي تقع خارج نافذته ، فلقد كان هنا ، كما كان في نفس الوقت هناك ـ هنا في هذه الغرفة المظلمة الحارة الرطبة قريبا من خط الاستواء، ولكنه كذلك كان هناك ، في العراء في ذلك المنخفض البارد على حافة منديبس ، حيث الغربان تصرخ من فوق برج الكتدرائية ، وصوت الاجراس يتلاشى في صمت الخضرة •

واستأنف الصوت قائلا «وهناك سحب بيضاء ، والسماء الزرقاء بين سحابة وأخرى شاحبة ، رقيقة ، لطيفة للغاية » •

وكرر هذه الكلمة (لطيفة) • السماء الزرقاء اللطيفة في نهاية الاسبوع في شهر ابريل الذي قضاه هناك مع مولى قبل نكبة زواجهما • كانت هناك وسط العشب أزهار الربيع والداندليا ، وكانت هناك عبر الماء الكنيسة الضخمة تعلو شامخة وكأنها تتحدى جموح سحب ابريل الرطبة بهندستها الصارمة ، تتحدى البرية وتكملها في الوقت نفسه وتتفق معها في انسجام تام • هكذا كانت الحال بينه وبين مولى ، وهو ماينبغي أن تكون عليه الحال •

« والأوز العراقي ••• » وكأنه يصغي الآن الى الصوت وهو يغني حالما •

نعم الأوز ! الأوز الأبيض يتحرك عبر مرآة من اليشم والكهرمان الأسـود ـ مـرآة تعلو وتهبط وترتعـد وكأنها تتنفس ، حتى كانت صورها الفضية تتكسر ثم تلتئم ، تتجزأ ثم تتكامل •

« ما أشبهها بشعارات النبالة المنقوشة • رومانسـية ، جميلة بصورة تفوق التصديق ـ ومع ذلك فهى طيور حقيقية فى مكان حقيقى • ما أقربها الى الآن فانى لأكاد ألمسها ، ومع ذلك ما أبعدها ، فهى تبعد عنى مئات الأميال • بعيدة جـدا فوق تلك المياه الساكنة ، وكأنها تتحرك بفعل السحر ، فى هوادة وفى عظمة ••• »

تتحرك فى عظمة وجلال ، تعلو بها المياه المظلمة وتهبط كلما تقدمت بصدورها المسـتديرة ، تعلو الميـاه وتهبط ثم تتراجع فى موجات صغيرة تأخذ فى الاتسـاع وخلفها نبات يتألق كما تتألق رؤوس السهام • وقد استطاع أن يرى الأوز وهى تتحرك عبر المياه المظلمة ، واسـتطاع أن يسمع صوت الغربان وهى فوق البرج ، واستطاع أن يشم ـ خلال رائحة المطهرات المختلطة بعبق الجاردينيا التى تحيط به ـ رائحة الخندق الغوطى الذى يشق ذلك الوادى الأخضر البعيد ، تلك الرائحة الباردة الهادئة التى تحمل معها عبير الأعشاب •

« انها تطفو بغير جهد » •

« تطفو بغير جهد » لقد أعطته هـذه الألفـاظ احساسا عميقا بالرضى •

وقالت «كنت أجلس هناك ، انظـر وأمعن فى النظر ، وبعد هنيهة أشعر كأننى كـذلك أطفو ، أطفو مع الأوز فوق

سطح الماء الهادىء الساكن بين الظلمة من تحتي وحنان السماء الشاحبة من فوقي · وأطفو في الوقت ذاته فوق ذلك السطح الآخر بين هنا القريب وهناك البعيد ، بين الحاضر والمستقبل» وفيما بين هذه السعادة التي عادت الى ذاكرتها ، وهذا الحاضر الغائب الملح الموجع كانت تجول بخاطرها · وقالت بصوت مرتفع «كنت أطفو على السطح بين الواقع والخيال ، بين ماياتينا من الخارج وما يأتينا من الداخل ، من الأعماق السحيقة هنا » ·

ووضعت يدها على جبينه ، وقد تحولت الألفاظ بغتة الى الاشياء والحوادث التي ترمز لها ، وأصبحت الخيالات وقائع · فلقد كان فعلا يطفو ·

وألح الصوت في هدوء مرددا «أطفو ، أطفو كالطائر الابيض فوق سطح الماء · أطفو فوق نهر الحياة العظيم ـ نهر عظيم صقيل أملس يتدفق في سكون شديد حتى لتكاد تظنه مسترسلا في نوم عميق · نهر نائم ، ولكنه يتدفق بشدة لاتقاوم ·

« تتدفق الحياة في سكون وبدرجة لاتقاوم وتصب في حياة أخرى أكمل ، في هدوء حي أشد عمقا ، وأكثر ثراء وأقوى وأتم لانها تدرك كل آلامك وأسباب تعاستك ، تدركها وتضمها اليها وتدمجها في طبيعتها ·وفي الهدوء تسبح الآن، تسبح فوق هذا النهر الأملس الساكن الذي ينام ومع ذلك فهو لايقاوم ، وهو لايقاوم على وجه التحديد لانه نائم · وأنا أطفو معه» · وكانت توجه خطابها الى هذا الرجل الغريب · ولكنها كانت تخاطب نفسها كذلك ولكن على مستوى آخر ·

«أطفو بغير جهد ، لا أقوم بأى عمل • انما يكفينى أن أترك نفسى على سجيتها ، وأسمح لنفسى بأن تسترسل ، وأسأل نهر الحياة هذا النائم الذى لايقاوم أن يحملنى الى حيث يتجه ، وأنا على علم تام أنه يتجه الى حيث أريد ، الى حيث ينبغى لى أن أتجه : الى حياة أعمق ، الى هدوء حى • مع النهر النائم – بغير مقاومة – الى الاذعان والقبول التام» •

وعلى غير ارادة منه وعلى غير وعى تنهد ويل فارنبى تنهدا عميقا • ما أشد السكون الذى ساد العالم من حوله ! ياله من سكون صاف عميق ، على الرغم من أن الببغاوات كانت فى حركة دائمة وراء نافذته ، وعلى الرغم من أن الصوت الذى كان ينصت اليه مابرح يشدو الى جواره ! سكون وفراغ ، ومن خلال هذا السكون وهذا الفراغ يتدفق النهر ، نائما لايقاوم •

وحدقت سوزيلا فى الوجه المستلقى على الوسادة • وبدا لها فجأة كأنه وجه فتى صغير ، كوجه الطفل فى صفائه وسكونه ، وقد اختفت تجاعيد التجهم التى كانت تخطط جبهته ، وانفرجت الشفتان اللتان كانتا مطبقتين من شدة الألم ، وخرجت الأنفاس فى بطء وانسياب يكاد لايحسها انسان • وتذكرت بغتة الألفاظ التى ترددت فى ذهنها حينما حدقت ذات ليل مقمر فى البراءة التى بدت على وجه ديوجولد : « انها تعطيها النوم المحبوب » •

وقالت بصوت مسموع «النوم ، النوم» •

وكأن السكون قد أمسى مطلقا والفراغ أشد عمقا •

وأخذ الصوت يقول «نائم على سطح النهر النائم ، وفوق

النهر ، فى السماء الشاحبة ، ترى سحب ضخمة بيضاء • وعندما تخترق ببصرك السحب تحس كأنك تسبح متجها اليها• نعم تسبح نحوها ، فالنهر الآن يجرى فى الهواء ، وهو نهر لا يرى يحملك الى الامام والى أعلى ، ثم يسمو بك ويسمو» • الى أعلى خلال الفراغ الصامت ، ولقد أمست الصورة هى ذات الشيء» والالفاظ هى الخبرة بعينها •

واستطرد الصوت قائلا «من الوادى الحار الى الجبال الطلقة وبغير جهد » •

نعم فلقد كان هناك «يونجفراو» ناصع البياض فى زرقة السماء ، وكان هناك (مونت روزا) •••

« ما أنقى الهواء الذى تتنفسه • انه صاف نقى مشبع بالحياة ! »

وتنفس بعمق فسرت فى بدنه الحياة الجديدة • ثم هبت ريح خفيفة عبر الحقول التى كستها الثلوج ، باردة على بشرته ، لطيفة مستحبة ، وقال الصوت وكأنه يردد مايدور برأسه من أفكار ويصف مايمارس من تجارب «البرودة ، البرودة • النوم • ومن البرودة الى مزيد من الحياة • ومن النوم الى الرضى ، الى التكامل ، الى الهدوء الحى» •

وبعد نصف ساعة عادت سوزيلا الى غرفة الجلوس •

وقال لها حموها «خبرينى ، هل أفلحت ؟»

وأومأت برأسها بالايجاب •

وقالت «حدثته عن مكان فى انجلترا ، فطار اليه صوابه

أسرع مما توقعت . وبعـــدئذ أعطيته بعض الايحـــاءات عن حرارته ... »

« وعن ركبته كما أتعشم » .

« طبعا » .

« ايحاءات مباشرة ؟ »

« لا ، غير مباشرة . انها دائما أفضل . وجعلته على وعى بصورة جسده ، ثم جعلته يتخيل أن جسمه أضخم كثيرا مما هو عليه في واقع الحياة ــ وان ركبته أصغر من حقيقتها . شيء صغير تافه يثور على ماهو أضخم منه وأفخم . ولم يعـــد هناك شك في من يفوز» . ثم نظرت الى ساعة الحائط وقالت «يالله ، لابد أن أسرع والا تأخرت على طلابى فى المدرسة» .

- ٥ -

كانت الشمس فى بداية شروقها عندما دخل الدكتور روبرت حجرة زوجته بالمستشفى . ووقعت عيناه على وهج برتقالى تقابله ظلال متعرجة للجبال المقابلة . واستحالت الرؤية فجأة الى وهج على شكل قوس يخطف البصر يقع بين قمتين من قمم الجبال . ثم استكمل القوس شكل نصف الدائرة، واخترقت الحديقة التى تظهر من النافذة الظلال الطويلة الأولى ، وأسهم النور الذهبية الباكرة . وعندما صوب نظره مرة أخرى نحو الجبال شهد الشمس المشرقة بكل بهائها الذى لايحتمل .

وجلس الدكتور روبرت الى جوار السرير ، وأمسك بيد زوجته وقبلها . وابتسمت له ثم التفتت ثانية نحو النافذة .

وقالت هامسة «ما اسرع دوران الأرض» وبعد فترة من الصمت أضافت «وذات صباح سيكون شروق الشمس هو الأخير بالنسبة الى»

ومن خلال الغناء الجماعى المضطرب من زقزقة الطيور ونقيق الحشرات ، اخذت المينة تنشد «كارونا ،كارونا ...»

وأعادت لاكشى الكلمة «كارونا» ثم قالت «الرأفة ...»
وألح فى الحديقة صوت بوذا المزمارى مرددا «كارونا ، كارونا » .

واستطردت قائلة « ولن أكون بحاجة اليها طويلا بعد ذلك » . ولكن كيف تكون حالك أنت ياعزيزى روبرت ؟ »

قال «ان المرء يجد القوة اللازمة بطريقة ما»

«ولكن هل هى القوة الصحيحة ، ام قوة الدروع ، وقوة الاعتكاف ، والقوة التى تلتمسها فى عملك وافكارك دون ان تعير التفاتا الى اى أمر آخر ؟ اذكر كيف كنت آتيك وأجذبك من شعرك لكى تتنبه ؟ من يقوم بهذا بعد ما امضى ؟ »

ثم دخلت احدى الممرضات ومعها كوب من الماء المحلى بالسكر . ودس الدكتور روبرت احدى يديه تحت كتفى زوجته ورفعها الى وضع الجلوس . ولامست الممرضة بالكوب شفتيها ، واحتست لاكشمى قليلا من الماء ، وابتلعت الماء بصعوبة ، ثم شربت مرة ثانية وثالثة ، وأدارت وجهها من الكأس المقدمة اليها الى الدكتور روبرت . وكسا وجهها الذابل نور يضىء بصورة عجيبة لاتتفق مع هذا الموقف الذى يثير الانزعاج .

وأخذت بصوتها الخافت الأجش تنشد ترنيمات تذكرها من عهد الطفولة . ثم صمتت قليلا وقالت «شىء مضحك هذا الذى يعود الى ذاكرتى ، ولكنى كنت دائما مضحكة جدا ، أليس كذلك » .

وحاول الدكتور روبرت أن يبادلها الابتسام وقال موافقا «نعم لقد كنت مضحكة جدا» .

« كنت تقول ما أشبهك بالبرغوث . لحظة هنا ولحظة

أخرى بعيدا هناك . ولا عجب انك لم تستطع أن تعلمني !»

ورد عليها مؤكدا «ولكنك علمتني . ولولا انك كنت تجذبينني من شعرى وتدعينني الى أن أنظر الى العالم وتساعدينني على فهمه ، فكيف كانت تكون حالي اليوم ؟ أعشى ضعيف الرؤية - على الرغم من كل ماتعلمت . ولكن لحسن حظي أني فكرت في الزواج منك ، ولحسن الحظ كنت من الغفلة بحيث توافقين ، وكانت لديك الحكمة والذكاء اللذين عالجتني بهما . وبعد سبعة وثلاثين عاما من التعلم على كبر كدت أصير انسانا » .

وهزت رأسها وقالت «ولكنني لازلت برغوثا . ومع ذلك حاولت ، وبذلت الجهد . ولست أدرى ان كنت قد أدركت ذلك ياروبرت . كنت دائما أخطو على أطراف أصابع قدمى . أجاهد في سبيل بلوغ المكان الذى كنت تحتله تؤدى فيه عملك وتفكر فيه وتطلع . على أطراف قدمى ، أحاول أن ألحق بك ، وأحاول أن أرقى الى جانبك ، ولقد كان ذلك وربى أمرا شاقا على نفسى ! ولكم بذلت جهدا اثر جهد ! وضاعت كل جهودى هباء ، لانى لم أكن سوى برغوث أبكم أتوثب بين الناس والزهور والقطط والكلاب . ان حياتك الثقافية الرفيعة كانت أرقى من أن أصعد اليها ، بله أن أغوص فيها . وعندما حدث هذا (ورفعت يدها ثانية ووضعتها مكان ثديها المقطوع) كففت عن المحاولة . فلا مدرسة ولا مذاكرة منزلية ، وكان عندى لذلك عذر دائم» .

وساد صمت طويل .

وأخيرا قالت الممرضة «هلا أخذت جرعة أخرى ؟»

واتفق معها الدكتور روبرت وقال «نعم يجب أن تتناولى المزيد» ·

وابتسمت له لاكشمى مرة أخرى وقالت «وأخالف التماليم المقدسة ؟ » ومن خلال قناع الشيخوخة والمرض المميت شــهد الدكتور روبرت بغتة الوجة الضاحك ، الفتاة التى هام بهــا حبا منذ منتصف عمره ، وكأنه عشقها بالأمس فقط ·

وعاد الدكتور بعد ساعة الى بيته ·

وبعد ما غير الضمادة التى كانت تلتف حول ركبة ويل فارنبى قال له «ستبقى اليوم وحيدا ، اذ لابد لى من أن أذهب فى عربتى الى شيفابورام لاجتماع مجلس الشورى · وحوالى الثانية عشرة ســوف تأتى اليك احــدى ممرضاتنا الطالبات لتعطيك الحقنة وتناولك الطعام · وبعد الظهر عندما تنتهى سوزيلا من عملها بالمدرسة تمر بك ، أما الآن فلابد لى من أن أنصرف» · ونهض الدكتور روبرت ووضع يده لحظة فوق ذراع ويل وقال «حتى المساء» ·

وفى طريقه الى الباب توقف وتلفت خلفه وقال :

« لقد كدت أنسى أن أعطيك هــذا · وأخــرج من أحد الجيبين الجانبيين لسترته المرتخية كتيبا صغيرا أخضر اللون وقال «هذه مذكرات راجا العجوز عن (حقيقة كل شىء وعن التصرف المعقول ازاء حقائق الأمور) » ·

وقال ويل وهو يتناول الكتاب الذى قدم اليه «ياله من عنوان عجيب ! »

واكد له الدكتور روبرت أنه سوف يحب كذلك محتواه·

«انه يقع فى بضع صفحات · ولكنك ان أردت أن تعرف حقيقة بالا فلن تجد مايعرضها عليك خيرا مما فيه» ·

وبهذه المناسبة سأل ويل «ومن هو راجا العجوز ؟»

« بل الأصح أن تقول من كان هو ، فلقد مات سنة ٣٨ـ بعد ما حكم فترة أطول مما حكمتها الملكة فكتوريا بثلاث سنوات · ومات ابنه الأكبر قبل موته ، وخلفه حفيده ، وكان غبيا غير أن حياته لم تطل · وراجا الحالى هو ابن الحفيد» ·

« وهل لى أن أوجه اليك سؤالا شخصيا ، كيف جاء فى الصورة انسان اسمه ماك فيل ؟ »

« جاء الى بالا ماك فيل الأول أيام حكم جد راجا العجوز ـ ونسميه راجا عهد الاصلاح · وفيما بينهما ، جد راجا العجوز وجدى الأكبر ، خلقا بالا الحديثة ·

وعزز راجا العجوز عملهما المشترك ، وسار به شوطا آخر ، ونحن اليوم نبذل الجهد لنحذو حذوه » ·

ورفع ويل كتاب «مذكرات عن حقيقة كل شىء» ·

« وهل يعطينى هذا الكتاب تاريخ الاصلاحات ؟ »

وهز الدكتور ماك فيل رأسه وقال «انه يذكر فقط المبادىء الاساسية · اطلع عليها أولا · وعندما أعود من شيفابورام فى المساء أحكى لك شيئا عن التاريخ · وسوف تكون أكثر تفهما لما حدث فعلا اذا بدأت بمعرفة مايجب عمله ـ ماينبغى دائما وفى كل مكان أن يفعله أى انسان لديه فكرة واضحة عن حقيقة كل شىء · ولذلك أقول لك اقرأ

هذا الكتاب ، ولاتنس أن تشرب عصير الفاكهة المقرر لك في الحادية عشرة » .

وراقبه ويل وهو ينصرف ، ثم فتح الكتيب الأخضر وبدأ يقرأ .

ـ أولا ـ

ليس لأحد حاجة الى أن يذهب الى مكان آخر . فنحن جميعا ـ لو عرفنا ـ بالفعل هناك .

لو انى عرفت من أنا فى الحقيقة لكففت عن التصرف وفقا لما أظن من أنا ، فاذا كففت عن التصرف وفقا لما أظن من أنا اذن لعرفت من أنا .

أنا فى الحقيقة ـ لو سمح لى المانوى (١) (الذى أظننى هو) أن أعرف ـ توفيق بين لا ونعم أعيش حياتى فى قبول تام وفى تجربة مباركة باللامثنوية .

كل الألفاظ فى الدين مبهمة ، ومن يتشدق باسم بوذا ، أو الله ، أو المسيح ، يجب أن يتطهر أولا .

ان المانوى المنعزل الذى أظن أننى هو يحكم على نفسه بخيبة الأمل التى تتكرر الى ما لا نهاية ، وبالصراعات التى تتكرر الى ما لا نهاية مع غيره من المانويين الطموحين الخائبين

---

(١) نسبة الى مانى المصلح الايرانى الذى ظهر فى القرن الثالث وادعى النبوة وبشر بعقيدة مثنويه أساسها الصراع بين الخير والشر ـ المترجم

وذلك لأن أمله فى ألا يخلد سوى «نعم» فى كل أمرين متعارضين لايمكن ــ بحكم طبيعة الأشياء ــ أن يتحقق ·

صراعات واحباطات ــ ذلك هو موضوع التاريخ كله بل وتقريبا موضوع تاريخ الاحياء كلها · قال بوذا كلمة واقعية وهى «انى أريكم الاحزان» ولكنه كذلك أرانا نهاية الاحزان: معرفة الذات ، والقبول التام ، وتجربة اللامثنوية المباركة (١) ·

ــ ثانيا ــ

اذا عرفنا من نحن فى الحقيقة أدى بنا ذلك الى الحياة الطيبة ، والحياة الطيبة تؤدى الى أصح أنواع العمل الطيب · ولكن العمل الطيب لايؤدى فى حد ذاته الى الحياة الطيبة · فقد يكون المرء فاعلا للخير دون أن يعرف من هو فى الحقيقة · والأحياء الذين يتصنعون بفعل الخير ليسوا أناسا طيبين ، وما هم الا أعمدة المجتمع ·

وأكثر الاعمدة كأعمدة شمشون ، فهى قائمة ولكنها ان عاجلا أو آجلا تنهار · ولم يظهر مجتمع كان أكثر العمل الطيب فيه نتيجة للحياة الطيبة ولذلك كان صحيحا دائما · وليس معنى ذلك أنه لن يقوم مثل هذا المجتمع أو اننا فى بالا مجانين لاننا نحاول أن نوجد هذا المجتمع ·

---

(١) فى هذه المبادىء كثير من الغموض ، وخلاصتها ان الوجود وحدة لا تتجزأ ، والفرد جزء من الكل ، وهو أساس من أسس البوذية ــ المترجم

ـ ثالثا ـ

الرواقى ومن يمارس اليوجا شخصان صالحان ينتهيان الى نتائجهما الطيبة بدعواهما باطراد أنهما شخصان آخران · ولكنك لست بدعواك أنك شخص آخر ـ حتى ان كان هـذا الشخص غاية فى العمل الطيب والحكمة ـ بمستطيع أن تخرج من عزلتك المانوية الى كونك انسانا طيبا ·

الحياة الطيبة هى أن تعرف من أنت فى الحقيقة ، ولكى تعرف من أنت فى الحقيقة يجب أن تعرف أولا لحظة بلحظة من أنت فيما تظن ، وما تدفعنا هذه العادة السيئة من التفكير اليه من احساس وعمل · ان لحظة واحدة من المعـرفة الصـافية الكاملة لمن أنت فيمـا تظن ـ ولكنك لست بـه فى الواقع ـ توقف لعبة الألفاظ المانوية لحظة من الزمن · فاذا أنت كررت لحظات الادراك بمن لست به ، حتى تصبح هذه اللحظات زمنا متصلا وجدت نفسك بغتة عالما من أنت فى الحقيقة ·

التركيز ، والتفكير المجرد ، والتدريب الروحى ـ العزلة المنتظمة فى عـالم الفكر · الزهـد ومذهب المتعة ـ عـزلة منتظمة فى عالم الحس والشعور والألم · ولكن الحياة الطيبة هى فى العلم بمن أنت فى الحقيقة بالنسبة لجميع الخبرات · لتكن اذن واعيا ـ واعيا فى كل موقف ، وفى كل وقت ، أيا كان ما تعمل أو تعانى ، معقولا كان أم غير معقول ، سارا أو غير سار · هـذه هى اليوجا الصحيحة ، التـدريب الروحى الوحيد الذى يستحق الممارسة ·

« كلما ازددت معرفة بالمفردات ازددت معـرفة بالله »

هكذا قال سبينوزا ، واذا ترجمنا لغته الى لغتنا يمكن أن نقول «كلما ازددت معرفة بنفسك بالنسبة لكل ضروب التجارب ، زادت فرصتك فى ادراكك ـ فجأة ذات صباح جميل ـ من أنت فى الواقع .

صدق القديس يوحنا . فالكلمة فى عالم مبارك صامت لم تكن «مع» الله ، انما كانت هى «الله» ، شيئا يعتقد فيه . الله رمز لما يدور فى الافئدة ، اسم مجسد لكلمة مجردة .

ان الايمان شيء يختلف كل الاختلاف عن العقيدة . العقيدة هى أن تأخذ باطراد كلمات لم تحلل مأخذا جديا للغاية ـ سواء فى ذلك كلمات بولس أو ماركس أو هتلر ـ فان الناس يأخذونها مأخذا جديا مبالغا فيه ، فماذا يحدث ؟ ان مايحدث هو تكافؤ المتناقضين فى التاريخ بشكل غير معقول ـ السادية (حب ايذاء الآخرين) ازاء الواجب ، أو (وهو أسوأ بدرجة لا تقارن) السادية باعتبارها واجبا ، الورع يقابله جنون العظمة ، الاحسان يواسون به ضحايا قضاة التحقيق المنتمين لكنيستهم والصليبيين المتعصبين لمذهبهم . أما الايمان ـ فعلى نقيض ذلك ـ لايمكن أن يؤخذ مأخذا جديا مبالغا فيه . لان الايمان هو الثقة ـ التى لها مايبررها عمليا ـ فى قدرتنا على أن نعرف من نحن فى الحقيقة ، وعلى أن ننسى المانوى الثمل ونستبدل به الحياة الطيبة . اللهم اعطنا اليوم ايمانا وخلصنا يارب من العقيدة .

ثم سمع ويل طرقا على الباب ، فرفع بصره عن الكتاب ونادى «من هناك ؟ »

ورد عليه صوت أعاد اليه ذكريات بغيضة عن الكولونيل ديبا وعن الرحلة الخيالية بعربة المرســيدس البيضاء ، وقال الصوت « هو أنا » ٠

وفي صندل أبيض على قدميه ، وسروال قصير أبيض ، وساعة معصم من البلاتين تقدم موروجان نحو سرير ويل ٠

« ما أجمل الشعور الذى دفعك الى أن تحضر لرؤياى !»

ولو كان الزائر شخصا آخر غير موروجان لبادر بسؤاله «كيف أنت الآن» ولكن موروجان كان مشغولا بنفسه كلية مما يفقده القدرة حتى على أن يتظاهر بأدنى اهتمام بأى شخص آخر ٠ وقال متبرما «أتيت الى بابك منذ ثلاثة أرباع الساعة، ولكن الرجل المجوز كان مايزال هنا ، لذلك عدت الى البيت، واضطررت الى مجالسة أمي والرجل المقيم معنا وهما يتناولان الفطور ٠٠٠ »

وسأله ويل «ولماذا تحرجت من الدخول عندى حينما كان الدكتور روبرت معي ؟ هل فى حديثك معى مايتنافي وقواعد السلوك ؟ »

فهز الفتى رأسه فى قلق وقال «كلا بالتأكيد ، انما أردت ألا يعرف السبب فى زيارتى » ٠

وابتسم ويل وقال «السبب ؟ ان عيادة المريض من عمل الاحسان ، وهى أمر مستحب للغاية » ٠

ولم يكن لسخريته أثر على موروجان الذى واصل تفكيره فى شئونه الخاصة ، وقال «أشــكرك لانك لم تذكر لهم أنك رأيتنى من قبل» قال ذلك فى اقتضاب يكاد يبلغ حد الغضب٠

وكأنه كان يستنكر الاعتراف بما ناله من فضل ، وتميز غيظا من ويل لانه أسدى اليه معروفا يستحق العرفان ·

وقال ويل «كنت أدرك انك لم ترد ان أقول شيئا عن ذلك ومن ثم تحاشيت الكلام» ·

وتمتم موروجان بين أسنانه قائلا «أردت أن أشكرك» بنغمة تكاد تنم عن قوله «يالك من خنزير قذر !»

وبأدب زائف قال ويل «عفوا» ·

ياله من مخلوق عذب ! بهذا كان يفكر وهو يتطلع فى شغف وابتهاج الى جذعه الذهبى الأملس ، والى وجهه الملتفت ناحية أخرى ، متناسقا كالتمثال لم يعد أولمبيا ولا كلاسيكيا ـ وجه هلينى ، سهل الحركة انسانى الى أبعد الحدود · انه كالوعاء الجميل الذى لا نظير له ـ وماذا عسى أن يحتوى هذا الوعاء ؟ وتحسر ويل على أنه لم يوجه هذا السؤال بصورة أكثر جدية قبل أن يتصل ببابز التى لاتوصف · ولكن بابز كانت أنثى · ولما كان طبيعيا فى علاقته الجنسية فان هذا السؤال العقلى الذى يتساءله الآن لم يكن ذا موضوع · ولكنه سؤال فى محله من غير شك بالنسبة الى هذا المخلوق الصغير الحقود نصف الاله الذى يجلس فى طرف السرير ، خاصة اذا كان السائل حساسا نحو الغلمان ·

وسأله «أفلم يعلم الدكتور روبرت انك ذهبت الى راندنج ؟ »

« كان بطبيعة الحال على علم بذلك · كما كان كل امرىء على علم به · ولقد ذهبت الى هناك لأعود بأمى ، وكانت هناك

مع بعض أقربائها ، وذهبت الى هناك لاعود بها الى بالا · وكان الأمر رسميا مطلقا» ·

«اذن لماذا لم تردنى أن أذكر اننى التقيت بك هناك ؟»

وتردد موروجان لحظة ، ثم حدق ببصره فى ويل متحديا، وقال «لأننى لم اردهم أن يعلموا أننى قابلت الكولونيل ديبا » ·

تلك اذن هى حقيقة الأمر ، وقال ويل بصوت مرتفع «ان الكولونيل ديبا رجل يدعو للاعجاب» ، وأراد بذلك أن يقول كلمة معسولة يستخلص بها ثقة موروجان ·

ولما زالت عن موروجان ريبته ظهر فى الحال ماكان يكنه فى صدره · وتهلل بالحماسة وجهه العابس ، وبغتة تجلى أنطونيوس بكل ماكان يتصف به من جمال جذاب ، هو جمال مراهقته الغامضة · وقال «أى انه رجل يدعو للاعجاب» ، ولأول مرة منذ دخل غرفة ويل بدا أنه أدرك وجوده وقدم له أكثر بسماته مودة · ذلك أن ذكر الكولونيل بالاعجاب حمله على أن ينسى ضغينته ، ومكنه فى ذلك الحين من أن يهب حبه كل مخلوق ــ حتى هذاالرجل الذى كان يدين‌له بالعرفان المرير · وأردف قائلا «انظر الى ماقدم لراندنج !»

وقال ويل دون التزام «لاشك انه يفعل الكثير لراندنج» ·

ومرت سحابة بوجه موروجان المشرق ، وقال مقطبا جبينه «ولكنهم لايرون ذلك هنا ، ويعدونه رجلا فظيعا» ·

« من يظن ذلك » ·

« كل انسان تقريبا ! »

« ولذلك لم يريدوا لك آن تقابله ؟ »

وابتسم موروجان ابتسامة عريضة ، وعلى وجهه مسحة التلميذ الشرير الذى انتهز فرصة التفــات المعلم الذى ولاه ظهره وقال «ظنوا أنني مع أمى كل الوقت» ·

وانتهز هذه الفرصة ويل توا وسأله «وهل كانت امك تعلم انك كنت فى مقابلة مع الكولونيل ؟»

« طبعا » ·

« ولم تعترض ؟ »

« بل أيدتنى » ·

ومع ذلك فان ويل كان على ثقة تامة من انه لم يخطىء عندما ظن أن موروجان مع ديبا كان أشبه بأنطونيوس مع هادريان · هل كانت المرأة كفيفة البصر ؟ أم هل لم ترد أن ترى ماكان يحدث ؟

وقال بصوت مسموع «ولكن اذا كان الأمر لايهمها ، لماذا كان الدكتــور روبرت وزمــرته يعارضون ؟» ونظــر اليه موروجان مرتابا · وأدرك ويل انه غامر بالخــوض فى أمر محظور ، فغير مجرى الحديث ، وقال مبتسما «هل تظن أنه كان يستطيع أن يحولك الى العقيدة فى الدكتاتورية العسكرية ؟»

وفى هذا الاتجاه الجديد للحــديث سار موروجان ، وقد انفرجت أسارير وجهه وابتسم قائلا «لم يكن الامــر كذلك

بالضبط ، ولكن كان قريبا من هذا» وهز كتفيه وأردف قائلا «الموضوع سخيف ، ولايعدو أن يكون بروتوكول أحمق» ·

وتحير ويل حقيقة وقال :

« ألم يخبروك بشيء عني ؟ »

« لست أعرف أكثر مما ذكر لي الدكتور روبرت بالأمس»

وألقى موروجان برأسه الى الخلف وقال ضاحكا «تقصد كوني طالبا ؟ »

« وما يضحكك من كونك طالبا ؟ »

وصرف الفتى نظره مرة أخرى وقال «لاشيء ، لاشيء البتة» ثم ساد الصمت ، وأخيرا قال وهو لايزال منصرف النظر «السبب في انه من المفروض ألا ألاقي الكولونيل ديبا هو أنه رئيس دولة ، وأنا كذلك رئيس دولة · وحينما نلتقي يكون في الموقف سياسة دولية » ·

« وماذا تعني ؟ »

« أنا راجا بالا » ·

« أنت راجا بالا ؟ »

« منذ عام ٥٤ حينما مات أبي » ·

« وأمك أذن هي راني » ·

« هي كذلك » ·

وتذكر ويل ماقاله له الديهايد «اذهب رأسا الى القصر» · ولكن ها هو ذا القصر يأتيه رأسا · والعناية السماوية كانت قطعا الى جانب جو الديهايد ، وتعمل لمصلحته ·

وسأله « وهل أنت أكبر الابناء ؟ »

وأجابه موروجان «الابن الأوحـد» • ثم أكد وحدانيته مرة أخرى وقال «الطفل الأوحد» •

قال ويل «اذن ليس فى الأمر أدنى شك • يا الهى ! لقد كان ينبغى لى أن أناديك بصاحب الجلالة أو بلقت السيد على الأقل» • قال ذلك ضـاحكا ، غـير أن موروجان استجاب للحديث بجدية تامة وبالتظاهر فجأة بالكرامة الملكية •

وقال « بهذا تناديني في نهاية الاسبوع القادم ، بعد عيد ميلادى • حينما أبلغ الثامنة عشرة ، أى عندما يبلغ الراجا فى بالا سن الرشد • أما حتى هذا الحين فانا موروجان ميلندرا ، مجـرد طـالب يتعلم شيئا عن كل شيء ـ بما فى ذلك تربية النبات واستطرد فى شيء من السخرية قائلا «حتى أكون على علم بما أقوم به حينما يحين الحين » •

« والى أن يحين الحين ماذا عساك فاعل ؟ »

وقد لمس ويل فيما بين أنطـونيوس الوسـيم ووظيفته الكبرى تناقضـا يثير الضحك حقا» وواصل الحـديث بنغمة المزاح ، متسائلا •

« وكيف تنوى أن تباشر العمل ؟ هل تطيح بالرؤوس ، وتقول « أنا الدولة » ؟

واشتدت جدية موروجان وكرامته الملكية فقـال مؤنبا «لاتكن غبيا» •

وفى ابتهاج شديد أخذ ويل يسلك مسلك المعتذر وقال «انما أردت أن أعرف الى أى حد سوف يكون حكمك مطلقا» •

ورد عليه موروجان فى وقار قائلا «بالا ملكية دستورية» .

« أو بعبارة أخرى ، انك سوف تكون رأسا رمزيا ـ تسود ولا تحكم كملكة انجلترا » .

ونسى موروجان كرامته الملكية فكاد يصيح بقوله «كلا، كلا . ليس كملكة انجلترا . ان راجا بالا لايسود فقط . انما يحكم كذلك» . واشتدت ثورة موروجان حتى لم يستطع يجلس فى سكون ، فقفز الى أعلى وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وأضاف قائلا «راجا بالا يحكم حكما دستوريا ، ولكنه وأيم الحق يحكم ، انه يحكم » وسار نحو النافذة وأطل منها ، ثم عاد بعد لحظة سكون وجابه ويل بوجه تحول ـ من أثر المسحة الجديدة التى انتابته ـ الى رمز للقبح النفسانى المعروف ، فى صورة فاتنة ولون رائع . وفى عبارة وبنغمة، استمدهما قطعا من أحد أبطال العصابات الامريكية التى تظهر فى السينما ، قال «سوف أريهم من الرئيس هنا » . واستطرد وكأنه يتلو من النص المجموج الشائع على ألسنة أمثال هؤلاء الابطال «ان القوم هنا يحسبون انى ألعوبة بين أيديهم كما كان أبى ألعوبة بينهم ، ولكنهم يخطئون خطأ جسيما» . وصدرت عنه ضحكة خبيثة تكاد أن تكون مكبوتة وهز رأسه الجميل البغيض وكرر قوله «انهم يخطئون خطأ جسيما» .

وخرج اللفظ من بين أسنانه المطبقة وشفتيه اللتين كادتا ألا تتحركان . وبرز فكه الاسفل وبدا كفك المجرم فى مسلسلة هزلية ، وأبرقت عيناه فى برود بين جفنين شبه مغمضين . وبدا فى صورة مضحكة ومريعة فى آن واحد . وقد أمسى

أنطونيوس كاريكاتيرا لكل الأبطال الذين خلدتهم الصور من قديم الأزل .

وسأله ويل «من كان يدير البلاد حينما كنت قاصرا ؟»

وأجـاب مـوروجان فى ازدراء «ثلاث مجمـوعات من الرجعيين القدامى . مجلس الوزراء ، ومجلس النواب ، ثم مجلس الشورى الذى يمثلنى أنا الراجا » .

وقال ويل «مساكين هؤلاء الرجعيون القدامى . سوف يصدمون صدمة كبرى عما قريب» .

وبروح الاستهتار التى اصطنعها فى مرح شديد ، ضحك ضـحكة عالية وقال «كل أملى أن أكون هنـا لأرى ماسـوف يحدث » .

وشاركه موروجان ضحكه ، لا بوصفه بطلا قويا مرحا خبيثا ، ولكن بمزاج مختلف وملامح متغيرة ظهرت فجأة تجعل من العسير عليه ـ كمـا أدرك ويل ـ أن يلعب دور البطـل القوى ، وانما ضحك كالتلميذ الشرير الظافر الذى كان على صورته منـذ لحظات . وكرر قوله سـعيدا «ستكون صـدمة حياتهم» .

« وهل وضعت خططا معينة ؟ »

قال موروجان «قطعا» وبحـركات وجهـه أخلى التلميذ الشرير المنتصر مكانه لرجل السياسة ، الرزين الذى يصطنع الدماثة عندما يعقد مؤتمرا صـحافيا . «سـتكون الأولوية لتحديث هذا المكان . انظر الى ما استطاعت راندنج أن تفعله بسبب نصيبها الذى تحصل عليه من عائد البترول» .

وسأله ويل بتلك اللهجة الساذجة التى تنم عن جهل مطبق والتى علمته التجارب الطويلة أنها خير وسيلة لاستخراج المعلومات من السذج وممن يظنون بنفسهم الأهمية الشخصية « وهل لاتحصل بالا على نصيب من عائد البترول ؟»

قال موروجان «لاتحصل على قرش واحد • مع أن الطرف الجنوبى من الجزيرة يطفح بالبترول • واذا استثنينا عددا قليلا من الآبار التافهة التى يستهلك بترولها محليا فان الرجعيين القدامى لايحركون ساكنا ، بل انهم لايسمحون لغيرهم أن يفعل شيئا» وتملك الغضب موروجان السياسى • ونم صوته كما نمت ملامحه الآن عن البطل القوى ، وأردف قائلا «لقد تقدمت عروض كثيرة من مختلف الجهات ــ من شركة بترول جنوب شرقى آسيا ، ومن شل ، والشركة الهولاندية الملكية ، وشركة ستاندارد فى كلفورنيا • ولكن هؤلاء الغافلين لايعيرونها آذانا مصغية » •

« وهل لاتستطيع أن تغريهم بالاصغاء ؟»

وقال البطل القوى «سأرغمهم على الاصغاء» •

وقال ويل « هكذا تكون الهمة » ثم سأل عرضا «وأى العروض تفكر فى قبوله ؟ »

« يتعامل الكولونيل ديبا مع شركة ستاندارد بكلفورنيا ، ويرى أن الأفضل أن نتعامل معها نحن كذلك»

« لو كنت مكانك ما فعلت هذا الا بعد أن يتقدم الى بعض المتنافسين على الأقل » •

« ذلك ما أراه أنا أيضا ، وكذلك أمى »

« هذه هى الحكمة » ٠

« أمى متحمسة لشركة جنوب شرقى آسيا للبترول ٠ وهى تعرف رئيس مجلس الادارة ، اللورد الديهايد» ٠

« هل تعرف اللورد الديهايد ؟ ياللعجب ! » قال ذلك ويل بدهشة المبتهج التى لها أبلغ الأثر» ثم أضاف «جو ألديهايد صديقى ، وأنا أحرر فى صحفه ، بل أعمل سفيرا خاصا له ٠ وبينى وبينك هذا هو السبب فى رحلتنا الى مناجم النحاس ، لأن جو يشتغل فى النحاس كذلك ولكن بصـــفة ثانوية ، أما ميله الأول فهو نحو البترول» ٠

فقال موروجان وقد حاول أن يبدو داهية فى السياسة «كم هو مستعد أن يعرض ؟»

وانتهز ويل هذه القصة وأجاب كأحسن ماتكون الاجابة فى أسلوب ملوك المال كما يظهرون على الشاشة «أكثر قليلا مما تعرضه شركة ستاندارد» ٠

وقال موروجان وكأنه أيضا يتحدث على الشاشة «هـــذا عدل» وأومأ برأســـه كالحكيم ٠ ثم ســـادت فترة طويلة من الصمت ٠ ولما عاد الى الحـــديث كان كرجل الســـياسة الذى يتفضل بمقابلة مع مندوبى الصحف ٠

قال « سوف أستخدم نصيبنا من عائد البترول بالطريقة الآتية : خمسة وعشرون فى المائة من مجموع الأموال التى تحصل عليها تنفق فى اعادة بناء العالم» ٠

وسأله ويل فى أدب جم «قل لى بدقة ماتراه لاعادة بناء العالم ؟»

« عن طريق الحرب الصليبية للروح ؟ هل تعلم عنها شيئا ؟ »

« بالطبع ومن ذا الذى لا يعرفها ؟ »

وقال رجل السياسة جادا «انها حركة عالمية كبرى كالمسيحية فى نشأتها ، وقد أسستها أمى» .

وبدت على ويل الرهبة والدهشة .

وأعاد موروجان قوله «نعم أسستها أمى» ثم أضاف مؤكدا «أعتقد أنها الأمل الوحيد للانسان» .

وقال ويل فارنبى «تماما» .

واستطرد رجل السياسة حديثه فقال «هكذا انفق الخمسة والعشرين فى المائة الاولى من نصيبى . أما ما تبقى فسوف أنفقه على برنامج مكثف للتصنيع» وغير من نغمة الحديث مرة أخرى وقال «ان الحمقى الكبار هنا يريدون أن يصنعوا بعض المواقع فقط ويتركوا الباقى كما كان عليه منذ ألف عام» . « فى حين انك تريد أن تذهب بالتصنيع الى آخر الشوط ـ تصنع من اجل التصنيع» .

« كلا . بل أصنع من أجل البلاد . أصنع لكى أجعل بالا بلدا قويا ، ولكى أجبر غيرنا على احترامنا . انظر الى راندنج . انهم هناك فى غضون خمس سنوات سوف يصنعون كل انواع البنادق ومدافع الهاون والذخيرة التى هم فى حاجة اليها بيد إن الوقت يحتاج الى وقت طويل لكى يصنعوا الدبابات

ولكنهم حتى آنئذ يستطيعون ان يشتروها من سكودا بأموال البترول » ٠

وتساءل ويل متهكما «ومتى يرقون الى صنع القنبلة الهيدروجينية ؟ »

فأجاب موروجان «انهم لن يحاولوا ذلك» وأردف قائلا «ومهما يكن من أمر فان القنبلة الهيدروجينية ليست وحدها السلاح الأساسى » وقد نطق هذه العبارة مستمتعا بها ٠ وكان من الواضح أن ذكر (السلاح الاساسى) كان محببا الى مسامعه ثم أضاف «أقصد الاسلحة الكيماوية والبيولوجية ـ ان الكولونيل ديبا يسميها القنابل الهيدروجينية التى يملكها الانسان المسكين ٠ ان من أول مشروعاتى بناء مصنع كبير لمبيدات الحشرات» ٠ وضحك موروجان وغمز باحدى عينيه وقال «واذا استطعت أن تصنع مبيدات الحشرات فأنت تستطيع أن تصنع غاز الاعصاب» ٠

وتذكر ويل ذلك المصنع الذى لم يتم بناؤه والذى يقع فى احدى ضواحى راندنج لوبو ٠

وكان قد سأل عنه الكولونيل ديبا وهما يمرقان قريبا منه فى عربة المرسيدس «ماهذا ؟»

وأجابه الكولونيل «مبيدات للحشرات» ثم بابتسامة لطيفة كشف بها عن أسنانه الوضاءة أضاف «وقريبا سوف نصدرها لكل أنحاء جنوب شرقي آسيا » ٠

وقد ظن آنئذ ـ بطبيعة الحال ـ ان الكولونيل يعنى مايقول ٠ أما الآن ـ وقد سخر فى نفسه ـ فانه يرى أن

الكولونيلات هم كولونيلات ، وان الصبية ـ حتى من أمثال موروجان ـ فهم صبية محبون للمدافع • وسوف يكون هناك دائما كثير من المهام للمراسلين الخاصين خاصة بتجارب الموت •

ورفع ويل صوته سائلا « اذن فأنت سوف تقوم بتقوية جيش بالا ؟

« قوى الجيش ؟ لا ، أنا سوف أخلقه ، فان بالا ليس لها جيش » •

« بتاتا ؟ »

« بتاتا ، فكلهم مسالمون » وخرجت من فيه هذه اللفظة «مسالمون» فى اشمئزاز وسخرية «وسوف أبدأ من لاشىء» •

« تعنى أنك سوف تخلق الروح العسكرية وتدخل الصناعة ؟ »

« تماما » •

وضحك ويل قائلا «عود الى الآشوريين ، سوف ترجع فى ثورتك الى التاريخ القديم» •

قال موروجان «هذا ما أرجوه ، وهذه سياستى ـ ثورة مستمرة » •

وصفق له ويل وقال «حسنا» •

« سوف أواصل الثورة التى بدأها منذ مائة عام الجد الأكبر للدكتور روبرت عندما قدم الى بالا وعاون جدى الأكبر على تنفيذ الاصلاحات الأولى • ولقد قاما بعمل جدير حقا

بالاعجاب • ولكنهما لم يوفقا فى كل ماقاما به من أعمال» • ثم هز رأسه بشعره المجعد جادا رافضا رفضا قاطعا لبعض ماقاما به – وبرزانة مصطنعة كأنه طالب يؤدى دور بولونيس فى مسرحية هاملت فى حفل نهاية الفترة الدراسية • ثم أردف قائلا «ولكنهما على أية حال قاما بعمل ما ، فى حين أننا نحكم اليوم بمجموعة من المحافظين الذين لايفعلون شيئا ما • انهم محافظون بدائيون لا يحركون ساكنا لادخال الاصلاحات الحديثة • وهم كذلك محافظون فى الصميم – فهم يرفضون ان يغيروا أية فكرة من الأفكار الثورية السيئة القديمة التى يجب ان تتغير • انهم لا يصلحون الاصلاحات • والحق أقول لك ان بعض ما كان يسمى بالاصلاحات يدعو حقا للاشمئزاز » •

« تقصد الاصلاحات المتعلقة بالجنس ! »

فأومأ موروجان برأسه والتفت ناحية أخرى – ولشد ما كانت دهشة ويل عندما لاحظ ان موروجان قد أحمر خجلا •

وقال « اضرب لى مثلا »

ولكن موروجان عجز عن الافصاح عما بنفسه

وقال « اسأل الدكتور روبرت ، واسأل فيجايا • انهما يحسبان ذلك امرا يدعو للاعجاب • بل الجميع هنا يرى هذا الرأى • ومن ثم فان أحدا لايحب التغيير • انهم يريدون أن يبقى كل شىء كما كان ، وبنفس الطريقة التى تدعو الى الاشمئزاز ، دائما والى الأبد » •

وكرر العبارة صوت رنان يدعو الى الضيق قائلا :

« دائما والى الأبد » .

ووثب موروجان من مقعده وصاح «أماه » .

والتفت ويل فرأى عند الباب امرأة ضخمة متوردة مدثرة في لفائف من الموصلين الأبيض (وذلك في رأيه ينافي الانسجام الطبيعي ، لأن مثل هذا الوجه وهذا الجسم يتلاءم معه عادة اللون البنفسجي الزاهي واللون الأحمر المشوب بالزرقة واللون الأزرق الكهربي) . ووقفت مكانها وعلى فمها تلك الابتسامة التي توحي بادراكهاللغموض المحيط ، وذراعها الاسمر المترهل مرفوعة وهي تضغط على جانب الباب وكأنها ممثلة عظيمة ، أو المغنية الأولى التي يعترف لها الجميع وقد وقفت عند أول ظهورها لتتقبل تصفيق الاستحسان من المعجبين بها في الجانب الآخر من أضواء المسرح . كما ظهر في الخلف ينتظر في قلق اشارة البدء رجل مديد القامة يرتدي بدلة من الداكرون بني اللون ، وقد حاول موروجان أن يتعرف اليه من خلال تلك الكتلة التي كادت أن تملأ المدخل ـ وهي أمه ـ ثم حياه باسم باهو .

وكان باهو مايزال عند أحد جوانب المسرح ولكنه انحنى دون أن ينبس ببنت شفة .

ثم التفت موروجان مرة أخرى الى أمه ، وسألها «هل قدمت على قدميك ؟ » وكانت نغمته تنم عن عدم التصديق وعن قلقه المشوب بالاعجاب . لم يكن يتصور كيف تمشي الى هذا المكان . فان كانت قد فعلت فهي من الابطال . ثم سألها أخيرا «وهل مشيت الطريق كله ؟ » .

وردت مداعبة بلطف «نعم كل الطريق ياولدي» ، ثم

أنزلت ذراعهـا المرفوعة وطـوقت بها جسم الفتى النحيل ، وضمته ــ وهى فى ثوبها الفضفاض ــ الى صدرها الضخم ، ثم أخلت سبيله · وقالت «استـولت على احـدى نزواتى» · ولاحظ ويل أنهـا تحملك على الاستماع الى لفظها «نزوة» بتأكيدها عليها فى نطقها بطـريقة خاصة · وبنفس طريقة التأكيد هذه قالت «ان صوتى الضعيف قال لى «اذهبى الى زيارة الرجل الغريب الذى يقيم فى بيت الدكتور روبرت ، فسألت هذا الصوت الضعيف ، هل أذهب الآن على الرغم من حرارة الجو ؟» ونفد صبر صوتى الضعيف فرد قائلا ، امسكى لسانك السخيف أيتها المرأة وافعـلى كمـا تؤمرين ، وهأنذا يامستر فارنبى» · وامتدت يدها يفـوح منها شـذى قوى من رائحة خشب الصندل ، ثم تقدمت نحوه ·

وانحنى ويل نحو أصـابعها الغليظة المرصعة بالجواهر وتمتم بكلمات اختتمها بقوله «ياصاحبة السمو» ·

ونادت «باهو !» باسمه المجرد من غير ألقاب مستغلة فى ذلك حقها الملكى ·

واستجابة لهذا النداء دخل الغرفة ــ بعد انتظار طويل لدوره ــ هذا الممثل الثانوى ، وقدمته باسم صاحب السعادة عبد الباهو سـفير راندنج « عبد البيير باهو ــ (وتحـدثت بالفرنسية) لأن أمـه كمـا قالت كانت فرنسية ولكنه تعلم الانجليزية فى نيويورك» ·

وتصـور ويل وهـو يصـافح يـد السـفير انه شـبيه

بسافو نارولا (١) ، ولكنه سافو نارولا بنظارة على احدى عينيه وحلة قصها خائط فى سافيل رو (٢) بلندن ٠

وقالت الرانى «باهو مستشار الكولونيل ديبا ، أو ذهنه المفكر» ٠

« اسمحى لى ياصاحبة السمو انك أكثر رفقا بى منك للكولونيل» ٠

وتحدث بلفظ وأسلوب رجال البلاط الى حد كاد أن يكون تهكميا ، يدعو الى السخرية لانه أراد أن يمثل به الاحترام والمذلة فى آن واحد ٠

فقال «الذهن فى مكانه الطبيعى ــ الرأس ٠ اما أنا فلست سوى جزء من الجهاز العصبى المتعاطف فى راندنج» ٠

وقالت الرانى «وأى تعاطف ! باهو يامستر فارنبى له صفات كثيرة من بينها أنه آخر الارستقراطيين ٠ ويجب أن تزور بلاده اما أشبهها (بألف ليلة وليلة) ٠ اذا صفقت بيديك كان فى خدمتك فى الحال ستة من الخدم ٠ وهم هناك يحتفلون بأعياد ميلادهم ، ويقيمون الحفلات الليلية فى الحدائق ٠ الموسيقى والمرطبات والراقصات ، ومائتا حارس يحملون المشاعل ٠ انها حياة هارون الرشيد بعد سبكها فى صيغة حديثة » ٠

وقال ويل «هذا وصف بهيج» وقد تذكر القرى التى مر بها فى عربة الكولونيل ديبا المرسيدس البيضاء ــ تذكر

---

(١) مصلح دينى ايطالى عاش فى القرن الخامس عشر كان يتشدد فى مقاومة الانحلال الخلقى ــ المترجم ٠

(٢) شارع فى لندن مشهور بالخياطين الممتازين ــ المترجم ٠

الاكواخ المسقوفة بالقش المضفور بالقضبان ، والقاذورات ، والأطفال المصابين بالرمد ، والكلاب الهزيلة ، والنساء اللائى تنوءن بالأحمال الثقيلة .

واستطردت رانى تقول «ذوقه رفيع ، وعقله ملىء بالمعرفة» ثم أخفضت صوتها وقالت «ويتخلل ذلك كله احساس عميق قوى بالمقدسات» .

وأحنى مستر باهو رأسه ، ثم ساد الصمت بعد ذلك .

وفى أثناء ذلك اجتذب موروجان مقعدا ، وجلست فوقه بوزنها الذى يبلغ مائة كيلو جرام الذى تؤكد به جلالتها دون أن تلتفت خلفها ، وهى على ثقة ملكية بأن طبائع الاشياء تقتضى أن يكون هناك دائما شخص قريب المنال يكفل امتناع الاحداث السيئة كما يكفل الاحتفاظ بالكرامة .

ووجهت حديثها الى ويل قائلة له «أرجو ألا تحس أن زيارتى لك نوع من التطفل» وأكد لها أنه لايشعر بهذا الاحساس ، ولكنها ـ مع ذلك ـ استمرت فى تقديم الأعذار وقالت « كان ينبغى لى أن أخطرك مقدما وأن أحصل على اذن منك ، ولكن صوتى الضعيف قال لى «لا . يجب أن تذهبى فورا ، لماذا لست أدرى ، ولكننا سوف نعرف السبب فى الوقت المناسب من غير شك» . وحدقت فيه بعينيها الكبيرتين الجاحظتين وابتسمت له ابتسامة مبهمة ، وأردفت قائلة «والآن كيف حالك أولا ياعزيزى مستر فارنبى ؟ »

«كما ترين ياسيدتى . حالتى جيدة للغاية» .

وحدقت فى وجهه بعينيها الجاحظتين فى إمعان ارتبك له ، وقالت «حقا ؟ انك فى نظرى الرجل البطل الذى يراعى

شعور الآخرين ويطمئن أصدقاءه حتى وهو على سرير الموت » ·

قال «انت تمالقينني ، ولكن حقا انا فى حالة جيدة · حالة جيدة بصورة تدعو الى الدهشة ، بل هى ـ اذا اخذنا كل شيء فى الاعتبار ـ معجزة» ·

قالت رانى « (معجزة) هى الكلمة التى استخدمتها عندما سمعت نبأ نجاتك · لقد كانت حقا معجزة» ·

وروى ويل مرة اخرى النص الذى ورد فى كتاب (الأرض المجهولة) (١) وهو «من حسن الحظ أن العناية الالهية كانت الى جانبى» ·

ويدأ مستر باهو يضحك ، ولما لحظ أن الرانى قطعا لم تدرك المغزى ، غير رأيه وفى براعة زائدة حول صوت المرح الى سعال مسموع ·

وقالت الرانى « ما أصدق هذا القول ! » فى صوت قوى رنان يتذبذب بدرجة تثير الحس» وواصلت حديثها قائلة «ان العناية الالهية دائما فى جانبنا» ورفع ويل حاجبه متسائلا ، فأضافت قولها «أقصد فى أعين أولئك الذين يفهمون حقا» مؤكدة لفظتى «يفهمون» و «حقا» · ويصدق هذا الكلام حتى وان بدت كل الأمور متآمرة ضدنا» ، وبالفرنسية قالت «حتى عند الكوارث» واستطردت قائلة «أنت تفهم الفرنسية طبعا يامستر فارنبى ؟» وأومأ ويل بالايجاب · وواصلت حديثها «الفرنسية كثيرا ماتواتينى أيسر من لغتى القومية ، أو

---

(١) سبقت الاشارة اليه ـ المترجم

الانجليزية أو لغة أهل بالا ـ وبعد ما قضيت عدة سنوات فى سويسره فى المدرسة أولا ثم بعد ذلك عنـدما تدهورت صحة ولدى (وهنا ربتت على ذراع موروجان العارية) واضطررنا الى العيش فى الجبال • ويوضح ذلك ماذكرت من أن العناية الالهية كانت دائما فى جانبنا • قالوا لى ان ولدى الصغير على حافة الاصابة بالسل فنسيت كل ماتعلمت ، وطـار صوابى خوفا وذعرا ، وغضبت من ربى لانه رضى بهذا الذى حدث• ولكن ماكان أشـد عماى ! فلقـد شـفى ولدى وكانت تلك السنوات التى قضيناها وسـط الثلوج الدائمة أسـعد أيام حياتنا • أليس كذلك ياحبيبى ؟ »

ووافقها الصبى بقوله «نعم كانت أسـعد أيام حياتنا» بنغمة تنم عن الاخلاص التام •

وابتسمت الرانى بشـعور الانتصـار ، ولوت شفتيها الحمراوين ، وبصوت خافت فرجتهما لترسل عن بعد قبله • وواصلت حديثها قائلة «فأنت ترى ياعزيزى فارنبى ـ والأمر يفصح عن نفسه حقا ـ ان شيئا لايحدث مصادفة • هناك خطة كبرى ، تتفرع منها خطط عديدة صغرى • هناك خطة صغرى لكل واحد منا » •

وفى أدب جم قال ويل «هذا صحيح» •

وواصلت الرانى حديثها قائلة «لقد انقضى زمن كنت أدرك فيـه ذلك بعقـلى • أمـا الآن فأنا أدركه بقلبى • أنا حقا ...» وهنا توقفت لحظة لتتأهب لنطق الكلمة الصوفية التالية مؤكدة لها ، وهى « ... أفهم» •

وعندئذ تذكر ويل ماقاله عنها جو الديهايد وهو أنها «متأثرة

بالروحانيات الى أبعد الحدود» . ولاشك فى معرفة هذا الرجل الذى تردد على جلسات استحضار الأرواح طوال حياته .

فقال «أعتقد ياسيدتى انك روحانية بالطبيعة» .

واعترفت بذلك قائلة «منذ ميلادى ، ولكن كذلك وفوق ذلك بالتدريب . ولست بحاجة الى أن أقول التدريب على شىء آخر » مؤكدة هذه العبارة الأخيرة .

«شىء آخر ؟»

« على حياة الروح ، والمرء كلما سار شوطا على الطريق فان كل المواهب الروحية وكل القوى المعجزة تتطور تلقائيا » .

« أصحيح هذا ؟ »

وأكد له موروجان فخورا «ان أمى تستطيع أن تقوم بما لايتصور العقل» .

وقالت بالفرنسية « لاتبالغ ياحبيبى» .

وأصر موروجان على ما ذكر وقال «ولكنها الحقيقة» .

وأضاف السفير «انها حقيقة أستطيع أن أؤكدها» ثم أردف قائلا وهو يبتسم مخاطرا «أؤكدها على مضض منى . ولقد كنت طوال حياتى من المتشككين فى هذه الأمور ، ولم أكن أحب أن أرى المستحيل يتحقق . ولكنى لسوء الحظ أميل الى الصدق . فاذا حدث المستحيل فعلا أمام عينى فأنا مضطر على الرغم منى (بالفرنسية) أن أكون شاهدا على ماوقع . ان سموها تقوم فعلا بأمور لايتصورها العقل» .

وتهللت الرانى بالسرور وقالت «حسنا ، مادمت تريد أن تعبر بهذه الصورة • ولكن لاتنس شيئا أبدا يا باهو • ان المعجزات ليست لها البتة أية أهمية ، وانما المهم هو (الشىء الآخر) ــ الشىء الآخر الذى يبلغه المرء فى نهاية (الطريق) »•

وبالتحـــديد قال موروجان «بعـــد (المرحلة الرابعة) يا أمى ••• » •

ورفعت الرانى اصبعا الى شـــفتيها وقالت «هـــذه أشياء لايتحدث فيها المرء ياحبيبى» •

وقال الصـــبى «أنا آســـف» وأعقب ذلك صمت طـــويل مشحون بالمعانى •

وأغمضت الرانى عينيها ، وأسقط مستر باهو نظارته ثم أغمض عينيه وأمسى صورة لسفونارولا وهـــو يصلى فى صمت • ماذا كان يجرى خلف هذا القناع ، قنـــاع استجماع النفس الصارم والذى يكاد أن يتجرد من المادة ؟ تعجب ويل لما شاهد وأخيرا قال :

« هل يجوز لى ياسيدتى أن أسأل كيف بدأت الســـير فى الطريق؟» مؤكدا لفظة «الطريق» •

ولزمت الرانى الصـــمت ثانيـــة أو ثانيتين ، واكتفت بجلوسها مغمضة العينين ، تنفرج شفتاها عن ابتسامة بوذا التى تنم عن سعادة غامضة ، وأخيرا أجابت بقولها «العناية السماوية كشفت لى عن الطريق» •

« صحيح ، ولكن لابد أن تكون هناك مناسبة ، ومكان ، وأداة بشرية » •

قالت «سوف أخبرك» وفتحت جفنيها والفى نفسه مرة أخرى سحط النظر من هاتين العينين الجاحظتين اللتين لمعتا فى حملقة لاتحيد يمنة أو يسرة •

حدث ذلك فى لوزان فى السنة الأولى من تعليمها السويسرى • وكانت الأداة البشرية المختارة هى مدام بولوز المحبوبة الصغيرة ، وهى زوجة الاستاذ بولوز المحبوب الكبير، والاستاذ بولوز هو الرجل الذى عهد اليه رعايتها والدها المرحوم سلطان راندنج • وكان الاستاذ فى السابعة والستين من عمره ، يعلم الجيولوجيا ، بروتستانتيا ينتمى الى طائفة متزمتة ، ولولا أنه كان يتعاطى كأسا من النبيذ مع العشاء ، ويؤدى صلاته مرتين فقط فى اليوم ، ويلتزم بالزواج بامرأة واحدة لحسبته من المسلمين • وتحت هذه الرعاية يتفتح ذهن أميرة راندنج ، وتبقى بغير تأثر من الناحيتين الخلقية والعقائدية • ولكن السلطان لم يحسب لزوجة الاستاذ حسابا • كانت مدام بولوز فى الاربعين فقط من عمرها ، بدينة ، عاطفية ، فوارة فى حماستها ، اعتنقت أخيرا مذهب الصوفية وتحمست له بشدة ، وان تكن من الناحية الرسمية من مذهب زوجها البروتستانتى • وفى حجرة فى أعلى بيت مرتفع قريبا من ميدان ريبون اتخذت لها مكانا للتعبد تأوى اليه سرا لتقوم بتدريباتها على التنفس ، وتمارس التركيز، وتستحضر كندالينى ، كلما توافر لها الوقت • كانت تدريباتها عنيفة ، ولكن جزاءها كان عظيما بدرجة حدود العقل • وعند الفجر ذات ليل من ليالى الصيف بينما كان الاستاذ الطيب مستلقيا يغط فى نومه غطيطا متواترا تحت المصلى بطابقين ، تجلى لها السيد كوت هومى وشعرت بوجوده معها •

وهنا توقفت الرانى عن الحديث بشكل مؤثر ·

وقال مستر باهو «هذا أمر غير عادى» ·

وبدافع الواجب ردد العبارة وراءه ويل وقال «أمر غير عادى» ·

واستأنفت الرانى روايتها · وكانت مدام بولوز قد أحست بسعادة لم تستطع اخفاءها فأفشت سرها · وصدرت عنها اشارات غامضة ، وتدرجت من الاشارات الى الثقة ، ومن الثقة الى دعوة لزيارة المعبد وتلقى التعاليم · وبعد فترة وجيزة من الزمن أخذ كوت هومى يخص الطالبة الجديدة بأفضال تفوق ماكان يقدمه لمعلمتها ·

واختتمت الرانى حديثها قائلة «ومنذ ذلك اليوم ظل السيد يعاوننى على المضى قدما» وأكدت على كلمتى «المضى قدما» ·

وتساءل ويل بينه وبين نفسه : المضى قدما نحو ماذا ؟ كوت هومى وحده يعلم · ولكن أيا كان المكان الذى توجهت اليه فانه لم يشعر بميل اليه · وظهر على ذلك الوجه الوردى الضخم تعبير كان بغيضا الى نفسه بصورة عجيبة ـ تعبير عن هدوء سائد · وعن احترام للذات ثابت لايتزعزع · وذكرته بصورة عجيبة بجو الديهايد · وكان جو أحد هؤلاء الاثرياء السعداء الذين لايشعرون بوخز الضمير ، وانما يستمتعون بأموالهم بغير وازع ، وبكل مايمكن أن يشتروه بهذه الأموال من نفوذ أو سلطان · وأمامه الآن فصيلة أخرى من فصائل جو الديهايد ـ على الرغم من ارتدائها الموصلين الابيض ، ومما يحيط بها من غموض ، ومما تثيره من عجب ـ أنثى ثرية

تحكمت فى السوق ــ ولا أعنى سوق النحاس أو فول الصويا، وانما أعنى الروحانية الخالصة والسادة الذين يصعدون الى السماء ، وهى الآن تفرك يديها سعيدة بمجال استثمارها ٠

وواصلت الرانى حديثها قائلة «اليكم مثالا لما قدمه لى ٠ منذ ثمان سنوات ــ أو على وجه التحديد فى اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر من عام ١٩٥٢ ــ جاءنى «السيد» وأنا فى حالة التأمل صباحا ، جاء بشخصه ، وبكل أمجاده وقال لى «لابد من شن حملة دينية ، حركة عالمية لانقاذ البشرية من تدمير نفسها بنفسها ، وأنت يابنيتى الأداة المكلفة» فقلت «أنا ؟ حركة عالمية ؟ هذا عبث ، فأنا لم ألق طوال حياتى خطابا واحدا ، ولم أسطر كلمة واحدة للنشر ، ولم أكن قط زعيمة ولا داعية نظام» فقال وقد حيانى بابتسامة حلوة من ابتساماته التى تفوق الوصف ، وعلى الرغم من ذلك فأنت التى سوف تشنين الحملة ــ الحملة الروحية العالمية ٠ وسوف تقابلين بالضحك ، ويدعونك المجنونة ، المتهوسة ، والمتعصبة ٠ ولكن الكلاب تنبح والقافلة تسير ٠ ولقد قدر للحملة الروحية أن تتحول من دعوات مبدئية تثير الضحك الى قوة عظمى ٠ قوة للخير ، قوة سوف تنقذ العالم فى نهاية الأمر ، وبعد هذا تركنى ، مذهولة ، متحيزة ، مذعورة لا أعى شيئا ٠ ولكن ذلك أمر عارض ، وعلى أن أطيع ٠ ولقد أطعت ٠ فماذا حدث ؟ ألقيت الخطب ووهبنى هو الفصاحة ، وقبلت عبء الزعامة ، ولأنه كان يسير متخفيا الى جانبى تبعنى الناس ٠ وطلبت المعونة فتدفق على المال وهأنذا كما ترون ٠٠ ولوحت بيديها الغليظتين وكأنها تغض من شأن نفسها ، وابتسمت ابتسامة غامضة ، وكأنها تقول «مسكينة

أنا ، ولكنني لا أملك نفسي ، بل أنا ملك للسيد كوت هومى» •
وكررت قولها «وهأنذا كما ترون» •

وقال مستر باهو مخلصا «هأنت هنا والحمد لله» •

وبعد فترة ما سأل ويل الرانى ان كانت قد أصرت دائما على الشعائر التى تعلمتها بالعنــاية الالهيــة فى معبد مدام بولوز •

وأجابت بقولها «دائما • ولم أعد أستغنى عن التأمل ، وكأنه كالطعام لا غنى عنه» •

« أولم يشــق عليك ذلك بعد الزواج ؟ أعنى قبــل أن تعودى الى سويسره ، فلقــد كانت عليك بالضرورة واجبات رسمية كثيرة مضنية» •

وردت الرانى فى نغمــة تغنى عن مجلدات ضــخمة من التعليق الذى يسىء الى شخصية زوجهــا الراحــل ، من حيث فلسفته فى السياسة العالمية وعاداته الجنســية وقالت «دع عنك الواجبات غير الرسمية» وفغرت فاها لتفصل ما أجملت ثم لاذت بالصمت ، ونظرت الى موروجان ونادته «ياحبيبى»•

وكان موروجان مشغولا بتلميع أظافر يده اليسرى التى وضعها فى راحة يمناه ، فتطلع فى دهشة المذنب وقال « ماذا يا أماه ؟ »

وتجاهلت الرانى ماكان يفعل بأظافره وغفلته الواضحة ازاء ماكانت تقول ، وابتسمت له ابتسامة مغرية وقالت له «كن ملاكا واذهب وآتنى بالسيارة » • ووجهت حديثها الى ويل قائلة له «ان (صوتى الضعيف) لايعترض على أن أعود

الى البيت سيرا على قدمى فهو على بعد بضع ياردات من هذا المكان ولكن فى هذا الجو الحار ، وفى مثل سنى ...» .

وكانت كلماتها تستدعى شيئا من النفاق فى الرد . ولكن ويل شعر بأن الحرارة التى لاتسمح بالسير على الاقدام لاتسمح كذلك ببذل الجهد اللازم للتظاهر باخلاص زائف يقنع . ولحسن الحظ كان على مقربة منهما دبلوماسى محترف ، رجل من رجال البلاط المدربين ، يستطيع أن يعوض أوجه النقص التى تصدر عن صحافى أخرق . فضحك باهو بملء شدقيه ، ثم اعتذر عما بدر منه من مرح .

وقال «معذرة فالموقف يدعو فعلا الى الضحك» وكرر عبارة الرانى «فى مثل سنى ...» وضحك مرة أخرى ، ثم أردف قائلا «ان موروجان لم يبلغ الثامنة عشرة بعد ، وأنا أعرف عمر أميرة راندنج ــ وصغر سنها ــ عندما اقترنت براجا بالا .

وفى تلك الأثناء نهض موروجان مطيعا وقبل يد أمه .

ولما انصرف من الغرفة قالت الرانى «الآن نستطيع أن نتحدث بحرية أكثر» . وانطلقت فى الكلام متحررة ــ ونم وجهها ، ونغمة حديثها ، وعيناها الجاحظتان ، وهيكل جسمها المرتعش كله عن استنكارها ولكنها تجاهلت الأمر وقالت (اذكروا محاسن موتاكم) ولذلك لم تذكر عن زوجها الا أنه كان رجلا من بالا مثاليا . وممثلا صادقا لبلاده . والحقيقة المؤلمة هى أن وجه بالا المشرق الناعم كان يخفى فسادا مروعا .

ورفعت يديها مرتاعة وخشخشت أساورها فى فزع شديد تقول «عندما أذكر ماحاولوا أن يلحقوه بوليدى منذ

عامين ، عنـدما كنت أقوم برحلتى العـالمية فى سبيل الحملة الروحيـة ، أذكر كم قاسيت من فراقه طـوال هذه المدة • ولكن (السيد) كان قد بعثنى لاداء رسالة وذكرنى (صوتى الضعيف) انه من الخطر أن أصحب وليدى معى • ولقد عاش خارج البلاد زمنا طويلا وآن له أن يعرف البلد الذى سيؤول اليه حكمـه • لذلك قررت أن أتركه هنـا • وعين مجلس الشورى لجنة للوصاية : واللجنـة امرأتان لكل منهما أبنـاء بلغوا سن الرشد ، ورجلان •

يؤسفنى أن أقول (وأسفى أشد من غضبى) أن الدكتور روبرت ماك فيل كان أحدهما • وموجز القول ، ماكدت أن أخرج آمنة من هذا البلد حتى شرع هؤلاء الأوصياء الأعزاء الذين عهدت اليهم بوليـدى ، ولدى الوحيـد ، يعملون لمحو تأثيرى ، ويعملون بنظام يامستر فارنبى على أن يحطموا كل القيم الخلقية والروحية التى تعبت فى بنائها خلال العديد من السنين » •

وفى شىء من الخبث أبدى ويل دهشته (لأنه بطبيعة الحال كان يعـرف ماكانت الرانى تتحدث عنـه) • القيم الخلقية والروحية كلها ؟ ومع ذلك لم يكن بالامكان لاحد ما أن يكون أكثر شفقة به من الدكتـور روبرت والآخـرين ، ولم يكن بامـكان السـامرين الطيبين أنفسـهم أن يكونوا أكثر منهم احسانا •

وقالت الرانى «اننى لا أنكر عليهم شفقتهم، ولكن الشفقة ليست هى الفضيلة الوحيدة» •

ووافقها ويل وقال «طبعا» وأخذ يعدد كل الصفات التى

كان من الواضح أن الراني تفتقر اليها ، وقال «هناك أيضا الاخلاص ، والصدق ، والتواضع ، والايثار ...» .

وقالت الراني بحدة «لقد نسيت الطهارة» وأكدت على هذه الكلمة «الطهارة أساسية ، الطهارة شيء لابد منه » .

« ولكنى فهمت أنهم هنا فى بالا لايرون هذا الرأى ، فقالت الرانى «انهم بالتأكيد لايرون ذلك» . واستطردت تذكر له كيف ان وليدها قد عرض عمدا للنجاسة ، بل لقد شجعوه ايجابيا على الاسترسال فيها مع احدى الفتيات اللائى نضجن قبل الأوان وسلكن سلوكا فوضويا وفى بالا الكثيرات منهن ، ولما عرفوا أنه ليس من طراز الفتيان الذين يغررون بالبنات (لأنها نشأته على أن يعتبر المرأة مقدسة بالضرورة) شجعوا الفتاة على أن تبذل جهدها لكى تغرر به .

وتعجب ويل فى نفسه متسائلا وهل نجحت معه الفتاة ؟ أم هل قام اصدقاؤه الذين فى مثل سنه بتحصينه ضد الميل الى البنات ، أو قام به بصورة أكثر فعالية واحد ممن يكبرون أنطونيوس أكثر خبرة وأشد فسادا ، سويسرى سبق الكولونيل ديبا ؟

وأخفضت الرانى صوتها وقالت الى حد الهمس الذى تسمعه على المسرح تعبيرا عن الفزع « لم يكن ذلك أسوأ ماحدث . فان احدى الامهات فى لجنة الوصاية ــ وألفت النظر الى أنها من الامهات ــ نصحته أن يتلقى بعض الدروس » .

« أى نوع من أنواع الدروس ؟ »

وغضنت أنفها كأنها تشم رائحة المجارى وقالت «دروس

فيما يتحشمون ويسمونه الحب» وتحول اشمئزازها الى سخط وقالت «دروس ــ اسمح لى أن أقول ــ من امرأة أكبر سنا» ٠

وصاح السفير «رحماك يارب» ٠

وردد ويل بعده على سبيل الواجب «رحماك يارب !» وكان يدرك أن هؤلاء النسوة المسنات كن فى عين الرانى منافسات أشد خطورة حتى من أكثر الفتيات الفوضويات ممن نضجن قبل الأوان ٠ فمعلمة الحب البالغة تكون اما منافسة ، تتمتع بميزة الحرية فى تجاوز حدود التحريم ، وهذا أمر بشع لايجوز ٠

وفى شىء من التردد قالت الرانى «انهن يقمن بتعليم طرق خاصة» ٠

واستفسر ويل «أى طرق تقصدين ؟»

ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على الخوض فى التفصيلات المنفرة ٠ ومع ذلك فان ذلك لم يكن ضروريا لان موروجان (بارك الله فيه) رفض أن يستمع الى هذه الدروس٠ دروس فى الفسق من امرأة يصح أن تكون له أما ــ ان مجرد الفكرة أصابته بالتقزز ٠ ولا عجب ، فلقد نشأ على احترام مبدأ الطهارة ٠ «هل تعرف معنى براهما شاريا ؟»

قال ويل «نعم» ٠

« وهذا سبب آخر جعل مرضه نعمة غير منظورة ، رحمة من الله حقا جاءت فى حينها ٠ ولا أظن أنى كنت أستطيع أن أربيه هكذا فى بالا ، فهنا كثير من المؤثرات السيئة ٠ هنا

قوى تعمل ضـــد الطهارة ، وضـــد الأسرة ، بل وضـــد محبة الأم » ٠

وسدد ويل آذنيه ليحسن الاصغاء وقال :

« هل أصلحوا حتى الامهات ؟ »

وأومأت برأسها ايجابا وقالت «انك لاتتصور الى أى حد وصلت الأمور هنا ٠ ولكن كوت هومى كان يعلم الاخطار التى لابد أن نلاقيها فى بالا ٠ فماذا يحـــدث ؟ يمـــرض وليدى وينصحنا الأطباء بالعودة الى سويسره لكى نبتعد عن الأذى» ٠

وسألها ويل «كيف سمح لك كوت هومى بالقيام بحملتك الروحية ؟ ألم ير ماذا كان عساه أن يحدث لموروجان بمجرد أن توليه ظهرك ؟»

وقالت الرانى «كان يرى كل شىء ٠ المغريات ، والمقاومة ، والهجوم المكثف الذى تقوم به قوى الشر مجتمعة ، ثم الخلاص فى اللحظة الأخـــيرة» ٠ وأضـــافت لمزيد من الايضـــاح «أن موروجان لم يخبرنى بما كان يحدث ٠ ولكن بعد ثلاثة أشهر أمست هجمات قوى الشر أقوى مما يحتمل ٠ وصدرت عنـــه بعض التلميحات غير أنى كنت مستغرقة تماما فيما كلفنى به (سيدى) فلم أعيرها التفاتا ٠ وأخيرا كتب الى خطابا شرح فيه الأمر كله تفصيلا ٠ فألغيت محـــاضراتى الأربع الأخيرة فى البرازيل وطرت الى بلدى بأسرع ما استطاعت طائرات الجت أن تحملنى ٠ وبعد مضى اسبوع عدنا الى سويسره ٠ وليدى وأنا وحدنا وكنا مع (السيد) » ٠

واغمضت عينيها ، وبدت على وجهها لمحة من نشوة التأمل والتفكير ٠ وصرف ويل نظـــره مشمئزا ٠ هـــذه المرأة التى

قدست نفسها لانها ظنت أنها سوف تخلص العالم ، هذه الأم التى تتشبث بابنها وتلتهمه التهاما ـ هلا نظرت الى نفسها لحظة كما ينظر اليها الناس ؟ هل لديها أدنى فكرة عما فعلت، وعما لاتزال تفعل ، بابنها الصغير المسكين التافه ؟ أما عن السؤال الأول فالاجابة بالنفى قطعا ، أما عن السؤال الثانى فليس بوسع المرء الا أن يفكر • ربما كانت تجهل حقا مافعلت بالفتى • ولكن ربما ـ أيضا ـ كانت على علم به • ربما عرفت وآثرت ماكان يحدث مع الكولونيل على ماكان يمكن أن يحدث لو قامت على تربية الصبى امرأة ، فالمرأة قد تحل محلها ، أما الكولونيل فلقد كانت تعرف أنه لن يفعل ذلك •

« وقال لى موروجان ان فى نيته أن يصلح هذه التى يزعمون انها اصلاحات » •

وقالت الرانى بنغمة ذكرت ويل بجده رئيس الشمامسة «ليس بوسعى الا أن أدعو الله أن يمنحه القوة والحكمة ليفعل ذلك » •

وسألها ويل «وماذا تظنين بمشروعاته الأخرى : البترول، والصناعات ، والجيش ؟»

وضحكت ضحكة خفيفة لتذكره بأنه يتحدث الى شخص مر بالمرحلة الرابعة ثم قالت «أنا لا أكترث كثيرا بالاقتصاد والسياسة • اسأل باهو عن رأيه» •

وقال السفير «لا أملك الحق فى أن أبدى رأيا ، فأنا غريب أمثل دولة أجنبية» •

وقالت الرانى «ليست أجنبية جدا» •

« فى عينيك ياسيدتى ، وفى عينى كما تعلمين جيدا . ولكنها فى عين حكومة بالا أجنبية تماما » .

وقال ويل « ولكن ذلك لايمنعك من أن يكون لك رأى . انه يمنعك فقط من أن تعتنق الآراء المحليـة المعتمـدة» ثم أضاف «وبهذه المناسبة أنا لست هنا بصفتى المهنية ، ولا أنت معى فى مقابلة صـحافية أيها السـفير . كل ذلك بعيد كل البعد عن التسجيل» .

« بعيد كل البعد عن التسجيل ، لذلك وبصفتى الشخصية وحدها وليس بصفتى الرسمية ، أقول انى أعتقد أن صديقنا الصغير على أتم صواب» .

« ومعنى ذلك طبعا انك تعتقد أن سياسة حكومة بالا خطأ تماما » .

وقال مستر باهو ، وقد ضحك ضحكة فولتيرية تلألأ معها قناع سافوناورلا العظمى الحاسم «انها تعد خطأ تماما لانها على أتم صواب» .

وقالت الرانى محتجة «صواب !»

قال «بل أتم صواب لانها رسمت تماما بحيث يصبح كل رجل وكل امرأة وكل طفل فوق هذه الجزيرة الساحرة على أتم مايمكن أن يكون حرا وسعيدا» .

وصاحت الرانى «ولكنها السـعادة الزائفة ، وحـرية (النفس الدنيا) » .

وقال السفير وقد انحنى كما يملى عليه الواجب «اننى أنحنى لبعد نظرك الثاقب ياصاحبة السمو . ولكن السعادة مع

ذلك هى السعادة زائفة أو صحيحة ، والحرية ممتعة للغاية علا مستواها أو هبط · وليس من شك فى أن السياسة التى شرعها المصلحون الأولون والتى تطورت مع مرور السنين كانت ملائمة ــ بصورة تدعو للاعجاب ــ لتحقيق هذين الهدفين» ·

وقال ويل « وهل تحس أن هذين الهدفين غير مستحبين ؟»

« بل على العكس من ذلك ، كل امرىء يحبهما ، ولكنهما لسوء الحظ لم يعودا مناسبين ، وقد باتا غير متلاءمين بتاتا مع الموقف الراهن فى العالم بعامة وفى بالا بخاصة » ·

« وهل هما اليوم أشد تنافرا مع الظروف مماكانا عليه عندما بدأ المصلحون يعملون على توفير الحرية والسعادة ؟»

وأومأ السفير برأسه ايجابا وقال «فى تلك الايام كانت بالا ماتزال مختفية فى خريطة العالم ، فكانت فكرة تحويلها الى واحة من الحرية والسعادة أمرا معقولا · ان المجتمع المثالى يمكن أن يعيش مادام منقطع الصلة عن بقية العالم · ولقد كانت بالا قابلة تماما للحياة حتى عام ١٩٠٥ · ولكن الدنيا تغيرت تماما بعد ذلك فى أقل من جيل واحد · الصور المتحركة ، والعربات ، والطائرات ، والراديو ، والانتاج الكبير ، والمذابح الكبرى ، والاتصال الجماهيرى ، وفوق هذا كله مجرد الضخامة ــ تزايد السكان فى أحياء الفقراء وفى الضواحى التى أخذت تتضخم وتتزايد · وما أن حل عام ١٩٣٠ حتى كان بمستطاع أى مشاهد ثاقب النظر أن يرى الحرية والسعادة أمران لايتحققان لثلاثة أرباع الجنس البشرى · والآن وبعد مرور ثلاثين سنة أخرى أصبحا أبعد عن

امكان التحقيق • ثم ان العاالم الخارجى قد أخذ يقترب من هذه الجزيرة الصغيرة جزيرة الحرية والسعادة • أخذ يقترب باطراد وفى غير تراخ • وما كان مثاليا قابلا للحياة لم يعد اليوم كذلك» •

« ولذلك وجب أن تتغير بالا ــ هل هذا هو ماتوصلت اليه ؟ »

وطأطأ باهو رأسه وقال «تتغير تغيرا جذريا» •

وقالت الرانى بحماسة المتنبىء السادى «تتغير جذورا وفروعا» •

وواصل باهو حديثه قائلا «وذلك لسببين مقنعين ، أولهما أنه ليس بالامكان لبالا أن تبقى مختلفة عن بقية العالم ، وثانيهما أنه ليس من حقها أن تختلف» •

« ليس من حق الناس أن يكونوا أحرارا وسعداء ؟ »

ومرة أخرى قالت الرانى شيئا موحيا عنالسعادة الزائفة والحرية الباطلة •

وتقبل مستر باهو مقاطعتها باحترام ، ثم نظر الى ويل •

وقال فى اصرار « ليس من الصواب أن تزهو بما أنعم عليك فى وجه هذه الكثرة من البائسين • هذه مباهاة وقحة ، واهانة مقصودة لبقية البشر ، بل ان ذلك كفران بنعمة الله » •

وتمتمت الرانى فى شغف شديد وقالت «الله ، الله •••»

ثم فتحت عينيها وقالت «ان القــوم هنــا فى بالا لايؤمنــون بالهكم . ولا يعتقدون الا فى التنويم المغناطيسى وفى وحدة الوجود وفى الحب الذى لاتقيده حــدود» وأكدت على هــذه الكلمات فى سخط واشمئزاز •

وقال ويــل «ولذلك فأنت الآن تقترحــين أن تجعليهم أشقياء أملا فى أن يستردوا بذلك ايمانهم بالله • هذه طريقة للهداية ، وربما أفلحت ، وربما كانت الغاية تبرر الوسيلة» • ثم هز كتفيه وأضاف قوله «ولكنى أرى أن هــذا الأمر سوف يحدث لا محالة ، خيرا كان أم شرا ، وبغض النظر عما يحسه أهــل بالا ازاءه • وليس من الضرورى أن يكون المــرء من الانبياء لكى يتكهن بأن موروجان سوف ينجح ، فهو يعتلى موجة المستقبل ، وموجة المستقبل هى من غير شك موجة البترول الخام • وبمناسبة الحديث عن الخــامية وعن البترول « وهنا وجه نظره نحو الرانى» أقــول اننى أعلم أنك على معــرفة بصديقى القديم جو الديهايد » •

« هل تعرف اللورد الديهايد ؟ »

« جيدا » •

ثم أغمضت عينيها ثانية وابتسمت لنفسها وهزت رأسها فى بطء وقالت «ولذلك كان صــوتى الضعيف ملحا ! لقــد فهمت » • وبنغمة أخرى سألته :

« كيف حال هذا الرجل العزيز ؟ »

وأكد لها ويل «انه لايزال على صفاته» •

« ويالها من صفات نادرة • أنا أسميه الرجل صاحب الطائرة الورقية (قالت ذلك بالفرنسية) » •

وتحير ويل وقال «صاحب الطائرة الورقية ؟»

وشرحت ماتعنى وقالت «انه يقوم بعمله هنـا ، ولكنه يمسك بخيط فى يده ، وفى طرف الخيط الآخر ترتبط الطائرة الورقية ، وهى تحـاول دائما أن تطـير الى أعلى وأعلى والى (الأعلى) • وحتى وهـو يؤدى عمله يحس الجـذب الدائم الى أعلى ، يحس أن الروح فى شد وجذب مع البدن • عجبا ! رجل من رجال الأعمال ، ومن أقطاب الصـناعة ــ ومع ذلك فان الشيء الوحيد الذى يهمه حقا هو خلود الروح» •

وبزغ الضياء • لقد كانت هذه المرأة تتحدث عن ادمان الديهـايد للروحانية • فتذكر تلك الجلسات الاسـبوعية مع السـيدة هاربوتل الاوتوماتية (التى تطلق لعقلها البـاطن العنان يعبر عن نفسه) ومع السـيدة بيم التى كان يسـيطر عليها هندى كايوى يدعى باوبو) ومع الآنسة تيوك وبوقها المصقول الذى تخرج منه فى همس له صرير كلمات كهنوتية يدونها بالخط المختزل السكرتير الخاص لجـو وتقـول «اشتر الاسمنت الاسترالى ، ولا تنزعج لهبوط أسعار أطعمة الافطار، تخل عن أربعين فى المائة من أسهمك فى المطاط واستثمر المال فى شركة أ•ب•م وفى وستنجهاوس ••• » •

وسألها ويل «وهل أخبرك عن ذلك السمسار الراحل الذى كان يعرف دائما موقف السوق فى الاسبوع التالى ؟»

وقالت رانى منغمسة فى أفكارها «هذه مزايا روحية ، مجرد مزايا روحية • ماذا كنت تتوقع غير ذلك • ومع ذلك

فقد كان من المبتدئين فقط ، وفي الحياة الراهنة التجارة هي عمله في الدنيا الذي يحاسب عليه (هورما) • وقد كتب عليه أن يقوم بما أداه وما يؤديه وما سوف يؤديه» • ثم أضافت مؤكدة بعد ما توقفت قليلا وكأنها تصغي ، ورفعت اصبعها ومالت برأسها «وماسوف يؤديه ــ كما يحدثني صوتي الضعيف ــ يتضمن أشياء عظيمة وعجيبة هنا في بالا» •

ويالها من طريقة روحية لقولها هذا ما أريد أن يحدث! لا كما أشاء ولكن كما يشاء الله ــ ولحسن المصادفة مشيئة الله تتفق دائما ومشيئتي • وضحك ويل في نفسه ولكنه احتفظ برأسه مستقيمة كأشد ماتكون الاستقامة •

وسألها «وهل ينبئك صوتك الضعيف بشيء عن شركة جنوب شرقي آسيا للبترول ؟»

وأصغت الراني مرة أخرى ، ثم أومأت برأسها وقالت «بكل وضوح» •

قال ويل «ولكني علمت أن الكولونيل ديبا لايذكر سوى شركة ستاندارد بكلفورنيا» • واستطرد سائلا «وبهذه المناسبة ، لماذا تهتم بالا كل هذا الاهتمام بميل الكولونيل الى شركات البترول ؟ »

وقال مستر باهو بصوت رنان «ان حكومتي تفكر في اطار خطة خمسية للتعاون والتنسيق الاقتصادي بين مجموعة الجزر» •

« وهل هذا التعاون والتنسيق بين مجموعة الجزر يعني أن تمنح شركة ستاندارد حق الاحتكار ؟»

« اذا ماكانت شروط شركة ستاندارد أفضل من شروط منافسيها» •

وقالت الرانى «أو بعبارة أخرى اذا لم يتقدم أحد بعرض مالى أفضل » •

وقال لها ويل «كنت قبل مجيئك الى هنا أتحدث مع موروجان فى هذا الموضوع • قلت له ان شركة جنوب شرقى آسيا للبترول مستعدة لأن تعطى راندنج ماتقدمه لها ستاندارد مع زيادة قليلة » •

« خمسة عشر فى المائة زيادة ؟ »

« لنجعلها عشرة فى المائة » •

« لتكن اثنا عشر ونصف فى المائة » •

ونظر اليها ويل فى اعجاب • وكانت — اذا أخذنا فى اعتبارنا انها بلغت المرحلة الرابعة — رائعة حقا •

وقال «سوف يصرخ جو الديهايد من الألم ، ولكنك سوف تحصلين على الأثنى عشر فى المائة التى تخصك ، وأنا على يقين من ذلك » •

وقال مستر باهو «سوف يكون هذا بالتأكيد اقتراحا جذابا » •

« العقبة الوحيدة هى أن حكومة بالا لن تقبله » •

وقالت الرانى «إن حكومة بالا سوف تتغير سياستها عما قريب» •

« هل تظنين ذلك ؟ »

وأجابت الرانى فى نغمة دلت تماما على أن معلوماتها قد أتتها رأسا من فم (السيد) اذ قالت «أنا لا أظن ، أنا (أعرف) » .

وسألها ويل «وهل يساعدنا فى شيء عندما تتغير السياسة اذا كان الكولونيل ديبا يوصى بشركة جنوب شرقى آسيا للبترول بكلمة منه طيبة ؟ »

« لاشك فى ذلك » .

واتجه ويل ببصره الى باهو «وهل أنت مستعد سيدى السفير أن توصى خيرا لدى الكولونيل ديبا ؟»

ورد المستر باهو ردا دبلوماسيا مراوغا صاغة فى كلمات مركبة كأنه يخاطب جمعية عمومية لاحدى المنظمات الدولية ، وذلك حين قال «نعم من ناحية ، ولا من ناحية أخرى . الأمر من جهة يبدو أبيض ، ومن زاوية أخرى يبدو اسود فاحما » .

وأصغى ويل فى صمت وأدب ، واستطاع أن يرى وأن يسمع ــ من وراء قناع سافونارولا ، ومن خلف المنظار الارستقراطى الذى يغطى عينا واحدة ، ومن خلال لغة السفراء ــ السمسار الشرقى الذى يطلب العمولة ، وينتظر النفحة التى يرجوها فى ذلة رسمية حقيرة . وكم توعد جلالة الرانى التى تنتسب عضوا فى جماعة دينية لقاء حماستها لرعاية شركة جنوب شرقى آسيا للبترول ؟ انه يراهن على أن المبلغ كبير جدا ، لا لشخصها طبعا ، كلا ، كلا ! ولكن للحملة الدينية ، من أجل مجد أكبر لكوت هومى من غير شك .

وقد بلغ مستر باهو نهاية خطابه أمام المنظمة الدولية

وذلك حين قال «ويجب لذلك أن يكون مفهــوما أن أى عمــل ايجابى من جانبه لابد أن تحكمه الظروف كلما وحينما واذا تبينت هذه الظروف • وأرجو أن يكون كلامى واضحا» •

وأكد له ويل «انه غاية فى الوضوح» ، وواصل حديثه بصراحة تعمد أن يجافى بها اللياقة قائلا «دعـونى أشرح موقفى من هذا الموضوع • كل مايهمنى أنا شخصيا هو المال• ألفان من الجنيهات دون أن أؤدى نظير ذلك عملا ما ، وعاما من السرية لكى أعاون فيـه جو الديهايد فى وضع يده على بالا » •

وقالت الرانى « ان اللورد الديهايد رجل كريم الى درجة تلفت النظر » •

ووافقهـا ويل قائلا «نعم تلفت النظر اذا أخـذنا فى اعتبارنا العمل الضئيل الذى أستطيع أن أقوم به فى هـذه المسألة • وليست بى حاجة الى القول أنه يكون أكثر كرما لأى امرىء يقدم له معونة أكبر» •

وساد صمت طويل • ومن بعيد كان طائر المينة يدعو فى رتابة الى الانتباه • انتباه الى الجشـع ، وانتباه الى النفاق ، وانتباه الى السخرية الرخيصة ••• ثم سمعوا طـرقا على الباب •

وقال ويل «ادخـل» ثم التفت الى مســتر باهو وقال له «لنواصل هذا الحديث فى وقت آخر» •

وهز باهو رأسه قبولا •

وأعاد ويل قوله «ادخل» •

ودخلت الغرفة فتاة في أواخر العقد الثاني من عمرها تخطو خطى رشيقة وترتدى في نصفها الأسفل ثوبا أزرق اللون وفي أعلى سترة من غير أزرار تعرى وسطها ولا تغطى الا حينا بعد حين ثديين فى استدارة التفاح • وعلى وجهها الاسمر الناعم ابتسامة تحية صداقة شديدة ، وعلى جانبى الابتسامة غمازتان فى خديها • وبدأت كلامها بقولها «أنا الممرضة أبو ، رادا أبو» ووقعت عينها على زائرى ويل فأسرعت قائلة «عفوا ، لم أكن أعرف ...»

وأشارت الى الرانى فى غير مبالاة •

أما مستر باهو فقد نهض قائما مجاملة منه وصاح فى حماسة قائلا «الممرضة أبو • هذا الملاك الصغير المسعف من مستشفى شيفابورام • يالها من مفاجأة سارة ! »

وكان واضحا لويل أن المفاجأة لم تكن البتة سارة للفتاة •

وقالت دون أن تبتسم «كيف حالك يامستر باهو» وسرعان ما التفتت الى جهةأخرى وبدأت تشغل نفسها بأحزمة الحقيبة المصنوعة من القنب والتى كانت تحملها •

وقال مستر باهو «ربما نسيت ياصاحبة السمو أننيكان لابد لى فى الصيف الماضى من عملية جراحية» ثم قال على وجه التحديد «عملية فتق» • وقد اعتادت هذه السيدة الشابة أن تأتينى كل صباح وتقوم بغسلى • وكان ذلك بالضبط فى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة • وبعد اختفائها كل هذه الشهور ها هى ذى الآن مرة أخرى ! »

وقالت الرانى وكأنها تتلقى وحيا «التزامن جزء من خطة كبرى» .

وقالت الممرضة الصغيرة وقد وجهت بصرها الى أعلى بعيدا عن حقيبة العمل ، وهى لاتزال تبتسم «مفروض على أن أعطى حقنة لمستر فارنبى» .

وصاحت الرانى وقد غالت فى أداء دورها الملكى متظاهرة بالملاطفة والمداعبة قائلة «أوامر الطبيب أوامر لابد أن تطاع ، وأضافت قولها :

« السمع طاعة ، ولكن أين سائقى ؟ »

ونادى صوت مألوف قائلا «سائقك هنا» .

وكان موروجان واقفا بالباب وكأنه فى جماله صورة لجانيميد (١) . وبدت على وجه الممرضة الصغيرة لمحة من السرور .

وعبرت بمجاملة أخرى ، اما يأخذها علامة على الاحترام، واما يعتبرها استهزاء وسخرية ، وذلك حين قالت .

« أهلا موروجان ـ أقصد ياصاحب السمو » .

وقال الفتى بنغمة قصد بها أن تكون التحية عارضة من بعيد «أهلا يارادا» وسار الى حيث كانت تجلس أمه مارا بها ، وقال «العربة عند الباب ، أو الأخرى أن أقول ماتسمينه عربة» وبضحكة تهكمية قال موجها حديثه الى ويل «انها من طراز أوستن الصغيرة من انتاج عام ١٩٥٤ . وهى أحسن

(١) ساقى الآلهة فى الميثولوجيا اليونانية ـ المترجم

مايمكن أن يقدمه هذا البلد المتقدم فى الحضارة لأفراد العائلة الملكية» • وأضاف فى مرارة «أما راندنج فتعطى سفيرها بنتلى »

وقال مستر باهو وقد نظر الى ساعته «هذه البنتلى سوف تأتينا الى هنا بعد عشر دقائق • فهل لى أن أستسمحك ياصاحبة السمو فى الانصراف ؟»

ومدت الرانى يدها ، وانحنى نحوها بكل الورع الذى يبديه كاثوليكي مخلص حينما يقبل خاتم الكاردينال ، ثم اعتدل قائما والتفت الى ويل •

« أعتقد ـ وقد أكون مخطئا ـ آن مستر فارنبى يستطيع أن يحتملنى لفترة قصيرة أخرى ، فهل أبقى ؟»

وأكد له ويل أنه يسر لبقائه •

وقال مستر باهو للممرضة الصغيرة «وأرجو ألا يكون هناك اعتراض من الوجهة الطبية» •

وقالت الفتاة بنغمة تنم عن وجود موانع قوية لاتقوم على أساس طبى «ليس من الوجهة الطبية» •

وبمساعدة موروجان قامت الرانى من فوق كرسيها منتصبة ، ومدت يدها المحلاة بالجواهر وقالت بالفرنسية «الى اللقاء ياعزيزى فارنبى» • وابتسمت ابتسامة حلوة رأى فيها ويل الخطر الأكيد كل الخطر •

« مع السلامة يامدام » •

واتجهت نحو الممرضة وربتت على خدها ومرقت من الغرفة • وتبعها موروجان كالقارب الصغير الذى يسير خلف سفينة كبرى منتفخة الشراع •

وبعد أن انغلق الباب وراءهما انفجرت الممرضة الصغيرة وقالت « يا الهى ! »

وقال ويل « وأنا على اتفاق تام معك » .

وتلألأ الضوء الفولتيرى لحظة على وجه باهو الانجيلى ، وكرر قوله «يا الهى !» ثم أردف قائلا «ذلك ماتفوه به تلميذ انجليزى عندما رأى الهرم الأكبر لأول مرة . والرانى تترك فى الرائى نفس الأثر . انها أشبه بالأثر الضخم» . وأخذ الضوء المتلألىء يختفى وعاد وجه باهو كوجه سافونارولا تماما لا لبس فيه ، وأمست كلماته ــ بصورة واضحة ــ صالحة للنشر .

وبدأت الممرضة الصغيرة فجأة تضحك .

وسألها ويل « مايضحكك ؟ »

فقالت وهى تلهث «لقد شهدت (الهرم الأكبر) بغتة مرتديا الموصلين الأبيض . وهو الرداء الذى يسميه الدكتور روبرت الكسوة الصوفية» .

وقال مستر باهو «وصف بارع ، بارع جدا» ومع ذلك فقد أضاف بصيغة دبلوماسية «لست أرى لماذا لايلبس المتصوفون الكساوى البيضاء ان راق لهم ذلك» .

وتنهدت الممرضة الصغيرة تنهدا عميقا ، ومسحت دموع

الفـرح التى تقاطرت من عينيها ، وشرعت تسـتعد لاعطاء المريض حقنته •

ووجهت خطابها الى ويل قائلة له «اعرف تماما مايدور فى خلدك • أنت ترانى أصغر من أن أتقن عملا» •

« أنا بالطبع أرى أنك صغيرة جدا » •

« أنتم تلتحقون بالجامعة فى الثامنة عشرة وتمكثون بها أربع سنوات • أما نحن فنبدأ فى السادسة عشرة ونواصل الدراسة حتى نبلغ الرابعة والعشرين ــ ننفق نصف الوقت فى الدراسة ونصفه الآخر فى العمل • كنت أدرس علم الأحياء وأقوم فى نفس الوقت بهذا العمل لمدة عامين • ولذلك فلست بتلك الغفلة التى قد تبدو لك • والواقع أنى ممرضة أتقن عملى» •

وقال مستر باهو «هذا كلام أؤيده بغير تحفظ • الآنسة رادا ليست فقط ممرضة تتقن عملهـا ، بل هى ممرضة من الطراز الأول قطعا » •

غير أن ما عناه حقا ــ كمـا تيقن ويل وهـو يتمعن فى الملامح التى بدت على ذلك الوجه الذى يشبه وجه الراهب أمام الاغراء الشديد ــ هو أن الآنسة رادا كان لها خصر من الطراز الأول ، وسرة من الطراز الأول ، وثديان من الطراز الأول • ولكن صاحبة السرة والخصر والثديين قد استنكرت كما بدا بوضوح اعجاب سافوناورلا ، أو استنكرت على الأقل الاسلوب الذى عبر به عن اعجـابه • وقد غالى السـفير الذى قابلته بالصدود فى أمله فى رد الهجوم •

وأشعلت الممرضة المصباح الغازى لتغلى الابرة فوق ناره، وكانت فى هذا الوقت تقيس حرارة مريضها ٠

وقالت «٩٩ر٢» ٠

وسألها مستر باهو «وهل يعنى ذلك أنى لابد أن أبعد ؟» وردت عليه الفتاة بقولها «ليس بسببه» ٠

قال ويل «لذلك أرجوك أن تبقى» ٠

وأعطته الممرضة الحقنة المضادة للحيويات ، وأخرجت من احدى الزجاجات التى كانت فى حقيبتها سائلا أخضر اللون وصبت منه ملء ملعقة ورجت المحلول في نصف كوب من المـاء ٠

« اشرب هذا » ٠

وكان مذاقه شبيها بالمخلوطات العشبية التى يستبدلها بالشاى المتحمسون للتغذية الصحية ٠

وسألها ويل « ماهذا » ٠

وقالت انه مستخرج من نبات جبلى من فصيلة الناردين (عقار مهدىء للأعصاب) ٠

واستطردت الممرضة الصغيرة قائلة «انه يساعد على أزالة القلق دون أن يحصل من يتعاطاه على النوم ٠ ونحن نعطيه المناقهين ، كما أنه يفيد فى الحالات العقلية» ٠

«ومن أى الفئتين أكون ؟ العقليين أم الناقهين ؟»

وردت بغير تردد «كلاهما» ٠

وضحك ويل ضحكة عالية وقال «هـذا جزاء من يطلب الثناء» •

وأكدت له «أنها لم تقصد أن تكون فظـة في كلامها» • واضافت «كل ماقصدت أني لم أقابل قط انسانا من الخارج ليس حالة من الحالات العقلية» •

« ومنهم السفير ؟ »

ووضعت السائل موضع المسئول حين قالت «ومارأيك أنت ؟ »

وأحال ويل الأمر الى مستر باهو وقال له «أنت خبير في هذا المجال » •

وقالت الممرضة الصغيرة «سويا الأمر بينكما • اذ على أن أنصرف لكي أعد طعام المريض » •

وراقبها مستر باهو وهي تنصرف ، ثم رفع حاجبه الأيسر وأسقط منظاره وشرع بطـريقة نظامية في تنظيف العدسة بمنديله ، وقال لويل «أنت منحرف بصورة ما ، وأنا منحرف بصورة أخرى • أنت فصامي (ألست كـذلك ؟) وأنا ــ من الطرف الآخر في الدنيا ــ مصاب بجنون العظمة • وكلانا من ضحايا أوبئة القرن العشرين • وليس الوباء هذه المرة هـو (الموت الاسود) ، انما هو (الموت الرمادي) • وبعد لحظة من الصمت سـأل صـاحبه «ألم تهمك السـلطة في أي وقت من الأوقات ؟»

وهز ويل رأسه مؤكدا وقال «مطلقا • لايمكن للمرء أن يملك السلطة ولا يلتزم» •

« والفزع من الالتزام بالنسبة اليك أشد من المتعة التى تحسها فى ازاحة الناس من حولك ؟ »

« بآلاف المرات » ·

« ولذلك لم تــكن الســلطة تغــــريك فى أى وقت من الأوقات » ·

وقال ويل «أبدا» وبعد فترة من السكون أضاف بنغمة أخرى «دعنا نتحدث فى العمل» ·

وردد باهو قوله «الى العمل · اذكر لى شيئا عن اللورد الديهايد» ·

«انه كما قالت الرانى رجل كريم بشكل ملحوظ» ·

«لاتهمنى فضائله ، يهمنى ذكاؤه فقط · الى أى حد هو حاد الذكاء ؟»

« تبلغ به حدة الذكاء أن يدرك أن المرء لايؤدى عمــلا بغير مقابل » ·

وقال مستر باهو «حسنا · انقل له عنى أن العمل الفعال الذى يقوم به الخبراء فى المواضع الاستراتيجية يقتضيه أن يتأهب لكى يدفع لك على الأقل عشرة أمثال ماســوف يدفعه لك » ·

« سوف أحرر له خطابا بهذا الشأن » ·

ونصحه مستر باهو «أن يفعل ذلك اليوم» وأضاف «لأن الطائرة تغادر شيفابورام غدا مساء ، ولن يصدر بعد ذلك بريد لمدة أسبوع كامل » ·

وقال ويل « أشكرك على ما أخبرتني به • والآن بعد ما انصرفت صاحبة السمو وذلك المراهق الذى يصدم لكل شيء دعنا نتحدث فى لون آخر من الاغراء • ماذا ترى فى الجنس ؟ »

وبيد عظمية سمراء تتحرك الى الامام والى الخلف أمام وجهه قام مستر باهو بحركة تشبه مايفعله المرء عندما يريد أن يتخلص من مجموعة من الحشرات المزعجة وقال «الجنس لايعدو أن يكون لونا من ألوان التسلية • وهو مصدر للاغاظة يضايق ويذل ، ولكن الرجل الذكى يستطيع دائما أن يتصدى له » •

وقال ويل «ما أشق أن يدرك المرء رذائل الآخرين» •

« صدقت • وعلى المرء أن يلتزم بالخطأ الذى يبتليه الله به — وهذا ماكان ينصح به لوثر • ومن المهم ألا يأثم المرء غير اثمه ، لا اثم غيره • وفوق هذا كله لاتفعل مايفعله أهل هذه الجزيرة • لا تحاول أن تتصرف وكأنك بالضرورة عاقل وبالطبيعة فاضل • كلنا آثم معتوه نركب سفينة واحدة والسفينة غارقة دائما» •

« وعلى الرغم من ذلك فانه ليس لمخلوق مهما يكن تافها أن يترك السفينة • هل هذا ماتريد أن تقول ؟»

« قليل منهم يحاول أحيانا أن يتركها ، ولكنهم لايذهبون بعيدا • فان التاريخ والمخلوقات التافهة الاخرى يتكفلون باغراقهم مع الآخرين • ولذلك ليس لبالا أدنى فرصة» •

وعادت الى الغرفة الممرضة الصغيرة حاملة صينية •

وقالت وهى تربط ممسحة حول عنق ويل «هذا كله طعام بوذى ماخلا السمك ، ولكننا قررنا أن تكون الأسماك من الخضراوات من الناحية العملية » •

وشرع ويل فى تناول الطعام •

وبعد ما ابتلع ما ملأ به فاه أولا سألها قائلا «كم من الأجانب قابلت فى حياتك باستثناء الرانى وموروجان وأنا وصاحبى هنا ؟ »

وأجابت قائلة «قابلت مجموعة الاطباء الامريكان • جاءوا الى شيفابورام فى العام الماضى حينما كنت أعمل بالمستشفى المركزى» •

«وماذا كانوا يفعلون هنا ؟ »

« أرادوا أن يعرفوا لماذا تنخفض عندنا نسبة الاصابة بالأمراض العصبية والشرايين القلبية ــ عجبا لهؤلاء الاطباء !» وهزت رأسها ثم قالت «لقد أفزعونى حقا يامستر فارنبى ، وأفزعوا كل من بالمستشفى» •

« ولذلك أنت ترين أن الطب عندنا بدائى جدا » •

« هذا وصف خاطىء • انه ليس بدائيا • انه اما مريع واما منعدم • المضادات الحيوية مدهشة ــ ولكن ليست هناك البتة وسائل لزيادة المقاومة حتى لاتعوت للمضادات الحيوية ضرورة • والعمليات الجراحية خيالية ــ ولكن اذا نظرنا الى تعليم الناس كيف يسلكون فى حياتهم دون أن تقطع من جسمهم أجزاء لم نجد شيئا بتاتا • وهكذا على طول الخط • درجة الامتياز لرتقك اذا تقطعت أوصالك ، وفشل ذريع فى

الحفاظ على صحتك · اذا استبعدنا نظم المجارى والفيتامينات المركبة يبدو أنكم لم تفعلوا البتة شيئا فى سبيل الوقاية ، ومع ذلك يقول المثل عندكم (الوقاية خير من العلاج) » ·

قال ويل «ولكن العلاج يدعو الى الاعجاب أكثر مما تدعو اليه الوقاية · كما أنه يجلب للاطباء كسبا أكثر» ·

وقالت الممرضة الصغيرة «ربما صح ذلك بالنسبة للاطباء عندكم ، ولكنه لايصح عندنا فأطباؤنا يتقاضون أجورهم للحفاظ على صحة الناس» ·

« وكيف يتم ذلك ؟ »

« لقد سألنا أنفسنا هذا السؤال مائة عام ، ووجدنا له اجابات عدة · اجابات كيماوية ، واجابات سيكولوجية ، واجابات تتعلق بما تأكل ، وكيف تمارس الحب ، وما تسمع وما ترى ، واحساسك بمن تكون فى هذا العالم» ·

« وأى الاجابات أفضل ؟ »

« لاتكون احداها أفضل بغير الاجابات الاخرى » ·

« أى أنه ليس لديكم دواء لكل داء » ·

« وهل يمكن أن يكون هناك ؟ ثم روت الانشودة الصغيرة التى تحفظها كل طالبة تمريض عن ظهر قلب منذ اليوم الأول من تدريبها ، وهى :

« أنا جمهور
أخضع لعدد من القوانين
بمقدار ماعندى من أفراد

كل كائناتي كيمائيا ملوثة
وليس هناك علاج واحد
لما يستحيل أن يخضع لسبب واحد »

« ولذلك فنحن نحارب في جميع الجبهات ، سواء كان الأمر وقاية أم علاجا » وأكدت قولها «جميع الجبهات : من نظام التغذية الى الايحاء الذاتي ، ومن الأيونات السلبية الى التأمل والتفكير» .

وعلق على ذلك ويل بقوله «معقول جدا» .

وقال باهو «ربما كان أكثر من معقول . هل حاولت مرة أن تتكلم كلاما معقولا مع مجنون ؟» وهز ويل رأسه . «أنا فعلت ذات مرة» . ورفع خصلة الشعر التي وخطها المشيب والتي كانت تميل الى أحد جانبي جبهته ، وظهر تحت حد الشعر أثر جرح مثلم ، شاحب اللون غريب الشكل وسط البشرة السمراء . وقال «لحسن حظي أن الزجاجة التي رماني بها كانت رقيقة جدا» . وسوى شعره المنفوش ووجه بصره نحو الممرضة الصغيرة . وكان وجهه يتلألأ كله بنوع من المرح الفولتيرى المريب وهو يقول «لاتنس يا آنسة رادا أن لاشيء يطير بصواب من لا عقل له أكثر من العقل . وبالا جزيرة صغيرة يحيط بها احاطة كاملة ألفان وتسعمائة مليونا من مرضى العقول . ولذلك حذار من المبالغة في التعقل . وفي بلد المجانين لايمكن أن يصبح صاحب العقل الكامل ملكا . انهم يعدمونه بغير محاكمة» .

وضحك ويل غير مبال ، ثم صوب نظره مرة أخرى نحو الممرضة الصغيرة ، وسألها .

« أليس لديكم من يطلب دخـول مستشفى الأمـــراض العقلية ؟ »

«عندنا مثل ماعندكم ـ أقصد بالنسبة لعدد السكان • على الأقل هذا ماورد فى الكتب الدراسية» •

«ولذلك فان السكنى فى دنيا العقلاء لاتختلف عن السكنى فى دنيا غير العقلاء» •

«ليس الأمـــر كذلك مع اولئك الذين تجعلهـــم كيميـــاء أبدانهم من مرضى العقول • هؤلاء يولدون عرضة للمرض• والمتاعب الصغيرة التى قد لايلاحظها غيرهم تحطمهم تماما • ولقـــد بدأنا من عهد قريب فقط نكشف عن الاســـباب التى تجعلهم عرضة للمرض ، وبدأنا نتبنيهم قبل أن ينهاروا وما أن تم فِـــرزهم حتى أمكننا أن نزودهم بقـــدر من المناعة • الوقاية كمـــا ذكرت من قبـــل ـ وطبعا من جميع الجبهات فى وقت واحد» •

«اذن فهنـــاك فارق ـ حتى لمن قـــدر لهم أن يكونوا من مرضى العقول ـ بين أن يولد الانسان فى عالم عاقل أو أن يولد فى عالم غير عاقل» •

« وهناك أيضا فارق بالنسبة للمصابين بأمراض عصبية• نســـبة مرضى الأعصاب عنـــدكم واحـــد لكل خمسة أو حتى أربعة • أما عندنا فالنسبة واحد لكل عشرين • وهذا الواحد المنهار يجد العلاج ، فى جميع الجبهات ، أما التسعة عشر الذين يتماسكون فقد وجدو االوقاية فى جميع الجبهات • ويعود بى هذا الحديث الى أولئك الاطباء الامريكان • وكان ثلاثة منهم من أطباء العلاج النفسانى ، وأحد هؤلاء يدخن السيجار بغير

توقف وفى لغته لكنة ألمانية • وقــد وقع عليه الاختيار لكى يحاضرنا • ويالها من محاضرة !» وأمسكت الممرضة الصغيرة برأسها بين كفيها وقالت «لم أسمع قط شيئا مثلها» •

« فى أى موضوع كانت ؟ »

« كانت عن طـريقة معالجتهم لمن تبدو عليهم أعــراض عصبية • ولم نكد نصدق ماسمعنا • انهم لايحاربون أبدا فى جميع الجبهات ، انما يحــاربون فى نصف جبهة واحــدة • المريض عنــدهم لا جسم له اذا استثنينا الفم والشرج • انه ليس كائنا عضويا ، ولم يولد بهيكل عام أو بمزاج خاص • كل مالديه طرفا جهاز هضمى ، وأسرة ، ونفس • ولكن أى نفس ؟ انها قطعا ليست العقل كله ، أى ليست العقل كما هو على حقيقته • وكيف يمــكن أن تكون كــذلك فى حين أنهم لايأخــذون تشريح بدن المريض فى اعتبــارهم ، أو تركيبه الكيماوى الحيوى ، أو وظائف أعضائه ؟ العقل مستخلص من الجسد ، هذه هى الجبهة الوحيــدة التى يحــاربون فيها ، بل وليس فى هــذه الجبهة بأسرها • واستمر الرجل صــاحب السيجار يتحدث عن اللاشعور • ولكن اللاشعور الذى أعاروه انتباههم هو اللاشعور السلبى ، أى النفايات التى يحــاول الفرد أن يتخلص منهــا بالقــائها فى القــاع • ولم يذكر كلمــة واحــدة عن اللاشــعور الايجــابى • ولم يحــاولوا مساعدة المريض على أن يفصــح عن مكنــون نفســه لدفعة الحيــاة أو لطبيعة بوذا • بل ولم يحــاولوا أن يعلموه زيادة الوعى فى حياته اليومية • وأنت تعرف نداء المينة «الآن وفى هذا المكان ، و انتباه» • وحاكت فى ذلك طيــور المينة ، ثم

واصلت حديثها قائلة «هؤلاء القوم يكتفون بترك مـريض الأعصاب البائس يتمرغ فى عاداته القـديمة التى لاتجعله بكليته فى مكانه وزمانه • والأمر من أوله الى آخره بلاهة فى بلاهة ! والعجيب أن صاحب السيجار لم يعترف بذلك ، وكان ماهرا فى عرضه غاية المهارة • ومن ثم فان الامر عنده ليس بلاهة ، انما هو بالضرورة شيء ارادى ، شيء ما يدفع المريض نحو مسلكه ــ كأن يكون مخمورا ، أو أن يلوك لنفسه فكرة سخيفة حتى يعتقد فى صحتها لمجرد ورودها فى كتاب مقدس• ثم انظر الى رأيهم فيما هو طبيعى • صدق أو لا تصدق أن الرجل العادى عنـدهم هو من يشعر باللذة الجنسـية والذى يتكيف مع المجتمع» ومرة أخرى وضعت الممرضة رأسها بين راحتيها • ثم أضافت «ان ذلك أمر لايتصوره العقل ! انهم لايفكرون فى جدوى اللذة الجنسية ، ولا يفكرون فى لون مشاعرك أو آرائك أو مدركاتك • ثم ماذا عن المجتمع الذى يفترضون تكيفك معه ؟ هل هو مجتمع عاقل أو مجنون ؟ وحتى ان كان عاقلا بدرجة قصوى ، فهل من الصواب أن تتكيفمعه تماما ؟ »

وقال السفير وعلى شفتيه ابتسامته المتلألئة «من يريد الله لهم الدمار يجعلهم مجانين • وتستطيع أن تقلب القضية وتقول يجعلهم عقلاء ــ وربما كان هذا الوضع المقلوب أبعـد أثرا» • ثم نهض المستر باهو وسار نحو النافذة وقال «لقد وصلت عربتى ، ولابد لى من العودة الى شيفابورام والى مكتبى» والتفت الى ويل وحياه مودعا لفترة طويلة وبعبارات بليغة • وعندئذ تخلى عن صفة السفارة وقال لويل «لاتنس أن تحرر الخطاب • انه غاية فى الأهمية» وتبسم تبسم المتآمر وحرك

ابهــام يمناه على الاصبعين الأولين ، وكأنه يعــد المــال غير المنظور ·

وبعد ما انصرف قالت المرضة الصــغيرة «الحمد لله» واستوضحها ويل «بم أساء ؟ أليس هذا أمرا عاديا ؟»

قالت «تقدم مالا لامرأة تريد أن تضاجعها ــ وهى لاتحبك، فتعرض عليها مزيدا من المال · هل هذا من الأمور العادية فى البلد الذى وفد منه ؟»

وأكد لها ويل «ان ذلك أمر عادى الى أبعد الحدود» ·

« ولكنى لم أستحسنه » ·

« لقــد لمست ذلك · واليك ســؤالا آخــر · مــاذا عن موروجان ؟

« وما يدفعك الى هذا السؤال ؟ »

«حب الاستطلاع · وقد لاحظت آنكما التقيتما من قبل· فهل كان ذلك عندما كان هنا منذ عامين وحده بغير أمه ؟»

« وكيف عرفت ذلك ؟ »

« حدثنى عصفور صغير ، أو على الأصح عصفور ضخم جدا » ·

« الرانى ! لابد أنها روت لك القصة وكأنها تروى عن سدوم وعمورية» ·

«ولكن لسوء حظى أنها حجبت عنى التفصيلات المثيرة · مجرد تلميحات غامضــة ــ ذلك كل ماباحت به لى · تلميحات ــ مثلا ــ عن نساء محنكات من أمثــال ميسالينا امبراطورة

رومانيـــة خانت زوجهـــا) يعطين دروســـا فى الحب للشـــبان السذج» ٠

« وهل كان بحاجة الى هذه الدروس ! »

« وتلميحات أيضا عن فتاة فى مثل سنه فوضوية نضجت قبل الأوان » ٠

وانفجرت الممرضة ابو ضاحكة ٠

« هل تعرفينها » ؟

« هذه الفتاة الفوضـــوية التى نضجت قبـــل الأوان هى أنا » ٠

« أنت ؟ وهل الرانى على علم بذلك ؟ »

« ان موروجان ذكر لها الوقائع ، ولم يذكر لها الاسماء ، وأنا من أجل ذلك شكورة جدا ٠ فلقد سلكت سلوكا سيئا ، فقدت صوابى لشخص لم أحبه فى الواقع وآذيت شخصا آخر أحببته ٠ لماذا يكون الانسان غبيا بهذه الدرجة ؟»

قال ويل «للقلب أسبابه ، وللهرمونات أسبابها» ٠

وســـاد صمت طـــويل ٠ وقد انتهى من تناول السمكة المسلوقة الباردة ومن الخضروات ٠ وناولته الممرضة أبو طبقا من سلطة الفواكه ٠

قالت «انك لم تر موروجان قط مرتديا بيجامته الساتان البيضاء» ٠

« هل فاتنى شىء هام ؟ »

« انك لاتتصور كم يبدو جميلا فيها ٠ وليس لأحد الحق

فى أن يكون على هــذا القــدر من الجمــال . انه يتنافى مع الحشمة ، ويعطى صاحبه امتيازا على غيره بغير حق» .

ان رؤيته فى هذه البيجاما الساتان البيضاء التى حصل عليها من (سلكا) هى التى حملتها فى النهــاية على أن تفقد صوابها ، وقد فقدته فقــدانا تاما الى حــد أنها تحولت الى شخص آخر خلال شهرين ـ وأمست فتاة حمقاء تطارد شخصا لايطيقها وتهجر شخصا أحبها دائما كما أحبته دائما .

وســألها ويل «الى حــد وصلت مع الفتى الذى ارتدى البيجاما ؟ »

أجابت «حتى الفراش . ولكنى لما بدأت أقبله قفز من فراشه وأغلق على نفسه الحمام . وأصر على ألا يخرج منه حتى أناوله بيجامته من خلال النافذة وأعده وعدا شريفا انى لن أضايقه» . والآن أرى ماحدث أمرا يدعو الى الضحك . أما فى ذلك الحين ...» وهزت رأسها واستكملت حديثها «فقد كانت مأساة كبرى . ولابد أنهم قدروا من مسلكى بعد ذلك ماحدث . واتضح أن الفتيات الفوضويات اللائى ينضجن قبل الأوان لايصلحن ، وان ماهو بحاجة اليه دروس نظامية» .

قال ويل «أنا أعرف بقية القصــة . الابن يكتب لأمه ، والأم تعود بالطائرة الى الوطن وتنقله فورا الى سويسره» .

« ولم يعودا الا منذ نحو ستة أشهر ، وقد قضيا على الأقل نصف هذه الفترة فى راندنج فى ضيافة عمة موروجان» .

وأوشك ويل أن يذكر الكولونيل ديبا ، غير أنه تذكر أنه وعد موروجان أن يكون حريصا فلزم الصمت .

وسمع صوت صفارة آت من الحديقة ·

وقالت الممرضة الصغيرة «عن اذنك» واتجهت نحو النافذة · وابتسمت سعيدة بما رأت ولوحت بيدها وقالت «هذا رانجا» ·

« ومن هو رانجا ؟ »

« صديقى الذى حدثتك عنه · انه يريد أن يوجه اليك بعض الاسئلة · فهل تسمح له بالدخول دقيقة واحدة ؟»

« طبعا » ·

وعادت الى النافذة ولوحت له بحركة استدعاء ·

« أفهم من ذلك أن البيجاما الساتان البيضاء قد اختفت نهائيا من الصورة» ·

وأومأت برأسها ايجابا وقالت «لقد كانت مأساة من فصل واحد · وسرعان ما استرجعت صوابى · وعندما استرجعته وجدت رانجا ــ كما كان دائما ــ فى انتظارى» ·

وانفتح الباب على مصراعيه وولج الغرفة شاب طويل نحيل فى حذاء الألعاب الرياضية وفى سروال خاكى قصير ·

وقال معرفا نفسه وهو يصافح ويل «أنا رانجا كاراكوران» ·

وقالت رادا «لو انك تعجلت حضورك خمس دقائق لسرك أن تلتقى بمستر باهو » ·

وكشر رانجا مشمئزا وقال «وهل كان هنا ؟»

وسأل ويل «وهل هو على هذه الدرجة من السوء ؟»

وأخذ رانجا يعدد اتهاماته وقال «أولا ، هو يكرهنا . ثانيا ، هو تابع حقير خاضع للكولونيل ديبا . ثالثا ، هو سفير غير رسمي لجميع شركات البترول . رابعا ، هذا الخنزير الحقير حاول أن يتصل برادا . خامسا ، انه يطوف هنا وهناك محاضرا في ضرورة الاحياء الديني ، بل لقد نشر فيه كتابا كاملا قدم له شخص في مدرسة هارفارد للاهوت . وهو جزء من الحملة التي تشن ضد استقلال بالا . ان ديبا يخفي سيئاته في دعواته للايمان بالله . لماذا لايعترف المجرمون بما يقترفون ؟ كل هذا الكلام التافه عن المثالية يسبب الغثيان » .

ومدت رادا يدها وقرصت أذنه ثلاث قرصات قوية .

فبدا عليه الغضب أولا ثم انفجر ضاحكا وهو يقول «أيتها الصغيرة ... أنت على حق . ومع ذلك فلم تك بك حاجة الى قرص أذني بهذه الشدة » .

واستوضح ويل راندا « هل هذا هو ماتفعلين دائما كلما حاد عن الخط المستقيم ؟»

« كلما حاد عنه في وقت غير ملائم أو لأمور ليس بوسعه أن يصنع فيها شيئا » .

واتجه ويل نحو الفتى وسأله «وهل لابد لك دائما من أن تقرص أذنها ؟ »

وضحك رانجا وقال «أنا أوثر أن أضربها على عجزها . ولكن لسوء الحظ أنها قلما تكون بحاجة الى ذلك» .

« وهل معنى ذلك أنها أكثر اتزانا منك ؟ »

« أكثر اتزانا ؟ انها عاقلة بدرجة غير عادية »

« وأنت عاقل بالدرجة المطلوبة ؟ »

وهز رأسه وقال «ربما انحـرفت عن الوسـط قليلا الى اليسار ، فأنا أحيـانا أصاب باكتئاب شـديد ـ أحس أننى لا أصلح لشىء » .

قالت راندا «فى حين أنه فى الواقع جيد الى درجة أنهم أعطوه منحة لدراسة الكيمياء الحيوية بجامعة مانشستر» .

« وماذا تصنعين به عندما يقوم ازاءك بهذه الحيل اليائسة التى لايرتكبها الا آثم بائس ؟ تشدين أذنيه ؟»

قالت « نعم أفعل ذلك كما أفعل أشياء أخرى» وتبادلت مع رانجا النظرات ، ثم انفجرا ضاحكين .

قال ويل «كفى ، كفى» واستطرد قائلا «وهذه الاشياء الأخرى ـ بحكم طبيعتها ـ تعنى تطلع رانجا الى مغادرة بالا لمدة عامين ؟ »

قال رانجا «ليس الى هذا الحد» .

وقالت راندا فى ثبات «ولكن لابد له من الذهاب» .

وقال ويل متعجبا «وهل سيكون سعيدا عندما يذهب الى هناك ؟ »

قال رانجا «ذلك ما أردت أن أسألك عنه » .

« لن يعجبك الجـو ، ولن يعجبك الطعـام ، ولن تعجبك الضوضاء ولا الروائح ولا العمارة ، ولكنك سـوف بالتأكيد

تعجب بالعمل ، وأرجح أنك سوف تحب عددا لابأس به من الناس» .

وسألت رادا « وماذا عن الفتيات ؟ »

وأجاب «كيف تريدينني أن أرد على هذا السؤال ؟ نفاقا أم صدقا ؟ »

« صدقا » .

« الحق ياعزيزتى أن رانجا سوف ينجح فى هـذا المجال نجاحا باهرا . وعشرات الفتيات سوف يجدنه فاتنا بدرجة لاتقاوم . وبعض هؤلاء الفتيات فاتن . فكيف يكون شعورك اذا عجز عن المقاومة ؟ »

« سوف آسر له » .

والتفت ويل الى رانجا وسأله « وهل يسرك اذا التمست عزاءها مع شاب آخر أثناء غيابك ؟ »

قال « أود أن أكون مسرورا ، اما ان كنت أسر فعلا فذلك أمر آخر » .

« هل سوف تطلب اليها أن تعدك بالوفاء ؟

« لن أطالبها بأى وعد » .

« حتى مع كونها فتاتك ؟ »

« انها ملك نفسها » .

وقالت الممرضة الصغيرة «وهو ملك نفسه له الحرية أن يفعل مايريد» .

وتذكر ويل الفجوة القرنفلية التى كانت تضم سرير بابز وضحك من الاعماق ، وأضاف قوله «وله الحرية فوق هذا فى آن يفعل ما لا يريد» • وألقى نظرة على وجه رانجا ثم على وجه رادا ، ولحظ أنهما يرمقانه فى دهشة ، واستطرد قائلا بنغمة أخرى وبابتسامة مختلفة «ولكنى نسيت • أحدكما عاقل بدرجة غير عادية والآخر يميل عن الوسط قليلا الى اليسار • ولذلك فأنتما لايمكن أن تتفهما مايتحدث عنه صاحب حالة عقلية مستوردة ، مثلى» • ودون أن يعطيهما الفرصة لكى يجيبا عن سؤاله سألهما «خبرانى ، منذ متى ••» وكف عن الكلام ، ثم قال «ربما كنت فى سؤالى غير حكيم • فان كان الأمر كذلك قولا لى لاتتدخل فيما لايعنيك • ولكنى أود أن أعرف منذ متى قامت بينكما الصداقة ، باعتبارى من المهتمين بدراسة الانسان» •

وسألته الممرضة الصغيرة «هل تعنى (صديقين) أم تعنى (عاشقين) ؟

« ولماذا لاتكونان هذا وذاك ونحن بصدد هذا الحديث؟»

« لقد قامت بيننا الصداقة منذ ما كنا طفلين صغيرين ، ثم أصبحنا عاشقين منذ ما بلغت الخامسة عشرة والنصف وبلغ هو السابعة عشرة لمدة عامين ونصف العام ــ اذا طرحنا عن اعتبارنا قصة البيجاما البيضاء» •

« وهل لم يعترض أحد ؟ »

« ولماذا يعترض ؟

وردد ويل بعدها «فعلا لماذا ــ ولكن الواقع أن كل امرىء

فى الجزء من العالم الذى جئت منه يعترض فعلا» ٠

وسأل رانجا «وماذا عن الفتيان الآخرين» ٠

« نظريا هذا أمر أشد تحريما مما هو فى حالة الفتيات ، وعمليا ٠٠٠ تستطيع أن تتصور مايحدث عندما يتجمع خمسمائة أو ستمائة صبى مراهق فى مدرسة داخلية ٠ هل يحدث مثل هذا هنا ؟»

« طبعا » ٠

« انى أتعجب » ٠

« تتعجب ؟ لماذا ؟ »

« لأن البنات لسن محرمات » ٠

« ولكن نوعا من العشق لايستبعد النوع الآخر » ٠

« وكلاهما مشروع ؟ » ٠

« بالطبع » ٠

«اذن ماكان لأحد أن يكترث اذا شغف موروجان بصبى آخر يرتدى البيجاما ؟»

« اذا كانت العلاقة طيبة » ٠

وقالت رادا «ولكن الرانى ــ لسوء الحظ ــ قد احتاطت لذلك احتياطا شديدا بحيث لم يكن له أن يهتم بأحد غيرها وغير نفسه بطبيعة الحال » ٠

« لافتية » ٠

« ربما يحدث ذلك اليوم ، لست أدرى ٠ كل ما أعلمه أنه فى أيامنا لم يكن فى دنياه فتية ٠ لا فتية ، ولا فتيات

بالتأكيد · لم يكن فى حياته غير أمه والعادة السرية والأسياد الصاعدون · ولم تكن فى حياته سوى اسطوانات الجاز والعربات الرياضية والآراء الهتلرية بأن يكون زعيما عظيما يحول بالا الى مايسميه الدولة الحديثة» ·

قال رانجا «منذ ثلاثة أسابيع كان هو والرانى بالقصر فى شيفابورام ·ووجها الدعوة الىجماعة منا من طلاب الجامعة لزيارة القصر والاستماع الى آراء موروجان ــ فى البترول والتصنيع ، والتلفزيون ، والتسليح ، والحملة الروحية» ·

«وهل استطاع أن يهدى احدا الى مذهبه» ؟

وهز رانجا رأسه وقال «لماذا يستبدل اى انسان شيئا سيئا هزيلا مملا بشىء دسم جيد شائق الى أبعد الحدود ؟ اننا لسنا بحاجة الى زوارقكم السريعة او الى تلفزيونكم وحروبكم وثوراتكم ، ونهضتكم . وشعاراتكم السياسية وذلك الكلام الفارغ الميتافيزيقى الذى يصدر عن روما وموسكو · هل لم تسمع من قبل بفكرة (ماثيونا) ؟ »

ــ وما تلك ؟

«وأجاب رانجا : «دعنا نبدأ من الخلفية التاريخية» · وبحذلقة طالب الجامعة حينما يلقى محاضرة فى موضوعات لم يسمع بها هو نفسه الا أخيرا تدفق فى الحديث قائلا : «لقد وفدت البوذية الى بالا منذ نحو ألف ومائتى عام ، ولم تفد اليها من سيلان ، كما كان يتوقع ، ولكن من البنغال ، وعن طريق البنغال فيما بعد من التبت · وترتب على ذلك أننا

صرنا من أتباع ماهاياما (١) ، وتتشبع بوذيتنا بمبادىء تانترا (٢) . هل تعرف ماهى تانترا ؟»

واضطر ويل الى أن يعترف بأنه ليس لديه عنها الا فكرة غامضة .

وضحك رانجا ضحكة اخترق بها حاجز الحذلقة الذى اصطنعه وقال : «فى الواقع أن علمى بها لايزيد عن علمك بها الا قليلا . تانترا موضوع ضخم ، وأكثر مابه فى ظنى سخف وخرافة لاتستحق الاكتراث . ولكنها لاتخلو فى صميمها من المعنى . التانترى لاينبذ الدنيا ولا ينكر قيمتها . لايهرب فى نيرفانا (١) بعيدا عن الحياة ، كما يفعل رهبان المدرسة الجنوبية . كلا . فى التانترا يقبل المرء العالم ويفيد منه ، وهو يفيد من كل مايصنع ومن كل مايحدث له ، ومن كل مايسمع ويرى ويلمس ويتذوق ، فكلها وسائل لتحريره من سجن نفسه» .

وقال ويل فى نغمة معتدلة تنم عن الشك «هذا حديث طيب» .

وفى اصرار قال رانجا : «وهناك أشياء أخرى غير ذلك» .

وأضاف ــ وقد تحولت حذلقة الشباب الى حماسة الشاب الذى يعتنق مذهبا حديثا ــ وهذا هو الفارق بين فلسفتنا وفلسفتكم ــ فلاسفة الغرب ــ حتى خيارهم ــ ليسوا الا

---

(١) شعبة من البوذية تقول بوجود الله ــ المترجم
(٢) طائفة تمارس السحر ــ المترجم
(١) النيرفانا فى البوذية هى فناء الفرد فى الروح الأسمى ــ المترجم

محدثين يجيدون الحديث • أما فلاسفة الشرق فهم فى الاغلب محدثون لايجيدون الحديث ، غير أن هذا أمر لايهم • فالكلام ليس هو المقصود • فلسفتهم براجمية (عملية) وممكنة التطبيق • وهى شبيهة بفلسفة الفيزياء الحديثة ــ غير أن التطبيقات فيها نفسية والنتائج تجاوز الطبيعة الميتافيزيقيون عندكم يصدرون أحكاما عن طبيعة الانسان والكون ، ولكنهم لايقدمون للقارىء أية وسيلة لاختبار مدى الصدق فى هذه الاحكام • أما نحن فاذا أصدرنا أحكاما تابعناها بمجموعة من العمليات التى نستخدمها لاختبار مدى الصدق فيما نقول • خذ مثالا لذلك قولنا «أنت هكذا» وهو لب فلسفتنا • وكرر العبارة «أنت هكذا» وقال : وما أشبه ذلك بالفرض فى الميتافيزيقا • ولكن مايعنيه حقا هو التجربة النفسية ، ويصف الفلاسفة عندنا العمليات التى يمكن للمرء عن طريقها أن يعيش التجربة ، بحيث يمكن لأى فرد يرغب فى أداء العمليات اللازمة أن يختبر بنفسه صدق العبارة : (أنت هكذا) • وهذه العمليات يسمونها يوجا أو ديانا أو زن أو ــ فى حالات معينة خاصة ــ ماثيونا •

ــ ويؤدى بنا هذا الى سؤالى الأول ، وما هى الماثيونا ؟

ــ ربما كان من الافضل أن توجه هذا السؤال الى رادا •

والتفت ويل نحو الممرضة الصغيرة وسألها «ماهى ؟»

وأجابت فى جد ورزانة «هى يوجا الحب» •

ــ مقدسة هى أم دنسة ؟

ــ لا فرق بين الأمرين •

وأضاف رانجا : هذا هو المهم • حينما تمارس الماثيونا، تجد أن الحب الدنس هو الحب المقدس •

وروت الفتاة نصا بالسنسكريتية •

ـ لاتعبرى بالسنسكريتية ! ماذا تعنين ؟

ـ ترجم يارااندا •

ـ صفة الاستنارة •

وأومأت راندا برأسها موافقة والتفتت ثانية نحو ويل • وقالت : المعنى أن التبوذ (أى أن تكون بوذا) موجود فى (يونى) •

« فى يونى ؟ » وتذكر ويل تلك الرموز الحجرية (للانثى الخالدة) التى اشتراها هدايا للفتيات اللائى كن يعملن بمكتبه من بائع أحدب فى بنارس • وكان يدفع ثمان أنات (عملة هندية) ثمنا (لليونى) السوداء، واثنتى عشرة للتمثال الأكبر قداسة وهو (يونى لنجام) • ثم سأل «هل التبوذ فى يونى حرفيا أو على سبيل المجاز ؟» •

وقالت الممرضة الصغيرة وقد ضحكت احدى ضحكاتها الصادرة من قلبها بغير تكلف والتى تعبر عن سرورها «ياله من سؤال مثير للضحك ! وهل تظن أننا نمارس الحب على سبيل المجاز ؟ وكررت عبارتها السنسكريتية وقالت «ان هذا الضرب من التبوذ مقصود بحرفيته الكاملة المطلقة» •

ثم سأله رانجا : هل سمعت من قبل بجماعة أونيدا (١) ؟

---

(١) جماعة دينية تدعو الى كمال الخلق تأسست فى أمريكا سنة ١٨٤٨ وكان أفراد الجماعة يجعلون الملكية مشاعة ويمارسون الزواج المشترك ويعهدون برعاية الاطفال الى المجموع ـ المترجم

وأومأ ويل برأسه ايجابا · فقد عــرف مؤرخا أمريكيا تخصص في مجتمعات القرن التاسع عشر ، وسأل بدوره «ولماذا عرفتها أنت ؟»

ـ لأنها ذكرت فى كل الكتب التى درســناها عن تطبيق الفلسفة · والماثيونا أساسا هى بعينها ما أسماه جماعة أونيدا (عفة الذكور) وهو ماعرفه الرومانيون الكاثوليك من قبل وأطلقوا عليه مصطلحا لاتينيا معناه (التحفظ فى الجماع) ·

وكررت الممرضة الصغيرة كلمة (التحفظ) وقالت «ان ذلك يثير فى الضحك دائما ، شاب متحفظ !» وبدت غمازتان فى خديها كما تلألأت أسنانها البيضاء وهى تضحك ·

وقال لهــا رانجــا بحــدة «لاتكونى ســـخيفة ، نحــن جادون » ·

وعبرت عن آسفها وقالت «ولكن التحفظ فى الواقع أمر يثير الضحك» ·

واختتم الحديث ويل قائلا «هو فى ايجاز تحديد النسل بغير استخدام موانع الحمل» ·

وقال رانجا : هــذه ليست الا بداية القصــة · ولكن الماثيونا شىء آخــر فوق ذلك ، شىء أكثر أهميــة وفى صيغة التأكيد قال هذا الطالب الجامعى المتحذلق وقد واصل حديثه جادا تذكر النقطة التى كان فرويد يضرب على وترها دائما ·

ـ أى نقطة · كانت نقاطه كثيرة ·

ـ النقطة الخاصة بالجنس عند الاطفال · ان مانولد به ، وما نمارسه خلال الطفولة الباكرة والمتأخرة هو شعور بالجنس

ينتشر فى الكائن العضوى كله • هذا هو الفردوس الموروث، ولكن الطفل يفقد هذا الفردوس كلما نما • والماثيونا محاولة منظمة لاسترداد هذا لفردوس •

والتفت الى رادا ووجه اليها الخطاب قائلا «ذاكرتك جيدة • ماهى تلك العبارة التى جاءت على لسان سبينوزا والتى تروى فى كتاب الفلسفة التطبيقية ؟»

وروت راندا «اجعل الجسم قادرا على أداء كثير من الاشياء • ذلك يساعدك على كمال العقل ولذلك تبلغ الحب العقلى لله » •

قال رانجا : ومن هنا كانت كل أنواع اليوجا بما فيها الماثيونا •

وأكدت الفتاة أنها يوجا حقيقية ، مثل يوجا راجا ويوجا كرما ويوجا باكتى • بل انها تفضلها كثيرا عند أكثر الناس• الماثيونا فعلا تبلغ بهم الى هناك •

وسألها ويل وأين هناك هذا ؟

ـ هناك هو حيث تعرف •

ـ أعرف ماذا ؟

قالت «تعرف من أنت فى الواقع ، أى تعرف (انك هكذا) وأنا هكذا ، وهذا هو أنا» وظهرت الغمازتان ثانية وأبرقت الاسنان ، وأشارت الى رانجا وأضافت « (وهذا أيضا هو) • وأشارت الى رانجا وقالت «غير معقــول ، أليس كذلك» ثم أخرجت لسانها مشيرة اليــه وقالت «ومع ذلك فهــذا هــو الواقع » •

وابتسم رانجا ، ومد يده ومس بسبابته طرف أنفها ، ثم

قال «انه ليس واقعا فحسب ، بل هــو حق ملهم» • ولذلك عليك أن تلزمى الأدب أيتها الشابة» •

وقال ويل «اننى أعجب لماذا لانكون جميعا من المستنيرين ـ أقصــد انه اذا كان الامر مجــرد ممارسة الحب بطــرق خاصة • ماجوابكم على هذا ؟»

وبدأ رانجا يتحدث ، وقال : أقول لك •••

ولكن الفتاة قاطعته قائلة : استمع ، استمع !

وأصغى ويل ، واســتمع الى ذلك الصــوت العجيب غير الانســانى الذى كان أول مارحب به فى بالا آت من بعيــد واضــحا وان يكن خافتــا • وكان الصوت يردد «انتباه ! انتباه ! انتباه !» •

ـ الطائر الملعون مرة أخرى •

ـ ولكن ذلك هو السر •

ـ انتباه ؟ انك منذ لحظة كنت تقولين انه شىء آخــر • وماذا عن ذلك الشاب «المتحفظ ؟»

ـ انما ذلك ييسر له الانتباه •

وأمن على ذلك رانجا وقال : انه فعلا ييسره له • وذلك هو سر الماثيونا • ليست الطرق الخاصة هى التى تجعل من ممارسة الحب يوجا ، انما هو نوع الوعى الذى تجعله هــذه الطرق ممكنا • الوعى بما عندك من احساسات والوعى بما فى الحس من لا حس •

ـ وما هو اللاحس ؟

ــ هو المادة الخام للحس الذى تمدنى به اللا نفس ٠

ــ وهل تستطيع أن توجه انتباهك الى اللا نفس ؟

ــ طبعا ٠

والتفت ويل الى الممرضة الصغيرة وسألها «وأنت أيضا ؟»

أجابت «أوجه انتباهي الى نفسى والى لا نفسى فى آن واحد ٠ وكذلك الى لا نفس رانجا ، والى نفس رانجا ، والى جسم رانجا ، والى جسمي وكل مايحسه ٠ والى كل الحب وكل الصداقة ٠ والى لغز الشخص الآخر ــ ذلك الغريب تماما الذى هو النصف الآخر لنفسك ، والذى هو شبيه بلا نفسك ٠ وفى أثناء ذلك يتنبه المرء الى كل الأشياء التى يراها المرء بعيدة عن الرومانسية ، غليظة ، بل خسيسة ، اذا كان رقيق العاطفة ، أو اذا كان ــ وهو أسوأ ــ روحانيا مثل الرانى العجوز المسكينة ٠ غير أن هذه الأشياء ليست خسيسة لأن المرء يتنبه كذلك ــ اذا كان على وعى تام بها ــ الى أنها فى جمال كل ماعداها ، وفى روعة كل شىء سواها» ٠

واختتم رانجا الحديث بقوله «ماثيونا هى ديانا» وقد ظن أن استعمال لفظة أخرى قد يفسر كل شىء ٠

وسأله ويل «وما هى ديانا ؟»

ــ هى التأمل ٠

ــ التأمل ٠

وتذكر ويل تلك الفجوة القرنفلية التى تعلو شارع تشارنج كروس ٠ولم تكن لفظة «التأمل» فى ظنه لتتناسب مع الموقف ٠ ولكن عندما فكر فى الأمر مرة ثانية وجد أنه حتى

فى هـذا الموقف كان هنـاك نوع من الخـلاص · ولم تكن تلك اللمحـات الخـاطفة فى الضـوء المتغير الذى يعلن عن (بورترز جين) سـوى لمحات تنـأى به عن احساساته الذاتية البغيضة أثناء النهار · كما كانت كـذلك ـ لسـوء الحظ ـ لمحات خاطفة تبعده عن بقية كيانه ـ تنأى به عن الحب ، وعن الذكاء ، وعن الآداب العامة ، وعن كل أنـواع الوعى ماعدا الوعى بتلك النوبة التى انتابته فى الضوء الشـاحب أو فى الوميض الوردى الذى كان يصدر عن أرخص الاوهام وأشدها ابتذالا · ثم أعاد النظر الى وجـه رادا المضىء · أية سـعادة أحس بها ! وأى دليل قاطع لا على الخطيئة التى أصر المستر باهو على أن يجعل الدنيا آمنة من أجلها ، ولكن على نقيضها الذى يبعث على السعادة والصفاء · وجهها يهز المشاعر هزا عميقا ، ولكنه رفض أن يهتز · انه أمـر لابد أن يطـاع · ولكنه غير بؤرة التفكير فاسـتطاع أن يرى الامـر كله مهزلة أكيدة · ماذا عسانا فاعلون لنظفر بالخـلاص ؟ الجـواب هو أن نلبى نداء الطبيعة ·

وابتسم لهـذه الفكاهة التى تفكه بهـا لنفسه ، وألقى سؤالا تهكميا حيث قال «هل تعلمتم الماثيونا فى المدرسة ؟»

وأجابت رادا بواقعية بالغة محت بها كل مابدا فى سؤاله من سخرية كسخرية رابليه ، وقالت «نعم فى المدرسة» ·

وأضاف رانجا «كل امرىء يتعلمها» ·

ــ ومتى يبدأ التعليم ؟

ــ فى نفس الوقت تقريبا الذى نبدأ فيه تعليم حساب

المثلثات والمستوى الأعلى فى علم الأحيـاء ، أى بين الخامسة عشرة والخامسة عشرة والنصف ·

ــ وبعد ما يتعلم الطاالب الماثيونا ، ويخـرج الى الدنيا ويتزوج ــ ان كنتم تتزوجون ؟

وأكدت له رادا أنهم يتزوجون ·

ــ هل يواصلون ممارستها ؟

لا يمارسـها الجميع بطبيعـة الحـال ، ولكن يمارسـها الكثيرون ·

ــ فى كل الأوقات ؟

ــ الا اذا أرادوا أن يكون لهم طفل ·

ــ وماذا عمن لايريد أطفالا ولكنه ربما أراد شيئا من التحول عن الماثيونا ــ ماذا يفعل ؟

قال رانجا باقتضاب «موانع الحمل» ·

ــ وهل هذه الموانع ميسورة ؟

ــ ميسورة ! الحكومة توزعها مجانا وبغير مقـابل ــ الا بالطبع مايدفع فى سبيلها من ضرائب ·

وأضافت رادا «ان ساعى البريد يوزع على كل فرد ثلاثين منها فى بداية كل شهر » ·

ــ ولايكون هناك أطفال ؟

ــ فقط من نريد منهم · وليس لأحد أكثر من ثلاثة ، وأكثر الناس يكتفى باثنين» ·

قال رانجا وقد عاد الى حذلقته وهو يدلى باحصاءات فى حديثه «وكانت النتيجة أن عدد السكان عندنا يتزايد بأقل من ثلث فى المائة كل عام ، فى حين أن نسبة الزيادة فى راندنج تبلغ مبلغها فى سيلان ـ نحو ثلاثة فى المائة · والنسبة فى الصين اثنان فى المائة ، وفى الهند حوالى واحد وسبعة من عشرة » ·

قال ويل : كنت فى الصين منذ شهر واحد فقط · فظيعة! وفى العام الماضى قضيت أربعة أسابيع فى الهند ، وقبل الهند كنت فى أمريكا الوسطى ، ونسبة الزيادة فيها تفوق حتى رندانج اسيلان · هل قام أحدكما بزيارة رندانج لوبو ؟·

وهز رانجا رأسه ايجابا ·

وأضاف قوله : اذا بلغ ألطالب الصف السادس فى المرحلة العليا من التعليم يقضى ثلاثة أيام فى رندانج ـ وهذهالزيارة جزء من الدراسة المتقدمة فى علم الاجتماع · انهم يجعلون الطالب يرى بنفسه ما عليه العالم الخارجى ·

وسأله ويل : وما رأيك فى العالم الخارجى ؟

وأجاب رانجا بسؤال آخر حيث قال : هل أطلعوك عندما كنت فى رندانج لوبو على الأحياء الفقيرة ؟

ـ على العكس · حاولوا جهدهم أن يخفوها عنى · ولكنى أفلت منهم ·

وتذكر فى وضوح انه آفلت منهم وهو فى طريقه عائدا الى الفندق بعد حفلة الكوكتيل الرهيبة التى أقامتها وزارة الخارجية فى رندانج · كل من له أية مكانة كان هناك · كل

الأعيان وزوجاتهم ـ فكنت ترى الأزياء الرسمية والأوسمة ، ومنتجات ديور والزمرد · كل الأجانب من ذوى الأهمية ـ دبلوماسيون كثيرون ، ورجال البترول من بريطانيين وأمريكان ، وستة أعضاء من البعثة التجارية اليابانية ، وصيدلية من ليننجراد ، ومهندسان من بولندا ، وسائح ألمانى هو ـ بالمصادفة ـ ابن عم كروب فون بوهلن ، ورجل أرمنى ملغز يمثل اتحادا ماليا هاما جدا فى طنجة ، وأربعة عشر تقنيا تشيكيا عليهم سيما الانتصار جاءوا مع شحنة الدبابات والمدافع الكبيرة والمدافع الرشاشة التى وصلت فى الشهر الماضى من سكودا · وقد حدث نفسه وهو يهبط فوق درجات السلم الرخامية بوزارة الخارجية الى ميدان الحرية قائلا « هؤلاء هم القوم الذين يحكمون العالم · ان ألفين وتسعمائة مليون منا تحت رحمة حفنة من رجال السياسة ، وبضعة آلاف من أصحاب المال والقادة العسكريين والمرابين · أنتم سيانيد (١) الأرض ـ والسيانيد لايفقد أبدا نكهته » ·

وبعد أضواء حفلة الكوكتيل ، وبعد الضحكات والرائحة الزكية التى تفوح من الكانابيه (٢) ومن النساء المعطرات بالشانيل بدت تلك الأزقة التى تقع خلف قصر العدالة الجديد الحديث حالكة الظلام عالية الضوضاء ·وظهر أولئك الفقراء البائسون ممسكرين فى (شارع الاستقلال) تحت أشجار النخيل وكأن الله والناس قد تخلوا عنهم بتاتا بدرجة أكبر من تخليهم عن تلك الألوف التى تبينت يائسة بلا مأوى الذين شهدهم مستلقين كالجثث فى طرقات كلكتا · ثم طاف بخاطره

(١) مادة كيماوية ـ المترجم
(٢) خبز محمص مخلوط بالجبن أو الكافيار ـ المترجم

ذلك الولد الصغير ، ذلك الهيكل العظمى الدقيق ذو البطن المتكور الذى التقطه وهو جريح يرتعش اثر سقوطه من ظهر فتاة صغيرة تحمله وهى لاتكاد تكبره حجما ــ التقطه وسار خلف الفتاة حتى بلغ به الى مخزن بغير نوافذ هو بيتهما وكان يقطنه تسعة انفس (وقد عد الرؤوس المصابة بالقوباء) (١) ٠

وقال : اننا نبقى الأطفال احياء ، ونشفى المرضى ، ونمنع المجارى من التسرب الى الماء الذى نشربه ــ هكذا يبدأ الأنسان فى عمل أشياء حسنه فى حد ذاتها بصورة واضحة ٠ ولكن كيف ينتهى الأنسان ؟ انه ينتهى بمضاعفة مقدار البؤس البشرى وتعريض الحضارة للخطر ٠ وكأنها فكاهة عملية كبرى يبدو أن الآلهة تلهو بها حقا ٠

وابتسم لرانجا وراند ابتسامة عريضه تنم عن الغضب والنقد المرير ٠

ورد عليه رانجا قائلا : أن الآلهة لا شأن لها بهذا ، والفكاهة ليست من عند الآلهة ، انها من صنع الأنسان وحده ٠ ان هذه الأشياء ليست كالجاذبية أو القانون الثانى لديناميكا الحرارة وليست من المحتوم أن تحدث ٠ فهى لاتحدث الا اذا بلغ بالناس الغباء أن يسمحوا لها بالحدوث ٠ ونحن هنا فى بالا لم نسمح لها بالحدوث ، ولذلك فان الفكاهة لاتنطبق علينا ٠ المرافق الصحية عندنا جيدة طوال مايقرب من قرن من الزمان ــ ولازلنا خفيفى الزحام ، ولسنا من البائسين ٠ ولانخضع لدكتاتورية ٠ والسبب فى ذلك بسيط جدا : فقد اخترنا أن نتصرف بطريقة واقعية معقولة ٠

---

(١) داء فى الجسد يتقشر منه الجلد وينجرد منه الشعر ــ المترجم

وسأله ويل : وكيف تسنى لكم أن تختاروا ؟

قال رانجا : القوم الصحاح كانوا أذكيـاء فى الوقت الصحيح • ولكن يجب الاعتراف كذلك بأنهم كانوا محظوظين • والواقع أن بالا بوجه عام كانت محظوظة بصورة غير عادية • فقد حالفها الحظ ــ أولا ــ بأنها لم تكن مستعمرة لأى أحد • أما رندانج فلها ميناء عظيمة جلبت لها الغزو العـربى فى العصور الوسطى • أما نحن فليست عندنا ميناء لذلك تركنا العرب وشأننا ، ومازلنا بوذيين أو شيفيين (١) ــ هذا اذا لم نكن من أتباع مذهب تانترا اللا أدريين •

وسأله ويل : وهل أنت من هـؤلاء ــ من أتبـاع مذهب تانترا اللا أدريين ؟

وعلق على ذلك رانجا بقوله : بعد تهذيب المذهب ببعض مبادىء ماهايانا (٢) • ولنعد الى رندانج بعد العرب غزاهو البرتغاليون • أما نحن فقد نجونا • لا ميناء ولا برتغاليين ومن ثم لم تكن لدينا قلة كاثوليكية ، ولا هراء الكفار الذين يقولون انها ارادة الله أن يتكاثر الناس حتى يسبحوا فى حالة من البؤس دون مستوى الانسانية ، ولم نقاوم تحديد النسل بطريقة منظمة • وليس ذلك وحده مانعمنا به : فبعد مائة وعشرين عاما من احتـلال البرتغاليين جـاء الهولنديون الى سيلان ورندانج • وبعد الهولنديين جاء الانجليز • ونجونا من هذين الوباءين • فلا هولانديين ولا انجليز • ولذلك لم نعرف كبار المزارعين ، ولا مشقة العمال ، ولا بيع المحصولات

---

(١) شفيا اله هندوكى مدمر ــ المترجم •

(٢) طائفة بوذية تقول بان الحب هو قلب الوجود ، وهو أكثر واقعية من العالم المادى ــ المترجم •

لتصديرها للخارج ، ولا استنزاف التربة بطريقة نظامية ، كما لم نعرف الويسكى ، ومذهب كالفن ، ولا مرض الزهرى، ولا الأداريين الأجانب • تركنا وشأننا لنتحمل مسئولية أعمالنا •

ــ بالتأكيد كنتم محظوظين •

وواصل رانجا حديثه قائلا : وفوق هذا الحظ المذهل كانت ادارة موروجان المصلح ، وهى ادارة جيدة مذهلة ، وكذلك وجود اندرو ماك فيل • هل حدثك الدكتور روبرت عن جده الأكبر ؟

ــ قليلا •

ــ هل حدثك عن تأسيس محطة التجارب ؟

وهز ويل رأسه •

قال رانجا : محطة التجارب لهـا دخل كبير فى سياستنا السكانية • وكانت بداية كل شىء مجاعة • وقد قضى الدكتور أندرو قبل قدومه الى بالا بضع سنوات فى مدراس • وفى السنة الثانية من اقامته هنـاك لم تهب الرياح الموسمية ، فاحترقت المحاصيل ، وجفت الأحـواض بل والآبار • ولم يتوافر الطعام الا للانجليز والاغنياء • ومات الناس كما يموت الذباب • وفى مذكرات الدكتور أندرو فقرة مشهورة عن المجاعة • وصف لها وتعليق عليها • وكان قد استمع الى كثير من المواعظ حينما كان صبيا ، ومن هذه المواعظ موعظة كانت عالقة بذهنه وهو يعمل بين الهنود الجائعين • وتلك هى «ليس بالخبز وحده يعيش الانسان» ــ هذا نصها • وقد بلغ الواعظ من الفصاحة ماحمل الكثيرين الى اعتناق مذهبه • «ليس بالخبز

وحده يعيش الانسان» . ولكنــه رأى حينئذ أنه بغير الخبز لا عقل ولا روح ولا ضياء باطنيا ولا الآب فى السماء . ليس هناك الا الجوع ، واليأس ، ثم اللامبالاه وأخيرا الموت» .

قال ويل : وهذه فكاهة كونية أخرى : «من عنده يعطى، ومن ليس عنده يؤخذ منه حتى مايملك» ـ أى مجرد احتمال أن يكون انسانا . وهذه أشــد الفكاهات قســوة ، وأكثرها شيوعا .ولقد رأيت ملايين الرجال والنساء يتأثرون بها ، وملايين من الاطفال ـ فى كل أرجاء العالم .

ولذلك تستطيع أن تدرك لماذا تركت المجاعة فى ذهن الدكتور أندو هذا الأثر الذى لايمحى . فاعتزم كما اعتزم صديقه الراجا أن يتوافر فى بالا الخبز على الأقل . ومن ثم كان قرارهما بانشاء محطة التجارب . وكانت روثامستد فى المنطقة الاستوائية ناجحة نجاحا عظيما . فبعد بضع سنوات كانت عندنا أنواع جديدة من الأرز والذرة والدخن وثمرة الخبز ، وفصائل أفضل من الماشية والدجاج ، ووسائل أفضل للفلاحة والمركبات . وفى الخمسينات أنشــأنا أول مصــنع للفوسفات الممتاز شرقى برلين . وبفضل كل ذلك تحسنت التغذية ، وطالت الأعمار ، وقلت وفيات الاطفال . وبعد عشر سنوات من تأسيس محطة روذامستد الاستوائية أجرى الراجا تعدادا للسكان . وكان عدد السكان من قبل ثابتا الى حد كبير لمدة قرن ، أما الآن فقد بدأ يتزايد . وتنبأ الدكتور أندرو أن بالا سوف تتحول الى نوع من أحياء الفقراء الفاسدة شبيهة بما عليه رندانج اليوم . فماذا كان يمكن عمله ؟ وكان الدكتور أنــدرو على علم بمالتس . «انتــاج الطعام يتزايد بمتوالية عددية، أما السكانفيتزايدون بمتوالية هندسية .»

وليس أمام الانسان الا أحد أمرين : اما أن يترك الأمر للطبيعة التى تحل مشكلة السكان بالطريقة المعروفة القديمة، بالمجاعات والأوبئة والحروب ، واما يحد من عدده بالكبت الذى لايتنافى وقواعد الأخلاق (وقد كان مالتس من رجال الدين) .

وكررت الممرضة الصغيرة هذه العبارة ، الكبت الذى لايتنافى وقواعد الأخلاق ، ونطقت العبارة باللهجة الاندونيسية التى تحاكى بها فى سخرية ماقال به هذا الرجل الاسكتلندى المتدين . وأضافت «بهذه المناسبة هل تعلم أن الدكتور أندرو تزوج من عهد قريب بابنة أخ الراجا التى تبلغ من العمر ستة عشر عاما ؟»

وقال رانجا : ولقد كان ذلك سببا آخر فى مراجعة نظرية مالتس . اما المجاعة واما الكبت كما قال . لابد أن تكون هناك طريقة أفضل وأسعد وأكثر انسانية ، هى وسط بين طرفى مالتس . وبالطبع كانت هناك مثل هذه الطريقة حتى فى عهد مالتس ، حتى قبل عهد الموانع الحديثة لوأد البذور المنوية . كان هناك الاسفنج والصابون والغلاف المانع المصنوع من كل ماعرف من مواد غير مسامية ، من الحرير الناعم الى أحشاء الأغنام المصمتة . كل الدروع التى تضبط النسل على طريقة بالا .

ــ وكيف استجاب الراجا ورعاياه لهذه الطريقة ؟ بالفزع ؟

« أبدا . فهم بوذيون مخلصون ، وكل بوذى مخلص يعلم أن الانسان ليس الا وأدا مؤجلا . وعلى المرء أن يبذل قصارى

جهـده لكى يبتعد عن عملية الميلاد والموت ، ومن الخير ألا تسترسل فى وضع ضحايا فى هذه العجلة من غير داع • ضبط النسل عند البوذى له معنى ميتافيزيقى • وله مغزى اجتماعى واقتصادى لمجتمع القرية الذى يزرع الأرض • ولابد أن يتوافر عدد من الشباب للعمل فى الحقول ولكى يعولوا المسنين والصغار • على ألا يزيد عـددهم عن المطلوب ، لان ذلك لو حدث لما توافر الغذاء للمسنين ولا للعمال ولا لاطفالهم • كان الزوجان فى الماضى ينجبان ستة أطفال لكى يبقى منهم اثنان أو ثلاثة • ثم توافر الماء النقى ووجـدت محطة التجارب • فأمكن أن يبقى خمسة من الاطفال الستة • وأمست الانماط القديمة للتكاثر بغير معنى • ولعل الاعتراض الوحيد على تحديد النسل بطريقة أهل بالا هو سـذاجتها • ولكن لحسن الحظ كان هناك لها بديل أفضل منها • فلقد كان الراجا ممن يعتنقون مـذهب تانترا فتعلم يوجا الحب • وعلم الدكتـور أندرو بماثيونا ، ولما كان من رجال العلم المخلصين وافق على تجربتها ، وتلقى هو وزوجته التعليمات اللازمة •

ــ وماذا كانت النتائج ؟

ــ الموافقة عليها بحماسة •

وقالت رادا : وهذا هو احساس الناس جميعا بها •

ــ دعينا من هذه التعميمات الكاسحة ! هناك من يحس هذا الاحساس ، وهناك من لايحسه • ولقـد كان الدكتور أندرو من المتحمسين • ونوقش هذا الموضوع باستفاضة • وفى النهـاية قـرروا أن موانع الحمـل ــ يجب أن تـكون كالتربية ــ مجانية ، تدعمها الضرائب • تشمل كل فرد بقدر

الامكان وان تكن غير الزامية · ولاولئك الذين أحسوا الحاجة الى شيء أكثر تهذيبا تعليمات خاصة بشأن يوجا الحب ·

ــ هـل تقصـد أن تقـول انهم تعلموها ولم يصـبهم أذى ؟

ــ انها لم تكن فى الواقع شاقة جدا · وكانت الماثيونا عقيدة معتمدة ، ولم يطلب الى أحد أن يقترف منكرا يخالف الدين · بل عـلى العكس من ذلك كانت لهم فى ذلك فـرصة مواتيـة لكى يلتحقـوا بالنخبـة الممتـازة اذا هم تعلموا أسرارها ·

وقاطعته الممرضة الصغيرة قائلة «ولاتنس أهم نقطة فى الموضوع · ان يوجا الحب بالنسبة للنساء ، كل النساء ــ ولست أعبأ بما ذكرت عن التعميمات الكاسحة ــ تعنى الكمال ، تعنى التحول والخـروج من أنفسـهن للتمام» · وكانت فترة من الصمت ، أعقبتها بمواصلة الحديث بنغمة أكثر خفة وذلك حين قالت «والآن حـان الوقت لكى نتركك لراحتك بعـد الظهر » ·

وقال ويل «أود ــ قبل أن تنصرفى ــ ان أحرر خطابا ، مذكرة مختصرة لرئيسى أخبره فيها أننى على قيد الحياة ولست فى خطر مباشر من التهام المواطنين هنا لى» ·

وذهبت رادا الى مكتب الدكتور روبرت تبحث فيه عن ورق وقلم وظرف وعادت بها ·

وبخط غير مستقيم كتب ويل «وأخيرا انتصرت · تحطمت بى السفينة ، وقابلت الرانى ومعاونها من رندانج الذى أفضى الى أنه يستطيع أن يسلم البضاعة اذا نفحته (بقشيشا) على

خدمته (وكان محدد الطلب) فطالب بعشرين ألف جنيه • فهل أفاوض على هذا الأساس ؟ اذا أبرقتني (موافق على الاتفاق المقترح) واصلت السعي • أما اذا أبرقتني (لا داعي للتعجل في الاتفاق) أسقطت الأمر من حسابي • أخبر أمي أنني في أمان وسوف أكتب اليها قريبا» •

وناول رانجا الظرف مغلقا ومعنونا وقال له «اليك هـذا وهل لي أن أرجوك لتشتري لي طابعا وتلقي هذا الخطاب في البريد في وقت يسمح بارساله في طائرة الغد ؟»

ووعده الفتى قائلا «بغير تأخير» •

وانطلقا ، وأحس ويل بوخـز في ضميره • يالهما من شاب وشابة فاتنين ! ومع ذلك فهو يتآمر مع باهو ومع قوى التاريخ ليقلب دنياهم • وواسى نفسه بأنه اذا لم يفعل ماهو بصدده فان شخصا آخر سوف يفعل • وحتى اذا ما ظفر جو الديهايد بالامتياز فسوف يستمران في ممارسة الحب بالطريقة التي ألفاها ، أم هل هذا مستحيل ؟ •

وما أن بلغت الممرضة الصغيرة باب الغرفة حتى التفتت وراءها لتتفوه بكلمة نهائية وأشـارت باصبعها اليه وقالت له «كف عن القراءة وانصرف الى النوم» وأكد لها ويل باقتناع عنيد أحمق أنه لاينام أثناء النهار •

انه لايستطيع أن ينام أثناء النهار ، ولكنه عندما نظر بعد ذلك الى ساعته وجد انها بلغت خمسا وعشرين دقيقة بعد الرابعة وكان منتعشا بدرجة مذهلة • فعاد الى كتاب «مذكرات عن حقيقة كل شيء» وواصل قراءته التى كان قد انقطع عنها •

أللهم هبنا اليوم ايماننا ، واحمنا يارب من العقيدة •

الى هذه العبارة كان قد وصل فى هذا الصباح ، والآن الى جزء جديد ، الخامس :

أنا كما أظن نفسى وأنا كما أنا فى الحقيقة ــ وبعبارة أخرى الحزن ونهاية الحزن • ان ثلث كل الاحزان تقريبا التى لابد للشخص الذى أظن أننى هو من تحملها لا مفر منها • ذلك هو الحزن الكامن فى الظروف البشرية ، هو الثمن الذى ينبغى أن ندفعه لقاء كوننا أصحاب حس رقيق وكائنات واعية بنفسها ، متطلعين الى التحرر ولكن خاضعين لقوانين الطبيعة ولأوامر ترغمنا على أن نواصل المسير خلال الزمان الذى لايمكن أن يعود وخلال عالم لا يبالى البتة بسعادتنا ، نحو عجز الشيخوخة والموت الأكيد • أما الثلثان الباقيان من جميع الاحزان فهى من صنع أيدينا ، وهى ــ فيما يخص العالم ــ لا لزوم لها •

وقلب ويل صفحة الكتاب • وسقطت على سريره ورقة ،

فالتقطها وألقى عليها نظرة ، فاذا بها تحتـوى على عشرين سطرا كتبت بخط صغير واضح وذيلت بهذين الحرفين (س٠م٠) آنهـا قطعـا ليست خطابا ٠ هى قصـيدة ومن ثم فهى ملك مشاع ، وقرأ مايلى :

فى مكان ما بين الصمت الموحش
والألوف المؤلفة من مواعظ الأحد الماضى ،
فى مكان ما بين كنيسة كالفن (اللهم احفظنا)
وشبه جزيرة ليزارد (١)
فى مكان ما بين الرؤيا والحديث
فى مكان ما بين مايجرى على الألسن
من لغط ملطخ وملوث
والنجم الأول
حيث ترفرف الفراشات الكبيرة حول أشباح الزهور ،
يقع مكان واضح حيث أنا
ـ ولم أعد أنا ـ
برغم ذلك أذكر
حكمة ليل طويل من الحب
على الجانب الآخر ،
وأذكر كذلك
وأنا أصغى الى الريح
تلك الليلة الأخرى

(١) شبه جزيرة فى كورنوال بانجلترا ـ المترجم

الأولى بعد الترمل
والنوم يجافى الجفنين
والموت الى جوارى فى الظلام ٠
كل ذلك لى ، وأين منه الفرار !
ولكن أنا
ــ ولم أعد أنا ــ
فى هذا المكان الصافى
بين فكرى وصمتى
أرى كل ماكان لى وضاع منى
الآلام والمسرات
وهى تتوهج كزهر الجنطيانا
وسط أعشاب الالب
زرقاء اللون صافية متفتحة

وبين نفسه ونفسه كرر ويل هاتين اللفظتين «زهر الجنطيانا» ، وذكر تلك العطلة الصيفية التى قضاها فى سويسرة وهو فى الثانية عشرة ، وذكر المراعى المرتفعة فوق جريندلوالد وزهورها الغريبة ، وفراشاتها التى لاتشبه الفراشات الانجليزية ، وذكر السماء الزرقاء الداكنة وضوء الشمس والجبال الشامخة المضيئة على الجانب الآخر من الوادى ٠ وكل ما عن لأبيه أن يقول هو انها أشبه ما تكون باعلان عن شكولاتة نسلة المخلوطة باللبن ٠ وأصر وقد بدت عليه امارات الاشمئزاز على أنها «ليست شكولاتة حقيقية ، بل شكلاته باللبن» ٠ وعقب ذلك تعليق تهكمى على الصورة التى كانت

ترسمها أمه بالألوان المائية ـ صورة سيئة (ويالها من مسكينة) ولكنها ترسم بعناية العاشق صاحب الضمير الحى • «اعلان الشكلاته باللبن الذى لفظته نسلة» • ثم كان دوره : «بدلا من أن تنفق وقتك حالما متجـولا هنـا وهناك بفم مفتوح كالقروى المعتوه لماذا لاتعمل شيئا فيه ذكاء على سبيل التغيير؟ راجع قواعد اللغة الالمانية مثلا» • ومد يده فى حقيبته وأخرج من بين البيض المسلوق جيدا والسـندويتشات ذلك الكتـاب الصغير البنى المقيت • ياله من رجل بغيض ! ومع ذلك ـ ان صح ماتقول سوزيلا ـ يجب أن أكون قادرا الآن بعد كل هذه السنين على أن أراه متـألقا كزهر الجنطيانا ـ ثم ألقى ويل نظرة أخرى على آخر سطر من سطور القصيدة :

« زرقاء اللون صافية متفتحة »

وسمع صوتا يألفه يقول «ثم ماذا •••»

والتفت نحو الباب ، وقال «تكلمى عن الشيطان • أو على الأصح اقرأى ماكتب الشيطان» • ورفع الورقة الى أعلى لكى تطالعها •

وألقت عليها سوزيلا نظرة وقالت «تقصد هذا • وهـل تكفى النوايا الطيبة لتبدع شعرا طيبا !» وتنهدت وهـزت رأسها •

واسـتمر فى حديثه قائلا « كنت أحاول أن أرى والدى كزهر الجنطيانا • غـير أن كل ماحصلت عليه صـورة ملحة لروث مريع» •

وأكدت له أن الروث يمكن أن يرى كالجنطيانا •

ـ لايكون ذلك فى ظنى الا فى المكان الذى كنت تكتبين عنه ـ ذلك المكان الصافى الذى يقع بين الفكر والصمت ؟

وأومأت سوزيلا برأسها موافقة ·

ـ كيف تبلغين هذا المكان ؟

ـ انك لاتبلغه ، انمـا هو يأتى اليك · أو على الأصح «هناك» هو فى الواقع «هنا» ·

وشكا لها بقوله : ما أشبهك برادا الصـغيرة · ترددين كالببغاء مايقول راجا العجوز فى مستهل هذا الكتاب ·

قالت : اذا كنا نردده فلأنه حق ، واذا نحن لم نردده كنا منكرين للواقع ·

وسألها : أى واقع ، انه بالتأكيد ليس واقعى ·

ووافقته قائلة له : ليس واقعك فى الوقت الحاضر ، ولكن ان أنت فعلت الأشياء التى يوصى بها راجا العجوز ربما صار واقعك ·

وبعد صمت قليل سـألها : هل كانت لك مشـكلات مع والديك ؟ أم هل كنت دائما ترين الغائط كزهر الجنطيانا ؟

أجابت : ليس فى هـذه السن · لابد أن يكون الاطفال مثنويين مانويين · ذلك هو الثمن الذى يجب أن ندفعه جميعا لكى نتعلم مبادىء انسانيتنا · اما أن يرى المرء غائطا وكأنه زهر الجنطيانا ، أو بالأحرى يرى الغائط والجنطيانا على حد سواء كأنهما «جنطايانا» فذلك أمر لايتحقق الا بعد التخرج من الجامعة ·

ـ ماذا اذن فعلت بأبويك ؟ تكشرين وتحتملين مالايحتمل؟ أم هل كان أبوك وأمك يحتملان ؟

أجابت : كل منهما محتمل على حـدة وبخاصة والدى ، ولكنهما معا لايحتملان ــ لأن كليهما لايحتمل الآخر · امرأة صاخبة مرحة منطلقة تزوجت من رجل منطو على نفسه شديد الحساسية يجدها مثيرة لاعصابه دائما ــ خاصة ــ كما أظن ــ فى الفراش · انها لم تكف عن الاتصال به ، فى حين أنه لم يكن البادىء قط · حتى كانت فى عينه ضحلة غير مخلصة له ، وكان فى عينها بلا قلب ، محقرا من شأنها يفتقر الى المشاعر الانسانية الطبيعية ·

ــ كنت أحسب أنكم هنا أكثر حصـافة من أن تقعوا فى هذا الفخ ·

وأكدت له أنهم فعـلا أكثر حصـافة «فنحن نعلم البنين والبنات بصفة خاصة ماذا يتوقعون من الناس الذين يختلفون عنهم فى التكوين البدنى وفى المزاج ، ولكن يحـدث أحيـانا ــ لسوء الحظ ــ أن الدروس لايكون لها تأثير كبير فيما يبدو · وليس هناك مايدعونى الى أن أذكر أن البعد السيكولوجى بين فرد وآخر يكون فى بعض الحالات أكبر من أن يسمح بالاتصال · على أية حال الواقع أن أبى وأمى لم يكونا على اتفاق · والله وحده يعلم كيف وقعا فى حب متبادل · ولما اشتد التقارب بينهما وجدت أمى فى تزمتـه ايذاء لهـا ، فى حين أن حبها الشديد للزمالة بغير حواجز جعله ينكمش فى حيرة من أمره وفى نفور · وكنت دائما أتعاطف مع أبى · فأنا شبيهة به فى مزاجى وفى تكوينى البدنى · ولست البتة على شبه بأمى · وأذكر ــ حتى وأنا فى نعومة أظفارى ــ كيف كنت أتحاشى مرحها الشـديد ، وقد كانت تعتدى دائمـا على عـزلتى · ومازالت» ·

ـ هل ترينها كثيرا ؟

ـ قلما أفعل ذلك . لهـا عملها الخـاص وأصـدقاؤها الخاصون . الأم ، فى دنيانا اسم لوظيفة بكل معنى الكلمة . وبعد ما تؤدى الوظيفة تماما يسقط هذا اللقب . ويبدأ نوع جديد من العلاقة بين الطفل السابق والمرأة التى كانت تدعى «أما» . فان كانا على اتفاق يستمر بينهما التلاقى فى كثير من الأحيان . أما ان كانا على غير اتفـاق فانهما يفترقان . ولا ينتظر منهما أحد أن يتعلق أحدهما بالآخر ، وليس هذا التعلق مرادفا للمحبة ـ ولا ينظر اليه كأمر جدير بالتقدير بصفة خاصة .

ـ ولذلك فالامور كلهـا الآن على مايرام ، ولكن كيف كانت الامور حينذاك ؟ ماذا حدث عندما كنت طفلة تترعرعين بين شخصين لم يمكن سد الفجوة التى كانت تفصل بينهما ؟ أنا أعرف ماذا يعنى ذلك ـ أعـرف أنه يقلب ماتعـودنا أن نختتم به القصص الخيالية ، ويجعل النهـاية « وهكذا عاشا بعد ذلك بغير ثبات ولين نبات» .

قالت سوزيلا : وأنا على يقين أننا اذا لم نكن قد ولدنا فى بالا . لعشنا بعد ذلك ، بغير ثبات وغير نبات ، وعلى أية حال ـ اذا أخذنا فى اعتبارنا كل الاظروف ـ استطعنا أن نسير معا سيرا طيبا بدرجة ملحوظة .

ـ وكيف تسنى لكم ذلك ؟

ـ لم نفعله بأنفسنا ، بل فعله لنا غيرنا . هل قرأت ماقال راجا العجوز عن التخلص من ثلثى الاحـزان التى نصـنعها بأيدينا بغير مبرر ؟

وأومأ ويل برأسه ايجابا وقال : كنت أقرؤه عندما قدمت ٠

وواصلت حديثها قائلة : فى الأيام السيئة السالفة كانت الأسر فى بالا مثلما هى عندكم اليوم مضحية بأفرادها ، ظالمة، داعية للكذب ٠ ولقد بلغت من السوء ماحدا بالدكتور أندرو وراجا المصلح أن يقررا ضرورة اعادة النظر فيها ٠ واستغلا الاخلاق البوذية والشيوعية البدائية فى القرية لخدمة الأهداف المعقولة ٠ وعلى مدى جيل واحد تغير نظام الاسرة كله من أساسه ٠ وترددت لحظة ثم واصلت الحديث «ولأوضح لك ماأعنى فى حدود حالتى الخاصة ــ طفلة وحيدة لشخصين لم يكن بينهما تفاهم وكانا دائما على خلاف فى الاهداف أو فى شجار فعلى ٠ فى الأيام الخوالى كانت الفتاة الصغيرة التى تنشأ فى مثل هذه الظروف تنتهى اما الى الهلاك ، واما الى التمرد ، واما الى الاستسلام للنفاق من أجل الالتزام بالتقاليد ٠ أما فى ظل النظام الجديد فلم يكن لزاما على أن أتحمل عناء لا ضرورة له ٠ فلم أتحطم ولم أضطر الى التمرد أو الاستسلام للنفاق من أجل الالتزام بالتقاليد ٠ أما فى ظل النظام الجديد فلم يكن لزاما على أن أتحمل عناء لا ضرورة له ٠ فلم أتحطم ولم أضطر الى التمرد أو الاستسلام ٠ لماذا ؟ لانه منذ اللحظة التى استطعت فيها أن أمشى كانت لى حرية الهروب » ٠

وكرر قوله : الهروب ؟ الهروب ؟ هذا أمر حسن جدا يدرجة لاتصدق ٠

وشرحت له كيف أن «الهروب» من صلب النظام الجديد٠ اذا صار (بيت الابوين ، البيت الحلو) كما يقولون غير محتمل،

يسمح للطفل ، بل يشجع على الهجـرة الى بيت من بيـوته الاخرى ، ووراء هذا التشجيع ثقل الرأى العام كله » ٠

ـ وكم بيتا للطفل فى بالا ؟

ـ نحو عشرين فى المتوسط ٠

ـ عشرون ! ياالهى !

ووضحت له سوزيلا ذلك بقولها : كلنا ننتمى الى ناد من نوادى التبنى المتبادل (ويختصر هكذا : ن٠ت٠م٠) ٠ وكل ناد من هذه النوادى يتألف من نحو خمسة عشر الى خمسة وعشرين زوجا مختلطا ٠ العـرائس والعـرسان المنتخبون حـديثا ، والقدامى أصحاب الاطفال الكبار ، والاجداد وآباء الاجداد ـ كل فرد فى النادى يتبنى كل فرد آخر ٠ لكل منا بخلاف أقربائه بصلة الرحم عدد معين من نائبات الامهات ونواب الآباء ، ونائبات العمات والاعمام ، ونواب الاخـوة والاخـوات ، ونائبات العمات والاعمام ، ونواب الاخـوة والاخـوات ، ونواب صغار الاطفال والاطفال الذين هم فى مرحلة المشى والابناء المراهقون ٠

وهز ويل رأسه : ذلك ينمى عشرين أسرة بعد ما كانت أسرة واحدة هى التى تنمو ٠

ولكن ماكان ينمو من قبل هو نوع الأسرة عندكم ٠ أما العشرون فكلها نوع الأسرة عنـدنا ٠ ثم قالت وكأنها تقرأ تعليمات فى كتاب للطهو «خـذ عبدا مأجورا عاجزا عجزا جنسيا ، وأنثى ساخطة ، واثنين (وان شئت) ثلاثة من صغار مدمنى التلفزيون ، وانقع ذلك فى مخلوط من مذهب فرويد والمسيحية المخففة ، واحفظ كل ذلك فى زجاجة محكمة الغلق فى شقة ذات أربع غرف ٠ ودعـه يطهي ببطء فى عصيره

لخمسة عشر عاما . أما طريقة طهونا فمختلفة تماما : خذ عشرين زوجا راضين جنسيا وذريتهم ، وأضف اليهم العلم والبداهة والفكاهة بكميات متساوية . واغمس ذلك في بوذية تانترية ، ودع ذلك يغلي ببطء الى ما نهاية في وعاء مكشوف في الهواء الطلق فوق لهب فوار من المحبة .

وسألها : وماذا يخرج من الوعاء المكشوف ؟

ــ نوع من الأسرة مختلف تماما . ليس مانعا كالأسرة عندكم ، وليس مقدرا ولا ملزما . هي أسرة جامعة ، ليست مقدرة ، وهي اختيارية . عشرون زوجا من الآباء والامهات، وثمانية أو تسعة من الآباء السابقين والامهات السابقات وأربعون أو خمسون طفلا منوعا من جميع الأعمار .

ــ وهل يبقى الناس في ناد واحد للتبني طوال حياتهم ؟

ــ كلا بالطبع . الاطفال الكبار لايختارون آباءهم أو اخوتهم أو أخواتهم الخاصين بهم . بل ينطلقون ليختاروا مجموعة أخرى ممن يكبرونهم ، ثلة أخرى من زملائهم ومن يصغرونهم . ويتبناهم هذا النادي الجديد كما يتبنى ــ عندما يحين الوقت ــ أبناءهم . علماء الاجتماع عندنا يسمون هذه العملية تهجين صغار الاحياء . وهي في مجالها نافعة كتهجين الفصائل المختلفة من الذرة أو الدجاج . علاقات أصح في جماعات أكثر مسئولية ، وتعاطف أوسع وتفاهم أعمق . وهذا التعاطف والتفاهم متاح لكل فرد في (ن.ت.م.) من الاطفال الرضع الى من يجاوزون المائة عام .

ـ يجاوزون المائة عام ؟ ما مدى طول العمر عندكم ؟

أجابت : انه يطول عاما أو عامين أكثر منــه عندكم • عشرة فى المائة منا فوق خمسة وستين • والكبار يتقاضون معاشا اذا عجزوا عن الكسب • ولكن المعاش بطبيعة الحال لايكفى ، فهم يحتاجون الى شىء نافع ويبعث على التحــدى ، وهم يحتاجون الى أناس يعنون بهم ويجدون منهم المحبة لقاء هذه العناية ، و ن•ت•م• يلبى هذه الحاجات •

قال ويل : هــذا كلام أرتاب فى مماثلته للدعاية التى نسمعها عن أحد المجتمعات (الكميون) الصغيرة الجديدة •

وأكــدت له قائلة : ما أبعــد التشــابه بين ن•ت•م والكميون • فالنادى (ن•ت•م•) لاتديره الحكومة ، وانما يديره أفراده • ونحن لسنا عسكريين ، ولا يهمنا تخــريج أعضاء ملائمين للحزب • انما يعنينا أن نخرج كائنات بشرية جيدة • ونحن لانغرس فى الاذهان تعاليم خاصة • ثم اننا لانبعد الاطفال عن آبائهم • بل على العكس من ذلك نعطيهم آباء اضافيين كما نعطى الآباء أطفالا اضافيين • ومعنى ذلك أننا حتى فى دار الحضانة نتمتع بدرجة معينة من الحــرية ، وتزداد هذه الحرية كلما نما الفرد وبات بوسعه أن يتعامل مع مجال فى الخبرة أكثر اتســاعا وأن يتحمل مســئوليات أضخم • فى حين أنك لاتجد فى الصين حرية بتاتا • الاطفال يعهد بهم الى مروضى أطفال رسميين ، من واجبهم أن يحولوهم الى خدام مطيعين للدولة • والامور أفضل من ذلك بكثير فى عالمكم ، ولكنها مع ذلك سـيئة • أنتم لاتخضــعون لمروضى الاطفال المعينين من قبل الدولة ، ولكن مجتمعكم يحكم عليكم بقضاء الطفولة فى أسرة مانعــة ، بها مجموعة واحــدة من

الأقارب ومجموعة واحــدة من الآباء • وهــذه المجموعات مفروضة عليكم فرضا بقدر وراثى • لايستطيع الفرد منكم أن يفر منها ، أو أن يستأجز ، أو أن يذهب الى آخرين على سبيل تغيير المناخ المعنوى والسيكولوجى • وقد تســمونها حرية ، ولكنها كالحرية فى كشك التلفون •

وتوسع ويل فى الفكرة وأخذ يروى (وهو يتصور حياته الماضية) فقال : الفــرد محبــوس مع شخص متنمر ساخر ، وشخص مسيحى مضنح بحياته ، وفتاة صــغيرة أدخل المتنمر الرعب فى نفسها وهددها الشهيد بمناشدته مشاعرها الطيبة حتى أصيبت بالبلاهة المهتزة • هذا هو البيت الذى لم أفر منه حتى بلغت الرابعة عشرة وجاءت عمتى مارى لتسكن الى جوارنا •

ــ وأبواك البائسان لم يفرا قط منك •

ــ لم يكن الأمر كذلك • فلقد وجــد والدى فى الخمر مهربا ووجدته أمى فى الكنيسة الانجليزية • وكان لابد أن انفذ الحكم الخاص بى دون اى تخفيف • اربعه عشر عاما من العبودية العائلية • كم احسدك ! انك حرة كالطائر !

ــ ليس الى هذا الحد الشعرى ! أنما كنت حرة ككائن بشرى نام ــ حرة كشخص مستقبله أن يكون امرأة ــ ولم تتجاوز حريتى ذلك • ألتبنى المتبادل يكفل للأطفال الحماية من الظلم ومن أسوأ عواقب عدم الكفاءة الأبوية ، ولكن لا يكفل لهم الحماية من النظام او من ضرورة قبول المسئوليات • بل ــ على النقيض من ذلك ــ انه يضاعف من مسئولياتهم ، ويعرضهم لضروب مختلفة من النظام • فى عائلاتكم المقدرة

عليكم ، المانعة ، يقضى الاطفال ــ كما قلت ــ فترة طويلة من الحبس تحت رقابة مجموعة واحدة من السجانين الابويين • وقد يكون هؤلاء السجانون الابويون طيبين عاقلين وأذكياء • فى هذه الحالة يخرج صغار المساجين بغير أذى الى حد كبير • غير أن الواقع أن أكثر السجانين الابويين عندكم ليسوا طيبين أو عاقلين أو أذكياء بدرجة ملحوظة • وقد يكونون ذوى نية طيبة ولكنهم أغبياء ، أو ذوى نية سيئة وعلى طيش ، أو عصبيين ، أو أحيانا أشرارا تماما ، أو مجانين صراحة • كان الله فى عون المحكوم عليهم الذين يقضى عليهم القانون والعرف والدين بأن يكونوا تحت رحمتهم ! ولكن انظر الى مايحدث فى الاسرة الكبيرة الجامعة المختارة • ليس بها أكشاك تلفونية ، ولا سجانون مقدرون • هنا ينمو الاطفال فى عالم يعد نموذجا عمليا للمجتمع العام ، عالم هو صورة مصغرة ولكنها دقيقة للبيئة التى سوف يعيشون فيها وهم كبار • (الصحة) و (الكمال) و (القداسة) هذه الكلمات الثلاث بالانجليزية من أصل لغوى واحد وتدل على درجات مختلفة من معنى واحد • العائلة عندنا ــ العائلة الجامعة المختارة ــ هى العائلة المقدسة حقا كما يدل على ذلك الاصل اللغوى وكما هى فى الواقع • أما العائلة عندكم فهى العائلة غير المقدسة •

قال ويل «آمين» واستعاد فى ذهنه مرة أخرى طفولته ، كما عاد بذهنه كذلك الى موروجان المسكين فى قبضة الرانى • وبعد فترة من السكون سألها : ماذا يحدث عندما يهاجر الاطفال الى بيت من بيوتهم الأخرى ؟ كم يطول بقاؤهم هناك ؟

ــ يختلف الأمر من حالة الى أخرى • عنــدما يملنى أطفالى قلما يبتعدون عنى لاكثر من يوم أو يومين • وذلك أساسا لانهم جد سعداء فى بيتهم • أما أنا فلم أكن سعيدة فى بيتى ولذلك فعندما كنت أخرج منه كنت أحيانا أتغيب عنه لشهر بأكمله •

ــ وهل كان نواب أبويك يعضدونك ضد أبيك وأمك الحقيقيين ؟

ليس فى الأمر تحريض من أحد ضد أحد • كل مانؤيده هو الذكاء والمشــاعر الطيبة ، وكل مانعــارضه هو البؤس وأسبابه التى يمكن تفاديها • اذا أحس الطفل بتعاسة فى بيته الأول نبذل أقصى الجهد له فى خمسة عشر أو عشرين بيتا آخر • وفى هذه الاثناء يعالج الأب والأم علاجا نفسيا من قبل الاعضــاء الآخــرين فى نادى التبنى المتبادل الذى ينتمون اليه • وبعد بضعة أسابيع يصــبح الابوان صالحين للعيش مع أبنائهما مرة أخرى ، والاطفال صالحين للعيش مع أبويهم • ثم أضافت الى ذلك قولها «ولكن لاتفهم من ذلك أن الاطفال لايلجأون الى نواب آبائهم وأجدادهم الا فى حالات الضيق • انهم يفعلون ذلك دائما كلمــا أحسوا الحاجة الى التغيير أو الى نوع آخر من الخبرة • انها دوامة اجتماعية • ان عليهم حيثما يتوجهون كنواب أطفال مسئولياتهم كما أن لهم حقــوقهم ــ عليهم مثــلا أن يمشــطوا الكلب وينظفوا أقفاص الطيور ، ويراعوا الاطفال الرضع عندما تكون الأم مشتغلة بعمل آخر • عليهم واجبات كمــا أن لهم مــزايا ــ ولكنها ليست كما هى الحــال عنــدكم فى أكشــاك التلفون الصغيرة التى لايدخلها الهواء • انها واجبات ومــزايا فى

أسرة كبيرة منفتحة جامعة غير مقدرة ، تتمثل فيها مراحل العمر السبع للانســان ومختلف المهــارات والمواهب • فيها يتلقى الاطفال خبرات فى كل الامور الهامة ذات المغزى مما يمارســه الانســان ويكابده ـ العمــل ، واللعب ، والحب ، والكبر ، والمرض ، والمــوت •••» ثم صمتت وفــكرت فى ديوجولد وأمه ، ثم غيرت نغمة صوتها عمدا وقالت «ولكن مابك أنت ؟ لقد شغلت نفسى بالحديث عن الأسر حتى انى لم أسألك عن احساسك • انك بالتأكيد تبــدو أحسن كثيرا مما رأيتك آخر مرة •

ـ بفضل الدكتور ماك فيل ، وكذلك بفضل شخص كان فيما أظن يمارس الطب بغير ترخيص • ماهذا الشيء العجيب الذى فعلته بى أمس مساء ؟

ابتسمت سوزيلا وقالت له مؤكدة : انما فعلته بنفسك • أما أنا فكل مافعلته هو أنى ضغطت على الأزرار •

ـ أى أزرار ؟

ـ أزرار الذاكرة ، وأزرار الخيال •

ـ ويكفى ذلك أن يــدخلنى فى غيبــوبة التنــويم المغناطيسى ؟

ـ اذا حلا لك أن تسميها كذلك •

ـ وماذا يمكن أن تسمى غير ذلك ؟

ـ ولماذا تطلق عليها اسما ؟ الاســماء تفترض صــدق ماتعبر عنه • لماذا لاتكتفى بمجرد علمك أنها حدثت ؟

ـ ولكن ماهذا الذى حدث ؟

ـ بادىء ذى بدء أقول قمنا بنوع من أنواع الاتصال ، أليس كذلك ؟

ووافقها قائلا : بالتأكيد لقد فعلنا ، ومع ذلك فانى لا أصدق أننى رمقتك ولو بنظرة ٠

وعلى الرغم من ذلك كان فى هذه اللحظة ينظر اليها ـ ينظر ويتعجب من يكون هذا المخلوق الصغير العجيب ، وماذا يختفى خلف قناع وجهها الجاد الأملس ، وماذا كانت العينان السوداوان تريان وهما تردان على تفرسه ، فيم كانت تفكر ٠

قالت : كيف كان يتسنى لك أن تنظر الى ٠ لقد ذهبت فى عطلتك ٠

ـ أم هل أبعدتنى عنها ؟

وهزت رأسها وقالت : كلا ٠ لم ابعدك ٠ تستطيع أن تقول انى كنت فى وداعك ، أو أنى عاونتك على المضى ٠ ثم كانت لحظة صمت استأنفت بعدها الحديث وسألته : هل حاولت مرة أن تقوم بعمل ما مع طفل يجاورك ؟

وذكر ويل جارا صغيرا له عرض عليه أن يعاونه فى طلاء أثاث حجرة الطعام ، وضحك عندما تذكر سخطه ٠

وواصلت سوزيلا حديثها قائلة : مسكين هذا الصغير ! كان حسن النية ، وكان يود أن يقدم المعونة ٠

ـ ولكن الطلاء قد لوث السجادة ، وبصمات يده تملأ الجدران ٠٠٠

لذلك أردت أن تتخلص منه فى النهاية فقلت له : اخرج من هنا على عجل أيها الصبى الصغير ! والعب فى الحديقة ·

ثم ساد الصمت ·

وأخيرا سألها : ثم ماذا ؟

ــ ألا ترى ؟

وهز ويل رأسه ·

ــ ماذا يحدث عندما تمرض ، وعندما يصيبك أذى ؟ من يصلحك ؟ من يداوى جراحك ويبعد العدوى ؟ هل تفعل ذلك أنت ؟

ــ ومن غيرى ؟

وأصرت على السؤال : أنت ؟ أنت ؟ الشخص الذى يحس الألم ويصيبه القلق ويفكر فى الخطيئة والمال والمستقبل ! هل تكون وأنت على هــذه الصــور قادرا على أن تفعل مايجب فعله ؟

ــ آه ، أنا أدرك الآن ماترمين اليه ·

وقالت ساخرة «أخيرا !»

ــ تبعثين بى لكى ألعب فى الحديقة حتى يتمكن الكبار من أداء عملهم فى هدوء · ولكن من يكون هؤلاء الكبار ؟

أجابت : لاتسألنى · هذا سؤال يوجه الى لاهوتى فى الاعصاب ·

سألها : ما معنى ذلك ؟

ـ معناه مايدل عليه اللفظ • شخص يفكر فى الناس فى حدود(الضوء الصافى) فى الفضاءوفى الجهاز العصبى المساعد فى آن واحد • الكبار خليط من العقل ووظائف الاعضاء •

ـ والاطفال ؟

ـ هم الصــغار الذين يظنــون انهم يعلمون ما لا يعلم الكبار •

ـ ومن ثم وجب أن يقال لهم سارعوا الى اللعب •

ـ تماما •

وسألها : هل طريقة معالجتك اجراء معتمد فى بالا ؟

وآكدت له ذلك بقولها : نعم هى اجراء معتمد • الاطباء فى عالمكم يتخلصون من الاطفــال بتسميمهم بملح حامض البربتوريك المســكن • أمــا نحــن فنتحــدث اليهــم عن الكاتدرائيات والغربان وهنا تحول صوتها الى مايشبه الغناء وأضافت «وعن السحب البيضاء التى تسبح فى السماء ، وعن الاوز العراقى الذى يسبح فوق نهر الحياة المظلم الصقيل الذى لايقاوم •••»

واحتج على ماتقول وصاح بها «كفى ، كفى • لاتذكرى شيئا من ذلك !»

وأضاءت وجهها الجاد الأسمر ابتسامة خفيفة ثم قهقهت ضاحكة • ونظر اليها ويل فى دهشــة فخيل له فجــأة أنهــا استحالت شخصا آخر ، ســوزيلا ماك فيل أخــرى ، مرحة ، عابثة ، ساخرة •

وشاركها الضحك قائلا لها : أنا أعرف حيلك ·

وهزت رأسها وهى ماتزال تضحك وقالت : حيل ! انما كنت أشرح كيف فعلتها ·

ـ أنا أعلم تماما كيف فعلتها · كما أعلم كذلك أنها طريقة فعالة · وفوق ذلك اسمح لك بفعلها ثانية ـ كلما لزم الأمر ·

وقالت فى جدية أشد «ان شئت · وسوف أريك كيف تضغط على أزرارك بنفسك · اننا نعلم ذلك فى كل مدارسنا الابتدائية · نعلمهم القراءة والكتابة والحساب كما نعلمهم مبادىء (ح · أ) » ·

ـ ماهذا ؟

ـ حرية الارادة · اسم آخر (للتحكم فى المصير) ·

ورفع حاجبيه وقال : التحكم فى المصير ؟

وقالت له مؤكدة : كلا · كلا · لسنا من الغفلة كما تظن · نحن نعلم تمام العلم أن جزءا فقط من مصيرنا هو الذى يمكن أن نتحكم فيه ·

ـ وأنتم تتحكمون فيه بضغطكم على أزراركم ؟

ـ نضغط على أزرارنا ثم نتصور مانود أن يحدث ؟

ـ وهل يحدث ؟

ـ فى حالات كثيرة ·

وبنغمة تهكمية فى صوته قال : أمر بسيط !

ووافقته قائلة : بسيط بدرجة مذهلة ، ومع ذلك فعلى مدى علمى نحن الشعب الوحيـد الذى يعلم (ح•أ) بانتظام للاطفال • أنتم تكتفون بأن تذكروا لهم ماهو مفروض عليهم أن يفعلوه ، ثم تتركون الأمر عند هذا الحد • تقولون لهم مثلا أحسنوا السلوك • ولكن كيف ؟ انكم لاتشرحون لهم ذلك قط • كل ماتفعلون هو أنكم تقدمون اليهم النصيحة وتوقعون بهم العقاب • يالها من بلاهة •

ووافقها على ذلك وقال : انها محض بلاهة ! وتذكر مستر كراب رئيس الأسرة بالمدرسة وهو ينصحهم بتجنب الاستمناء الذاتى ، كما تذكر العقوبات البدنية والمواعظ الاسـبوعية وصلاة الوعيد فى أربعـاء الرماد (١) حينما كان يقال لهم «ملعون من يضاجع زوجة جاره • آمين ،»

ـ واذا أخذ الاطفال عندكم هـذه البـلاهة مأخذ الجد أصبحوا آثمين بائسين عندما يكبرون • واذا هم لم يأخـذوه مأخـذ الجد أمسوا سـاخرين بائسين • واذا هم تصرفوا من منطلق السخرية البائسة كانوا اما بابويين واما ماركسيين • ولا عجب أن تكون لديكم هذه الألوف من السجون والكنائس وزنزانات الشيوعية •

ـ أفهم من ذلك أن لديكم منها القليل فى بالا •

وهزت سوزيلا رأسها وقالت :

ـ ليس لدينا مايشـبه سجن الكتراز أو بيلى جريهام أو ماوتسى تنج • ليس لدينـا جحيم على الأرض ولا نعيـم فى

(١) أول أيام الصوم الكبير عند المسيحيين ـ المترجم •

السماء ، ولا أمل الشيوعية فى القرن الثانى بعد العشرين • نحن مجرد رجال ونساء وأطفالهم نحاول أن نستغل (الآن وهذا المكان) على خير مايستطاع ، بدلا من أن نعيش فى مكان آخر كما تفعلون أنتم فى أكثر الأحيان ، وفى وقت آخر ، فى عالم خيالى آخر من صنع أنفسنا • والواقع أن الخطأ ليس منكم • فأنتم مرغمون تقريبا على هذا الاسلوب من العيش لأن الحاضر يخيب آمالكم • وهو يخيب آمالكم لأنكم لم تتعلموا قط أن تسدوا الفجوة التى تفصل بين النظرية والتطبيق ، بين ماتقررون لأنفسكم فى رأس السنة وسلوككم الفعلى •

وروى قولهم : أنا لا أعمل على تحقيق الخير الذى أريد ، وانما أعمل على تحقيق الشر الذى لا أريد •

ـ من قال هذا ؟

ـ الرجل الذى نشر المسيحية • القديس بولس •

قالت : هذه أسمى المثل العليا الممكنة بغير وسائل لتحقيقها •

ـ ماعدا الوسيلة فوق الطبيعية التى تعمل على تحقيقها على يد (شخص آخر) •

وألقى ويل رأسه الى الخلف وأنشد مايلى :

من عروق عمانوئيل
امتلأت بركة من الدماء
فى فيضها ينغمس الآثمون
ومن خطاياهم يتطهرون

طبيعتها ، وذلك عندما فعلت بابز فى الوقت المناسب مالابد أن يتوقعه أى غافل من أنها لابد فاعلته ــ عندما طردته من فردوسها الجهنمى الذى أضاءه اعــلان الخمر واتخــذت غيره عشيقا لها ٠

وسألته سوزيلا : مابك ؟

ــ لاشىء ٠ لماذا تسألين ؟

ــ لانك لاتحسن اخفاء مشاعرك ٠ كنت تفكر فى أمر جعلك غير سعيد ٠

قال : عيناك حادتان ٠ ثم صرف عنها النظر ٠

وساد صمت طويل ٠ هل يخبرها ٠ هل يخبرها عن بابز وعن مولى المسكينة ، وعن نفسه ، يخبرها عن كل شىء كئيب سخيف لم يخبر به قط أحدا ــ حتى وهو مخمور ــ حتى أعز أصدقائه ؟ والاصدقاء القدامى يعلمون الكثير عنه ، والكثير عن الاطراف الاخرى ذات الشــأن ، والكثير عن تلك اللعبــة الخيالية المضحكة التى دأب عليها وتفنن فيها كما فعل ذلك السيد الانجليزى الذى كان كذلك بوهيميا وشاعرا منتظرا ، كما كان ــ يدافع اليأس لانه كان يعلم أنه لايمكن أن يصبح شاعرا مجيدا ــ صحافيا محنكا ووكيــلا خاصا لرجل ثرى يزدريه على الرغــم من أنه يغــدق له فى العطاء) ٠ كلا ٠ الاصدقاء القدامى لايصلحون ٠ ولكن هذه الغريبة الضئيلة السمراء ، هذه الغريبة التى أمسى مدينا لها بالكثير ، والتى أخلص لها على الرغم من أنه لم يكن يعلم عنها شيئا ، هذه الغريبة لن تصدر عنها أحكام مسبقة ، ولا أحكام متحيزة ، بل قد تصدر عنها فيما يأمل (على الرغم من أنه درب نفسه

على ألا يأمل أبدا !) استنارة غير مرتقبة ، ومعونة ايجابية عملية • (واله يعلم أنه كان بحاجة الى المعونة ، والله يعلم كذلك جيدا أنه لن يعترف بأنه في حاجة الى المعونة ، ولن يهبط الى الحد الذى يجعله طالبا لها) •

وكالمؤذن وهو فوق المئذنة أخذت تلك الطيور الناطقة تصيح من أعلى نخلة باسقة خلف أشجار المنجة ، وتردد قولها: الآن وفى هذا المكان أيها القوم ، الآن وفى هذا المكان •

فصمم ويل على أن يغامر ــ بطريقة غير مباشرة ، وذلك بأن يبدأ هو الحديث لا عن مشكلاته هو ولكن عن مشكلاتها • فبدأ يتكلم دون أن ينظر الى سوزيلا (لأنه أحس أن ذلك قد لايتفق وقواعد الاحتشام) •

ــ ذكر لى الدكتور ماك فيل شيئا عن ••• عما حدث لزوجك •

ووقعت هذه الكلمات من قلبها موقع السهم • ولكن ذلك كان متوقعا ، وصوابا وأمرا لامناص منه •

قالت : تنقضى يوم الأربعاء المقبل أربعة أشهر بعد الحادث • ثم قالت وهى تتأمل وبعد صمت لم يدم طويلا « شخصان اثنان مستقل كل منهما عن الآخر ــ ولكنهما يجتمعان وكأنهما خلق جديد • وفجأة يبتر نصف هذا المخلوق الجديد ، ولكن النصف الآخر لايموت ــ ولايمكن أن يموت ، ولاينبغى أن يموت •

ــ لاينبغى أن يموت ؟

ــ لأسباب عدة ــ من أجل الاطفال ، ومن أجل الشخص

ذاته ، ومن أجل طبيعة الاشياء كلها • وببسمة خفيفة عززت بها الحزن البادى فى عينيها أضافت الى ذلك قولها : ولست فى حاجة الى أن أقول ان هذه الأسباب لاتخفف من صدمة البتر ولا تجعل مايترتب عليه أمرا محتملا بدرجة أكبر • ولا يساعد المرء الا ماكنا نتحدث فيه منذ لحظة ـ أقصد (التحكم فى المصير)• وهزت رأسها ثم قالت وحتى هذا ••• لان ت•م (التحكم فى المصير) قد يجعل الميلاد بغير ألم ، ولكنه أبدا لن يجعل فقدالحبيب بغير ألم ، وذلك بالطبع هو ماينبغى أن يكون• ليس من الصواب أن يكون فقدان الحبيب خاليا تماما من الألم• ان ذلك يهبط بك دون المستوى الانسانى •

وكرر عبارتها الاخيرة (دون المستوى الانسانى) • انها كلمات ثلاث قصيرة ولكنها تلخص حياته كلها !

وقال بصوت مسموع : والأمر المفزع حقا هو ان يعلم المرء أنه هو المسئول عن موت الشخص الآخر •

وسألته : هل كنت متزوجا ؟

ـ اثنا عشر عاما • حتى الربيع الماضى •••

ـ ثم ماتت ؟

ـ ماتت فى حادث •

ـ فى حادث ؟ اذن كيف كنت مسئولا عن موتها ؟

ـ وقع الحادث لانى ••• فعلت الشر الذى لم أرد أن أفعله • وفى ذلك اليوم اقترفته • وأربكها هذا الايذاء وأطار صوابها ، ورفعتها الى الانطلاق وهى تسوق العربة ـ فاصطدمت صدمة قوية •

ــ هل كنت تحبها ؟

وتردد لحظة ، ثم هز رأسه هزا بطيئا •

ــ هل كان هناك شخص آخر كنت به أكثر حفاوة ؟

وبملامح وجهه التى تدل على سخريته من نفسه قال :

شخص آخر لم يكن بوسعى أن أحد من حفاوتى به •

ــ وذلك كان الشر الذى فعلته ولم ترد أن تفعله ؟

ــ فعلته وثابــرت على فعله حتى قتلت المــرأة التى كان ينبغى لى أن أحبها ، ولكننى لم أفعل • بل وثابرت على فعل هذا الشر حتى بعد أن قتلتها ، وعلى الرغم من سخطى على نفسى على هذا الذى كنت أفعل • وكذلك كنت ساخطا على الشخص الذى دفعنى الى ارتكاب مالم أرد •

ــ دفعتك الى فعله فيما أظن لأن جسمها كان من النــوع المطلوب ؟

وأومأ ويل برأسه ، ثم ساد الصـمت •

وأخيرا سألها : هل تعرفين كيف يكون شعور المرء عندما يحس أنه ليس هناك شىء واقعى تماما حتى نفسه ؟

وأومأت سوزيلا برأسها وقالت : يحدث ذلك أحيانا عندما يوشــك المرء أن يتبين له أن كل شىء ــ حتى نفسه ــ أكثر واقعية مما كان يتصور • وما أشبه ذلك بتغيير السرعة فى السيارة • انك تجعل ترسها أولا فى درجة السكون ثم تنقله الى أعلى •

قال ويل : أو الى أسفل • لم يكن الانتقال الى أعلى ، بل كان الى أسفل • لا ، لم يكن الى أسفل ، بل الى العكس • حدث

ذلك أول مرة عندما كنت فى انتظار أوتوبيس ينقلنى من شارع فليت الى بيتى · وكان هناك ألوف الالوف من البشر، كلهم يتحرك ، وكل منهم فريد ، كل منهم مركز الكون · ثم ظهرت الشمس من خلف السحب فأشرق كل شيء واتضح بصورة عجيبة ، وفجأة وبسرعة خاطفة انقلبوا جميعا الى ديدان ·

ـ ديدان ؟

ـ نعم ، تلك الديدان الشاحبة الصغيرة ذات الرؤوس السوداء التى ترينها فى اللحم الفاسد · وبطبيعة الحال لم يتغير شيء ما ، وبقيت وجوه الناس كما هى ، وأزياؤهم كما هى · ومع ذلك كانوا جميعا ديدان · بل لم يكونوا ديدان حقيقية ، وانما أشباح ديدان ، مايتوهمه المرء انه ديدان · أما أنا فقد كنت صورة وهمية لمشاهد الديدان · وعشت فى عالم الديدان هذا شهورا · عشت فيه ، وعملت فيه ، وخرجت فيه للغداء والعشاء ـ كل ذلك دون أدنى اهتمام بما كنت أعمل · ودون أدنى متعة أو لذة ، فاقد الشهية ، وعندما حاولت أن أمارس الحب مع فتاة كنت فيما مضى ألهو بها أحيانا تبين لى أنى عاجز تماما ·

ـ وماذا كنت تتوقع ؟

ـ هذا بعينه ·

ـ اذن لماذا ··· ؟

وابتسم لها ويل ابتسامة ساخرة وهز كتفيه ثم قال : من

باب الاهتمام العلمى • كنت كعالم الحشرات أبحث فى الحياة الجنسية لليرقات الوهمية •

ــ وبعد ذلك بدا لك كل شىء ــ فيما أظن ــ أشد امعانا فى اللا واقعية •

ووافقها قائلا : بل أكثر من ذلك ، ان كان هذا بالامكان •

ــ ولكن ما الذى أتى باليرقات أول الأمر ؟

أجاب : أولا ، كنت ابن والدى ، من مخمور متنمر وشهيدة مسيحية ، وسكت برهة ثم قال : وفوق أنى كنت ابن والدى ، كنت ابن أخ عمتى مارى •

ــ وماشأن عمتك مارى بهذا ؟

ــ كانت الشخص الوحيد الذى أحببت ، وعندما بلغت السادسة عشرة أصيبت بالسرطان ، وأزيل ثديها الأيمن أولا ، ثم ثديها الأيسر ثانيا بعد عام واحد • وبعد ذلك عرضوها للاشعة السينية ولاشعاعات أخرى ، ثم بلغ السرطان منها الكبد ، وكانت هذه نهايتها • ووعيت ذلك من البداية حتى النهاية • وكان فى ذلك لصبى فى العقد الثانى من عمره تربية «عقلية حرة» •

وسألته سوزيلا : من أى ناحية ؟

ــ من حيث التفاهة فى صورتها البحتة والتطبيقية • وبعد بضعة أسابيع من انتهاء دراستى الخاصة فى الموضوع

جاءت البداية الكبرى للدراسة العامة • الحرب العالمية الثانية ، وأعقبتها دراسة تجديدية مستمرة مع الحرب الباردة الأولى • وفى غضون ذلك كله كنت أريد أن أكون شاعرا ، وتبين لى أنى أفتقر الى الاستعداد • وبعد الحرب اشتغلت بالصحافة لأكسب المال • وكنت لا أبالى اذا جمعت ـ اذا اقتضى الأمر ذلك ـ فى سبيل محاولتى أن أكتب شيئا مقبولا ـ نثرا جيدا على الأقل بعد ما عرفت أنه لايمكن أن يكون شعرا جيدا • وكان على ألا أعتمد على والدى العزيزين • وعندما مات أبى فى يناير من عام ستة وأربعين كان قد تخلص من المال اليسير الذى ورثته الأسرة ، وبعد ما ترملت أمى أصبحت عرجاء من أثر التهاب المفاصل وكان لابد لها من عائل • وهكذا توجهت الى شارع فليت (١) ، أعولها فى سهولة ونجاح كانا مذلة لى تماما •

ـ ولماذا كانت مذلة ؟

ـ ألا تحسين المذلة ان وجدت نفسك تكسبين المال من أرخص أنواع الأدب الزائف البراق ؟ لقد نجحت لانى انحدرت الى المرتبة الثانية التى لم يكن من الممكن علاجها •

ـ وكان من نتيجة ذلك كله هذه اليرقات ؟

وهز رأسه ايجابا وقال : لم تكن ديدان حقيقية ، انما كانت ديدان وهمية • وهنا ظهرت مولى فى الصورة • قابلتها فى حفلة لليرقات من الطبقة الراقية • وعرفونى بها • ودار بيننا حديث تافه مهذب عن التصوير اللا هادف • ولما كنت لا أريد أن أرى مزيدا من الديدان لم أنظر اليها ، ولكن لابد

(١) شارع الصحافة فى لندن ـ المترجم

أنها كانت تنظر الى • ثم أضاف قوله : وبهذه المناسبة مولى لها عينان زرقاوان رماديتان شاحبتان • عينان ترى بهما كل شيء ـ وكانت شـديدة الملاحظة بدرجة لاتصـدق ، ولكنها تلاحظ بغير حقد أو مراقبة ومحاسبة ـ اذا رأت شرا لاتدينه قط ، وتكتفي بالاسف الشـديد على الشخص الذى أرغمته الظروف لكي يبوح بهذه الآراء أو يفعل ذلك الشيء البغيض • وأعود فأقول انها لابد كانت تنظر الى ونحن نتبادل الحديث، لانها سألتني بغتة لماذا أنا فى حزن شديد • وكنت قد تناولت كأسين من الشراب ولم أر فى طريقة سؤالها وقاحة أو تهجما • لذلك حدثتها عن الديدان ، واختتمت حديثى عنها بقولى ، وأنت واحدة منها ، ثم نظرت اليها لأول مرة • دودة لها عينان زرقاوان ووجه كأنه لاحدى أولئك النسوة المقدسات اللائى يظهرن أثناء حفلات الصلب فى فلمنك» •

ـ وهل أشبعت بذلك غرورها ؟

ـ أظن ذلك • وكانت قد تخلت عن المذهب الكاثوليكى، ولكنها مازالت تميل الى مثل هذه الحفلات والى النسوة المقدسات • على كل حال ، فى اليوم التالى طلبتني بالتلفون صباحا وقت الافطار ، وسألتني هل أحب أن أخرج معها فى نزهة بالعربة فى الريف ؟ وكان يوم الأحد ، وبمعجزة من السماء كان الجو لطيفا فى ذلك اليوم • فقبلت الدعوة • وقضينا ساعة فى أيكة من شجر البندق ، نقطف زهـر الربيع وننظر الى شـقائق النعمان الصغيرة البيضاء ، لان شقائق النعمان لاتقطف فهى تذبل فى غضون سـاعة واحـدة ، وأنعمت النظر فى ايكة البندق ـ أنظر الى الزهور بالعين العارية ، ثم أنظر اليها من خلال منظار مكبر كانت مولى قد أحضرته معا • وكان فى ذلك

علاج نفسى غير عادى لست أدرى له سببا ــ مجرد النظر الى قلوب زهور الربيع وشقائق النعمان • ولم أعد أرى ديدان بقية النهار ، غير أن شارع فليت كان بانتظارى • وما أن حل موعد الغداء يوم الاثنين حتى كان المكان يعج بها كما هى الحال دائما • ملايين اليرقات • ولكنى الآن أعلم ما أصنع بها• وفى ذلك المساء ذهبت الى مرسم مولى •

ــ هل هى مصورة ؟

ــ لم تكن مصورة حقيقية ، وكانت تدرك ذلك • أدركته ولكنها لم تمتعض له ، واكتفت بأن تستغل افتقارها الى الموهبة • انها لم تصور من أجل الفن • انما كانت تصور لانها تحب أن تنظر الى الأشياء ، وتحب أن تحاول أن تنقل بكل دقة ماتقع عليه عيناها • وفى ذلك المساء أعطتنى لوحة وفرجونا ، وطلبت الى أن أفعل فعلها •

ــ وهل أفلحت ؟

ــ أفلحت الى حد بعيد ، حتى انى بعد انقضاء شهرين قطعت تفاحة فاسدة فلم أجد الدودة التى كانت بداخلها على شكل يرقة ــ أعنى من الناحية الذاتية • اما موضوعيا فقد كانت كذلك • كانت تتميز بكل صفات اليرقة ، وهكذا صورها كلانا ــ لاننا كنا دائما نصور نفس الاشياء فى نفس الوقت •

ــ وماذا عن الديدان الأخرى ، الديدان الوهمية خارج التفاحة ؟

ــ اننى مازلت أنتكس وبخاصة فى شارع فليت وفى حفلات الكوكتيل • ولكن الديدان قل عددها بالتأكيد ، وخفت

مطاردتها يقينا . وفى تلك الأثناء كان يحدث فى المرسم شيء جديد . كنت أحب ـ أحب لأن الحب معد وكانت مولى تحبنى بدرجة ملحوظة ـ لماذا ، الله وحده يعلم .

ورمقتــه ســوزيلا بعينها لتسبر غــوره ، ثم ابتسمت وقالت :

هناك عدة أسباب ممكنة . ربما أحبتك لانك .... ماذا أقول ؟

لانك شخص جذاب .

وضحك وهو يقول : أشكرك على هذا الاطراء الجميل .

وواصلت سوزيلا حديثها قائلة : ومن ناحية أخرى (ولم يكن هذا الكلام على سبيل الاطراء) انها ربما أحبتك لانك حملتها على أن تشعر بالاسف الشديد عليك .

ـ أخشى أن تكون هذه هى الحقيقة . لان مولى ولدت (أختا للرحمة) .

ـ وليست (أخت الرحمة) لسوء الحظ (كزوجة للحب) .

قال : وذلك ماتبينته فى حينه .

ـ بعد زواجكما فيما أظن .

وبعد لحظة من التردد قال ويل : بل قبل ذلك فى الواقع . لا لأن الرغبة كانت تلح عليها ، ولكن لانها كانت حريصة على أن تفعل أى شيء لتسرنى . لانها ـ من حيث المبــدأ ـ لم تعتقد فى التقاليد وكانت تميل كل الميل نحو الحب المتحرر . وتذكر الاشياء الفاضحة التى كانت تعبر عنها عــرضا وفى

هدوء تام حتى مع وجود آمه ثم أضاف : وأعجب من ذلك أنها كانت تميل الى الحديث المتحرر عن هذه الحرية ٠

وأوجزت سوزيلا فى العبارة حين قالت :

ـ عرفت ذلك من قبل ومع ذلك تزوجتها ٠

وأومأ ويل رأسه ايجابا دون أن ينبس ببنت شفة ٠

ـ لانك كنت رجلا مهذبا ـ فيما أحسب ـ والرجل المهذب يبر بوعده ٠

ـ لهذا السبب العتيق من ناحية ٠ ولانى كنت أحبها من ناحية أخرى ٠

ـ هل كنت فعلا تحبها ؟

ـ نعم ٠ لا ٠ لست أدرى ٠ ولكننى فى ذلك الحين كنت أدرى ٠ أو على الأقل ظننت أننى أدرى ٠ كنت على اقتناع تام أننى أحبها فعلا ٠ وكنت أعلم ـ ولازلت أعلم ـ سبب اقتناعى ٠ كنت شاكرا لها فضلها لانها استأصلت تلك الديدان ٠ ثم انى احترمتها كما اعترفت لها بالجميل ٠ كنت أعجب بها ٠ ولقد كانت أفضل وأشد اخلاصا منى ٠ ولكنك ـ لسوء الحظ ـ مصيبة : (فأخت الرحمة) ليست مثل (زوجة للحب) ٠ ولكننى كنت على استعداد لأن أقبل مولى بشروطها لا بشروطى ٠ كنت مستعدا للاعتقاد بأن شروطها أفضل من شروطى ٠

وبعد صمت طويل سألته سوزيلا : ومتى بدأت فى علاقاتك الجانبية ؟

وسدت سوزيلا أذنيها وقالت : هذا شيء فاحش حقا .

وقال لها ويل : هذه هى الانشودة المفضلة لاستاذ أسرتى المدرسية . كنا نتغنى بها مرة كل اسبوع تقريبا طوال وجودى بالمدرسة .

قالت : أحمد الله أن البوذية لم يكن بها قط دماء . عاش جوتاما (١) حتى بلغ الثمانين من عمره ومات لأنه كان مجاملا الى حـد أنه لم يرفض الطعـام السيىء . والظاهر أن الميتة العنيفة تستدعى دائما مـزيدا من الموت العنيف ، « اذا كنتم لاتصدقون أنكم بدماء مخلصى تفتدون أغرقتكم فى دمائكم» فى العام المـاضى درست فى شـيفابورام شـيئا من تاريخ المسيحية .

وارتعدت سوزيلا من الذكرى ثم قالت :

ـ ياللهول ! وذلك كله لان ذلك الرجل المسكين لم يعرف كيف ينفذ نواياه الطيبة .

قال ويل : وأكثرنا يسير على هذا المنوال . الشر لانريده ولكننا نفعله ، وبأية طريقة !

وكان رد الفعل عند ويل هو الا يتسامح مع من لايستحق التسامح ، فضحك ساخرا من نفسه . ضحك لانه كان يعلم طهارة قلب مولى ، ولكنه ـ وبعينين مفتوحتين ـ اختار الفجوة القرنفلية وما تعنيه من شقاء لمولى ، ونهـاية لها ، واحساسه بالذنب يفتك بصدره ثم بالألم ، الألم المبرح الذى شعر به بدرجة لاتتناسب البتة مع مسـبباته الوضـيعة الهزلية فى

---

(١) أخذ فلاسـفة البوذية ، وكان يعتمد فى تعـاليمه على المنطق والتحليل ، ولذلك يقال عنه انه أرسطو الهند ـ المترجم

وابتسم ويل فى سخرية وقال : بعــد ثلاثة أشــهر من زواجنا • وكانت المرة الأولى مع احدى السكرتيرات فى المكتب • يا الهى ، لكم كانت مدعاة للسأم ! ثم مع مصورة شابة ، فتاة يهودية صغيرة فظة كانت مولى قد عاونتها بالمال حينما كانت تدرس الفن على منحــة سليد (١) • وقد تعــودت أن أزورها بمرسمها مرتين كل اسبوع ، من الخامسة حتى السابعة • ولم تعرف مولى ماكان يدور بيننا الا بعد ثلاث سنوات تقريبا •

ــ وأزعجها ذلك فيما أظن ؟

ــ أكثر مما كنت أتوقع •

ــ وماذا فعلت ؟

قال ويل وقد هز رأسه : من هنا بدأت الأمور تتعقد • لم يكن فى نيتى أن أتخلى عن قضاء ساعات الكوكتيل مع راشيل • ولكنى كنت ســاخطا على نفسى لاننى سببت لمولى الشــعور بالتعاسة • وفى نفس الوقت كنت أمقتها لهذه التعاسة التى أحست بها • وساءتنى آلامها كما ســاءنى الحب الذى جلب عليها الآلام • وشعرت أنها بآلامها وحبها لم تنصفنى ، بل كانت تهددنى لترغمنى على التخلى عن لهوى البرىء مع راشيل • فلقد كانت بالمبالغة فى حبى وبالشقاء الذى تحسه ازاء ماكنت أفعل ــ وهــو ماحملتنى هى حقا على فعله ــ تضــغط على ، وتحاول أن تقيد حــريتى • ولكنها كانت أثنــاء ذلك تعسة حقا • ومع أنى كنت أمقتها لتهديدها لى بهذه التعاسة فقــد

---

(١) ســليد رجل انجليزى مولع بالفن (١٧٠٠ ــ ١٨٦٨) قدم لجامعات اكســفورد وكامبردج ولندن منحا للأســاتذة والطلاب الذين يدرسون الفنون ــ المترجم

أشفقت عليها كل الاشفاق ، وأعنى الاشــفاق لا الرحمــة • فالرحمة مشاركة فى الألم • واما ماكنت أريده بأى ثمن فهو أن أتحاشى الألم الذى كانت تسببه لى معاناتها ، وان أتجنب التضحيات المؤلمة التى أستطيع أن أنهى بها ماتعانى • فكانت استجابتى للموقف هى الاشفاق ، آسف لها مع خارجى ـ ان كنت تدركين ما أعنى ، آسف لها كما يأسف المشاهد ، أو عاشق الفن أو الخبير بأسباب العذاب • وهذا الاشفاق الذى مصدره التذوق الفنى كان يســتبد بى كلمــا بلغت بهــا التعاسة ذروتهــا حتى لقــد كــدت أظنــه حبــا • أقول (كدت) لانى لم أخدع نفسى تماما • وعندما كنت أعبر عن اشفاقى بالعطف البدنى (وهو مافعلته لان ذلك كان الوسيلة الوحيدة لايقاف تعاستها وايقاف الألم الذى كانت تعاستها تصيبنى به ولو الى حين) كان هذا العطف يبــوء بالفشــل قبل أن يبلغ ذروته الطبيعية • أقول كنت أبوء بالفشل لانها كانت ـ بحكم مزاجها ـ مجرد (أخت رحيمة) ولم تكن زوجة • ومع ذلك فلقد أحبتنى ـ على كل مستوى خلا المستوى الحسى ـ بالالتزام المطلق ـ وهو التزام كان يتطلب الرد بالالتزام من جانبى • ولكنى لم أرد أن ألتزم ،وربما لم يكن ذلك بوسعى فى الواقع • فبدلا من أن أشــكر لهــا عطاءها نفســها لى ، كنت أشــعر بالاستياء • فلقد كان لهذا العطاء حقوق على أن أؤديها ، وهى حقوق رفضت أن أعترف بها • وهكذا كنا فى نهاية كل أزمة من الازمات ـ نعود الى بداية المسرحية القديمــة ـ مسرحية الحب الذى يعــوزه الحس يكلف بالالتزام ازاء حس يعــوزه الحب ، فيثير ردود أفعــال مختلطة بشــكل عجيب من الاثــم والسخط ، والاشفاق والامتعاض ، وأحيانا من البغض الفعلى (وهناك دائمــا احســاس دفين بتأنيب الضــمير) • وكانت

تصاحب ذلك فى جميع الحالات وتسير معه فى تناغم سلسلة من الاماسى المختلسة أقضياه مع «المصورة الصغيرة الفظة» ٠

قالت سوزيلا : أرجـو أن تكون على الأقل قد استمتعت بهذه الأماسى ٠

هز كتفية وقال : بدرجة معتدلة ٠ فأن راشيل لم تنس قط أنها مثقفة ٠ تسألك عن رأيك فى بيرودى كوسيمو (١) فى أحرج اللحظات ٠ أما المتعة الحقيقية ـ والعذاب الحقيقى بطبيعة الحـال ـ فلم أعـرفها حتى ظهـرت بابز على مسرح حياتى ٠

ـ ومتى كان ذلك ؟

ـ منذ أكثر قليلا من عام ٠ فى افريقيا ٠

ـ افريقيا ؟

ـ بعث بى الى هناك جو الديهايد ٠

ـ ذلك الرجل الذى يملك الصحف ؟

ـ وغير ذلك ٠ وكان متزوجا من ايلين عمة مولى ٠ وكان فوق ذلك رب أسرة مثالى ٠ ومن أجل ذلك كان على ثقة تامة من اسـتقامته حتى حينمـا كانت تشـغله العمليات المالية المشينة ٠

ـ وأنت تعمل لحسابه ؟

وأومأ ويل برأسه ايجابا وقال : تلك كانت هديته لمولى بمناسبة قرانها ـ وظيفة لى فى صحف الديهايد تقريبا بضعف

---

(١) مصور ايطالى عاش فى القرن الخامس عشر وبدايـة السادس عشر ـ المرجم ٠

المرتب الذى كنت أتقاضاه ممن كنت أعمل معهم من قبل ٠ هدية سخيفة ! ولكنه كان شديد الولع بمولى ٠

ـ وماذا كان رد الفعل عنده بالنسبة لبابز ؟

ـ لم يعلم عنها شيئا قط ـ ولم يعلم أن هناك سببا ما لحادثة مولى ٠

ـ ومن ثم فهو يستمر فى استخدامك من أجل زوجتك المتوفاة ؟

هز ويل كتفيه وقال : المبرر هو أن أمى بحاجة الى أن أعولها ٠

ـ وبالطبع أنت لاترضى عن فقرك ٠

ـ طبعا لا أرضى ٠

ثم كانت فترة سكون ٠

وأخيرا قالت سوزيلا : لنعد الى افريقيا ٠

ـ بعثوا بى الى هناك لأكتب سلسلة عن وطنية الزنوج ٠ ولست بحاجة الى القول بأنى قمت كذلك بعمليات احتيال صغيرة خاصة فى شئون التجارة لصالح العم جو ٠ وفى الطائرة وأنا فى طريق العودة من نيروبى وجدت نفسى جالسا الى جوارها ٠

ـ الى جوار الشابة التى أنت أشد ماتكون بغضا لها ؟ «نعم أشد ما أكون بغضا لها وأكثر ما أكون رفضا لها ٠ ولكن اذا كان المرء مدمنا فلابد له من جرعة من المخدر ـ وهى الجرعة التى تعلم سلفا أن فيها هلاكك ٠

وقالت وهى تفكر : هذا شيء عجيب ، ونحن فى بالا ليس لدينا مدمنون ٠

ــ ليس لديكم مدمنون حتى فى العلاقة الجنسية ؟

ــ مدمنو الجنس هم كذلك مدمنو أشخاص ، أو بعبارة أخرى هم محبون ٠

ــ ولكن المحبين أحيانا يمقتون من يحبون ٠

ــ هذا أمر طبيعى ٠ فأنا مثلا لى اسم واحد وأنف واحد وعينان لايتغيران ، ولكن ذلك لايستتبع أنى دائما نفس المرأة ٠ والعلم بهذه الحقيقة والاستجابة لها بشكل معقول جانب من جوانب فن الحب ٠

وبأقصى مايمكن من ايجاز روى لها ويل بقية القصة ٠ وهى نفس القصة ــ بعد ما ظهرت بابز فى الصورة ــ كما حدث من قبل ٠ نفس القصة مع الامعان فيها ٠ فبابز ليست الا راشيل وقد ارتفعت الى قوة أعظم ، قل هى راشيل تربيع ، أو راشيل أس ن ٠ كما أن الشقاء الذى ألحقه بمولى بسبب بابز أكبر نسبيا مما كابدته من ألم بسبب راشيل ، وكذلك كان سخطه ، واحساسه بالغضب من تهديدها له بحبها آلامها ٠ وتأنيبه لضميره واشفاقه ، وتصميمه ــ على الرغم من تأنيب الضمير ومن الاشفاق ــ على أن يستمر فى حصوله على مايريد ، وعلى ماكان يكره نفسه لرغبته فيه ، وعلى مارفض رفضا باتا أن يتخلى عنه ــ كل هذه المشاعر والأحاسيس كانت كذلك أقوى نسبيا فى حالة بابز منها فى حالة راشيل ٠ وفى الوقت نفسه كانت بابز أشد الحاحا ، وتطلب منه مزيدا من الوقت ــ لا لينفقه فقط فى الفجوة القرنفلية ، ولكن خارجها كذلك ، فى

المطاعم ، والملاهى الليلية ، وفى حفـلات الكوكتيل الفظيعة التى تدعو اليها أصدقاؤها ، وفى قضاء عطلات نهاية الاسبوع فى الريف • كانت تقـول له : سـنكون أنا وأنت وحـدنا ياحبيبى • معا فى عزلة • معا فى عزلة تهيىء له الفرصة لكى يسبر الاغوار السـحيقة لتفاهة عقلها وسـوقيتها • ولكن شهوته استبدت به على الرغم مما كان يحس من ملل وانحطاط فى الذوق ، ومن نفور خلقى وثقافى • وبعد احدى عطلات نهاية الاسبوع هذه أمسى مدمنا لبابز كما كان من قبل بدرجة لا رجاء فيها • وبقيت مولى ــ من جانبها ، من جانب موقفها كأخت رحيمـة ــ على الرغـم من كل شىء كذلك مدمنة لويل فارنبى بنفس الدرجة التى لا رجاء فيها • درجة لا رجاء فيها بالنسبة اليه ــ لان رغبته الوحيدة هى أن تخفف من حبها وأن تسـمح له أن يذهب الى الجحيم فى هـدوء • أما فيما يتعلق بمولى فقد كان ادمانها دائما وبغير كبت مفعما بالأمل • فلم تكف قط عن توقعها لمعجزة تغير مجرى الامور فتحوله الى ويل فارنبى عطوفا ، بعيدا عن الانانية ، محبا ، وهو (على الرغم من كل الشواهد ، وعلى الرغم من كل ماتكرر من خيبة الأمل) ما أصرت فى عناد شديد على اعتباره نفسه الحقه • والواقع أنه لم يفصح عن عزمه على هجـرها للعيش مع بابز الا من خلال تلك المقابلةالاخيرة القاضية ،عندما كبت اشفاقه وأرخى العنان لاستيائه من تهديدها له باحساسها بالتعاسة ــ عندئذ فقط حل اليـأس نهائيـا محل الامل • «هـل تعنى ماتقول ياويل ؟ هل تعنيه حقا ؟» «نعم أعنيه حقا» • وفى يأس مطلق سارت الى العربة وانطلقت بها والمطر يهمى ــ نحو موتها • وفى موكب الجنازة وهم يوارونها التراب أخذ عهدا على نفسه ألا يرى بابز بعد ذلك • أبدا ، أبدا لن يراها • وفى ذلك

المساء ، وهو منكب على مكتبه يكتب مقالا عنوانه «ماذا أصاب الشباب» محاولا ألا يتذكر المستشفى ، والقبر المفتـوح ، ومسئوليته عن كل ماحدث ، تنبه مذعورا عندما سمع رنينا قويا من جرس الباب • هذه رسالة عزاء متأخرة من غير شك •• وفتح الباب ، وبدلا من البرقية ألفى بابز حـزينة بغير زينة ومرتدية ثيابا سوداء •

« عزيزى ويل ! » وجلسا على الأريكة فى غرفة الجلوس، تربت شعره وكلاهما يبكى •

« عندما يتقطب الجبين من الألم والكروب ، تكونين لى كالملاك المعين » • ولست بحاجة الى القـول بأنهما أويا الى الفراش عاريين بعد ساعة من زمان • وبعد ذلك انتقل الى جوارها فى الفجوة القرنفلية • ولا يفوت أى غافل أن يدرك أن بابز فى غضون ثلاثة أشهر بدأت تمله ، وفى غضون أربعة أشهر ظهر فى احدى حفلات الكوكتيل رجل هائل وافدا من كينيا •

وتسلسلت الحوادث ، وبعد ثلاثة أيام عادت بابز الى بيتها تعد الفجوة لمستأجر جديد ولتنذر المستأجر القديم بالاخلاء •

ـــ هل تعنين ذلك فعلا يابابز ؟

نعم لقد عنت ذلك فعلا •

وسمعت بين الاشـجار خارج النـافذة خشخشة ، وبعد برهة من الزمن بصوت مرتفع مزعج وفى موعد غير مرتقب صاح طائر ناطق يقول «الآن وفى هذا المكان أيها القوم» •

ورد عليه ويل صائحا «اسكت !»

وعادت المينة تكرر قــولها «الآن وفي هــذا المكان أيها القوم الآن ...»

ــ اسكت !

ثم ساد الصمت .

وقال ويل : كان لابد لى أن أسكته لانه طبعا كان على صواب مطلق . هنا ياقوم ، والآن ياقوم . اما هناك وآنذاك فلا محل لهما . أليس كذلك ؟ وماذا عن موت زوجك مثلا ؟ هل هذا أمر لا محل له ؟

وحدقت فيه سوزيلا لحظة فى صمت ، ثم هزت رأسها فى بطء شديد وقالت : فى اطار ما على أن أفعله الآن ــ نعم الأمر لا محل له بتاتا . وهذا شيء كان لابد لى أن أتعلمه .

ــ وهل يتعلم المرء كيف ينسى ؟

ــ ليس الأمر أمر نســيان . ما على المرء أن يتعلمه هو كيف يذكر ويبقى مع ذلك متحررا من الماضى . كيف يكون هناك مع الموتى ومع ذلك يبقى هنا فى مكانه مع الأحياء . وابتسمت له ابتسامة حزينة يسيرة وأضافت قولها «ليس الأمر هينا » .

وكرر هذه العبارة ويل وقال «نعم ليس الأمر هينا» . وفجأة فقد كل حصانته وزال عنه كبريائه وقــال لها «هل تعينينى ؟ »

قالت وقد مدت يدهــا اليه «هذا أتفاق بيننا» . وسمع وقع اقدام دفعهما الى الالتفات ، واذا بالدكتور ماك فيل يدخل الغرفه .

ـ مساء الخير ياعزيزتى • مساء الخير يا مستر فاربنى •

قالها بنغمة تنم عن السرور ، ولم يكن سرورا مفتعلا ، ولكنه طبيعى وصادق كما بدا لسوزيلا لأول وهله • ومع ذلك فلابد أن يكون قبل قدومه الى هنا قد توقف عند المستشفى ، ولابد أن يكون قد قام بزيارة للاكشمى لأن سوزيلا نفسها قد رأتها منذ ساعة أو ساعتين اكثر هزالا من اى وقت سلف ، وقد برزت عظامها وتغير لونها • نصف حياة طويلة من الحب والأخلاص والتسامح المتبادل ـ وبعد يوم او يومين ينتهى كل شىء ، ويمس وحيدا • ولكن يكفى اليوم ما به من شر ، كما يكفى المكان ويكفى الأنسان ماناله من شر • وكان حموها قد قال لها ذات يوم وهما يغادران المستشفى معا «ليس من حق الأنسان أن يخلع حزنه على الآخرين • وليس من حقه بطبيعة الحال أن يزعم أنه ليس حزينا • على المرء أن يقبل مأسية ومحاولاته العابثة أن يكون رواقيا ، وأن يقبل ، ويقبل ••» ثم خانه صوته • ورفعت بصرها اليه واذا بوجهه تسيل فوقه الدموع • وبعد خمس دقائق كانا جالسين على مقعد على حافة بركة اللوتس فى ظل تمثال بوذا الصخرى الضخم واذا بضفدعة غير مرئية تقفز منافريزها المستدير المورق وتغطس فى الماء محدثة صوتا مسموعا ومندفعة فى شوق الى الماء • وبرزت من الطين الاعواد الغليظة الخضراء ببراعمها المنتفخة وشقت الهواء • وشوهدت هنا وهناك رموزالاستنارة زرقاء

أو وردية اللون تتفتح بتلاتها نحـو الشمس ونحو زيارات التفقد يقوم بها الذباب والخنافس الصغيرة والنحل المتوحش منبعثة من الغابة • كما شـوهد سرب من اليعاسيب الزرقاء والخضراء المتلألئة تندفع طائرة ، ثم تتوقف أثناء الطيران ، ثم تندفع مرة أخرى سعيا وراء اصطياد الذباب الصغير •

وفى صوت هامس قال الدكتور روبرت «تاثاتا» (صورة مثالية) •

ولبثا مكانهما صامتين لفترة طويلة • وفجأة لمس كتفها

ــ انظرى !

ورفعت عينيها تجـاه ما أشـار اليه ، ورأت ببغـاوين صغيرين وقد حطا على يد بوذا اليمنى يؤديان شعائر الغزل •

وسألت سوزيلا بصوت مرتفع «هل توقفت مرة أخرى عند بركة اللوتس ؟»

ابتسم لهـا الدكتـور روبرت ابتسـامة خفيفة وأومأ برأسه •

وسأله ويل : وكيف وجدت شيفابورام ؟

أجاب الدكتور : بهيجة ولا يعيبها الا اقترابها الشديد من العالم الخارجى • هنا يستطيع المرء أن يتجاهل الحماقات المنظمة ويباشر عمله • أما هناك فالعالم الخـارجى يخنقك فى كل لحظة لوجود أجهزة الاستشعار ومحطات الاسـتماع وقنوات الاتصال التى لابد للحـكومة من امتـلاكها • أنت تسمع العالم الخارجى ، وتحسه ، وتشمه ــ نعم ، تشمه •

ــ هل حدث منذ ماكنت هناك شىء مشئوم فوق العادة ؟

ـ لاشيء فوق العادة فى طرفكم من العالم • وكم وددت لو استطعت أن أقول ذلك عن طرفنا منه •

ـ مم تشكون ؟

ـ نشكو جارنا الملاصق ، الكولونيل ديبا • فأولا عقد اتفاقية اخرى مع التشك ؟

ـ مزيد من السلاح ؟

ـ بما قيمته ستون مليونا • ذكر ذلك الراديو هذا الصباح •

ـ وما الداعى ؟

ـ الأسباب المألوفة • المجد والقوة • لذة الغرور ولذة تهديد الآخرين • ارهاب واستعراضات عسكرية فى الداخل ، وغزوات وموسيقى النصر فى الخارج • ويؤدى بى هذا الى البند الثانى من الاخبار السيئة • أمس مساء ألقى الكولونيل خطبة أخرى من خطبه الشهيرة عن رندانج العظمى •

ـ رندانج العظمى ؟ ماهذه ؟

قال الدكتور روبرت : لك أن تسأل • رندانج العظمى هى الأرض التى حكمها سلاطين رندانج لوبو فيما بين ١٤٤٧ و ١٤٨٣ • وكانت تشمل رندانج وجزر نيكوبار وثلاثين فى المائة تقريبا من سومطره وكل بالا • أما اليوم فهى تقتصر على مقاطعة الكولونيل ديبا الذى يريد أن يسترد كل ما فقدت بلاده من اراض •

ـ وهل هو جاد ؟

ـ بالوجه المستقيم • كلا • أنا مخطىء • بالوجه

الارجوانى المشوه وبأعلى الصوت الذى تدرب ـ بعد طول مران ـ على أن يجعله شبيها تماما بصوت هتلر · «رندانج العظمى أو الموت !

ـ ولكن الدول الكبرى لن تسمح بقيامها ·

ـ ربما لاتحب هذه الدول أن تراه فى سومطره · اما بالا ـ فذلك أمر آخر · ثم هز رأسه وواصل الحديث « بالا ـ لسوء الحظ ـ لا ذكر لها فى أى سجل · نحن لانريد الشيوعيين ، ولانريد كذلك الرأسماليين · ونمقت أشد المقت التصنيع الكامل الذى يسعى أولئك وهؤلاء الى فرضه علينا ـ لاسباب مختلفة بطبيعة الحال · فالغرب يريد ذلك لان أجور العمل منخفضة ومن ثم فان أنصبة المستثمرين مرتفعة · والشرق يريده لان التصنيع يخلق طبقة البروليتاريا ، ويفتح ميادين جديدة للثورة الشيوعية وقد ينتهى الى انشاء ديمقراطية شعبية أخرى · ونحن نقول لا لكما ، ولذلك فنحن لانكتسب شعبية فى أى مكان · ان الدول العظمى كلها ـ بغض النظر عن أيديولوجياتها ـ قد تؤثر بالا محكومة من رندانج بما فيها من حقول البترول على بالا مستقلة بغير هذه الحقول · واذا ماهاجمنا ديبا قالت هذه الدول ان الموقف يرثى له ، ولكنها لاترفع اصبعا · واذا ما استولى علينا ودعا رجال البترول لدخول البلاد فاضوا سرورا» ·

سأل ويل : وماذا يمكنكم أن تفعلوا بالكولونيل ديبا ؟

ـ لاشىء غير المقاومة السلبية · ليس لدينا جيش وليس لنا أصدقاء أقوياء · فى حين أن الكولونيل لديه الجيش والاصدقاء الاقوياء · أكثر مانستطيع أن نصنعه اذا بدأ يثير

المتاعب أن نلجأ الى الأمم المتحدة · وفى نفس الوقت نحتج لدى الكولونيل على هذه الافاضة فى الحديث أخيرا عن رندانج العظمى · نحتج عن طريق وزيرنا فى رندانج لوبو · ونحتج فى وجه الرجل العظيم شخصيا عندما يقوم بزيارته الرسمية لبالا بعد عشرة أيام ·

ــ زيارة رسمية ؟

ــ بمناسبة الاحتفال ببلوغ راجا الصغير سن الرشد · وجهت اليه الدعوة منذ زمن بعيد ، ولكنه لم يخطرنا مؤكدا تلبية الدعوة أو رفضها · واليوم تقرر الامر نهائيا · فسوف نعقد مؤتمر قمة كما نحتفل بعيد الميلاد · ولكن دعنا الآن نتحدث فيما هو أجدى · كيف حالك اليوم يامستر فارنبى ؟

ــ حالتى ليست جيدة فحسب ، انها رائعة · ولقد شرفت اليوم بزيارة من ملككم الذى يسود بلادكم ·

ــ موروجان ؟

ــ لماذا لم تخبرنى انه ملككم الذى يسود بلادكم ؟

وضحك الدكتور روبرت وقال : لو فعلنا فربما طلبت المقابلة ·

ولكنى لم أطلبها لا معه ولا مع الأم الملكة ·

ــ وهل أتت الرانى كذلك ؟

ــ بوحى من صوتها الضعيف · ولقد أرشدها صوتها الضعيف بالتأكيد الى العنوان الصحيح · ان رئيسى ، جون الديهايد ، من أعز أصدقائها ·

ــ وهل أخبرتك بأنهــا تحــاول أن تأتى برئيسك هنا لاستغلال ماعندنا من بترول ؟

ــ نعم بالتأكيد •

ــ رفضنا عرضه الاخير منذ أقل من شــهر • هل علمت بذلك ؟

وابتهج ويل لانه استطاع أن يجيب بصدق بأنه لم يعلم • فلم ينبئه بهذا الرفض الاخير جو الديهايد أو الرانى • وعاد الى حديثه يقول ليس بكل الصدق «عملى يتعلق بقســم لباب الاخشاب وليس بقسم البترول» ثم كانت فترة سكون ، وأخيرا سأل : ما وضعى هنا ؟ أجنبى غير مرغوب فيه ؟»

ــ على كل حــال ــ لحسن الحظ ــ أنت لســت من بائعى الاسلحة •

قالت سوزيلا : ولست مبشرا •

ــ ولست من رجال البترول ــ وان كنت فى هذا الصدد قد تعد مذنبا لارتباطك بهم •

ــ ولست فيما نعلم باحثا عن اليورانيوم •

قال الدكتور روبرت : هؤلاء بالدرجــة الاولى هم غير المرغوب فيهم • اما كصحافى فأنت فى المرتبة الثانية • لست مطلقا الرجل الذى نحلم بدعوته الى بالا • ولكنك كذلك لست الرجل الذى أفلح فى الوصول الى هنا ونطلب ابعاده فورا •

قال ويل : أحب أن أبقى هنا بمقدار مايسمح القانون •

ــ هل لى أن أسألك لماذا ؟

تردد ويل • باعتباره وكيلا سريا لجو الديهايد ومراسلا صحافيا يهوى الأدب هواية قصوى كان لابد له أن يطيل من مقامه ما استطاع لكى يتفاوض مع باهو ويكتسب سنة التحرر التى وعد بها • ولكن كانت هناك أسباب أخرى يمكن الاباحة بها فقال : أقول لك اذا لم يكن لديك اعتراض على الملاحظات الشخصية •

قال الدكتور روبرت : أفصح •

ـ الواقع أننى كلما زادت معرفتى بكم اشتد حبى لكم • وأنا أريد أن أعرف المزيد عنكم • ثم أضاف الى ذلك وهو يرمق سوزيلا بنظره «وفى غضون ذلك قد تتبين لى جوانب شائقة عن نفسى • حتى م تسمحون لى بالبقاء ؟»

ـ الأمر الطبيعى أن نخرجك بمجرد ماتسمح لك صحتك بالسفر • اما ان كنت شديد الحفاوة ببالا ـ وان كنت فوق ذلك شديد الاهتمام بنفسك ـ فقد نطيل بقاءك قليلا • أم هل ذلك لايجوز ؟ مارأيك ياسوزيلا ؟ مع العلم بأنه يعمل فعلا مع لورد الديهايد •

وكاد ويل أن يحتج ثانية بأن عمله يتعلق بقسم لباب الاخشاب • ولكن الالفاظ انحاشت فى حلقه فلم ينبس ببنت شفة • ومرت ثوان فأعاد الدكتور روبرت السؤال •

فقالت سوزيلا أخيرا : نعم لاننا لو سمحنا له بالبقاء كنا مخاطرين • ومن ناحيتى الشخصية أنا على استعداد لأن أخاطر • فهل أنا على صواب ؟ والتفتت نحو ويل •

فضحك وحاول أن يجعل من الموضوع فكاهة وقال : أظن أن بوسعك أن تثقى فى • على الأقل أرجو أن يكون ذلك

بوسعك • ولشد ماكان ضيقه بنفسه وحيرته من أمره حينما شعر بالخجل • مم يخجل ؟ وجه هذا السؤال الى ضميره وهو على مضض • اذا كان هناك كسب لغير من يستحق فهو لشركة ستاندارد بكاليفورنيا • واذا ماتقدم ديبا ، فأى فارق عنده لمن يكون الامتياز ؟ من تؤثر ان يلتهمك : ذئب أم نمر ؟ ان الأمر لايهم الحمل • وجو لن يكون أسوأ حالا من منافسيه • ومع ذلك فلكم تمنى لو أنه لم يتعجل بارسال الخطاب الذى بعث به • ثم لماذا لم تتركه وشأنه تلك المرأة الشنيعة ؟

وأحس من خلال الملاءة أن يدا تمس ركبته السليمة • وقد أكب عليه الدكتور روبرت وابتسم له •

قال : تستطيع أن تقضى شهرا هنا • وسأكون مسئولا عنك مسئولية كاملة ، وسوف نبذل جهدنا لكى نطلعك على كل شىء •

ـ أشكرك شكرا جزيلا •

قال الدكتورروبرت : حينما تشك اعمل دائما على فرض أن الناس أكثر شرفا مما تظن بناء على أسباب ملموسة • هذه النصيحة أسداها الى راجا العجوز حينما كنت شابا والتفت الى سوزيلا وقال لها : خبرينى كم كان عمرك عندما مات راجا العجوز ؟

ـ ثمانية أعوام تماما •

ـ واذن فأنت تذكرينه جيدا •

وضحكت سوزيلا : وهل يمكن لأحـد أن ينسى الطريقة التى كان يتحدث بها عن نفسه مؤكدا بها ذاته فوق كل شىء ياله من رجل عزيز على نفسى •

ـ ويا له من رجل عظيم !

ونهض الدكتور ماك ڤيل واتجه نحو خزانة الكتب التى كانت قائمة بين البـاب ودولاب الملابس ، واستـل من رفها الأسفل ألبوم صور سميك أحمر ، وقـد تهلهل من أثر الجو الاستوائى ومن أكل الحشرات . وقال وهـو يقلب صـفحاته «له صورة هنا فى مكان ما . هاهى ذى» .

ونظر ويل الى الصورة الباهتة ، وهى صورة هنـدوكى ضئيل عجوز بنظارة ومئزر ، يفرغ محتويات صحن فضى كثير الزخرفة فوق عمود قصير سميك .

سأل : ماذا يفعل ؟

أجاب الدكتور : انه يصب الزيت المقـدس فوق رمـز للجنس . وهى عادة لم يستطع أبى المسكين أن يصرفه عنها .

ـ وهل كان أبوك لايرضى عن الاعضاء الجنسية ؟

قال الدكتور ماك فيل : كلا ، كلا . بل كان يحبـذها ، وانما كان لايرضى عن الرمز .

ـ ولماذا الرمز ؟

ـ لانه كان يعتقد أن الناس لابد أن يأخذوا دينهم بطريق مباشر ، ان كنت تفهم ما أعنى ، بغير تنقيح أو تحريف . ولم يكن يحب أن تصاغ العقيدة فى عبـارات لاهـوتية أو فى شعائر أو طقوس .

ـ وكان الراجا يميـل الى مثـل هـذه العبارات وهـذه الطقوس ؟

ـ ليس بوجه عام ، ولكن فى هذا الموضوع بالذات • كان يرتبط بصفة خاصة بهذا الرمز الجنسى للاسرة • وقد صنع من البـازلت الاسـود ، ويبلغ من العمر ثمانمائة عـام على الأقل •

قال ويل فارنبى : لقد فهمت •

ـ يصب فوقه الزيت ـ كان هذا عنده نوعا من العبادة التى تعبر عن عاطفة جميلة نحو فكرة سـامية • ولكن حتى أسمى الافـكار تختلف اختـلافا بينا عن اللغز الكونى الذى تمثله • والعواطف الجميلة التى ترتبط بالافكار السامية اذن ليس بينها وبين التجـربة المبـاشرة مع اللغـز الكونى عنصر مشترك • بتاتا • ولست فى حاجة الى أن اذكر لك أن الراجا العجوز كان يعلم ذلك حق العلم • اكثر مما كان يعلمه ابى • لقـد شرب اللبن من ضرع البقـرة رأسـا ، بل لقد كان هو واللبن شيئا واحد • بيد أن مسح رمز التناسل بالزيت كان عملا مقدسا لم يحتمل أن يتخلى عنه • ولست فى حاجة الى أن أقول لك انه ماكان ينبغى لأحد أن يطلب اليه أن يتخلى عنه • واذا كان الأمـر يتعلق بالرمـوز فان أبى يكون دائما من المتزمتين • وعلى خـلاف مع جيتـه كان مثله الأعـلى العـلم التجريبى البحت فى طرف والتصـوف التجريبى البحت فى طرف آخر من الطيف • الخبرة المباشرة على كل مستوى ، ثم التعبير الواضح العقلى عن هـذه الخبرات • رمـز الجنس ، الصليب ، الزيت ، الماء المقدس ، الحكم البوذية ، التماثيل ، الاناشيد ـ كم كان يود أن يلغيها جميعا •

وسأل ويل : وأين كان موقع الفنون ؟

أجاب الدكتور ماك فيل : لم يكن لها البتة موقع . الشعر وحده كان النقطة السوداء عند أبى . قال انه يحبه ، والواقع أنه لم يكن يحبه . الشعر من أجل الشعر ، الشعر باعتباره عالما مستقلا ، يقع بين الخبرة المباشرة ورموز العلم ـ ذلك شيء لم يدركه . دعنى أبحث عن صورته .

وتصفح الدكتور ماك فيل ألبوم الصور مرة أخرى ثم أشار الى الصورة الجانبية العجفاء ذات الحاجبين الكثيفين .

وعلق ويل عليها بقوله : ياله من رجل اسكتلندى !

ـ ومع ذلك كانت أمه وجدته لأمه من أهل بالا .

ـ اننى لا أرى لهما أثرا .

ـ فى حين أن جده لأبيه الذى وفد من بيرث كان شديد الشبه بالراجبوت (١) .

وحدق ويل فى الصورة الفوتوغرافية القديمة لشاب ذى وجه بيضاوى وسبلتين جانبيتين سوداوين ، يرتكز بمرفقيه على قاعدة من المرمر فوقها قبعته الطويلة الفارعة وقاعها الى أعلى .

ـ هل هذا هو جدك الأكبر ؟

ـ أول من وفد الى بالا من آل ماك فيل . الدكتور أندرو . ولد فى عام ١٨٢٢ فى مدينة اسكتلندية (رويال بارا) حيث كان والده جيمس ماك فيل يملك مصنع حبال . وكانت هذه الحبال رمزا ملائما ، لأن جيمس كان كالفينيا مخلصا لمذهبه،

(١) أحد أفراد الطبقة الهندوكية العسكرية الحاكمة والمالكة للأرض ـ المترجم .

ولما كان يؤمن بأنه من الخيار فقد كان يستمد طمأنينة نفسية مشرقة من أن هؤلاء الملايين من زملائه يقضون حياتهم وحبل القدر ملتف حول أعناقهم وفى السماء ملاك يعد الدقائق ليوقعهم فى شرك الموت ٠

وضحك ويل ٠

ووافقه الدكتور روبرت قائلا : نعم ، ان الأمر يبدو مضحكا حقا ، ولكنه لم يكن كذلك فى ذلك الحين ، بل كان جدا واكثر جدية من القنبلة الهيدروجينية فى هذه الأيام ٠ كان من المعروف أن تسعة وتسعين وتسعة اعشار فى المائة من البشر محكوم عليهم بالجحيم الأبدى ٠ لماذا ؟ اما لأنهم لم يسمعوا قط عن يسوع ، واما ــ ان كانوا قد سمعوا به لأنهم لم يؤمنوا ايمانا كافيا بأن يسوع قد أنقذهم من عذاب النار ٠ والدليل على أن ايمانهم لم يكن كافيا هو انه كان من الواضح ومن الناحية العملية أن نفوسهم غير مطمئنة ٠ والايمان الكامل شيء يعود بالطمأنينة الكاملة للنفوس ٠ ولكن طمأنينة النفس الكاملة شيء لايملكه فى الواقع أحد ٠ ومن ثم فان أحدا ــ من الناحية العملية ــ لايملك الايمان الكامل ٠ ولذلك فكل امرىء مكتوب عليه العقوبة الابدية ٠

قالت سوزيلا : انى لأعجب لماذا لما يصابوا جميعا بالجنون ٠

قال الدكتور ماك فيل : أكثرهم لحسن الحظ لم يؤمن الا بقمة رأسه ٠ وقرع صلعة رأسه ٠ ثم قال «بقمة الرأس كانوا يؤمنون بأن ذلك هو الحق لاريب فيه ٠ اما بالغدد والاعصاب فقد كانوا يعلمون ماهو أصدق من هذا ــ يعلمون أن كل ذلك

هراء · ولم يكن الحق عند أكثرهم حقا الا يوم الأحد ، وحتى في هذا اليوم كان الحق بمعنى بكويكى (١) بحت · وكان جيمس ماك فيل على علم بذلك كله · وكان مصمما بألا يكون أبناؤه من المؤمنين يوم الأحد فقط · كان لابد لهم من الاعتقاد في كل كلمة من الكلمات المقدسة وان كانت خالية من المعنى حتى في أيام الاثنين ، وحتى بعد الظهر في أيام العطلات ·

وكان لابد لهم من الايمان بكل كيانهم ، وليس فقط في قمم رؤوسهم · لابد من ارغامهم على الايمان الكامل وعلى الطمأنينة القصوى التي تلازم هذا الايمان · وكيف يكون ذلك ؟ بأن يذيقهم النار الآن ويتوعدهم بالنار فيما بعد واذا ركب الشيطان رؤوسهم عنادا فرفضوا الايمان الكامل وما يجلبه من طمأنينة زادهم نارا وتوعدهم جحيما أشد سعيرا · ويقول لهم في الوقت نفسه ان الله غني عما يعملون، ولكنه يوقع بهم عقوبات وحشية لكل مسلك مشين · ويقول لهم انهم بالطبيعة فاسقون ويضربهم على ما لا مفر لهم منه ·

وعاد ويل فارنبى يتصفح ألبوم الصور ·

ـ هل لديك صورة لجدك الممتع هذا ؟

قال الدكتور ماك فيل : كانت عندنا صورة زيتية ، ولكن الرطوبة أفسدت اللوحة وأخذت تأكلها الحشرات · كان نموذجا رائعا · شبيها بصورة أرميا التي رسمت في عهد النهضة · جليل الطلعة ، في عينه الوحي · ذو لحية نبوية تغطي كثيرا

(١) نسبة الى مستر بكويك احدى شخصيات الروائي الانجليزي شارلز ديكنز ـ المترجم ·

من العيوب الخلفية • ولم يبق له أثر سوى رسم بقلم الرصاص لبيته الذى كان يعيش فيه •

وقلب صفحة أخرى فوقعت عينه على الصورة •

واستمر فى حديثه : من الجرانيت الصلب ، وعلى كل نوافذه قضبان • وفى داخل هـذا الباستيل العـائلى الدافىء أعمال نظامية من اللا انسانية ! لا انسـانية نظامية ترتكب ــ ولست فى حاجة الى ذكر ذلك ــ باسم المسيح ومن أجل العمل الصالح • وقد تـرك لنا الدكتـور أندرو سـيرة ذاتية لم يكملها ، ومنها عرفنا كل شىء •

ــ ألم يتلق الاطفال عونا من أمهم ؟

وهز الدكتور ماك فيل رأسه •

ــ كانت جانيت ماك فيل من اتباع كاميرون (١) كالفينية مخلصة مثل جيمس نفسه • وقد تكون أكثر كالفينية منه • ولما كانت امرأة فقد كانت أكثر مبالغة ، وكان لديها مزيد من أسباب العطف الغرزى التى لابد من التغلب عليها • ولكنها تغلبت فعلا ــ وببطولة • وبدلا من أن تقل من حدة زوجهـا كانت تحرضه وتؤيده • كانت العظـات الدينية تلقى قبـل الفطور وأثناء الغداء • وكان هناك الحوار الدينى فى أيام الآحاد وكانت هناك كذلك الرسائل الدينية تحفظ عن ظهر قلب • وفى المساء يحاسب الاطفال على انحرافاتهم أثناء النهار ثم يضربون بطريقة مطردة فوق أردافهم بالسياط المصنوعة من عظم الحوت والتى تستخدم فى ركوب الخيل ، سواء فى ذلك

(١) رتشارد كاميرون مصلح سكتلندى بريزبيتيرى ــ المترجم •

البنون والبنات وعددهم ستة أطفال واحدا بعد الآخر بترتيب السن ٠

قالت سوزيلا : اننى أشمئز لسماع ذلك ٠ وان هى الا محض سادية ٠

قال الدكتور ماك فيل : لا ليست سادية محضة ، انما هى سادية تطبيقية ٠ سادية بواعثها عميقة ، هى سادية فى سبيل مثل أعلى معين ، وهى تعبير عن عقيدة دينية معينة ، ثم التفت الى ويل وأضاف الى ذلك قوله : وهذا موضوع لابد أن يقوم أحد بدراسته دراسة عميقة تاريخية ــ أعنى العلاقة بين اللاهوت وعقوبة الاطفال بدنيا ٠ عندى نظرية مؤداها أن البلاد التى يجلد فيها البنون والبنات بطريقة نظامية تنشأ فيه ضحايا التعذيب على تصور الله بأنه هو (الآخر الكامل)ــ أليست هذه هى اللغة التى تتحدثونها فى ذلك الجزء من العالم الذى تسكنونه ؟ فى حين ــ على عكس ذلك ــ أن الاطفال الذين ينشأون دون أن يتعرضوا للقسوة البدنية يرون أن الله موجود فى كل الوجود ٠ ان العقيدة الدينية لشعب من الشعوب تعكس مدى تعرض أطفاله للعقوبة البدنية ٠ انظر الى العبرانيين ــ وهم شعب يضرب أطفاله فى حماسة شديدة٠ وكذلك كان كل المسيحيين الطيبين فى عهود الايمان ٠ من هنا كانت فكرة يهوه ، والخطيئة الاولى والآب الذى أخطأ الانسان فى حقه خطأ شنيعا فى العقيدة الأصيلة الرومانية والبروتستانتية ٠ فى حين أن التربية عند الهندوس والبوذيين اتسمت دائما بعدم العنف ٠ انعدمت عندهم العقوبات البدنية ومن ثم كانت عقيدتهم فى «أن المرء هو كذلك» روحه من الروح الأعلى ٠ ثم انظر الى الصاحبيين

(الكويكرز) · لقد عدوهم من الزنادقة لانهم آمنوا «بالضوء الباطنى» فماذا حدث ؟ تخلوا عن ضرب الاطفال وكانوا أول طائفة مسيحية احتجت على نظام الرق ·

واعترض على ذلك ويل بقوله : ان ضرب الاطفال لم يعد شائعا فى هذه الايام ، ومع ذلك ففى هذه الآونة نفسها أمست الاباحة بفكرة (الآخر الكامل) هى من الفكر المتقدم الحديث ·

وفند الدكتور ماك فيل هذا الاعتراض وقال : ليس ذلك الا من قبيل رد الفعل بعد الفعل · ببلوغ النصف الثانى من القرن التاسع عشر اشتدت حركة الانسانيين المتحررين فى أفكارهم حتى تأثر بها المسيحيون الطيبون أنفسهم فكفوا عن ضرب الاطفال ولم تعد للضرب آثاره فى أجسام الاطفال ، ولذلك لم يعد هؤلاء الاطفال يرون الله «الآخر الكامل» وأخذ الجيل الجديد يخلق «الفكر الجديد» ، و «الوحدانية» ، و «العلم النصرانى» (١) ـ وكلها بدع شبه شرقية الله فيها يتطابق مع الانسان تطابقا كاملا · وسارت هذه الحركة شوطا بعيدا على عهد وليام جيمس ، ثم أخذت تقوى بعد ذلك · غير أن الفكرة دائما تثير نقيضها ، وبمرور الايام ولدت هذه البدع الارثوذكسية الجديدة ، التى قضت على التطابق الكامل بين الله والانسان وعادت الى فكرة (الآخر الكامل) ! وكانت العودة الى أوغسطين ومارتن لوثر ـ وبعبارة موجزة العودة الى أشد ماعرف الانسان فى تاريخه كله من الايذاء البدنى بغير هوادة · اقرأ «الاعترافات» واقرأ «حديث المائدة» · وكان أوغسطين

---

(١) الايمان بأن الخطيئة والمرض والموت يمكن القضاء عليها بفهم تعاليم المسيح فهما كاملا ـ المترجم ·

يتلقى الضرب من معلمه والسخرية من أبويه اذا هو شكا • وتعرض لوثر للضرب المستمر ليس فقط من معلميه ومن أبيه، بل حتى من أمه التى تحبه • ودفع العالم ثمن هـذا الضرب المبرح منـذ ذلك الحين • ولولا لوثر وعقيـدته الدينية التى صاحبها الضرب ما ظهرت فى الوجود فظائع البروسية والرايخ الثالث • ثم خذ عقيدة أوغسطين القائمة على القسوة البدنية، والتى بلغت مع كالفين نتيجتها المنطقية واتبعتها برمتها عامة الناس من أمثال جيمس ماك فيل وجانيت كاميرون • القضية الكبرى : الله منفصل عنا تماما ، والقضية الصغرى : الانسان فاسق فسقا كاملا • النتيجة : اضرب أبناءك كما ضربت ، وافعل بهم ما فعله ابونا الذى فى السماء بجسد الأنسـانية جمعاء منذ سقوط الأنسان : الجلد بالسياط بغير هوادة !

ثم سادت فترة من الصـمت • وتطلع ويل فاربنى مرة أخرى الى رسم ذلك الشخص الصخرى فى مصنع الحبـال ، وطافت بذهنه كل الصـور الخيـالية البشـعة القبيحة التى ارتفعت الى مستوى الامور الخارقة للطبيعة ، وكل القساوات الدنيئة التى أوحت بها تلك الصور الخيالية ، وكل الآلام التى فرضت على الناس وأسباب الشقاء التى تحملوها بسـببها • اذا لم يكن أوغسطين بقسوته المحتملة كان روبسـبيير ، أو ستالين - واذا لم يكن لوثر يحض الامراء على قتل الفلاحين كان ماو المعتدل الذى يهبط بهم الى مستوى العبودية •

وسأله ويل : ألا يصيبك اليأس أحيانا ؟

وهز ماك فيل رأسه وقال : نحن لانيأس لاننا نعلم بأن الأمور لايتحتم بالضرورة أن تكون سيئة كما كانت دائما فى الواقع •

وأضافت سوزيلا : نعلم أنه من الممكن أن تكون أفضل كثيرا • نعلم ذلك لانها بالفعل أفضل ، الآن وفى هذا المكان ، فوق هذه الجزيرة غير المعقولة •

قال الدكتور ماك فيل : ولكن هل سنستطيع أن نغريكم أيها القوم لكي تحذوا حذونا ، أو هل حتى أن نحافظ على واحتنا الانسانية الصغيرة هذه وسط بيدائكم الفسيحة التي تسكنها القردة — هذا للأسف أمر آخر • ولعل لدينا مايبرر الشعور بالتشاؤم الشديد فيما يتعلق بالموقف الحالى • أما اليأس • اليأس المطلق ، فأنا لا أرى البتة أى مبرر له •

— حتى وأنت تقرأ التاريخ ؟

— حتى وأنا أقرأ التاريخ •

— انى أحسدكم • وكيف استطعتم ذلك ؟

— بتذكرنا حقيقة التاريخ : انه سجل لما أكره البشر على فعله من جهلهم ، وهو الغرور الأحمق الشديد الذى يجعلهم يقننون جهالتهم لتكون عقيدة سياسية أو دينية •

ثم عاد الى ألبوم الصور وقال : لنعد الى بيت (رويال باره) والى جيمس وجانيت والى الاطفال الستة الذين وضعهم اله كالفين — بحقده الشديد — تحت رحمتها ، «العصا والتأنيب يؤديان الى الحكمة • والطفل اذا ترك وشأنه جلب على أمه العار» ، هذه التعاليم — يعززها التأكيد السيكولوجى والعذاب البدنى — هى البنية الكاملة لتجربة بافلوف • ولكن البشر — لسوء حظ الديانةالنظامية والدكتاتورية السياسية — لايخضعون لنتائج التجارب المعملية كما تخضع الكلاب • ولقد أدت عملية التكييف الى ما قصد منها مع توم ومارى وجين •

فلقد أصبح توم قسيسا ، وتزوجت مارى من قسيس وماتت أثناء الوضع • وبقيت جين فى البيت وقامت بتمريض أمها وهى تعانى طويلا من سرطان شرس ، ولعشرين عاما بعد ذلك ضحت بنفسها شيئا فشيئا من أجل الشيخ الجليل الذى أدركه الهرم وانتهى بشيخوخة عادت به الى عقل الطفولة • الى هنا سارت الامور سيرا طبيعيا • اما مع آنى ـ الطفلة الرابعة ـ فقد تغير النمط • كانت آنى جميلة • ولما بلغت الثامنة عشرة من عمرها عرض عليها الزواج ضابط فى سلاح الفرسان • وكان هذا الضابط انجليكانيا ورأيه فى الفساد الكامل وفيما يرضى الله اجرامى يجانبه الصـواب • ولذلك كان الزواج محرما • وبدا كأن آنى قـد كتب عليهـا ماكتب على جين • واحتملت ذلك عشر سنوات • ولما بلغت الثـامنة والعشرين وقعت فريسة لاغراء رجل آخر من سـلاح الهنـد الشرقية • وقضت معه سبعة اسابيع فى سـعادة شبه جنونية ، لم تشعر بمثلها من قبل • وبدت على وجهها مسـحة من الجمـال غير الطبيعى ، واشرق جسمها بالحياة • ثم أبحر الضابط فى سلاح الهند الشرقية فى رحلة الى مدراس وماكاو تستغرق عامين • وبعد أربعة أشهر ، وهى حامل ، وبغير صديق ، ألقت بنفسها فى نهر تاى يأسا من الحياة • أما اسكندر وهو الذى يليها فى الابناء فقد هرب من المدرسة والتحق بفرقة ممثلين • ومنذ ذلك الحين لم يسمح لأحد فى البيت المجـاور لمصنع الحبـال بذكره • وأخيرا كان هناك أندرو ، وهو أصغرهم ، وما أشبهه ببنيامين • وياله من طفـل نموذجى • كان طائعـا ، يحب دروسه ، وقام بحفظ الرسائل الدينية عن ظهـر قلب أسرع وأدق مما فعل غيره من الاطفال • وذات مساء شهدته أمه وهو يعبث بجهازه التناسلى • وجاء ذلك فى وقت مـلائم رد لهـا

ايمانها بسوء النفس البشرية • وضربته بالسوط حتى سال دمه • وعاد الى فعلته بعد بضعة أسابيع وعادت الى ضربه ، وحكمت عليه بالحبس الانفرادى لايتناول غير الخبز والماء ، وقيل له انه أذنب فى حق الروح القدس وليس من شك فى أن أمه قد أصيبت بداء السرطان بسبب ذنبه • ولبث أندرو بقية طفولته تطارده أحلام مزعجة متكررة عن الجحيم •كما طاردته كذلك أسباب الاغراء المتكررة ، ولما استسلم لهذه الاسباب (وكان ذلك دائما فى وحدته وهو فى الحمام الذى يقع فى أقصى الحديقة) هاجمته رؤى أشد ازعاجا من العقوبات التى كانت بانتظاره •

وعلق على ذلك ويل فارنبى بقوله : انى لأعجب كيف يشكو الناس من أن الحياة الحديثة خلو من المعنى ! أنظر كيف كانت الحياة حينما كان لها معنى • أيهما أفضل : قصة يرويها لك أحمق ، أم قصة يرويها لك كالفن ؟ ألا فاسمعنى قصة الاحمق دائما •

قال الدكتور ماك فيل : أنا أتفق معك • ولكن ألا يمكن أن يكون هناك احتمال ثالث ؟ قصة يرويها شخص لا هو بالأحمق ولا هو بالمجنون المرتاب ؟

قالت سوزيلا : شخص عاقل كل العقل على سبيل التغيير •

وأعاد الدكتور عبارتها : نعم على سبيل التغيير ، التغيير المبارك • ومن حسن الحظ كان هناك ـ حتى فى ظل النظام القديم ـ كثيرون لم تفسدهم التربية الشيطانية حتى وهى فى ذروتها • اذا أخذنا بقوانين فرويد وبافلوف كان ينبغى أن

ينشأ جدى الاكبر على انحراف عقلى • والواقع أنه نشأ سليم العقل • وأضاف الى ذلك الدكتور روبرت فى عبارة معترضة قوله : وهو يدل دلالة قاطعة على أن النظريتين السيكولوجيتين اللتين أشدتم بهما ناقصتان نقصا فاحشا • نظرية فرويد ، والنظرية السلوكية ــ على مابينهما من خلاف شديد ــ تتفقان تماما عند تطبيقهما على الفـوارق الطبيعية الفطـرية بين الأفراد • كيف يعالج علماء النفس عنـدكم الذين تعزونهم اعزازا شديدا هذه الفوارق ؟ بمنتهى البساطة ،يتجاهلونها • ويزعمون بكل رفق أنها لا وجـود لها • ومن ثم كان عجزهم التام عن مواجهة الموقف الانسانى كما هو قائم ، بل عجزهم عن تعليله نظريا • انظر ــ مثلا ــ الى ماحدث فى هذه الحالة الخاصة • ان اخوة أندرو واخواته اما روضوا بتكييعهم واما تحطموا • فى حين أن أندرو لم يروض ولم يحطم • لمـاذا ؟ لان عجلة الوراثة لم تدر حوله • كانت بنيته أكثر مرونة من غيره ، تشريحه البدنى على خلاف مع الآخرين كيمياؤه الحيوية مختلفة ، مزاجه مختلف • بذل أبواه معه من الجهد ما بذلا مع بقية اخوته أصحاب الحظ السىء ، ولكنهما باءا بالفشل • فلقد خرج أندرو من المعركة مرفوع الراية دون أن يصيبه أذى •

ــ برغم ما اقترف من ذنب ضد الروح القدس ؟

ــ ذلك لحسن الحظ شىء تخلص منه خلال سنته الأولى من دراسة الطب فى ادنبره • كان آنئذ فتى لايجاوز السابعة عشرة من عمره الا قليلا (فقد كانوا يبدأون تعليمهم صغارا فى تلك الأيام) • وفى غـرفة التشريح ألفى الفتى نفسـه مصغيا لأسوأ الالفـاظ الفاحشة والسـباب مما كان زملاؤه يتفوهون به لكى يرفعوا من روحهم المعنـوية وهم بين الجثث

التى أخذت فى التعفن · كان يصغى أول الأمر مذعورا ، وهو فى خشية يقشعر لها بدنه من أن الله لابد أن ينتقم · ولكن شيئا لم يحدث · فلقد ازدهر المجـدفون ، ونجـا من تلوثت شفاههم بألفاظ السباب السافلة ولم تصبهم سـوى لوثة من الامراض السرية بين الحين والآخر · واختفى الخوف من نفس أندروو وحل محله احساس عجيب بالفرج والخلاص · واكتسب جرأة شديدة فبدأ يخاطر ببعض النكات البذيئة من عنده · نطق أول لفظة بذيئة ــ ماكان أشد احساسه بالتحرر ، وما كان أغزرها من خبرة دينية صادقة ! وفى أوقات فراغه قرأ قصة (توم جونز) وقرأ مقال هيوم عن (المعجزات) ، وقرأ الكافر جيبون · واستغل الفرنسية التى درسها فى المدرسـة فقرأ (لامترى) وقرأ (الدكتور كابانيه) · الانسان آلة ، يفرز منها المخ فكرا كما تفرز الكبد الصفراء · الامر فى غاية البساطة، وفى غاية الوضوح المضىء ! وبكل حماسة المهتدى فى اجتماع دينى قرر أن يلحد · وماكان يتوقع منه غير ذلك فى مثل هذه الظروف ، لم يستطع أن يستسيغ القديس أوغسطين ، ولم يكن بوسعه أن يكرر الهراء الذى ورد على لسان اثاناسيوس · وكما يتخلص المرء من الماء القذر فى الحوض بفتح البالوعة، فعل ذلك ! ما أشد سعادته ! ولكن هذه السعادة لم تدم طويلا· فقد تبين له أن شـيئا ما ينقصه · نعم لقـد لفظ الطفـل التجريبى مع المخلفات اللاهوتية القذرة ، ولكن الطبيعة تمقت الفراغ المطلق · فزالت عن نفسه سعادتها وحل محلها قلق مزمن ، وأصيب كما أصيبت بعده الاجيال المتلاحقة بما جاء به وزلى وبوزى ومودى وبيلى وأمثالهم ــ سندى وجراهام ــ كلهم يعمل كالآلة لاسترداد اللاهوت الذى سقط فى البالوعة · انهم بالطبع يأملون فى اسـترداد الطفل التجريبى ، ولكنهم

لاينجحون أبدا • كل ما يستطيعه من يحاول احياء الدين أن يسترد مما تردى فى البالوعة قليلا من الماء القذر ، الذى يلقى به مرة أخرى بمرور الأيام • وهكذا الى ما لا نهاية • الأمر فى الواقع ممل الى أقصى الحدود ، ولا ضرورة له بتاتا كما أدرك ذلك الدكتور أندرو فى نهاية الأمر • وهاهو ذا الآن فى بداية استرداده لحريته الجديدة • منفعلا ، جذلا ـ ولكنه منفعل فى هدوء ، وجذل خلف ظاهر من الانعزال الجاد الدمث الذى يبديه عادة على الملأ •

وسأل ويل : وماذا عن أبيه ؟ هل نشبت بينهما معركة؟

ـ لم تنشب لأن أندرو لم يحب المعارك • كان من ذلك الطراز من الرجال الذين يذهبون مذهبهم دائما ، وان كان لايعلن عن هذه الحقيقة ، ولا يجادل غيره ممن يسلكون مسلكا آخر • ولم يعط الرجل العجوز قط فرصة لكى يفعل مافعل أرميا • ولم يفصح بشىء ما عن هيوم ولامترى وأدى الحركات التقليدية • ولما انتهت دراسته لم يعد الى بيته وتوجه الى لندن واشتغل جراحاوعالما فىالطبيعة علىسفينة ميلامبوس ،وأرسل الى البحارالجنوبية يحمل تعليماتليرسم ويمسح ويجمععينات مختلفة ولكى يحمى البعثات البروتستانتية والمصالح البريطانية • واستغرقت رحلة السفينة ميلامبوس ثلاث سنوات • وتوقف عند تاهايتى ، وقضى شهرين فى ساموا وشهرا فى جزر ماركيساس • وبعد بيرث بدت الجزر وكأنها جنة عدن ـ ولكنها جنة خلت من الكالفينية والرأسمالية ومن الاحياء الصناعية الفقيرة ولكنها ـ لسوء الحظ ـ خلت كذلك من شيكسبير وموزار ، ومن المعارف العلمية والتفكير المنطقى • كانت فردوسا ، ولكنها لاتكفى •

وواصل رحلته البحرية ، وزار فيجى وكارولينز وسولومونز • ورسموا خريطة السواحل الشمالية لغينيا الجديدة ، ولما بلغوا بورنيو نزلت جماعة منهم على البر ، واصطادوا أورانجوتان حاملة ثم تسلقوا قمة جبل كينابالو • وقضوا بعد ذلك اسبوعا فى باناى واسبوعين فى ارخبيل ميرجوى ، واتجهوا بعد ذلك غربا حتى اندا مانز ومنها الى أرض الهند الرئيسية •

وبينما كانوا على الساحل سقط جدى الأكبر من فوق ظهر حصانه وانكسرت ساقه اليمنى • واختار قائد السفينة ميلامبوس جراحا آخر وأبحر عائدا الى الوطن • وبعد شهرين بدأ اندرو يعمل من جديد طبيبا فى مدراس • وكان الاطباء ندرة فى تلك الايام والامراض منتشرة بصورة مزعجة • ونجح الشاب فى عمله • غير أن الحياة مع التجار والموظفين فى مقر الرياسة كانت مملة لا تطاق • كان فى المنفى ، ولكنه منفى يخلو مما يعوض عنه ، فلا مغامرة ولا غرابة • ابعادالى الأقاليم ، الى مايشبه سوانسى وهدرسفليد فى المناطق الاستوائية • ومع ذلك فقد قاوم الاغراء بحجز مكان فى أول سفينة تبحر عائدة الى الوطن • لانه ان احتمل العيش هنا خمس سنوات استطاع أن يجمع من المال ما يفتح به عيادة طبية فى أدنبره ــ لا ، بل فى لندن ، فى الحى الغربى • وبدا له المستقبل ذهبيا ورديا • سوف تكون له زوجة يؤثر أن تكون ذات شعر ذهبى داكن ، متواضعة فى ثرائها • وسوف يكون له من الاطفال أربعة أو خمسة ، سعداء ، من الملحدين الذين لايجلدون • وسوف ينمو فى مهنته ، يقصده المرضى من طبقات مرتفعة • الثراء ، والشهرة ، والكرامة ، بل

ورتبه الفروسية • تصور نفسه السير أندرو ماك فيل ينزل من سيارته فى ميدان بلجريف • السير اندرو العظيم ، طبيب الملكة • يستدعى لسنت بيترزبورج ليجرى عملية جراحية للدوق العظيم ، ويستدعى للتويلرى ، وللفاتيكان ، وللباب العالى • ما أحلى هذه الخيالات ! ولكن ماحدث كان أروع كثيرا من ذلك • جاء الى غرفة العمليات ذات صباح جميل رجل غريب أسمر البشرة • وعرفه بنفسه فى انجليزية متعثرة • انه من بالا وقد أمره صاحب السمو الراجا أن يبحث عن جراح ماهر من الغرب ويعود به • وسيكون الجزاء ملكيا • وأكد له ذلك: جزاء ملكى • وفى التو والحين قبل الدكتور أندرو الدعوة من أجل المـال الى حـد ما ، ولكن فى الأغلب لانه كان قد سئم ، وبحاجة الى التغيير ، وبحاجة الى نوع من المغامرة • هذه رحلة الى الأرض المحرمة ــ والاغراء لايقاوم •

وقاطعته سوزيلا قائلة : واذكر ان بالا فى تلك الأيام كانت أشد تحريما منها الآن •

«وهكذا تستطيع أن تتصور كيف أن دكتور أندرو الشاب قد اغتنم متلهفا هذه الفرصة التى هيأها له سـفير الراجا • وبعد عشرة أيام رست سفينته بعيدا عن الشاطىء الشـمالى للارض المحرمة • واستقل قاربا صغيرا ملحقا بالسفينة وشق به عباب الموج وهو يحمل صندوق الدواء وحقيبة الادوات وصندوقا كبيرا من الصـفيح بداخله ملابسه وبضـعة كتب لا غنى له عنها • ولما بلغ الساحل حملوه فوق محفة وساروا به خلال شوارع شيفابورام واستقر فى الفناء الداخلى للقصر الملكى • وكان مريضه الملكى بانتظاره فى شغف • ولم تتح له فرصة يحلق فيها ذقنه أو يغير ملابسه ، قبل أن يسمحوا له

بالمقابلة . فمثل وهو مشفق فى حضرة رجل ضئيل أسمر فى أوائل الاربعينات من العمر ، نحيل الجسم يرتدى عباءة فاخرة مطرزة ، وجهه منتفخ مشوه حتى لاتكاد تحسبه من البشر ، وقد انخفض صوته حتى أمسى همسا فيه خشونة . وفحصه الدكتور أندرو ، وألفى تورما منتشرا فى كل اتجاه فى أحد جيوب فكه الاعلى حيث تبدأ جذور الورم . وامتد الورم حتى مـلأ الأنف ، وانتشر الى أعلى حتى بلغ محجر عينـه اليمنى ، وسد نصف حلقه . وتعذر التنفس ، وأصبح الابتلاع أليما ، والنوم مستحيلا . اذ كلما غفا اختنق وتيقظ كالمجنون يتلمس الهواء .

« كان واضحا ـ بغير جراحة أساسية ـ ان الراجا يشرف على الموت فى غضون شهرين . والجراحة الاساسية تعجل كثيرا بموته . ولنذكر أن ذلك كان فى الزمن القديم الذى كانت تجرى فيه عمليات التسمم الدمـوى بغير مخدر . وفى أحسن الظروف كانت الجراحة تنتهى بوفاة مريض من كل أربعة . وحينما لاتكون الظروف مواتية زادت نسبة الوفيات ـ فتبلغ خمسين فى المائة ، أو سبعين ، أو مائة فى المائة . وتشخيص هذه الحـالة لم يكن مبشرا . فالمريض ضعيف ، والعملية قد تطول ، وتزداد صعوبة وتسبب آلاما مبرحة . والفرصة كبيرة فى موته وهو على طاولة العمليات ، ومن المؤكد أنه حتى ان نجا من العملية فوفاته أمر محتوم بعد بضعة أيام من تسمم الدم . وفكر الدكتور أندرو ماذا يكون مصيره اذا مات وقيل ان جراحا أجنبيا قد قضى على حيـاة الملك . ثم من ذا الذى يمسك المريض وهو يتلوى أثناء العملية من أثر المبضع ؟ ومن

من خدمه أو حشمه يجرؤ على عصيان الأمر اذا صاح السيد من الألم أو طلب منهم بصراحة أن يخلوه وشأنه ؟

ربما كان التصرف الحكيم أن يقول فورا ان الحالة ميؤس منها ، وانه لايستطيع أن يقوم بعمل ما ، ويرجو اعادته الى مدراس فى الحال • ثم أعاد النظر الى الرجل المريض • وبادله الراجا بنظرة من خلال القناع البشع الذى بدا فيه وجهه المشوه ، وقد حدق بعينين كأنهما عينا مجرم مدان يتوسل الى القاضى أن يشمله برحمته • ومس هذا الرجاء شغاف القلب من الدكتور أندرو فابتسم له مشجعا ، وربت على يده النحيلة ، وفى أثناء ذلك نبتت فى ذهنه فكرة ـ فكرة سخيفة لايفكر فيها الا مخبول العقل ، فكرة مخزية ، ولكن على الرغم من ذلك ••••

« تذكر أنه منذ خمس سنوات ، عندما كان لايزال فى أدنبره ، اطلع على مقال فى مجلة (لانست) يهاجم فيه كاتبه الاستاذ اليتسون ، ذلك الرجل الذى ساءت سمعته ، لانه تحدث بحماسة عن امكان تنويم الحيوان تنويما مغناطيسيا • وقد بلغت به جرأة الرأى أن يتحدث عن اجراء عمليات بغير ألم حينما يكون المرضى فى غيبوبة تنويم مغناطيسى •

«فالرجل اما أحمق ساذج واما وغد بغير ضمير • لأن الأدلة التى يبرر بها هذا الهراء كانت تافهة بشكل واضح • الأمر كله احتيال ودجل وخداع ـ وغير ذلك مما ورد فى مقال من ستة أعمدة كلها استنكار لما ينطوى عليه هذا الادعاء من انحطاط خلقى • وقد قرأ الدكتور أندرو هذا المقال فى ذلك الحين بدرجة من التصديق ـ لانه كان مايزال متأثرا بلامترى

وهيـوم وكابانيه • ثم نسى بعـد ذلك كل مايتعلق بتنويم الحيوان مغناطيسيا • والآن وهو الى جوار سرير الراجا عادت اليه الذكريات ــ الاستاذ المخبول ، والاشارات المغناطيسية ، والبتر بغير ألم ، وانخفاض نسبة الوفيات والشفاء العاجل • ربما كان في الأمر شيء • وكان مستغرقا في هـذه الافكار عندما قاطع سكونه الرجل المريض بحديثه اليه • وقد تعلم الراجا الحديث بالانجليزية بطلاقة ولكن بمحاكاة تامة للرجل الذى علمه اياها فكان في نطقه لكنة عامية قوية • وقد أخذ اللغة عن فلاح شاب ترك سفينته عند رندانج بولو واستطاع أن يعبر المضيق ليصل الى الراجا •

وضحك الدكتور ماك فيل وواصل سرد القصـة وقال : هذه اللهجة العامية يشير اليها جدى الأكبر في مذكراته حينا بعد حين • وكان يرى أنه من غير الملائم بتاتا لملك ان يتحدث كما كان يفعل سام ويلر (١) • وعدم الملاءمة في هذه الحالة لم تكن اجتماعية فحسب • فالراجا ــ فـوق أنه ملك ــ كان رجلا مثقفا وعلى درجة كبيرة من التهذيب • لم يكن رجلا ذا عقائد دينية قوية فحسب (فأى أبله ساذج قد يكون ذا عقائد دينية قوية) ولكنه كان كذلك رجلا ذا تجارب دينية وبصيرة روحية • فاذا عبر مثل هذا الرجل عن نفسه بالعامية كان ذلك بالنسـبة لرجـل اسـكتلندى من عهد فكتوريا البـاكر قرأ (مذكرات بكويك) آمـرا لايمكن التسـامح فيـه • ولم يستطع الراجا أن يتخلص من هذه اللهجة الانجليزية العامية على الرغم من مهارة جدى الأكبر في تعليم اللغة له • ولكن ذلك كله حدث في المستقبل • أما في اللقاء المأسوى الأول فقد

(١) شخصية في قصص دكنز ــ المترجم

تأثر جدى الاكبر تأثرا غريبا بهذه اللهجة التى تتحدث بها الطبقة الدنيا والتى تؤذى السمع · وهمس المريض بهذه اللهجة قائلا : أعنى يادكتور ماك فيل ، وقد ضم راحتيه تضرعا ·

« وكانت هذه الضراعة حاسمة · فقد تناول الدكتور أندرو يدى المريض النحيلتين ـ دون أدنى تردد ـ ووضعهما بين يديه ، وبدأ يتكلم بنغمة الواثق عن علاج عجيب جديد كشف عنه فى اوربا حديثا ولم يمارسه حتى الآن سوى حفنة من مشاهير الاطباء · ثم التفت الى الحاضرين الذين كانوا طوال هذا الوقت يطوفون حول المكان ، وأمرهم أن يغادروا الغرفة · ولم يفقهوا قوله ، ولكن نغمة الكلام وما صاحبها من اشارات كانت واضحة لا لبس فيها · فانحنوا احتراما وانسحبوا · وخلع الدكتور أندرو معطفه وطوى أكمام قميصه وشرع فى أداء الاشارات اليدوية المغناطيسية المعروفة والتى قرأ عنها فى مجلة لانست مستمتعا بها شاكا فيها · من قمة الرأس الى الوجه الى الجذع حتى البطن ، مرة تلو المرة حتى يصل المريض الى حالة الغيبوبة ـ أو حتى يرى الدجال المسيطر أنه قد آن له أن يعلن أن مريضه المخدوع أصبح الآن تحت تأثير المغناطيس ، (وقد ذكر حينئذ التعليق التهكمى الذى أدلى به كاتب المقال المجهول) · دجل وهراء وخداع · ولكن على الرغم من ذلك ··· بدأ يعمل فى صمت · عشرون اشارة ، خمسون اشارة ، وبعدها تنهد المريض وأغمض عينيه · ستون ، ثمانون ، مائة ، مائة وعشرون · وكانت الحرارة خانقة ، وقميص الدكتور أندرو مبتل بالعرق وذراعاه تؤلمانه · ولبث يكرر حركاته العابثة وهو متجهم · وبلغ مائة وخمسين ،

ثم مائة وخمسا وسبعين ، ثم مائتين . وكل ذلك خداع وهراء، ولكنه على الرغم من ذلك كان مصـــمما على أن يســوق هذا البائس الى النوم حتى ان استغرق فى ذلك يومه كله ، وقال بصوت مرتفع وهو يؤدى الاشارة للمرة الحــادية عشرة بعــد المائتين ، أنت ستنام ، وبدا كأن الرجل المريض قد غرق فى وساداته ، وفجأة نمى الى سمع الدكتور أندرو صوت صفير مخشخش ، وهو صوت التنفس . فقال على عجل ، انك لن تختنق هذه المرة . فهنا مكان فسيح يسمح للهواء أن يتحرك ، ولن تختنق . وبدأ الراجا يتنفس فى هـدوء وقام الدكتور أندرو ببضع اشارات أخرى ، ثم رأى أن يستريح قليلا ليكون فى جانب الأمان . ومسح وجهه ، ثم نهض ومد ذراعيه وذرع الغرفة جيئة وذهابا . وعاد الى جوار السرير وتناول أحــد معصمى الراجا وكان أشبه بالعصا ، وجس النبض . وكان منذ ساعة قريبا من مائة ، أما الآن فقد هبط الى سبعين . ورفع الذراع ، وتعلقت يد الرجــل مرتخيــة كأنهــا يد ميت من الأموات . ثم ترك هذه اليد فسقطت الذراع من تلقاء نفسها من أثر ثقلها ، جامدة لاتتحرك من مكان سقوطها . وصاح به «ياصاحب السمو» ورفع صوته ثانية صائحا : «ياصاحب السمو» فلم يحر جــوابا . الامر كله دجل وهــراء وخداع ، ولكنه ــ مع ذلك ــ فعل فعله ، مافى ذلك شك» .

ورفرفت حشرة كبيرة براقة اللون (هى فرس النبى) حول احدى قواعد السرير الذى كان يستلقى عليه ويل ، وطوت الحشرة جناحيها القرنفلى والابيض ، ورفعت رأسها الصــغير المسطح ، ومدت رجليها الاماميتين ذواتى العضــلات القــوية التى لم يعهدها واتخذت وضع الصــلاة . واجتذب الدكتور

ماك فيل منظارا مكبرا وانحنى الى الامام لفحص هذه الحشرة •

ونطق اسمها باللاتينية وقال : انها تشكل نفسها لتبدو كالزهرة • وعندما يأتي الذباب والسوس ليرشف رحيق النبات ترشفها الحشرة ، واذا كانت أنثى أكلت عشاقها • ثم نحى المنظار جانبا واتكآ على مسند مقعده وقال مخاطبا ويل فارنبى «أكثر ما أحبه فى الكون ما فيه مما هو بعيد الاحتمال • انظر الى هذه الحشرة . والى الانسان المفكر ، والى مقدم جدى الاكبر الى بالا ، والى التنويم المغناطيسى • هل هناك ماهو أبعد من هذا احتمالا ؟

قال ويل : لاشيء اللهم الا قدومى الى بالا والتنويم المغناطيسى ، بالا التى بلغتها عن طريق سفينة محطمة وصخرة ناتئة ، والتنويم المغناطيسى عن طريق مناجاتى لنفسى عن كتدرائية انجليزية •

وضحكت سوزيلا وقالت : لم أكن مضطرة لحسن الحظ ان أقوم معك بكل هذه الاشارات ، فى مثل هذا الجو ! انى معجبة حقا بالدكتور أندرو • والتخدير بهذه الاشارات يستغرق أحيانا ثلاث ساعات •

ــ ولكنه أفلح فى النهاية ؟

ــ وانتصر •

ــ وهل أجرى العملية فعلا ؟

قال الدكتور ماك فيل : نعم أجراها ، ولكن ليس فى التو ، فلقد أعد لها اعدادا طويلا • وقد بدأ الدكتور أندرو

بأن أوعز الى مريضه بأنه سوف يستطيع منذ ذلك الحين أن يبتلع بغير ألم • وفى خلال الاسابيع الثلاثة التالية تولى اطعامه • وفيما بين الرجبة والوجبة كان يدخله فى غيبوبة ويبقيه نائما حتى يحل موعد الوجبة التالية • ما أعجب مايقدمه جسم المرء لصاحبه اذا هو أعطاه الفرصة • استرد الراجا اثنى عشر رطلا وأحس كأنه رجل آخر • رجل آخر ملىء بالثقة والامل المتجدد • وعرف أنه سوف يجتاز المحنة • وكذلك ايضا عرف الدكتور أندرو • وبينما كان الدكتور يقوى من ايمان الراجا كان فى الوقت عينه يقوى من ايمانه الشخصى • ولم يكن ايمانا أعمى • فقد كان على ثقة تامة من أن العملية سوف تحظى بالنجاح ، ولكن هذه الثقة التى لم تتزعزع لم تمنعه من أن يفعل كل مايمكن أن يعاون على نجاحها • فمنذ بداية ما اتخذ من اجراء كان يستغل الغيبوبة • وكان يقول لمريضه ان هذه الغيبوبة تشتد عمقا يوما بعد يوم ، وسوف تكون فى يوم العملية أعمق منها فى أى وقت سبق ، وكذلك سوف يطول أمدها • وكان يؤكد للراجا أنه سوف ينام أربع ساعات كاملة بعد انتهاء العملية ، ولن يحس أدنى ألم بعد أن يفيق • وقد عبر الدكتور أندرو عن هذه التأكيدات بمزيج من الشك المطلق والثقة التامة • ذلك أن العقل وخبراته الماضية كانت تؤكد له أن ذلك كله من ضروب المستحيل • ولكن الخبرة الماضية أثبتت غير ذلك فى هذه الحالة التى يعالجها • فلقد حدث المستحيل فعلا عدة مرات • ولم يكن ثمت مايدعو الى ألا يتكرر وقوع المستحيل • المهم هو أن (يقول) انه سوف يحدث ــ لهذا قال به مرة بعد أخرى • كل ذلك حسن ، وخير منه ابتداعه فكرة اجراء التجربة •

ـ أى تجربة ؟

ـ تجربة الجراحة • فقد أدى اجراءاتها ست مرات • وكانت التجربة الأخيرة صبيحة يوم العملية • فى السادسة صباحا جاء الدكتور أندرو الى غرفة الراجا ، وبعد ما بادله حديثا مرحا قصيرا بدأ فى اجراء اشاراته • وبعد بضع دقائق استغرق المريض فى غيبوبة عميقة • وأخذ الدكتور أندرو فى وصف ماكان مقدما على أدائه خطوة خطوة • ولمس عظم الخد عند العين اليمنى للراجا وقال له : سأبدأ بمط الجلد وبهذا المشرط (وسير فوق الخد طرف قلم من الرصاص) أشق الجلد ، ولن تحس ألما بطبيعة الحال ـ لا مشقة على الاطلاق • عندئذ أقطع الانسجة السفلى ولن تشعر بأى شىء بتاتا • ما عليك الا أن تستلقى هنا ، فى سبات مريح أثناء قيامى بقطع الخد حتى الأنف • وبين الفينة والفينة أتوقف قليلا • أتوقف قليلا لأربط أحد الاوعية الدموية ، ثم أواصل العمل • وبعد ما أنتهى من هذا الجزء من العمل أكون على استعداد لابدأ فى الورم الذى تقع جذوره فى تجويف العظم وقد امتد الى أعلى تحت عظم الخد حتى بلغ محجر العين ثم الى أسفل حتى المرىء • وبعد ما أنزع الورم تكون مستلقيا هنا كما كنت لا تحس شيئا ، فى أتم شعور بالراحة ، مسترخيا استرخاء كاملا • وعندئذ أرفع رأسك ، وطابق الدكتور أندرو بين حركاته وكلماته ورفع رأس الراجا وأمالها الى الأمام فوق عنقه المرتخى وقال : أنا أرفع الرأس وأثنيه لكى تتخلص من الدماء التى سالت فى فمك وحلقك • وقد تسرب شىء من الدم فى القصبة الهوائية ، فعليك أن تسعل قليلا لتتخلص منه ، ولن يوقظك هذا من نومك ، وسعل الراجا مرة أو

مرتين» ، وبعد ما أرخى الدكتور أندرو قبضته سقط الرأس فوق الوسادة والمريض مايزال مستغرقا فى نومه · «ولن تختنق حتى وأنا أعمل فى الطرف الاسفل من ورم المرىء·» وفتح الدكتور أندرو فم الراجا ودفع باصبعين فى حلقه · «الأمر كله لايعدو مجرد النزع ، وليس فى ذلك مايجعلك تختنق · واذا لزمك أن تطرد الدم بالسعال فأنت تستطيع ذلك أثناء النوم · نعم أثناء نومك ، هذا النوم العميق العميق»·

ـ تلك كانت نهاية التجربة ·وبعد عشر دقائق بعد ماقام ببضع اشارات أخرى وأوحى الى مريضه أن يعمق من نومه، شرع فى اجراء العملية · مط الجلد ، وشقه ، وشرح الخد ، وقطع الورم من جذوره فى التجويف العظمى · واستلقى الراجا مكانه مسترخيا تماما ، ثابت النبض معتدلا فيه وهو فى الخامسة والسبعين ، ولم يحس ألما أكثر مما أحس والطبيب يجرى له تجربة العملية ويوهمه باجرائها · وأعمل الدكتور أندرو مبضعه فى الحلق ولم يحدث أى اختناق · وتدفق الدم فى القصبة الهوائية ، وسعل الراجا ولم يتيقظ · وبعد ما انتهت العملية بأربع ساعات كان لايزال نائما ، وفى اللحظة المقدرة تماما فتح عينيه وابتسم للدكتور أندرو من خلال ضماداته ، وسأل بعاميته الانجليزيةالرتيبة متى تبدأ العملية· وبعد اطعامه وغسله ، قام الدكتور باجراءبضع اشارات أخرى وأوحى اليه أن ينام أربع ساعات أخرى وأن يبرأ بسرعة · وثابر الدكتور أندرو على ذلك اسبوعا كاملا · ست عشرة ساعة من الغيبوبة كل يوم ، وثمان ساعات من الصحو · وكاد الراجا ألا يحس ألما من أى نوع · وعلى الرغم من ظروف التلوث التى أجرى الطبيب فيها العملية ، والتى كان يجدد

فيها الغيارات التأمت الجروح دون تقيح • وكاد الدكتور أندرو ألا يصدق عينيه وقد تذكر الاهوال التى شهدها فى مصحة أدنبره ، وما هو أشد منها فى عنابر الجراحة فى مدراس • وكانت هذه فرصة ثانية بالنسبة اليه تثبت له مايمكن أن يفعله المغناطيس الحيوانى • وكانت كبرى بنات الراجا فى شهرها التاسع من حملها الأول • فأرسلت الرانى فى طلب الدكتور أندرو متأثرة بما قام به لزوجها • وألفاها جالسة مع فتاة ضعيفة مرتاعة فى السادسة عشرة من عمرها لاتتحدث الا قليلا من العامية الانجليزية المتعثرة التى مكنتها من أن تقول له انها سوف تموت هى ووليدها • أكدت لها ذلك ثلاثة طيور سوداء حلقت فى طريقها فى ثلاثة أيام متتالية • ولم يحاول الدكتور أندرو أن يجادلها ، بل طلب اليها أن تستلقى ، ثم بدأ يؤدى اشاراته • وبعد عشرين دقيقة استغرقت الفتاة فى غيبوبة عميقة • وأكد لها الدكتور أندرو أن الطيور السوداء فى بلده تبشر بالخير ، وهى علامة على الميلاد والرفاء • سوف تلد طفلها بسهولة وبغير ألم • نعم ، بغير ألم مثلما فعل والدها أثناء العملية الجراحية • ووعدها بانعدام الألم بتاتا •

ـ وبعد ثلاثة أيام وبعد ثلاث أو أربع ساعات من الايحاء المركز ، حدث كل شيء كما توقع • ولما تيقظ الراجا ليتناول طعام العشاء ألفى زوجته الى جواره • وقالت له «لنا الآن حفيد وابنتنا فى صحة جيدة • ولقد قال الدكتور أندرو انك غدا يمكن أن تنقل الى غرفتها لكى تبارك لها ولطفلها» • وبعد شهر حل الراجا مجلس الوصاية وعاد الى ممارسة سلطاته الملكية ، شاكرا للرجل الذى أنقذ حياته وأنقذ حياة ابنته

كـذلك (وكانت الرانى مقتنعة بذلك كل الاقتنـاع) وعين الدكتور أندرو كبيرا لمستشاريه •

ــ ولذلك لم يعد الى مدراس ؟

ــ لا الى مـدراس ، ولا حتى الى لندن • وبقى هنـا فى بالا •

ــ وحاول أن يغير لهجة الراجا ؟

ــ كما حاول ــ وبدرجة أكبر من النجاح ــ أن يغير مملكة الراجا •

ــ الى أية صورة من الصور •

ــ ذلك هو السؤال الذى لم يكن بوسعه أن يجيب عنه • فى الأيـام البعيدة ، لم يكن لديه خطة من الخطط • كل ما كان يملكه مجموعة من الاتجاهات التى يحبها ومجموعة اخرى لا يحبها • كانت فى بالا أشياء احبها وأشياء كثيرة اخرى لم يحبها بتاتا • كما كانت هناك فى اوربا أشياء يمقتها وأشياء أخرى يتحمس لها أشد الحماسة • لقى فى أسفاره أمورا لها معنى وأمورا أخرى اشمأزت لها نفسـه • وبدأ يدرك أن الناس ينتفعون من ثقافتهم وهم فى الوقت نفسه من ضـحاياها • ثقافتهم تزهرهم كما تميتهم أو تصيبهم بالآفات التى تفتك بازدهارهم فى الصميم • فهلا يمكن فى هذه الجزيرة المحرمة أن يتفادى سكانها الآفات وأن يبلغوا بذبول ازدهارهم حده الأدنى ، وأن يترعرع الفرد فى صورة أكثر جمالا ؟ هذا هو السـؤال الذى حاول الدكتـور أندرو والراجا أن يجدا له الأجابة عرضـا فى أول الأمر ثم بوعى متزايد بعد ذلك بما كانا يتصديان له •

ـ وهل وجدا حلا ؟

قال الدكتور ماك فيل : عندما أعود بذاكرتي الى الماضى يذهلنى ما أنجزه هذان الرجلان · الطبيب الأسكتلندى وملك بالا ، الرجل الكالفينى الذى ألحد والبوذى الماهايانى (١) الورع التقى ـ يالهما من اثنين تلاقيا لقاء عجيبا ! وسرعان ما انعقدت بينهما صداقة وطيدة · اثنان لكل منهما مزاجه ومواهبه التى يتمم بها مزاج الآخر ومواهبه ، فلسفتان تتكاملان ، ومعينان من المعرفة يكمل أحدهما الآخر · كل منهما يسد نقائص الآخر ، وكل منهما ينشط ويعزز ما عند الآخر من قدرات وراثية · الراجا عقله حاد دقيق ، ولكنه لا يعلم شيئا عن العالم الذى يتجاوز حدود جزيرته ، لا يعلم شيئا عن العلوم الطبيعية أو التكنولوجيا الاوربية أو الفن الأوربى أو طرق التفكير فى اوربا · ولم يكن الدكتور أندرو بأقل منه ذكاء ، ولكنه لم يكن بالطبع على علم بالتصوير الهندى أو الشعر أو الفلسفة الهندية · وكذلك ـ كما تبين له شيئا فشيئا ـ لم يدر شيئا عن العقل البشرى أو عن فن الحياة · وفى الشهور التى أعقبت العملية الجراحية تتلمذ كل منهما على الآخر · ولم يكن ذلك بطبيعة الحال الا البداية · لم يكونا مجرد مواطنين لا يعبآن الا بارتقاء شخصيهما · فلقد بلغت رعية الراجا المليون وكان الراجا فى الواقع رئيس وزرائه · ولم يكن تطورهما الخاص الا مقدمة لتطوير الجماهير · واذا كان الملك والطبيب كلاهما يعلم الآخر أن يفيد من العالمين ـ العالم الشرقى والعالم الأوربى ، العالم القديم والعالم الجديد ـ فلم يكن ذلك الا لكى يعينا الأمة

(١) بوذى يؤمن بوجود الله ـ المترجم

بأسرها على أن تحذو حذوهما · ماذا أقول ؟ أن يفيدا من العالمين ؟ كلا بل أن يفيدا من كل العوالم ــ العوالم التى تحققت فعلا فى الثقافات المختلفة ، وفيما جاوزها ، العوالم ذات الامكانات التى لم تتحقق بعد · وكان ذلك طموحا ضخما، طموحا يستحيل بلوغه تماما ، ولكنه كان على الأقل طموحا له ميزة خاصة ، وهى أن يحفزهما ، ويحملهما على أن يطآ أرضا تخشاها الملائكة ــ وقد حققا من النتائج فى بعض الاحيان ما أثبت للناس كافة ــ وأذهلهم ــ أنهما لم يكونا من الغفلة كما بدا لهم · أنهما ــ بطبيعة الحال ــ لم ينجحا قط فى الافادة من كل العوالم · ولكنهما ــ بفضل المحاولة الجريئة ــ أفادا من عوالم أكثر مما كان يحلم أى عاقل أو حكيم بالقدرة على التوفيق والجمع بينها ·

ومن الأمثال روى ويل ما قيل من أن الأحمق اذا أصر على حماقته أصبح حكيما ·

ووافقه على ذلك الدكتور روبرت وقال : تماما · ولعل أشد الحماقات اسرافا الحماقة التى وصفها بليك ــ وهى الحماقة التى كان الراجا والدكتور أندرو يفكران فيها حينذاك ــ الحماقة الكبرى التى تحث على المزاوجة بين الجحيم والنعيم ــ ولكنك ان أصررت على هذه الحماقة الكبرى كان جزاؤك وافرا ! بشرط أن تصر بذكاء بطبيعة الحال · لان الحمقى الاغبياء لايحققون شيئا ما · العارفون والماهرون وحدهم هم الذين تجعلهم حماقتهم حكماء أو الذين تعود عليهم حماقتهم بنتائج طيبة · ولحسن الحظ كان هذان الاحمقان على مهارة · فقد بلغا من المهارة ــ مثلا ــ ماجعلهما يرتكبان حماقتهما بطريقة متواضعة مقبولة · بدآ بما يخفف الآلام·

وأهل بالا بوذيون ، وعرفوا الصلة بين البؤس والعقل • اذا تعلقت بأمر ما وتشبثت به ، واذا اشتدت رغبتك ، واذا فرضت نفسك عشت فى جحيم صنعته لنفسك بنفسك • واذا عزلت نفسك عشت مطمئنا • قال بوذا : أنا أريكم الاحزان ، وأنا أريكم نهاية الأحزان • وهذا هو الدكتور أندرو بنوع معين من العزلة الفعلية استطاع أن يقضى على الاقل على نوع من أنواع الاحزان ، أقصد الآلام البدنية • وقد استخدم الراجا نفسه ، كما استخدم ــ من النساء ــ الرانى وابنتها مترجمين له وهو يلقى الدروس فى فنه الذى كشف عنه آخيرا لجماعات من القابلات والاطباء والمعلمين والامهات والمرضى العاجزين • الولادة بغير ألم ــ بهذا انضم الى جانب المجددين بحماسة شديدة كل نساء بالا • والعمليات الجراحية بغير ألم فى حالات الحصوة واعتام العين والنزيف ــ بذلك اكتسبوا ثقة الشيوخ والمصابين • وبضربة لازب انضم الى صفوفهم أكثر من نصف السكان البالغين ، وانحازوا لجانبهم ، وتوددوا اليهم ، أو على الأقل تفتحت عقولهم للاصلاح القادم •

قال ويل : والى أين ذهبوا بعد الآلام ؟

ــ الى الزراعة واللغة • الى الخبز والمواصلات • استقدموا رجلا من انجلترا لينشىء لهم روزامستد فى المناطق الحارة ، وانكبوا على تعليم أهل بالا لغة ثانية •

وكان لابد ان تبقى بالا جزيرة محرمة : لأن الدكتور أندرو اتفق مع الراجا بكل قلبه على أن المبشرين والمزارعين والتجار خطر على بالا لايمكن أن يحتمل • ولكن اذا هم لم يسمحوا لهؤلاء المخربين الاجانب بدخول البلاد ، فلابد لهم

بطريقة ما أن يعاونوا الاهالى على الخروج منها ، ان لم يكن بأشخاصهم فبعقولهم على الأقل - غير أن لغتهم ، وكتابتهم العتيقة للأبجدية البراهمية كانت سجنا بغير نوافذ . ولامخرج لهم ، ولا أمل فى النظر الى العالم الخارجى الا اذا هم تعلموا الانجليزية وأمكنهم أن يقرأوا الخط اللاتينى . وما أحرزه الراجا فى مجال اللغة كان مثالا يحتذيه رجال القصر الملكى . وأدخل السادة والسيدات فى حديثهم نتفا من العامية الانجليزية ، بل لقد بعث بعضهم الى سيلان فى طلب مربين يتكلمون الانجليزية . وسرعان ماتحول الأمر من تظاهر بالتجديد الى سياسة مرسومة . وأنشئت المدارس الانجليزية واستوردت البلاد من كلكتا مجموعة من الطباعين البنغاليين ومعهم مطابعهم والأطقم الكاملة من الحروف المطبعية بصنوفها كافة . وكان أول كتاب انجليزى نشر فى شيفابورام مختارات من (ألف ليلة وليلة) والكتاب الثانى ترجمة للحكم الهندوكية ، ولم تكن قبل ذلك ميسورة الا بالسانسيكريتية وفى المخطوطات . وأمسى تعلم الانجليزية لازما لمن أراد أن يقرأ عن سندباد أو معروف أو لمن كان مهتما بما جاء فى (حكمة الشاطىء الآخر) ، وذلك لسببين هامين . وكانت تلك بداية لعملية تربوية طويلة تحولنا بها فى نهاية الأمر الى شعب يعرف لغتين . نتكلم لغة بالا ونحن نطهو ، أو نلهو بالفكاهة ، وعندما نتكلم عن الحب أو نمارسه .

وبهذه المناسبة نحن هنا فى جنوب شرقى آسيا لدينا أغنى محصول لغوى يعبر عن الحب وعن العواطف . اما فى شئون التجارة والعلم أو الفلسفة التأملية فنحن نتكلم عادة بالانجليزية . وأكثرنا يؤثر أن يكتب بالانجليزية . وكل

كاتب بحاجة الى أدب يكون له مرجعا ، وبحاجة الى نماذج يحتذيها أو يعارضها • وبالا لديها تصوير ونحت غاية فى الجودة ، وفن معمارى رائع ، ورقص مدهش ،وموسيقى تعبيرية دقيقة ـ ولكن ليس لديها أدب بالمعنى الصحيح ، وليس لديها شعراء أو كتاب مسرحيات أو قصاصون وطنيون • ليس بها سوى شعراء شعبيين يروون الأساطير البوذية والهندوكية ، ومجموعة من الرهبان يلقون المواعظ ويتحدثون حديثا مفصلا فى الميتافيزيقا •

ولما اتخذنا الانجليزية لغة قومية ثانية اكتسبنا أدبا له ماض عريق فى القدم ومن أكثر الآداب انتشارا فى الوقت الحاضر من غير شك • أصبحت لدينا خلفية ، ومقياس روحى، وكنز من الأساليب وطرق التعبير ، ومصدر للوحى لاينفد • وبعبارة موجزة أمست لدينا القدرة على الابداع فى مجال لم نكن من قبل قط من المبدعين فيه • وبفضل الراجا وجدى الأكبر أصبح لدينا أدب انجلوبالى ـ وسوزيلا مثال طيب معاصر لهذا الأدب •

وعارضت سوزيلا قائلة : «انما أنا أمثل الجانب القاتم منه » واغمض الدكتور ماك فيل عينيه وابتسم لنفسه وأخذ ينشد مقطوعة شعرية عن جلال الصمت •

ثم فتح عينيه ثانية وقال : « ولا أذكر هذا الشعر الذى يمجد الصمت فحسب ، بل اذكر كذلك العلم • والفلسفة ، وأصول الدين الذى يدعو الى الصمت ••• والآن آن الاوان لكى تنام ، ثم نهض واتجه نحو الباب وهو يقول :

ـ سآتى لك بكوب من عصير الفواكه •

ــ حب الوطن وحده لايكفى • وأى شىء آخر وحــده لايكفى • العلم لايكفى ، والدين لايكفى ، والفن لايكفى ، والســياسة والاقتصــاد وحــدهما لايكفيان ، وكذلك الحب لايكفى ، والواجب لايكفى ، والعمل وحده لايكفى مهما تنزه صاحبه عن الهوى ، وكذلك التأمل وحــده ــ مهما ســما ــ لايكفى • لايغنى الا كل شىء •

ومن بعيد صاح الطائر «انتباه !»

ونظر ويل فى ساعته • كانت الثانية عشرة الا خمس ، فأغلق كتاب (حقائق الاشياء) ، وتناول عصا الخيزران ذات الطرف المدبب التى كانت فيما مضى ملكا لديوجولد ماك فيل وسار بها لكى يحافظ على موعده مع فيجايا والدكتور روبرت • ولا يبعد المبنى الرئيسى لمحطة التجــارب عن منزل الدكتور روبرت أكثر من ربع ميل اذا هو سلك الطريق المختصر • وكان اليوم شديد الحرارة • وكان عليه أن يتغلب على مشقة الهبوط على مجموعتين من درجات الســلم • والرحلة شاقة بالنســبة لرجل فى دور النقاهة ساقه اليمنى فى الجبيرة •

وشق ويل طريقه فى بطء وبشعور من الألم على الطريق الملتوى وفوق درجات السلم ، وفى أعلى المجموعة الثانية من الدرجات توقف ليلتقط أنفاسه ويمسح جبينه ، والتزم الجدار حيث كان الى جواره شريط ضيق من الظل ، وسار نحو لوحة كتب عليها «المعمل» •

وكان الباب الذى يقع تحت اللوحة منفتحا الى نصفه ، فدفعه ليتم انفتاحه ، وألفى نفسه على عتبة حجرة طويلة سقفها مرتفع • وكانت هناك الاحواض وطاولات العمل المعتادة ، والدواليب ذات الأوجه الزجاجية المألوفة مليئة بالزجاجات والمعدات ، وروائح الكيماويات المعتادة ، وكذلك الفئران فى الاقفاص • وتصور ويل لأول وهلة أن الغرفة خالية من السكان ــ ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فقد كان موروجان الشاب جالسا عند احدى المناضد مستغرقا فى القراءة وتكاد تخفيه عن الانظار خزانة كتب تبرز من الحائط بزاوية قائمة • وولج ويل الغرفة وهو أشد مايكون هدوءا ــ لان مما يسره دائما أن يفاجىء غيره من الناس • وغطى على صوت مقدمه أزيز مروحة كهربائية • ولم يتنبه موروجان الى وجوده الا بعد ما أصبح على قيد بضع أقدام من خزانة الكتب • وفزع الفتى كأنه مذنب ، وألقى كتابه بعجلة المذعور فى حقيبة من الجلد • ومد يده نحو كتاب آخر أصغر حجما كان مفتوحا على المنضدة الى جوار الحقيبة ، وجذب اليه الكتاب حتى أصبح على بعد القراءة • عندئذ فقط لفت وجهه نحو الشخص الدخيل •

وطمأنه ويل بابتسامة منه وقال له : هذا أنا •

واستبدل الفتى بنظرة التحدى الغاضبة نظرة الارتياح وبادر بقوله : ظننته ••• ولم يتم العبارة •

ــ ظننته شخصا جاء ليؤنبك على اهمالك فى أداء ماكان مفروضا عليك أن تؤديه ــ أليس كذلك ؟

وكشر موروجان وأومأ برأسه ذى الشعر المجعد •

وسأل ويل : أين الآخرون ؟

فرد بنغمة تنم عن الازدراء : فى الحقول ـ يشذبون النبات أو يلقحونه أو ما الى ذلك ٠

ـ غاب القط فلعب الفأر ! ماذا كنت تقرأ بكل هذا الاهتمام ؟

وبمكر برىء رفع موروجان الكتاب الذى كان يتظاهر بقراءته وقال : مبادىء علم البيئة ٠

قال ويل : سألتك ماذا كنت تقرأ ؟

فهز موروجان كتفيه وقال : هذا ٠ انه لايهمك ٠

وأكد له ويل : اننى أهتم بأى شىء يحاول صاحبه أن يخفيه ٠ هل هو من الأدب المكشوف ؟

وكف موروجان عن التمثيل ، وبدا عليه فعلا الشعور بالاساءة وقال : من ذا تظننى أن أكون ؟

وكاد ويل أن يقول انه يظنه من أوساط الفتيان ، ولكنه تحكم فى نفسه ٠ فقوله «أوساط الفتيان» قد يعنى بالنسبة لصديق ديبا صاحب الوجه المليح اهانة أو تلميحا ٠ فبدلا من ذلك انحنى فى احترام زائف وقال «عفوا ياصاحب الجلالة» ٠ ثم أضاف بنغمة أخرى «ولكننى لازلت تواقا الى المعرفة» ٠ ووضع احدى يديه على الحقيبة المنتفخة وقال «هل لى ٠٠؟»

وتردد موروجان لحظة ٠ ثم اضطر الى الضحك ، وقال :

ـ استمر ٠

وأخرج ويل المجلد الضخم من الحقيبة ووضعه على المنضدة

وقال : ياله من كتاب ضخم وقرأ بصوت مرتفع : سيرزوروبك وشركاؤهما · كتالوج الربيع والصيف ·

قال موروجان معتذرا : انه كتالوج العام الماضى · ولكنى لست أحسب أن تغيرا كبيرا قد حدث منذ ذلك الحين ·

وقال له ويل مؤكدا : فى هذا أنت مخطىء · اذا كانت الطرز لاتتغير تماما كل عـام امتنع السبب فى شراء أشـياء جديدة قبل أن يبلى القديم · أنت لاتعرف المبـادىء الأولى للاستهلاك · وفتح الكتاب حيثما اتفق وقرأ «حمالات ناعمة للاحجام الكبيرة» ثم فتح صفحة أخرى ووجد وصفا وصورة لصدرة قرنفلية اللون من الداكرون والقطن للسيدات» وفتح صفحة أخرى ووجد ماسوف تلبسه صاحبة الصدرة بعد عشرين عاما (ولنذكر أننا جميعا سوف نموت) ـ ازار أمامى يضبطه حزام ، ومكور بشكل يسند البطن المتدلية ·

قال موروجان الكتاب لايشوق حقا الا فى نهايته ، وبه ألف وثلثمائة وثمان وخمسون صـفحة وبعبـارة معترضة أضاف : تصور ! ألف وثلثمائة وثمان وخمسون صفحة !

وقفز ويل الى مابعد سبعمائة وخمسين صفحة ·

وقال : هذا مثال طيب المسدس والاوتوماتيك المعروف عندنا قوة ٢٢ر٠ وبعد بضع صفحات أخرى وجد الزوارق المصنوعة من أليـاف الزجـاج ، والآلات ذات الدفع الداخلى القوى ، وآلة خارجية قوة ١٢ حصانا بمبلغ ٩٥ر٢٣٤ دولارا بما فى ذلك فنطاس الوقود · هذه أثمان منخفضة بشكل غير عادى !

ولكن من الواضح أن موروجان لم يكن ملاحا · فتناول

الكتاب وقلب عشرات الصفحات الأخرى بقلق شديد وقال : انظر الى هذا الطراز الايطالى لدراجة ذات رجل واحدة ! وتطلع الى الكتاب ويل ، وقرأ موروجان بصوت مرتفع : عداد السرعة الأملس هذا يمكن أن يعطيك سرعة مقدارها ١١٠ ميلا لجالون الوقود الواحد • تصور !

وتغير وجهه العابس الى وميض من الحماسة الشديدة وأضاف : ويمكنك أن تسير بسرعة ستين ميلا للجالون حتى بهذا الموتوسيكل الذى تبلغ قوته ١٤٫٥ حصانا • ويضمنون لك خمسة وسبعين ميلا فى الساعة ـ مضمونة !

قال ويل : رائع ! وفى شغف شديد سأل «هل بعث اليك أحد من أمريكا بهذا الكتاب الفاخر ؟»

وهز موروجان رأسهوقال : أعطانى اياه الكولونيل ديبا • ـ «الكولونيل ديبا !» يالها من هدية عجيبة من هادريان الى انطونيوس ! ونظر مرة أخرى الى صورة الموتوسيكل ثم الى وجه موروجان المشرق • وأشرقت عليه الحقيقة ، واتضحت له أغراض الكولونيل • «أغوتنى الأفعى فأكلت» • ان الشجرة القائمة وسط الحديقة هى شجرة السلع الاستهلاكية • وأدنى تذوق لثمارها ، بل ومنظر صورها فى ألف وثلثمائة وثمان وخمسين صفحة ـ بالنسبة للسكان فى كل جنة عدن من جنات الدول النامية ـ له من التأثير مايجعلهم يعلمون ـ على استحياء ـ انهم من الناحية الاقتصادية عراة كما ولدتهم أمهاتهم • ان الكولونيل بفعله هذا جعل راجا بالا المقبل يتأكد أنه لايرتفع عن مستوى حاكم عار تماما على قبيلة من القبائل الهمجية •

وقال ويل بصوت مرتفع : ينبغى لك أن تستورد مليونا من هذه الكتالوجات وتوزعها على رعاياك ــ مجانا بطبيعة الحال مثل موانع الحمل ٠

ــ لماذا ؟

ــ لكى تسيل لعابهم على الامتلاك ٠ وبعدئذ تراهم صائحين يطلبون التقدم ــ آبار البترول ، السلاح ، جوالديهايد ، والتقنيين السوفيت ٠

وقطب موروجان جبينه وهز رأسه : أن هذا لاينفع ٠

ــ تعنى أن ذلك لايغريهم ؟ ولا حتى مؤشرات السرعة الملساء وصدرات الاثداء القرنفلية ؟ غير معقول !

وقال موروجان بمرارة : قد يكون غير معقول ، ولكنها الحقيقة ٠ انهم لايعبأون ٠

ــ حتى الشباب ؟

ــ بل والشباب بوجه خاص ٠

وأرهف ويل فارنبى السمع ، فلقد كان عدم الاكتراث هذا أمرا شائقا جدا ، وسأله «هل تقدر السبب ؟

وأجاب الفتى أنا لا أقدره ، بل أعلمه ٠ وبدأ يتكلم بنغمة تنم عن الاستنكار الحق ، نغمة كانت لاتتفق أبدا مع سنه ومظهره ، وكأنه قرر فجأة أن يحاكى أمه ٠ قال : أولا ، الناس هنا منشغلون جدا ب ٠٠٠ وتردد فى اكمال العبارة ، ولكن الكلمة الممقوتة خرجت همسا من بين شفتيه مع تأكيد يثير الاشمئزاز ، «بالجنس» ٠

ــ ولكن كل امرىء مشغول بالجنس • ولا يمنعهم ذلك من السعى وراء مؤشرات السرعة كالبغايا •

وقال موروجان مؤكدا : ولكن الجنس مختلف هنا •

وسأله ويل وقد تذكر الوجه الطروب للممرضة الصغيرة: ذلك بسبب يوجا الحب ؟

وأومأ الفتى برأسه ايجابا وقال : عنـــدهم شىء يجعلهم يظنـــون أنهم فى منتهى الســـعادة ، وهم لايريدون شـــيئا آخـــر •

ــ يالها من حالة سعيدة •

قال موروجان وقد طقطق بأصابعه : ليس فى الامـــر مايسعد ، الأمر كله غباء ويدعو الى الاشمئزاز • لاتقـــدم ، الامر كله جنس فى جنس فى جنس • ثم هناك أيضـــا ذلك المخدر الملعون الذى يتعاطونه جميعا •

وأعاد ويل الكلمة فى دهشة : مخدر ؟ مخدر فى مكان قالت سوزيلا انه ليس به مدمنـــون ؟ «أى نـــوع من أنواع المخدرات ؟»

وأجاب فى صيغة فكهة يحاكى بها نغمة الرانى المتذبذبة حينما تثار روحانيها ، قال : انه مصنوع من نوع من أنواع الفطريات السامة •

ــ تلك الفطريات الحمراء الجميلة التى تعودت أن تجلس فوقها الاقزام الذين يحرسون كنوز الأرض ؟

ــ لا • هذه الفطريات صفراء اللون • وقد اعتاد الناس أن يخرجوا لجمعها من الجبال • أما اليوم فهى تنمو فى أحواض

خاصة بالفطر بمرتفعات محطة التجارب • انه مخدر يزرع بطريقة علمية • شيء جميل • أليس كذلك ؟

وانفتح الباب محدثا صوتا ، وسمعت ضجة ووقع أقدام تقترب من الردهة ، وفجأة اختفت روح الرأني الساخطة (التي تقمصها) ، وعاد موروجان مرة أخرى ذلك التلميذ حي الضمير الذي يحاول خفية أن يستر مظاهر انحرافه • وفي لمح البصر حل كتاب «مبادىء علم البيئة» محل مجلد « سيرزوروبك » واختفت تحت المنضدة الحقيبة المنتفخة المريبة • وبعد لحظة دخل فيجايا الغرفة يذرعها بخطواته عاريا الى وسطه ، لامعا كالبرنز الممسوح بالزيت ، يتصبب منه عرق العمل في شمس الظهيرة • وسار من خلفه الدكتور روبرت • ورفع موروجان بصره من كتابه وعليه سيما الطالب النموذجي الذي قاطعه أثناء القراءة من انتهك حرمة المكان من العالم الخارجي الطائش • وبسرور بالغ أخذ ويل لتوه يؤدي بكل اخلاص ذلك الدور الذي وكل اليه أن يؤديه •

وعندما تقدم اليه فيجايا معتذرا عن التأخير • قال : أنا الذي جئت الى هنا مبكرا • مما ترتب عليه أن صديقنا الصغير هنا لم يتمكن من متابعة دروسه ، فقد كنا منهمكين في الجدل •

وسأل الدكتور روبرت : فيم ؟

ـ في كل شيء • الكرنب ،والملوك ، والعجلات البخارية، والبطون المتدلية • وعندما جئتم كنا قد بدأنا الحديث في الفطر • وكان موروجان يحدثني عن الفطريات التي تستخدم هنا مصدرا للمخدرات •

وقال الدكتور روبرت ضاحكا : هل يدل الاسم على شيء ما ؟ الاجابة ، انه يدل على كل شيء • ان موروجان لسوء الحظ قد نشأ في اوربا ولذلك يسميه المخدر وشعوره نحوه الاستنكار المطلق الذى تثيره اللفظة القــذرة ، متأثرا بالفعل المنعكس الشرطى • أما نحن ــ فعلى عكس ذلك ــ نطلق على هذه المادة أسماء طيبة ــ نقول عنها (عقــار الموكشا) ، والكاشــفة عن الواقع ، وأقراص الحق والجمال • وبالخبرة المباشرة نعلم أنها جديرة بهذه الاسماء الطيبة • أما صاحبنا الصغير هذا فليست لديه معرفة مباشرة بهذه المادة ، ولم يمكن اغراؤه بأن يجربها، فهى عنده مخدر ، والمخدر ــ بحكم تعريفه ــ شيء لايتعاطاه شخص مهذب •

وسأل ويل : ماذا تقول فى هذا ياصاحب السمو؟

هــز موروجان رأســه وتمتم قائلا : كل مايعطيك اياه مجموعة من الاوهام • لست أدرى لماذا أنحرف عن طــريقى وأجعل نفسى أضحوكة ؟

قال فيجايا ساخرا متفكها : نعم لمــاذا ؟ ولك أن تســأل لانك فى حالتك الطبيعية وحدك من بين أفراد الجنس البشرى جميعا الذى لايستغفله أحد وليس لديك أوهام عن أى شيء !

واحتج موروجان قائلا : اننى لم أقل ذلك قط ، وكل ماقصدت هو أننى لا أريد ماعندكم من (سامادهى) زائف •

وسأل الدكتور روبرت : كيف عرفت أنه زائف ؟

ــ لان الشيء الحقيقى لايأتى للنــاس الا بعــد ســنوات

وسنوات من التأمل و (التابا) (١) وكذلك الامتناع عن النساء» ٠

وتعليقا على ذلك قال فيجايا لويل : ان موروجان بيوريتانى (متزمت) ، يثور عندما يعلم أن أربعمائة مليجرام من عقار الموكشا فى الدورة الدموية يجعل المبتدئين ــ حتى البنين والبنات الذين يمارسون الحب ــ قادرين على رؤية العالم كما يراه المرء اذا تحرر من استرقاق ذاته لنفسه ٠

قال موروجان مؤكدا : ولكنه غير واقعى ٠

ورد عليه الدكتور روبرت بقوله : غير واقعى ! ان ذلك بمثابة قولك ان تجربة الاحساس بسلامة الصحة غير واقعية ٠

واعترض على ذلك ويل بقوله : انك تفترض سلفا صدق ماتقول ٠ لان التجربة يمكن أن تكون واقعية بالنسبة لشىء يجرى داخل جمجمة الرأس ، ولكنها ليست كذلك بتاتا بالنسبة لأى شىء خارجى ٠

ووافق الدكتور روبرت على ذلك وقال : طبعا ٠

ــ هل أنت تعلم مايجرى بداخل جمجمتك عندما تتناول جرعة من الفطر ؟

ــ نعرف القليل ٠

وأضاف على ذلك فيجايا : ونحن نحاول كل مرة أن نزداد معرفة ٠

---

(١) رداء من الياف الشجر ، والمقصود هنا هو التقشف ــ المترجم ٠

قال الدكتور روبرت : لقد عرفنا مثلا أن الناس الذين لايظهر رسم المخ عندهم حركة الموجة (أ) وهم فى حالة استرخاء لايحتمل أن يستجيبوا لعقار الموكشا بدرجة محسوسة ، ويمثل هؤلاء نحو خمسة عشر فى المائة من السكان • ومعنى ذلك أن علينا أن نوفر لهم سبلا أخرى للتحرر •

قال فيجايا : وثمت أمر آخر بدأنا ندركه ، وهو علاقة الاعصاب بهذه التجربة • ماذا يحدث فى المخ عندما تحدث الرؤيا ؟ وماذا يحدث عندما ينتقل المرء من حالة عقلية تسبق التصوف الى حالة التصوف الحق ؟

قال ويل : وهل تعرفون ؟

ـ المعرفة كلمة ضخمة • يكفينا أن نقول اننا فى وضع يمكننا من الحدس المعقول • الملائكة وصور جديدة لأورشليم وللعذراء ولأمثال بوذا الذين سوف يظهرون فى المستقبل ـ كل هؤلاء ـ كل هؤلاء متصلون بنوع غير عادى من أنواع اثارة مناطق المخ التى تتصور الأفكار وكأنها حقائق موضوعية ، ـ اللحاء البصرى مثلا • ولا نعلم حتى الآن كيف يحدث عقار الموكشا هذه الاثارات غير العادية • المهم أنها تحدثها بطريقة ما •وبطريقة ما تفعل شيئا غير عادىفى مناطق المخ الساكنة، المناطق التى لاتتعلق خاصة بالرؤيا أو الحركة أو الشعور •

واستفسر ويل : وكيف تتجاوب هذه المناطق الساكنة ؟

ـ لنبدأ كلامنا بما لاتتجاوب معه هذه المناطق • انها لاتتجاوب مع الرؤى أو المسموعات ، ولاتتجاوب مع اتصال العقول أو رؤية مايقع وراء نطاق البصر أو أى نوع من

أنواع الأداء الذى يجاوز حدود النفس · لاشىء من المادةالممتعة التى تسبق التصوف · تجاوبها تجربة صوفية كاملة ــ الواحد فى الكل والكل فى الواحد · التجــربة الاساسية ومايترتب عليها ــ الرأفة التى لاتحــد ، واللغز والمعنى الذى لايسبر غوره ·

وقال الدكتور روبرت : وذلك بخلاف المتعة · المتعة التى يعجز عن وصفها التعبير ·

قال ويل : والمجموعة كلها داخل الجمجمة ·

ــ أمر خاص جدا ، لا اشارة فيه لأى شىء خارجى سوى الفطر ·

وقاطعه موروجان قائلا : غير واقعى · وهــذا بالضبط ماكنت أحاول أن أقوله ·

قال الدكتــور روبرت : أنت تفترض أن المخ يحدث الوعى · وأنا أزعم أن المخ ينقل الوعى · وليس شرحى أكثر بعدا فى احتماله من شرحك · كيف يمكن أن يمــارس المرء مجموعة من الاحداث التى تتعلق بعالم ما على أنها مجموعة من الاحداث متعلقة بعالم آخر مختلف تماما وغير متناسب معه · ليس هناك من لديه أدنى فكرة · كل مايستطيع المرء أن يفعله هو أن يقبل الوقائع ويلفق الفــروض · وكل فرض ــ من الناحية الفلسفية ــ له من الصلاحية مالغيره من الفروض · أنت تقول انعقار الموكشايفعل شيئا مافىالمناطقالصامتةمن المخ مما يجعل هذه المناطق تنتج حوادث ذاتية يسميها الناس «تجربة صوفية» · وأنا أقول ان عقار الموكشا يفعل شيئا ما فى المناطق الصامتة من المخ مما يفتح شيئا يشبه صمام المخ

فيسمح بقدر أكبر من «العقل العام» أن يتـدفق فى «عقلك الخـاص» وأنت لاتسـتطيع أن تثبت صـدق فرضك ، وأنا لا أستطيع أن أثبت صدق فرضى · وحتى ان استطعت أن تثبت خطأى فهل يكون هناك فرق عملى ؟

قال ويل : كنت أحسب أن هناك فارقا كبيرا ·

قال الدكتور روبرت : هل تحب الموسيقى ؟

ـ أكثر من أى شىء آخر ·

ـ هل لى أن أسألك الى أى شىء تشير خماسية موزار ؟ هل تشير الى الله أو تاو أو الى الشخص الثانى من الثالوث المقدس أو الى أتمان براهمان ؟

وضـحك ويل وقال : أرجـو ألا يكون هنـاك شىء من ذلك ·

ـ ولكن ذلك لايقلل مما تعطيه الخمـاسية لنـا · الأمر شبيه بذلك فيما يتعلق بنوع التجربة التى تظفر بها من عقار الموكشا ، أو من الصلاة والصيام والتدريبات الروحية · انها قد لاتشير الى شىء خارج عنها ، ومع ذلك فهى أهم مايحـدث لك · انها كالموسـيقى ولكنها أقوى منها أثـرا · واذا أنت أعطيت للتجربة فرصة ، واذا كنت على استعداد لأن تمارسها، فسوف تجد ان نتائجها أفعل علاجا وأكثر قدرة على تشكيلك بدرجة لاتقارن · ربما كان كل شىء يحـدث داخل الجمجمة ، وربما كان خاصا بك وحدك ، وربما لاتكون هنـاك معرفة موحدة لأى شىء سوى مايحدث لوظائف أعضائك أنت · ماذا يهمنا فى ذلك · الأمر الواقع هو أن التجربة تستطيع أن تفتح عينيك وتجعلك من المباركين وتقلب حياتك كلها» · وسادت

فترة طويلةمن الصمت ، واصل بعـدها الحـديث متوجها الى موروجان «أحب أن أقول لك شيئا ، شيئا لم يكن فى نيتى أن أبوح به لأى انسان • ولكنى أشعر الآن انه ربمـا كان على واجب ازاء العرش وازاء بالا وكل ساكنيها ــ لزام على أن أحدثك عن هذه التجربة الخاصة • وربما كان حديثى عونا لك لكى تكون أكثر تفهما لبلدك وطرائقها» • وصمت لحظة ، ثم واصل الحديث بنغمة هادئة تنم عنالثقةالتامة فيما يروى، قال «أعتقد أنك تعرف ماجرى لزوجتى •

وبوجه لايزال متجها وجهة أخرى أومأ موروجان برأسه ايجابا • وتمتم قائلا : أسفت عندما نمى الى انها مريضة •

قال الدكتور روبرت : لم يعد لها سوى بضعة أيام ، أربعة أو خمسة على الاكثر ، ولكنها لاتزال صافية الذهن ، واعية تماما بما يحدث لها • بالامس سألتنى ان كنا نسـتطيع أن نتناولعقار الموكشا معا •وفى جملة معترضة قال «وكنانفعل ذلك من قبل مرة أو مرتين كل عام خلال السبعة وثلاثين عاما الماضية ــ منذ أن قررنا أن نتزوج ، والآن مرة أخرى ــ للمرة الاخيرة • والامر لايخلو من مخاطرة لما قد يترتب عليه من ايذاء لكبدها • ولكنا قررنا أنه خطر يسـتحق أن نرتكبه • وكنا على حق كما تبين فيما بعد • فان عقـار الموكشا ــ أو المخدر كما تحب أن تسميه ــ كاد ألا يصيبها بأى سوء • وكل ماحدث لها تحول عقلى •

ثم صمت ، وفجأة تنبه ويل الى خمش الفئران المحبوسة فى القفص وصريرها ، كما تنبه من خلال النافذة المفتوحة الى الجلبة التى تتميز بها الحياة فى المناطق الاستوائية ، وكذلك

الى نداء طائر بعيد من طيور المينة ، يصيح : الآن وفي هــذا المكان أيها القوم ، الآن وفي هذا المكان ...

وأخيرا قال الدكتــور روبرت : أنت مثل هــذه المينة ، دربت على تكرار ألفاظ لاتفقه لها معنى أو تدرك لها مغزى. لاتفتأ تكرر قولك «غير واقعي ، غير واقعي» ولكنك اذا جربت مافعلته أنا ولاكشما بالامس كنت أكثر من ذلك علما . كنت أكثر واقعية مما يدور في خلدك ومشاعرك في هذه اللحظة. كنت أكثر واقعية من العالم الذى تبصره بعينيك . ولكن «هذا غير واقعي» هي العبارة التى تعلمت أن تجريها على لسانك . «غير واقعي ، غير واقعي» . ووضع الدكتور روبرت احدى يديه على كتف الفتى في عطف شديد . وواصل حديثه قائلا «قيل لك انا لسنا سوى مجموعة منمتعاطى المخدرات المدمنين، نغوص في الأوهام والسمادير الكاذبة . اسمع ياموروجان : عليك أن تنسى كل مانفخوه فيك من لغــة باطلة . عليك أن تنساه على الاقل حتى تقوم بالتجربة مرةواحدة . خذ أربعمائة مليجرام من عقار الموكشا واكشف لنفسك بنفسك تأثيرها ، وماذا تستطيع أن تنبئك به عن طبيعتك ، وعن هذا العالم الغريب الذى يتحتم عليك أن تعيش فيه ، وتتعلم فيه ، وتكابد فيه ، وأخيرا تموت فيه . نعم لانه حتى أنت لابد أن تموت يوما ما ــ ربما بعد خمسين عاما من اليوم . وربما غدا . من ذا الذى يعلم ؟ ولكنه لابد حادث ، ومن لايستعد لهــذا اليوم رجل غافل » والتفت الى ويل وقال له : هل تحب أن ترافقنا ونحن نستحم ونرتدى الملابس ؟

ولم ينتظر منه ردا وسارع الى الخروج من الباب الذى ينفتح على الردهة الوسطى في البناء الطويل . والتقط ويل

عصـــاه الخيزرانية وخـــرج من الغـــرفة فى اثـــره مصـــاحبا فيجايا ٠

وبعد ما انغلق الباب خلفهما سأل فيجايا : هل تظن أن موروجان قد تأثر بهذا الكلام ؟

وهز فيجايا كتفيه وقال : انى أشك فى ذلك ٠

قال ويل : انه بتأثير أمه وبشغفه بالآلات ذات الاحتراق الداخلى محصن ضد أى شىء مما تقولون ٠ كم كنت أود لوانك استمعت اليه وهو يتحدث فى موضوع العجلات البخارية !

قال الدكتـــور روبرت وقد توقف عنـــد باب أزرق فى انتظارهما لكى يرافقاه : سمعناه مرارا وتكرارا ٠ عنـــدما يبلغ سن الرشد ستصبح هذه العجلات قضية سياسية كبرى ٠

وضحك فيجايا وهو يقول : ان تركب العجلة أو لا تركبها، هذه هى المشكلة (١) ٠

وأضاف الدكتور روبرت : انها ليست المشكلة فى بالا وحدها ٠ انها المشكلة التى لابد أن تجد لها كل البلاد النامية حلا بطريقة ما ٠

قال ويل : والحـــل هو هو بعينه دائمـــا ٠ حيثما ذهبت ــ وقد طفت فى كل مكان تقريبا ــ وجدتهم يختارون ركوب العجلات بكل قلوبهم ٠

ووافقه فيجـــايا قائلا : بغـــير استثناء ٠ يحبون ركوب العجلات من أجل العجلات فى حد ذاتها ٠ لايعبأون البتة بكل

(١) اشارة الى نقل التكنولوجيا من البلاد المتقدمة الى البلاد النامية ــ المترجم

مايتعلق باستكمال أنفسهم أو بتثقيفهم او تحررهم • ودعك من الصحة العامة أو السعادة •

قال الدكتور روبرت : في حين أننا قد اخترنا أن نكيف الاقتصاد والتكنولوجيا عندنا بما يناسب البشر ــ ولم نكيف البشر ليتقبلوا تكنولوجيا غيرهم واقتصادهم • اننا نستورد ما لا نستطيع أن نصنعه ، ولكننا لانصنع ولانستوردالا ما في وسعنا • وما بوسعنا لايحدده فقط مالدينا من الجنيهات والماركات والدولارات ، وانما يحدده كذلك وفي المقام الأول ــ وأؤكد ما في المقام الاول ــ رغبتنا في أن نكون سعداء وطموحنا الى أن نكون انسانيين بكل ماتعنيه الكلمة • والعجلات ــ كما قررنا بعد ما بحثنا الأمر بكل دقة ــ من الاشياء العديدة التي ليست في وسعنا • وذلك أمر سوف يتعلمه موروجان بعد مشقة لانه لم يتعلمه ــ ولايريد أن يتعلمه بيسر وسهولة •

وسأل ويل : وما هي الطريقة السهلة الميسرة للتعلم ؟

ــ التربية وكشف الحقيقة • وموروجان لم ينل هذه ولا ذاك • بل قل انه نال نقيضيهما • سوء التربية في اوربا ــ مربية سويسرية ، ومعلمون انجليز ، والصور المتحركة الامريكية ، والاعلانات العامة ــ وقد كانت روحانية أمه من النوع الذي أخفى عنه الحقيقة • ولا عجب بعد ذلك اذا كان قد شغف بالعجلات البخارية •

ــ ولكنني علمت أن رعاياه لايشغفون بها

ــ وكيف يشغفون ؟ وقد تعلموا منذ نعومة أظفارهم أن يكونوا على وعي تام بالعالم ، وأن يستمتعوا بهذا الوعي •

وفوق ذلك رأوا العالم كما رأوا أنفسهم وغيرهم من الناس كما أضاءتهم وأظهرتهم كاشفات الحقيقة ، مما ساعدهم بطبيعة الحال على أن يشتد وعيهم وأن تكون متعتهم قائمة على أساس من الادراك ، حتى لقد بدت لهم الاشياء العادية ، والاحداث التافهة كالجواهر والمعجزات ، نعم كالجواهر والمعجزات وقد كرر العبارة للتأكيد ثم أضاف : واذن لم تكن بنا حاجة الى اللجوء الى العجلات أو الويسكى أو التلفزيون أو بيلى جراهام أو أى شيء مما تستخدمونه ليصرف أذهانكم ويعوضكم ٠

واستشهد ويل بهذه العبارة : «لايغنى فعلا الا كل شيء» ثم قال : أنا أدرك الآن ماتحدث به راجا المجوز ٠ انك لن تكون اقتصاديا الا ان كنت من علماء النفس الممتازين ، ولن تكون مهندسا ممتازا الا ان كنت من النوع الصحيح من الميتافيزيقيين ٠

قال الدكتور روبرت : ولاتنس العلوم الاخرى جميعا ٠ علم العقاقير ، علم الاجتماع ، علم وظائف الاعضاء ، ولست بحاجة الى ذكر علم الانسان بنفسه نظريا وتطبيقيا ، ونيوروثيولوجيا ، وماوراء الكيمياء ، والتصوف ، والعلم الغائى قال ذلك مشيحا بوجهه كى يكون أكثر وحدة وهو يفكر فى لاكشمى وهى فى المستشفى ، وأضاف «والعلم الذى سوف نمتحن فيه ان عاجلا أو آجلا ــ أقصد الثانتولوجيا (علم الموت) » وصمت برهة ثم قال بنغمة أخرى : والآن دعنا نذهب لنغتسل ٠ وفتح الباب الأزرق ، وتقدمهم نحو حجرة الغيار وبها صف من الادشاس وأحواض الغسيل فى جانب ، وفى الجانب الآخر صفوف من الصناديق المقفلة ودولاب كبير لتعليق الملابس ٠

واتخذ ويل له مقعدا وبينما كان رفيقاه يغتسلان فى الأحواض واصل حديثه معهما ٠

سأل : هل يجوز لأجنبى ممن ساءت تربيتهم أن يجرب قرصا من أقراص الحق والجمال ؟

وكانت الاجابة سؤالا آخر ألقاه الدكتور روبرت مستفسرا :

ــ هل كبدك فى حالة جيدة ؟

ــ جيدة جدا ٠

ــ ويبدو أن انفصام الشخصية عندك خفيف ٠ لذلك لا أرى مانعا ٠

ــ واذن أستطيع أن أقوم بالتجربة ؟

ــ متى ماشئت ٠

واتجه نحو أقرب كشك من أكشاك الدش وفتح صنبور الماء ، وفعل فيجايا مثل مافعل ٠

ولما خرجا من تحت الماء وبدأ كل منهما يجفف نفسه سألهما :

ــ أليس من المفروض أنكما من المثقفين ؟

وأجاب فيجايا : نحن نقوم بعمل المثقفين ٠

ــ اذن لماذا كل هذه المشقة فيما تؤدون ؟

ــ لسبب بسيط ٠ كان عندى هذا الصباح قليل من وقت الفراغ ٠

قال الدكتور روبرت : وأنا كذلك ٠

ـ لذلك خرجتما الى الحقول وقمتما بما قام به تولستوى•
وضحك فيجايا قائلا : يبـدو أنك تتصـور اننا نفعل ذلك لاسباب خلقية •

ـ أوليس كذلك ؟

ـ كلا بالتأكيد • انما أنا أقوم بعمل عضـلى لأن عندى عضلات ، واذا انا لم استخدم عضلاتى أمسى قعيدا بالعـادة حاد المزاج •

قال الدكتـور روبرت : بـدون أى شيء بين لحـاء المخ والأرداف ، أو قل مع وجود كل شيء ـ ولكن فى حالة من عدم الوعي والركود السام • المثقفون الغـربيون جميعا يدمنون الجلوس ، ولذلك كان أكثركم عليلا بدرجـة منفـرة • فى الماضى كان الدوق نفسه يمشى كثيرا ، وكذلك كان الثرى الذى يقرض المال ، والميتافيزيقى • وعندما لايسيرون على الاقدام كانوا يهطعون على ظهور الخيل • أما اليوم فمن صاحب رأس المال الى كاتبه على الآلة الكاتبة ، ومن الوضـعى المنطقى الى المفكر الوضعى ، الكل يقضى تسعة أعشار وقتـه فوق حشايا المطاط • مقاعد اسفنجية لأعجـاز اسفنجية ـ فى المنـازل والمكاتب والعـربات والبـارات والطـائرات والقطـارات والاوتوبيس • لاتتحرك الأرجل ، ولا كفاح مع المسافات أو مع الجاذبية ـ مجرد مصاعد وطائرات وعـربات ، ومقـاعد من المطاط وجلوس دائم • كانت قوة الحياة تجد لها مخرجا فى العضلات المفتولة ، أما اليوم فهى ترتد الى الأحشاء والجهاز العصبى ، وشيئا فشيئا تهدمها •

ـ ولذلك فأنتم ترون أن الحفر والتنقيب نوع من أنواع العلاج ؟

ـ للوقاية ، حتى لاتبقى للعلاج ضرورة • فى بالا يخصص كل فرد ساعتين كل يوم للحفر والتنقيب ، حتى الاستاذ ، وحتى موظف الحكومة •

ـ كجزء من واجباته •

ـ وكجزء من متعته •

وامتعض ويل وهو يقول : لايمكن أن يكون ذلك جزءا من متعتى •

وشرح له فيجايا الأمر وقال : ذلك لأنك لم تتعلم أن تستخدم عقلك وبدنك فى آن واحد بالطريقة الصحيحة • ولو أنك عرفت كيف تصنع الأشياء بالحد الأدنى من المجهود والحد الأقصى من الوعى استمتعت حتى بالعمل الشاق •

ـ أظن أن أطفالكم جميعا يتدربون على ذلك •

ـ منذ اللحظة الأولى التى يبدآون فيها العمل بأنفسهم • ماهى ـ مثلا ـ الطريقة الصحيحة التى تتناول بها نفسك وأنت تزرر ملابسك ؟ وبدأ فيجايا يزرر قميصه الذى ارتداه، وجعل حركاته تتفق مع كلماته • وواصل حديثه قائلا «نحن نجيب على هذا السؤال بأن نضع رؤوسهم وأبدانهم فعلا فى أحسن وضع فسيولوجى • وفى نفس الوقت نشجعهم على أن يلحظوا مشاعرهم حينما تكون أبدانهم فى أحسن وضع فسيولوجى ، وان يكونوا على وعى بما تتألف منه عملية الزر، من لمسات وضغوط واحساسات عقلية • واذا مابلغ الطفل

الرابعة عشرة يكون قد تعلم كيف يستغل كل نشاط يقوم به موضوعيا وذاتيا • عندئذ نعهد اليهم بالاعمال • ينفق كل منهم تسعين دقيقة كل يوم فى عمل من الاعمال اليدوية •

ـ هذا عود الى الايام التى كان الاطفال فيها يعملون !

قال الدكتور روبرت : الأصح أن تقول هذا تقدم من هذا التعطل السيء المستحدث للاطفال • أنتم لاتسمحون لأطفالكم بالعمل ، ولذلك تراهم ينفقون نشاطهم فى الانحراف أو يكبتون نشاطهم حتى يستعدوا لأن يصبحوا من مدمني القعود المستأنسين • ثم قال : والآن ، حان الوقت لكى ننصرف • سوف أتقدم لكى أرشدكم الى الطريق •

ولما ولجوا المعمل كان موروجان مشتغلا باغلاق حقيبته لكى لاتتطلع اليها العيون المتطفلة • قال : أنا مستعد • وتأبط (العهد الأجد) (١) الذى يتألف من ألف وثلثمائة وثمانية وخمسين صفحة ، وتقفى أثرهم فى ضوء الشمس • وبعد بضع دقائق ،وهم مكدسون فىعربة جيب قديمة ، انطلق أربعتهم على طول الطريق الذى يؤدى الى الطريق العام مارين باصطبل العجل الابيض ، وبركة اللوتس ، وتمثال بوذا الحجرى الضخم ، ومخترقين بوابة مجمع المحطة • وقال فيجايا وهم يغذوان السير ويتخبطون فى وعورة الطريق «آسف لاننا لانستطيع أن نمدكم بوسائل للنقل أكثر راحة» •

وربت ويل على ركبة موروجان وقال : هذا هو الرجل الذى تقدم اليه اعتذارك ، فهو يتحرق شوقا للعربات الفاخرة، الجاجوار وثندربيرد •

---

(١) الاشارة هنا الى العهد القديم والعهد الجديد وهو يقصد الكتاب الخاص بالاعلان عن المخترعات الجديدة ـ المترجم •

ومن مقعده الخلفي قال الدكتور روبرت : أخشى أن يكون شوقا يبقى دائما دون أن يحقق صاحبه الأمل المنشود ٠

ولم يعلق على ذلك موروجان بشيء ما ، واكتفى بابتسامة ازدراء خفية يشير بها الى أنه أكثر من ذلك علما ٠

وواصل الدكتور روبرت حديثه قائلا : نحن لايمكن أن نستورد اللعب ٠ الضروريات فقط ٠

ــ مثل ؟

ــ سوف ترى بعد لحظة وسارا حول منحنى ، وشاهدوا تحت أبصارهم أسقفا من الخوص وحدائق تظللها الأشجار فى قرية كبيرة ٠ والتزم فيجايا جانب الطريق وأوقف المحرك ، وقال : ما تشاهده هو روزامستد الجديدة ٠ أرز وخضراوات ، وطيور ، وفاكهة ٠ هنا مصنعان للخزف ومصـــنع للأثاث ، ولذلك ترى هذه الأسلاك ٠ ولوح بيده نحو صف من أبراج الأسلاك الكهربائية التى تقع فوق منحدر مدرج خلف القرية ، وتختفى عن الأنظـــار عند قمة التل ، ثم تظهر ثانية على بعد وترتفع من قـــاع الوادى التالى صـــوب حزام أخضر من غابة جبلية ٠ مع ظهور القمم التى تكسوها السحب بعيدة مرتفعة ، وأشار بأصبعه نحو بناء من الأسمنت بغير نوافذ يرتفع وسط البيوت الخشبية قريبا من المدخل الأعلى للقرية بشكل غير ملائم وقال : هـــذا من الواردات التى ليس عنها غنى ــ أجهـــزة كهربائية ــ وبعدما سخرنا مســـاقط المياه وعلقنا أســـلاك الأرسال كان لدينا شيء آخر له اولوية قصوى ٠

سأل ويل : وما هو ؟ هـــل هو نـــوع من أنواع الأفران الكهربائية ؟

ـ لا · الأفران فى الجانب الآخر من القرية · أما هـذا فهو جهاز عام للتجميد ·

وشرح ذلك الدكتـور روبرت قائلا : فى الماضى كنـا نفقد نحو نصف المواد القابلة للتلف مما ننتجه · أما الآن فنحن لانفقد شـيئا قط · كل مانزرع لنـا وليس للبكتريا المحيطة بنا ·

ـ ولذلك لديكم الآن مايكفى للطعام ·

ـ أكثر من الكفاية · طعامنا أفضـل من طعام أى بلد آخر فى آسيا ، ولدينا فائض للتصدير · كان لنين يقول ان الكهرباء مع الاشتراكية تساوى الشـيوعية · ولكن معادلتنا تختلف عن ذلك · فنحن نقـول ان الكهرباء مطـروحا منها الصناعة الثقيلة مضافااليها تحديد النسل تساوىالديمقراطية والوفرة · أما الكهرباء مضاف اليها الصناعة الثقيلة ومطروح منها تحديد النسل فتساوى البؤس والحكم الشمولى والحرب ·

وسأل ويل : بهذه المناسبة ، من يملك كل هذا ؟ هل أنتم رأسماليون أو دولة اشتراكية ؟

ـ لا هذا ولا ذاك · نحن فى أكثر الاحيان تعاونيون · الزراعة فى بالا كانت دائما تسوية للأرض وريهـا · ولكن التسوية والرى تقتضيان الجهد المشترك والاتفـاق الودى · المنافسة القاتلة لاتتفق وزراعة الأرز فى بلد جبلى · وقد وجد القوم هنا أنه من السهل جدا الانتقال من التعاون المتبادل فى مجتمع القرية الى وسائل التعاون الميسرة فى البيع والشراء والتمويل واقتسام الأرباح ·

ـ حتى التمويل التعاوني ؟

وأومأ الدكتور روبرت رأسه ايجابا وقال : ليس عندنا أولئك المرابون مصاصو الدماء الذين تجدهم في كل أنحاء الريف الهندي . وليست لدينا بنوك تجارية على طريقة أهل الغرب . نظام الاقتراض والتسليف عندنا يسير وفقا لنموذج اتحادات الائتمان التي أنشأها في ألمانيا ويلهلم ريفيش منذ أكثر من قرن . وقد أقنع الدكتور أندرو الراجا بدعوة أحد الشبان الذين يعملون في نظام ريفيش لزيارة بالا ووضع نظام تعاوني للبنوك . ولايزال هذا النظام قائما ويعمل بنشاط .

وسأل ويل : وما هو النقد الذي تستعملونه ؟

أدخل الدكتور روبرت يده في جيب سرواله وأخرج ملء راحته من الفضة والذهب والنحاس .

وأخذ يشرح قائلا بالا تنتج الذهب بطريقة متواضعة . نستخرج من المناجم قدرا يكفي لضمان العملة الورقية بالمعادن الثابتة . والذهب يكمل صادراتنا . نستطيع أن ندفع نقدا فوريا نظير المعدات المكلفة كأسلاك الارسال والمولدات الكهربائية التي شهدتها في الطرف الآخر .

ـ يبدو أنكم قد وجدتم حلا ناجحا لمشكلاتكم الاقتصادية .

ـ لم يكن حل هذه المشكلات بالأمر العسير . فنحن أولا لم نسمح لأنفسنا بأن ننجب أطفالا أكثر مما نستطيع أن نطعم ونكسو ونأوي ونربي في سبيل الانسانية الكاملة . ولما لم تكن لدينا زيادة في السكان كانت لدينا وفرة . وعلى الرغم من

هذه الوفرة استطعنا أن نقاوم الاغراء الذى انساق له أهل الغرب ـ أعنى الاغراء بالاستهلاك الزائد · لايصاب أحدنا بالجلطة فى الشريان التاجى لانه يتعاطى من المواد الدهنية ستة أمثال مايحتاج · ولا نخدع أنفسنا بالاعتقاد بأن اقتناء جهازين من أجهزة التلفزيون يضاعف من سعادتنا باقتناء جهاز واحد · وأخيرا نحن لاننفق ربع مجموع الانتاج الوطنى فى الاستعداد لحرب عالمية ثالثة أو حتى لحرب صغرى تتولد عن الحرب العالمية ، تكون الحرب المحلية رقم ٣٣٣٣ · التسليح والقروض العالمية والتخطيط لاهمال القديم فى سبيل الجديد ـ هذه هى الأعمدة الثلاثة التى تستند اليها الرفاهية فى الغرب · لو انكم ألغيتم الحروب والتبذير واقراض المال انهارت مجتمعاتكم · وبينما أنتم تسرفون فى الاستهلاك يزداد بقية العالم استغراقا فى النكبات المزمنة · الجهل ، والروح العسكرية وزيادة النسل ـ هذه النكبات الثلاث وأخطرها زيادة النسل · ولا أمل ولا بارقة لامكان حل المشكلة الاقتصادية حتى يكون ذلك محلا للتحكم · كلما زاد عدد السكان هبط مستوى الرفاهية · وباصبع ممتدة أشار الى المنحنى الهابط · ثم قال «واذا هبط مستوى الرفاهية ساد السخط وعم العصيان» (وارتفعت سبابته مرة أخرى) وعاد يقول «ويسود الاستهتار السياسى ، وحكم الحزب الواحد ، والتعصب القومى والميل الى القتال · واذا استمرت الحال كذلك عشر سنوات أو خمس عشرة سنة أخرى من الانسال بغير حظر انتشر فى العالم كله ـ من الصين الى بيرو عبر افريقيا والشرق الاوسط ـ ظهور الزعماء الذين يكرسون كل جهودهم لكبت الحرية ، يسلحون بلادهم الى الاذقان من روسيا

أو أمريكا أو ـ وهو الافضل ـ منهما معا ، يلوحون بالاعلام ويطالبون (بالمجال الحيوى) ٠

وسأل ويل : وما هو الموقف فى بالا ؟ هل ترحبون بظهور زعيم قائد بعد عشر سنوات من الآن ؟

أجاب الدكتور روبرت : لن يكون ذلك باختيارنا ٠ لقد كنا دائما نبذل الجهد الممكن كله لكى نحول دون ظهور الزعيم القائد ٠

ولاحظ ويل بطرف عينه أن موروجان يبدى استنكاره واشمئزازه وسخطه ٠ فقد كان أنطونيوس (يقصد موروجان) يرى نفسه بالتأكيد بطلا من أبطال كارلايل ٠ والتفت ويل الى الدكتور روبرت ٠

وقال له : خبرنى كيف استطعتم ذلك ؟

أولا نحن لانخوض حروبا ولا نستعد لها ٠ ومن ثم فليست بنا حاجة الى نظام التجنيد الاجبارى ، أو الرتب العسكرية أو القيادة الموحدة ٠ وعندنا الى جانب ذلك نظامنا الاقتصادى الذى لايسمح لأحد أن يشرى أكثر من أربعة أو خمسة أضعاف المتوسط ٠ ويعنى ذلك أنه لايظهر بيننا قادة فى مجال الصناعة أو ممولون ذوو قدرات لاتحد ٠ وأفضل من ذلك ليس لدينا ساسة أو بيروقراطيون ذوو قدرات لاتحد٠ بالا اتحاد من وحدات تحكم كل واحدة منها نفسها بنفسها ، وحدات جغرافية ، ووحدات مهنية ، ووحدات اقتصادية ـ ومن ثم فالمجال متسع فسيح للمبادرات على نطاق ضيق وللقادة الديمقراطيين ، ولايتسع المجال لأى نوع من أنواع الدكتاتورية التى تقوم على رأس حكومة مركزية ٠ وثمة نقطة أخرى :

ليست لدينا كنيسة معتمدة ، وديانتنا تؤكد التجربة المباشرة وتستنكر الاعتقاد في مبادىء لايمكن اثباتها والمشاعر التى يثيرها هذا الاعتقـاد • ولذلك فنحن فى أمـان من أخطـاء الباوبية من ناحية ، ومن التعصب الدينى الرجعى من ناحية أخرى • ومع التجربة التى تجاوز الواقع ندعو بانتظام الى التشكك • نحث الاطفال على ألا يأخذوا الالفاظ مأخذ الجد ، ونعلمهم أن يحللوا كل مايسمعون أو يقرأون ـ ويشكل ذلك جزءا لايتجزأ من منهج الدراسة • والنتيجة أن مثيرى الغوغاء من أمثال هتلر أو جارنا على الجانب الآخر من المضيق لايجدون فرصة لهم هنا فى بالا ولم يطق موروجان كل هذا ولم يستطع أن يضبط نفسه فانفجر قائلا : ولكن انظر الى الطاقة التى يولدها الكولونيل ديبا فى شـعبه • أنظر الى اخلاصـه والى تضحيته بنفسه • ليس عندنا هنا فى بالا ما يشبه ذلك •

قال الدكتور روبرت والحمد لله على ذلك •

وردد فيجايا قوله : الحمد لله •

واحتج الفتى قائلا : ولكن هـذا السـلوك طيب ، وأنا معجب به •

قال الدكتور روبرت : وأنا كذلك أعجب به اعجـابى بالاعاصير • ان مثل هذه الطاقة وهـذا الاخـلاص وهـذه التضحية بالنفس لاتتفق ـ لسـوء الحظ ـ مع الحـرية ، بل ولا تتفق مع العقـل أو مع الكرامة الانسـانية • والكرامة والعقل والحرية أمور تسـعى بالا الى تحقيقها منـذ سميك موروجان المصلح •

وأخرج فيجايا من تحت مقعده صندوقا من الصفيح ، وكشف غطاءه ثم وزع دورة من ساندوتشات الجبن والأفوكاته • وبعد ذلك أدار محرك السيارة وبيد واحدة دفع العربة الصغيرة الى الطريق ، وكانت يده الأخرى مشغولة بالساندويتش وقال : يجب أن نأكل ونحن سائرون • ووجه الخطاب الى ويل قائلا له : غدا أطلعك على مناظر القرية ، وأطلعك على منظر آخر أروع منها ، هو منظر آسرتي وهي تتناول طعام الغداء • أما اليوم فعندنا موعد في الجبال •

ولما اقتربوا من مدخل القرية ساق عربة الجيب في طريق جانبي متعرج شديد الانحدار الى أعلى بين حقول الأرز والخضروات ذات المصاطب ، والتي تتخللها حدائق الفاكهة ، وتحوطها هنا وهناك مزارع من أشجار صغيرة قال الدكتور روبرت انها تعد لتمد مصانع الورق في شيفابورام بالمادة الخام •

واستوضحهم ويل سائلا : كم صحيفة تؤيدها الحكومة ؟ ودهش عندما عرف أنها صحيفة واحدة ، فسأل : من يحتكرها ؟ الحكومة ؟ الحزب الحاكم ؟ المندوب المحلي لجو الديهايد ؟

وأكد له الدكتور روبرت أنها ليست حكرا لأحد وأضاف قائلا : للصحيفة مجلس من المحررين الذين يمثلون ستة أحزاب ومصالح مختلفة • وكل محرر له مساحة من الصحيفة محددة ينشر فيها تعليقه ونقده ، بحيث يستطيع القارىء أن يوازن بين آرائهم ثم يكون له بعد ذلك رأيه الخاص • أذكر أنني صدمت صدمة شديدة عندما اطلعت لأول مرة على احدى

صحفكم واسعة الانتشار · عنـاوينها منحـازة ، والتقارير والتعليقات لاتمثل الا جانبا واحـدا باطراد ، والشـعارات والنداءات تحل محل الجدل والحجة · الصحيفة لاتناشد العقل بصفة جدية · بل على العكس من ذلك تلمس جهدا مطردا لبث ردود أفعال مشروطة فى عقول الناخبين ـ وما خلا ذلك أخبار عن الجرائم والطلاق والنوادر والهذر ـ أى شىء يصرف ذهن القارىء ، وأى شىء يحول دون التفكير ·

وواصلت العربة صعودها حتى بلغوا سلسلة من التلال تقع بين منخفضين منحدرين · وقد ظهرت فى قاع ممر ضيق الى يسارهم بحيرة تحف بها الأشجار ، وعلى يمينهم واد أكثر اتساعا يقع فيه مصنع ضخم بين قريتين تظللهما الأشجار يشبه فى تكوينه شكلا هندسيا غير منتظم ·

سأل ويل : مصنع أسمنت ؟

وأومأ الدكتور روبرت برأسه ايجابا وقال : الاسمنت صـناعة لا غنى عنهـا · ننتج منـه كل حاجتنـا وفائضـا للتصدير ·

ـ وتمده هاتان القريتان بالقوى العاملة ؟

ـ فى الفترات التى تتخلل الزراعة والعمل فى الغـابة ومصانع نشر الأخشاب ·

ـ وهل ينفع عندكم نظام العمل بعض الوقت ؟

ـ تتوقف الاجابة عن هـذا السؤال بمـا تعنيه بقولك (ينفع) · ان العمـل بعض الوقت لايؤدى الى أقصى حـد من الكفاءة · ولكن الكفاءة القصوى فى بالا ليست أمـرا يطلب

لذاته كما هى الحال عندكم • أنتم تفكرون أولا فى الحصول على أضخم انتاج ممكن فى اقصر وقت ممكن • ونحن نفكر أولا فى الكائنات البشرية وسد حاجاتها • وتنقل المرء بين المهن لايؤدى الى أضخم انتاج فى أقل الايام • ولكن أكثر الناس يؤثرون التنقل بين المهن على التزام عمل واحد طيلة الحياة • واذا خيرنا بين الكفاءة الآلية واشباع الرغبات البشرية آثرنا الثانية •

وتطوع فيجــايا بقوله : عنــدما كنت فى العشرين من عمرى كنت أعمل أربعة أشهر فى مصنع الاسمنت هذا ،وأقضى بعد ذلك عشرة أسابيع فى صناعة الفسفات الممتاز ، ثم ستة أشهر فى الغابة أقطع فيها الاخشاب •

ـ كنت تقوم بكل هذا العمل المضنى !

وقال الدكتور روبرت : قبــل ذلك بعشرين عاما قمت بعمل فى مصهر النحاس ، وبعــد ذلك حــلا لى أن أعمل فى البحر صائدا للاسماك فى أحد الزوارق • ان اختبار جميع أنواع العمل جزء من برنامج التعليم العام • الطــالب يتعلم كثيرا بهذه الطريقة ـ يعرف كثيرا من الأشياء ومن المهارات والتنظيمات ، وعن كل صنوف البشر وطرق تفكيرهم •

هز ويل رأســه وقال : ومع ذلك فأنى أوثر أن أستمد المعرفة من الكتب •

قال الدكتور روبرت : ولكن ما تحصل عليه من الكتاب ليس ذات الشىء • ثم أضــاف : كلكم فى أعمــاقكم لازلتم أفلاطونيين ، تعبدون الكلمة وتمقتون المادة !

قال ويل : قل ذلك لرجال الدين . انهم لايفتأون يقرعوننا لأننا ماديون غلاظ .

ووافقه الدكتور روبرت قائلا : نعم غلاظ ، ولكن غلظتكم ترجع الى انكم ماديون غير أكفاء . ماديتكم معنوية بأعترافكم . أما نحن فيهمنا أن تكون ماديتنا محسوسة . فنحن ماديون على المستوى اللالفظى بالرؤية واللمس والشم ، والعضلات المشدودة والأيدى المتسخة . المادية المعنوية كالمثالية المعنوية ، كلاهما يجعل التجربة الروحية المباشرة فى حكم المستحيل . واختبار صنوف العمل المختلفة بالمادية المحسوسة هو الخطوة الأولى التى لا غنى عنها فى تربية الفرد لبلوغ الروحانية المحسوسة .

وعقب على ذلك فيجايا بقوله : ولكن حتى أشد الماديات محسوسية لا تبلغ بك شأوا كبيرا الا اذا كنت على وعى تام بما تعمل وما تمارس . ولابد أن تكون مدركا تمام الادراك لجزئيات المادة التى تتناولها ، والمهارات التى تمارسها ، والأفراد الذين تعمل معهم .

قال الدكتور روبرت : هذا صحيح . وكان ينبغى أن أوضح أن المادية المحسوسة ان هى الا المادة الخامة للحياة الانسانية الكاملة . وبالوعى ، الوعى الكامل الدائم ، نحولها الى روحانية محسوسة . اذا كنت على وعى تام بما تفعل ، يصبح العمل هو يوجا العمل ، ويصبح اللعب يوجا اللعب ، وتصبح الحياة اليومية يوجا الحياة اليومية .

وتذكر ويل رانجا والممرضة الصغيرة وسأل : ومارأيكم فى الحب ؟

وأومأ الدكتور روبرت برأسه وقال : وهذا أيضا .

الوعى يغير طبيعته ، ويجعل ممارسة الحب يوجا ممارسة الحب ٠

وحاكى موروجان أمه عندما يصدمها الرأى ٠

وقال فيجايا وقد رفع صوته لكى يمكن الاستماع اليه وسط الخشخشة التى تحدثها العربة وهى تسير بأدنى سرعة لها عندما نقل محرك السرعة «ممارسة الحب وسيلة نفسية بدنية لبلوغ غاية تتجاوز الخبرة البشرية ، وذلك ــ أولا وقبل كل شيء ــ هو صميم كل أنواع اليوجا ٠ ولكن أنواع اليوجا كذلك شيء آخر غير هذا ٠ هى حيل للتعامل مع مشكلات السيطرة ٠ وأعاد العربة الى سرعة أكثر هدوءا وأخفض صوته الى نغمته الطبيعية وكرر قوله : «مشكلات السيطرة ، التى تقابلها على كل مستوى من مستويات النظم ــ كل مستوى، من الحكومات الوطنية الى الحضانات والعروسين فى شهر العسل ٠ لان الأمر لايقتصر على تصعيب الامور على كبار القادة ، فهناك الملايين من صغار المستبدين والذين يضطهدون غيرهم ، هناك كثيرون مثل هتلر وان كانوا صامتين ولايعلو لهم ذكر ، هناك من هم أمثال نابليون فى كل قرية ، وأمثال كالفن ، وتوركمادا (١) فى كل أسرة ٠ ولا أذكر قطاع الطرق والمتنمرين الذين بلغ بهم الغباء أن يصمهم المجتمع بالاجرام ٠ كيف تروض السطوة الكبرى التى تصدر عن أمثال هؤلاء وتجعلها تعمل بطريقة نافعة ــ أو على الأقل تحول دون أن تكون مصدرا للأذى ؟ »

---

(١) أحد أعضاء محاكم التفتيش فى أسبانيا عاش فى القرن الخامس عشر وعرف بقسوته الشديدة ــ المترجم

قال ويل : هـذا ما أريـدك أن تخبرنى به · من أين تبدأون ؟

أجاب فيجايا : نبدأ من كل جهة فى وقت واحد · ولكن حيث أن المرء لايستطيع أن يتحدث فى أكثر من موضوع واحد فى نفس الوقت ، دعنا نبدأ بالحديث عن السيطرة من ناحية التشريح ووظائف الاعضـاء · أرجـو يادكتور روبرت أن تحدثه عن تناولك للموضوع من ناحيته الكيماوية الحيوية ·

قال الدكتور روبرت : بدأت ذلك منذ نحو أربعين عاما عندما كنت أدرس الطب فى لندن · بدأت بزيارة السجون فى عطلات نهاية الاسبوع وقراءة التاريخ كلما خلوت فى المساء· وكرر قوله : التاريخ والسجون · ولقد كشفت عن العلاقة الوطيدة بينهما · سجل الجرائم والحماقات ومحن البشر (هكذا قال جيبون ، أليس كذلك ؟) والمكان الذى تؤول اليه الجرائم والحماقات التى لم تنجح لسوء حظ مرتكبيها بصـورة ما · طالعت الكتب وتحدثت الى السجناء ، ووجدتنى أسائل نفسى : أى صنوف البشر يصبح منحرفا خطرا ــ من كبار المنحرفين الذين ورد ذكرهم فى كتب التاريخ ، وصغارهم ؟ أى صنوف البشر تحركهم شهوة السلطة ، والميل الى التنمر والسيطرة ؟ والمستهترون من الرجال والنساء الذين يعـرفون مايريدون ولا توخزهم ضمائرهم اذا ألحقوا بغيرهم أذى أو قتلوهم فى سبيل تحقيق مايريدون ، والوحوش الذين يؤذون ويقتلون لا من أجل منفعة ، وبغير مبرر ، لان الايذاء والقتل من أسباب اللهو ــ من يكون هـؤلاء ؟ وكنت أناقش هـذه المسـائل مع الخبراء ــ من الاطبـاء وعلماء النفس · وعلماء الاجتماع ،

والمعلمين • ولقد انتهى عهد مانتيجازا وجولتون (١) ، وأكد لى الخبراء أن الاجابات الصحيحة لهذه الاسئلة لا تلتمس الا فى الثقافة والاقتصاد والأسرة • والأمـر كله يرجع الى الامهات وتربيتهن لأطفالهن ، يرجع الى التكييف فى سن مبكرة والى البيئات التى تصدم العواطف • الأمهات والتربية البـاكرة ومايحيط بالطفل من كلام فارغ ـ هذه كلها أمور هامة بشكل واضح • ولكن هل هى ذات الاهمية القصوى ؟ لقد بدأت ألمس أثنـاء زيارتى للسـجن أدلة على نوع من الانماط فى تكوين الافراد ـ أو على الاصح على نوعين من أنماط التكوين ، ذلك أن المنحـرفين الخطـرين ومثيرى الشغب من محبى السـلطة لاينتميان الى نوع واحد • أكثرهم ـ كما بدأت أن أدرك حتى فى ذلك الحين ـ ينتمى الىَ أحـد نـوعين متميزين مختلفين ـ فهناك (أصحاب العضلات) وهناك (أنماط بيتر بان) • وقد تخصصت فى النوع الثانى •

سـأل ويل : تقصـد الأولاد الذين لايخـرجون من دور الطفولة قط ؟

ـ (قط) تعبير غير صحيح • ففى الحياة الواقعية ينتهى بيتر بان دائما بالنمو • وان يكن نموه لايأتى الا متأخرا ـ ينمو فسيولوجيا بدرجة أبطأ من سنى حياته •

ـ وماذا عن بيتر بان من الفتيات ؟

ـ انهن نادرات • أما الفتيان فتبلغ كثرتهم مبلغ حبات العليق • من بين كل خمسة أو ستة أطفال من الذكور تجـد

---

(١) عالم انجليزى (١٨٢٢ ـ١٩١١) بحث فى أثر الـوراثة فى سلوك الأفراد ـ المترجم

بيتر بان • ومن بين الاطفـــال المشـكلين ، والاولاد الذين لايستطيعون القراءة، والذين لايقبلون التعلم ، ولا يصاحبون أحدا ، وأخـيرا يلجأون الى الانحـراف نحو أشـكال العنف المختلفة ، تجد من بين هؤلاء سبعة من كل عشرة ـــ اذا أنت أخذت أشعة سينية لعظـام المعصم ـــ من طـراز بيتربان • والباقون من (أصحاب العضلات) بشكل ما •

قال ويل : اننى أحاول أن أجـد مثالا تاريخيا حسـنا لبيتربان منحرف •

ـــ لاتمعن فى التفكير • ان أحدثهم ، وخير مثـال لهـذا الطراز وأضخم مثال ، ادولف هتلر •

قال موروجان : هتلر ؟ بنغمة المذهول • لان هتلر كان بالتأكيد أحد أبطاله •

قال الدكتور روبرت : اقرأ تاريخ حياة الفوهرر • لو كان هناك بيتر بان واحد لكان هو • فاشل فى المدرسة ، عاجز عن المنافسة والتعاون على حد سواء ، يحسد كل الأولاد الناجحين نجاحا طبيعيا ، يمقتهم لانه يحسدهم ، ولكى يرفع من معنويات نفسه يحتقرهم باعتبارهم كائنات أحط منه شأنا • ولما بلغ الحلم كان عاجزا جنسيا • كان غـيره من الأولاد يتقـدمون للبنات فيستجبن لهم • أما هو فقـد كان خجـولا ، شاكا فى رجولته • كان عاجزا دائمـا عن الاسـتمرار فى أى عمل ، ولا يطمئن الا فى عالم من الخيـال يخلقه لنفسه على سـبيل التعويض • عندئذ كان على الاقل مثل ميخائيل أنجلو ، ولكنه ـــ لسـوء الحظ ـــ لايسـتطيع الرسم • مواهبه الوحيدة هى الحقد ، والمكر الوضيع ، ومجموعة من الأحبال الصوتية التى

لا تكل وقدرة على الكلام بغير توقف بأعلى صـوته من أعماق جنونه بالعظمة الذى يماثل جنون بيتربان • ثلاثون أو أربعون مليـونا من البشر لاقـوا مصرعهم ، والله أعلم كم بليون من الدولارات ـ هذا هو الثمن الذى دفعـه العـالم نظير تخلف أدولف هتلر فى نضجه • ولحسن الحظ نجد أن أكثر الاولاد الذين يبلغون سن النضج ببطء شديد لاتتاح لهم فرصة لكى يكونوا شيئا أكثر من صغار المنحرفين • ولكن حتى هـؤلاء الصـغار ـ لو كثر عـددهم ـ يمكن أن يفرضوا علينا ثمنا باهظا • لذلك نحاول أن نكبتهم وهم فى دور البراعم ـ أو على الاصح ، مادمنا نتحدث عن طراز بيتربان ، نحاول أن نجعل براعمهم المكبوتة تتفتح وتنمو •

ـ وهل تنجحون ؟

أومأ الدكتور روبرت برأسه ايجابا وقال : ليس الأمر عسيرا ، وبخاصة اذا بدأت فى وقت مبـكر • اذا بلغ الطفل عندنا أربعة أعوام ونصف أو خمس سنوات نفحصـه فحصا شاملا • نجرى اختبارات معينـة لدمه ، ونخضعه لاختبارات سيكولوجية ، ونتعـرف على تكوينه البـدنى • ثم نصـور معاصمهم بالأشعة السينية ، ونرسم آدمغتهم ، وبذلك نتعرف على أدق دقائق خصائص بيتر بان ، ونبدأ فى علاجهم علاجا ملائما فورا • وبعد عام واحد يصبحون جميعا طبيعيين تماما • كم من بذور الفشل ، والاجرام ، والاستبداد ، والسادية (حب ايذاء الغير) ، وبغض البشر ، والثورة من أجل الثورة ، كم من المتصفين بهذه الرذائل حولناهم الى مواطنين يمكن حكمهم بغير عقوبة وبغير حد السيف • أما عندكم فالانحراف لايزال متروكا لرجال الدين والمشرفين الاجتماعيين ورجال الشرطة •

مواعظ لاتنتهى ، وعلاج نفسى ، وأحكام بالسجن لعدد من الناس لايحصى وما هى النتيجة ؟ ان نسبة الانحراف فى زيادة مطردة ، ولا عجب • ان الحديث عن التنافس بين الاخوة ، وعن الجحيم ، وشخصية يسوع لاتغنى عن الكيمياء الحيوية ، وسنة فى السجن لاتعالج بيتر بان من اضطرابات افرازات الغدد ولا تعين من كان بيتر بان على التخلص من النتائج النفسية • لان انحراف أمثال بيتربان لايحتاج سوى التشخيص المبكر وثلاث كبسولات قرنفلية يوميا قبل كل وجبة • واذا كانت البيئة محتملة كانت النتيجة تعقلا هادئا وشيئا من الفضائل الاساسية في خلال ثمانية عشر شهرا ، وكذلك بالتأكيد فرصة طيبة للاتصاف فى النهاية بالحكمة والرأفة ، بعد ماكان ذلك فى حكم المستحيل فيما سبق • والآن سوف يحدثك فيجايا عن (أصحاب العضلات) • ولعلك لاحظت أنه واحد منهم » • ثم انحنى الدكتور روبرت الى الامام وضرب على الكتف العريضة لهذا العملاق • وقال : لحمه كلحم البقر القوى • ومن حسن حظنا نحن أصحاب الاجسام الضعيفة أن الحيوان ليس متوحشا •

ورفع فيجايا احدى يديه عن عجلة القيادة ، وضرب بها صدره ،ورفع عقيرته فىزئير وحشىقائلا : لاتضايق الغوريلا • وضحك متفكها • ثم وجه خطابه الى ويل قائلا له : فكر فى الدكتاتور الكبير الآخر ، جوزيف فساريوفوفتش ستالين • ان هتلر هو خير مثال لانحراف بيتر بان • وستالين خير مثال لانحراف أصحاب العضلات • ان شكله فرض عليه أن يكون منبسطا ، لاكالمنبسطين اللينين الصرحاء الذين لايخفون ما فى

صدورهم ممن تعهدونهم ، من أولئك الذين يحبون التجمع بغير تمييز · لا · انه من أولئك المنبسطين الذين يدوسون غيرهم بالاقدام ويسوقونهم سوق الاغنام · انه من أولئك الذين تدفعهم طبائعهم دائما الى القيام بعمل ما ، لاتساوره قط الشكوك ، أو وخز الضمير ، أو العطف أو رقة الاحساس · وقد أوصى لينين خلفاءه أن يتخلصوا من ستالين : فلقد كان الرجل مغرما بالسلطة مستعدا لاساءة استخدامها الى أبعد الحدود ، ولكن نصيحة لينين جاءت متأخرة · اذ كان ستالين ثابتا الى حد يستحيل معه اخراجه · وبعد عشر سنوات أصبحت سلطته مطلقة · وكان تروتسكي قد سحق تماما كما أبعد كل أصدقائه القدامى · وأمسى كالاله تحف به الملائكة مسبحة بحمده ، منفردا فى سمائه الصغيرة الدافئة التى لايسكنها الا المنافقون والطائعون ، مشتغلا كل الوقت بلا هوادة يصفى الكولاك ، وينظم المزارع التعاونية ، ويبنى صناعة السلاح ، وينقل الملايين رغم ارادتهم من المزارع الى المصانع · يعمل بجد وكفاءة وذهن واضح مما يعجز عنه تماما بيتر بان الجرمانى بأوهامه الغامضة وحالاته العقلية المذبذبة · قارن بين استراتيجية ستالين واستراتيجية هتلر فى المرحلة الأخيرة من الحرب ، تجد الحساب الهادىء قائما الى جوار أحلام اليقظة التعويضية ، والواقعية الواضحة الى جانب الهراء الطنان الرنان الذى أخذ هتلر فى النهاية يكرره ويكرره حتى آمن به · هذان وحشان، كلاهما منحرف بدرجة متساوية ، ولكنهما مختلفان فى المزاج كل الاختلاف ، وفى الدافع اللاشعورى ، ثم فى الكفاءة · ان من هم على شاكلة بيتر بان يفلحون تماما فى اثارة الحروب والثورات ، ولكن أصحاب العضلات وحدهم

هم الذين يستطيعون أن يسيروا بهذه الحروب والثورات الى النتائج الناجحة ·

ثم غير فيجايا نغمته وأشار بيده نحو تل مرتفع تكسوه الاشجار يعترض مواصلة الصعود وقال : هذه هى الغابة ·

وبعد لحظة خرجوا من وهج التل المكشوف ودخلوا نفقا ضيقا من الشفق الذى تلونه خضرة الشجر يتلوى الى أعلى بين جدران من الخضرة الاستوائية · وتدلت النباتات المتسلقة من الأغصان التى ناءت بحملها · وبين جذوع الشجر كان ينمو الخنشار والخنجل ذو الأوراق الداكنة وسط الشجيرات والاعشاب الكثيفة التى لم يألفها ويل ولم يعرف أسماءها وهو يتلفت حواليه · وكان الجو رطبا خانقا تشم فيه رائحة لاذعة هى رائحة النباتات الغزيرة الخضراء ورائحة التعفن كذلك · ووسط أوراق النبات الكثيفة التى أحاطت بويل من كل جانب ، طرق اذنه وقع فؤوس من بعيد وصوت منشار يتكرر تكرارا ايقاعيا · وانحنى الطريق مرة أخرى وفجأة بدد ضوء الشمس ذلك الظلام الأخضر · فلقد بلغوا مكانا خاليا فى الغابة · كان هناك ستة من قاطعى الاخشاب قاماتهم مرتفعة وأكتافهم عريضة يكادون لايتسترون بثياب منشغلون بتشذيب الاغصان من شجرة سقطت لتوها · وفى ضوء الشمس شوهدت مئات من الفراشات ذات اللون الأزرق والارجوانى يطارد بعضها بعضا ، ترفرف بأجنحتها وتحلق راقصة حيثما اتفق الى ما لا نهاية · وفى الجانب الآخر من الارض الفضاء كان رجل عجوز الى جوار نار مشتعلة يقلب فى بطء شديد مايحتويه مرجل من الحديد · وقريبا منه غزال صغير

مستأنس ، دقيق الأطراف ، مرقش بصـورة جميلة ، يرعى العشب فى هدوء ·

قال فيجايا : أصدقائى الأعزاء · ثم صاح بكلمات بلغة أهل بالا ، ورد عليه قاطعو الأخشاب ملوحين بأيديهم · وبعدئذ انحنى الطريق انحناءة حادة نحو اليسار ، وأخذوا مرة أخرى يصعدون النفق المخضر بين الاشجار ·

وقال ويل وهم يتركون الأرض الفضـاء : حـدثنا عن أصحاب العضلات · هؤلاء أمثلة لهم رائعة حقا ·

قال فيجايا : ان هذا الطراز من التكوين البدنى يغرى صاحبه بصفة مستمرة · ومع ذلك فانى لم أقابل رجلا واحدا متنمرا ، أو محبا للسلطة بطبعه بصورة خطرة ، من بين هؤلاء الرجال جميعا ــ وقد عملت مع عشرات منهم ·

وقاطعه موروجان بازدراء قائلا : أى أنك تعنى أن تقول انه لايوجد هنا أحد ذو طموح ·

سأل ويل : وما سر ذلك ؟

ــ الأمر فى غاية البساطة بالنسبة لأمثال بيتر بان · اننا لا نتيح لهم فرصة لاستثارة شهوة السلطة عندهم · نحن نعالج انحرافهم قبل أن يستفحل · ولكن الأمر على خلاف ذلك مع أصحاب العضلات · انهم عندنا مثلما هم عندكم ذوو عضلات لاينطوون على أنفسهم، ويريدون أن يدوسوا غيرهم بالأقدام · لذلك يتحولون الى أمثال ستالين وديبا، أو على الأقل الى مستبدين فى أوطانهم · أولا : نظمنا الاجتماعية لا تتيح لهم الا قليلا من الفرص لكى يتنمروا على أفراد أسرهم · كما أن نظمنا السياسية تجعل من المستحيل عليهم أن يتسلطوا على نطـاق

واسع • ثانيا : نحن ندرب أصحاب العضلات على أن يكونوا حساسين وعلى وعى ، ونعلمهم أن يستمتعوا بالامور المادية فى الحياة اليومية • ومعنى ذلك أن البدائل تتوافر لهم دائما ــ بدائل عن حبهم للرياسة • وأخيرا نحن نعالج أصحاب هذا التكوين البدنى بكل صنوفه تقريبا ــ علاجا مباشرا • نشق لحب السلطة هذا قناة يتسرب منها ونغير اتجاهه ، نحوله من التسلط على البشر الى التسلط على الأشياء • نعطيهم كل صنوف العمل لكى يؤدونه ــ العمل الشاق والعمل العنيف الذى يدرب عضلاتهم ويشبع رغبتهم فى التسلط ــ لا يشبعها على حساب غيره ، وانما بطرق اما لا تضر واما تفيد فائدة ايجابية •

ــ ومن ثم كان هؤلاء الرجال الذين يستدعون الاعجاب يسقطون الاشجار بدلا من أن يسقطوا البشر ــ أليس كذلك ؟

ــ تماما • وبعد ما يستكفون من الغابات يتوجهون الى البحر ، أو يشغلون أيديهم بالتعدين ، أو يسترخون نسبيا بالعمل فى حقول الأرز •

وفجأة ضحك ويل فارنبى :

ــ ما الذى يضحكك ؟

ــ تذكرت أبى • ربما كان القليل من قطع الاشجار يجعل منه شخصا آخر وينقذ أسرته البائسة • ولكن لسوء الحظ أنه كان من الانجليز المهذبين الذين يستبعدون من حياتهم قطع الاخشاب بتاتا •

ــ أولم تكن لديه مخارج بدنية يصرف فيها طاقاته ؟

هز ويل رأسه قائلا : كان والدى انجليزيا مهذبا ، ويظن فوق ذلك أنه من المثقفين • والمثقف لايشغله صيد ولا قنص ولا يلعب الجولف • انه يكتفى بالتفكير والشراب • وكانت متعة أبى الى جـانب شرب البراندى أن يتنمر على غيره وأن يلعب البريدج ، ويهتم بالنظريات السياسية • كان يتصور نفسه صـورة فى القـرن العشرين للورد آكتـون (١) آخر الفلاسفة الليبراليين • كم كان يسرك أن تسمعه وهو يتحدث عن مظالم الدولة الحديثة القادرة على كل شىء ! كان يقول : السلطة تفسد ، والسلطة المطلقة تفسد فسادا مطلقا • نعم مطلقا • وبعد ما يردد هذه العبارة يشرب كأسا أخـرى من البراندى ثم يعود بحماسة شديدة الى ملهاته المحببة الى نفسه ـ الاستبداد بزوجته وأطفاله •

قال الدكتور روبرت : واذا كان آكتون نفسه لم يسلك هذا المسلك فانما كان ذلك لانه كان بالصـدفة رجـلا فاضلا وذكيا • لم يكن فى نظرياته ما يحـد من انحـراف صاحب العضلات أو ما يمنع بيتر بان ـ قبل أن يعالج ـ من أن يدوس أى فرد يقع فى متناول قدميه • تلك كانت نقطة الضعف عند آكتون • كان ـ ككاتب فى النظريات السياسية ـ يدعو الى الاعجاب • اما كعالم نفسانى عملى فقد كان لا يفقه شيئا • يبدو أنه كان يظن أن مشكلة السـلطة يمكن أن تحل بالنظم الاجتماعية الجيـدة التى تكملها ـ بطبيعة الحـال ـ قواعد الاخـلاق السليمة ، وشىء من الديانات المنزلة • فى حين أن مشكلة السلطة تمتد جذورها الى تشريح الجسم والى كيميائه

---

(١) اللورد آكتون (١٨٢٤ ـ ١٩٠٢) مؤرخ انجليزى حر المذهب وألف عدة كتب منها « تاريخ الحرية » ـ المترجم •

الحيوية ومزاجه • لابد من كبح السلطة على المستويين القضائى والسياسى • هذا أمر واضح • ولكن من الواضح أيضا أنه لابد من الوقاية على المستوى الفردى • وعلى مستوى الغريزة والعاطفة ،وعلى مستوى الغدد والامعاء، والعضلات والدماء• لو توافر لدى الوقت لكتبت رسالة عن وظائف أعضاء الانسان وعلاقتها بالاخلاق والدين والسياسة والقانون •

وردد بعده ويل كلمة (القانون) وقال : كنت على وشك أن أسألك عن القانون • هل أنتم فى غنى مطلق عن السلاح وعن العقوبة ؟ أم لازلتم فى حاجة الى القضاة ورجال الشرطة ؟

قال الدكتور روبرت : لازلنا فى حاجة اليهم ، ولكنا لسنا بحاجة مثلكم الى الكثيرين منهم • فأولا نحن بفضل الطب الوقائى والتربية الوقائية لانرتكب كثيرا من الجرائم • ثم ان معظم الجرائمالتى ترتكب نعالجهافى «نوادىالتبنى المتبادل» • علاج جماعى فى مجتمع يأخذ بنظام المسئولية المشتركة عن المنحرفين • وفى الحالات المستعصية نستكمل العلاج الجماعى بالعلاج الطبى وبفترة محددة من تعاطى عقار الموكشا ، بتوجيه من رجل على درجة نادرة من نفاذ البصيرة •

ـ وما دور القضاة ؟

ـ يستمع القاضى الى الأدلة ويقرر ان كان المتهم بريئا أو مذنبا ، فان كان مذنبا أمر بحجزه احتياطيا فى (نادى التبنى المتبادل) الذى ينتمى اليه ، واذا لزم الامر يتم حجزه لدى لجنة الخبراء الطبيين والمتصوفينالعارفين بأثر الفطريات• وفى فترات متفق عليها يرسل الخبراء كما يرسل نادى التبنى

المتبادل تقاريريهم الى القاضى • حتى اذا ماكانت التقارير مرضية انتهت القضية •

ـ واذا لم تكن مرضية أبدا ؟

قال الدكتور روبرت : انها دائما ترضى فى النهاية •

ثم سادت فترة من الصمت •

وفجأة سأل فيجايا : هل جربت تسلق الصخور ؟

ضحك ويل وقال : كيف تظنني أتيت بساقى العرجاء ؟

ـ هـذا تسلق أرغمت عليه ارغاما • ولكن هل مارست التسلق لهوا ؟

قال ويل : بقدر يكفى لان يقنعنى بأننى لا أحسنه •

واتجه فيجايا ببصره نحو موروجان وسأله : وماذا حدث لك عندما كنت فى سويسره ؟

واحمر وجه الصبى خجلا وهز رأسه وتمتم قائلا : لايستطيع المرء أن يمارس هذه الاشياء وعنده استعداد للسل •

قال فيجايا : ياللأسف ! ان التسلق كان ينفعك كثيرا •

وسأل ويل : وهل يقوم الناس فى هذه الجبال بقدر كبير من التسلق ؟

ـ التسلق جزء لايتجزأ من منهج الدراسة •

ـ لكل فرد ؟

ـ قليل منه لكل فرد • ولأصحاب العضلات الأقوياء

مستوى أعلى من تسلق الصخور ـ وهؤلاء يبلغون نحو واحد من كل اثنى عشر من البنين ، وواحدة من كل سبع وعشرين من البنات • ونحن نتوقع أن نرى قريبا بعض الشبان الذين يقومون بالتسلق لأول مرة على مستوى أعلى من المستوى الابتدائى •

واتسع النفق الأخضر ، وأشرقت فيه الأضواء ، وفجأة وجدوا أنفسهم خارج الغابة الرطبة وعلى طبقة صخرية مسطحة تكاد تستوى مع الأرض ، تحوطها من ثلاث نواح صخور حمراء يبلغ ارتفاعها أكثر من ألفى قدم على شكل ذرى ناتئة وقمم منعزلة •وكان الهواءمنعشا . وعندما انتقلوا من ضوء الشمس الى ظل جزيرة عائمة من الركام ، أصبح الجو باردا تقريبا • وانحنى الدكتور روبرت الى الأمام وأشار من خلال زجاج السيارة الى مجموعة من المبانى البيضاء فوق مرتفع صغير على مقربة من مركز الهضبة •

وقال : هذه محطة المرتفع العالى • انها تعلو سبعة آلاف قدما ، وتبلغ مساحة الأرض المستوية الجيدة فيها أكثر من خمسة آلاف فدانا • حيث نستطيع أن نقوم بزراعة أى شىء مما يزرع فى جنوب اوربا • قمح وشعير ، والفاصوليا الخضراء والكرنب ، والخس والطماطم (وهذه الفاكهة لاتصلح حيث تصل درجة الحرارة ليلا أكثر من ثمان وستين درجة) • وعنب الثعلب ، والفراولة ، والجوز والبرقوق الأخضر ، والخوخ والمشمش • وكذلك كل النباتات القيمة التى تصلح زراعتها فوق الجبال العالية التى فى مثل هذا الارتفاع ـ بما فيها الفطر التى يعترض عليها صديقنا الصغير هذا بشدة •

وسأل ويل : وهل هذا هو المكان الذى نقصده ؟

قال الدكتور روبرت مشيرا الى آخر موقع من سلسلة الجبال ، وهو عبارة عن حافة من الصخر الأحمر الداكن تنحدر منها الأرض من احدى نواحيها نحو الغابة ، وترتفع ارتفاعا عموديا من ناحية ثانية نحو قمة مختفية فى السحب المتراكمة ، قال : لا ، نحن نقصد مكانا أكثر ارتفاعا • نقصد معبد شيفا (١) الذى يؤمه الحجاج فى الاعتدالين ، الربيع والخريف • وهو من أحب الأمكنة الى نفسى فى الجزيرة كلها • وعندما كان الأطفال صغارا اعتدت أنا ولاكشمى أن نقوم برحلات الى هناك تقريبا كل اسبوع • كان ذلك منذ عهد بعيد ! وظهرت فى صوته رنة الأسى • ثم تنهد ، وسند ظهره على مقعده وأغلق عينيه •

وابتعدوا عن الطريق المؤدية الى محطة المرتفع العالى وعادوا الى التسلق •

قال فيجايا : هذه هى المرحلة الأخيرة من الرحلة ، وهى أسوأ المراحل ، نقطع سبعة منعطفات حادة ونفقا خانقا يبلغ طوله نصف ميل •

وساق العربة بأدنى سرعة لها فأصبح الحديث مستحيلا • وأخيرا بلغوا نهاية المطاف بعد عشر دقائق •

---

(١) شيفا فى الهندوكية هو الآله الذى يدمر لكى يمهد الطريق لبراهما الذى يبنى - المترجم •

أخذ ويل يحرك ساقه العرجاء فى حذر شديد ، وأخيرا خرج من العربة وتلفت حواليه • وقد بدت فيما بين التلال المرتفعة الحمراء الواقعة الى الجنوب والمنحدرات الرأسية فى كل اتجاه قمة التل التى سويت على مستوى مسطح ، ووسط هذا المسطح الضيق المستطيل قام المعبد ــ وهــو عبــارة عن برج ضخم أحمر مشيد من نفس مادة الجبال ، ككتلة واحــدة ، له أربعة جوانب رأسية • وظهر المعبــد بالمقارنة مع الصــخور شيئا شيئا متماثلا منتظما ليس كما تنتظم أشــكال اقليدس المجردة ، ولكن كما تنتظم الاشــكال الهندســية الواقعية فى الحياة • نعم ، هو شيء حى ، لأن جميع أسطح المعابد الفاخرة المســتوية ، وكل مايحدها يتقوس الى الداخل تقوسا عضويا ، ويستدق كلما ارتفع نحو حلقة من المرمر ، يتضخم فى أعلاها حجر أحمر أشــبه بغلاف البذرة فى شــجرة مزهرة ، حتى يتسطح ثانية فى شكل قبة متعددة الأضلاع تتوج البناء كله •

قال الدكتور روبرت : شيد قبل الغزو النورماندى بنحو خمسين عاما •

وعقب على ذلك ويل بقوله : ويبدو كأنه ليس من بناء البشر ، وكأنه برز تلقائيا من بين الصخور • وقد نبت كما ينبت الصبار عندما يتفتح ويرتفع كالصاروخ على شكل ساق نباتية طولها اثنتا عشرة قدما تنتهى بالأزهار المتفجرة •

قال فيجــايا وقد لمس ذراعه : انظر ، هــذه جماعة من المبتدئين هابطة ٠

وشخص ويل ببصره نحو الجبل ووقعت عيناه على شاب فى قدميه حذاء بالمســامير يرتدى ملابس التســلق ويجاهد فى هبوطه متشبثا بشق الجبل يواجه التل الذى ينحدر انحــدارا رأسيا ٠ وعند البقعة التى تهيىء موطئا آمنــا توقف ورمى رأسه الى الخلف وصاح بصوت متصاعد فى قوته ٠ وكان هناك فتى يعلوه بخمسين قدما ظهر من خلف دعامة صخرية ، وقد تدلى من الافــريز الذى كان يقف فــوقه وشرع فى هبــوطه متشبثا بالشق الجبلى ٠

والتفت فيجايا ، الى موروجان وسأله : هل يغريك هذا ؟

هز موروجان كتفيه وقد بالغ فى ظهــوره بمظهر الرجل الرشيد المتطور الذى يشغل نفسه بشىء أفضل من مشــاهدة الاطفال وهم يلعبون ، وقال : «بتاتا» وابتعد ثم جلس فوق تمثال سبع انطمست معالمه من أثر الجو ، واستل من جيبه مجلة أمريكية مجلدة تجليدا مزركشا وشرع يقرأ ٠

سأله فيجايا : ماذا تقرأ ؟

قال : رواية علمية وفى صوته رنة التحدى ٠

ضــحك الدكتــور روبرت وقال : أى شىء يفــر به من الواقع ٠

وزعم مــوروجان أنه لم يســتمع اليه وقلب صفحة من المجلة وواصل القراءة ٠

وقال فيجايا الذى كان يتابع تقــدم الصــبى الذى كان

يهبط من الجبل «انه فى غاية المهارة» ثم أضاف «عند طرفى الجبل رجلان محنكان • ولايمكنك آن ترى أولهما ، فهو خلف هذه الدعامة يتشبث بشق جبلى آخر على ارتفـاع ثلاثين أو أربعين قدما • وفى أعلى شوكة حـديدية ثابتة يلتف حـولها الحبل • ويمكن أن تسقط المجمـوعة كلهـا وهى فى منتهى الأمان •

وعلى جانبى الشق الضيق أخذ قائد المجمـوعة يصـيح بتعليماته ويشجع المتسلقين وقد بسط ذراعيـه ورجليه بين مواقع الاقدام • ولما اقترب الصبى تخـلى عن مكانه وهبط عشرين قدما أخرى ثم توقف وصاح مرة أخرى • ومن خلف النتوء الجبلى ظهرت فتاة فى حذاء طـويل وسروال ، فارعة الطول شعرها مضفور ، وقد هبطت الى شق الجبل •

قال فيجايا مهللا لها وهو يرقبها : رائع !

وفى أثناء ذلك جاءت مجمـوعة من الشـباب مستطلعة مايجرى ، وقد خرجت من مبنى منخفض عند سفح التل ، وهذا المبنى المنخفض يمثل كما بدا أكواخ جبال الألب ولكن بمـا يتفق ومناخ المناطق الاستوائية • وتنتمى هذه المجموعة ــ كما قيل لويل ــ الى ثـلاث فرق أخـرى من المتسلقين الذين أدوا اختبـار المرحلة الثانية بعـد المرحلة الابتدائية فى باكورة اليوم •

سأل ويل : هل يفوز بالجائزة أحسن الفرق ؟

وأجابه فيجايا : انهم لايمنحون هنا شيئا لأى انسان • فهى ليست مسابقة ، انما هى محنة يجتازونها •

وأخذ الدكتور روبرت يشرح قائلا : وهى محنة تمثل المرحلة الأولى من خروجهم من دور الطفولة الى دور المراهقة • محنة تساعدهم على فهم العالم الذى لابد لهم من العيش فيه ، وتساعدهم على التحقق من أن الموت يحيط بهم من كل جانب، وأن الوجود كله محفوف بالمخـاطر • ولكن الرؤيا الصحيحة تأتى بعد الامتحان • وبعد بضع دقائق يتناول هؤلاء الفتية والفتيات عقار الموكشا لأول مرة • يتناولونه معا ، ويقام فى المعبد حفل دينى •

ـ شيء أشبه بصلاة التعميد ؟

ـ غير آن هذا الحفل ليس مجرد حركات دينية لا معنى لها • انه ـ بفضل عقار الموكشـا ـ يتضمن ممارسة فعلية للشيء الواقعى •

هز ويل رأسه وقال : الشيء الواقعى ؟ هل هنـاك شيء كهذا ؟ وددت لو أننى صدقته •

قال الدكتور روبرت : لايطلب اليك أن تصدق • فالشيء الواقعى ليس افتراضا ، انما هو حالة من حالات الوجود • اننا لانعلم آطفالنا المذاهب ولا ننشئهم على رمـوز مشـحونة بالانفعالات • عنـدما يحـل الوقت الذى يتعلمون فيه أعمق حقائق الدين ، ندفعهم الى تسلق الجروف ثم نناولهم أربعمائة مليجرام من الرؤيا • وهاتان تجربتان مباشرتان يستطيع أى فتى أو فتاة على قدر معقول من الذكاء أن يستمد منهما فكرة طيبة عن حقائق الأشياء •

قال فيجايا : ولا تنس المشكلة القديمة الأولى ـ مشكلة

التسلط • ان تسلق الصـــخور فرع من فروع علم الاخـــلاق التطبيقى • وهو بديل آخر عن سلوك المتنمرين •

ــ اذن كان يلزم أبى أن يكون من متسلقى الجبـــال كما يلزمه أن يكون من قاطعى الأخشاب •

قال فيجايا وقد ضحك من أعماقه : قد يضحكك ماأقول، ولكن الحقيقة هى أن أمثال هذه التجارب تأتى بنتائج طيبة ، وتفلح • ولقد استطعت بالتسلق أولا وآخـــرا أن أنجـــو من عشرات من أسباب الاغراء الفعليةلكى ألقى بثقلى على ماحولى، ثم أضاف : ولما كان ثقلى له وزنه فقد كانت أسباب الاغـــراء شديدة لتتناسب معه •

قال ويل : يبدو أن هناك صعوبة واحدة • ذلك أنك وأنت تتسلق لكى تنجو من الاغراء قد تسقط و ••» وفجأة تذكر ماحدث لديوجولد ماك فيل فلم يتم الكلام •

وأتم الدكتور روبرت عبـــارته فقـــال فى أناة : وتقتل نفسك • ولكن ديوجولد كان يتسلق وحده • وبعد فترة قصيرة من الصمت واصل حديثه قائلا «ولايعرف أحد ماحدث ، ولم نعثر على جثته الا فى اليوم التالى» • ثم سادت فترة طويلة من الصمت •

سأل ويل ، وقد أشار بعصـــاه الخيزرانية الى الاجســـام الصغيرة التى تزحف جاهدة فوق سطح تلك البقعة الرأسية من الأرض الجرداء التى لايكبسوها شىء غير الصخور ، «هل لازلت تعتقد أنها فكرة حسنة ؟ »

قال الدكتـــور روبرت : نعم لازلت أعتقـــد أنهـــا فكرة حسنة •

ــ ولكن سوزيلا المسكينة ...

وكرر الدكتــور روبرت القول بعــده : نعم ســوزيلا المسكينة ، والاطفال المساكين ، ولاكشــمى المســكينة ، وأنا المسكين . ولكن اذا كان ديوجولد لم يعتد المخاطرة بحيــاته فربما صار كل امرىء مسكينا لأسباب أخرى . ومن الأفضل أن تتعرض لخطر قتل النفس بدلا من أن تعرض حياة الآخرين للخطر ، أو أن تجعلهم من البائسين على الأقل . تؤذيهم لانك بطبعك عدوانى ، أشد حــذرا أو أكثر جهــلا من أن تصب عدوانك على الصخور المرتفعة» . وواصل حديثه بنغمة أخرى قائلا : والآن أريد أن أطلعك على المنظر .

وانطلق فيجايا نحو المجمــوعة التى كانت عنــد سفح الصخور الحمراء وقال : أما أنا فسوف أذهب الى هؤلاء الفتية والفتيات وأتحدث اليهم .

وســار ويل فى اثر الدكتــور روبرت مخلفــا وراءه موروجان يقرأ (الرواية العلمية) . وشقا طريقهما خلال باب يقوم على أعمدة وعبرا الرصيف الصــخرى العــريض الذى يحيط بالمعبــد . وفوق ركن من أركان هــذا الرصيف كانت هناك مقصورة ضيقة تعلوها قبة . ودخلاها وسارا نحو نافذة عريضة بغير زجاج ونظرا من خلالها فظهر لهما البحر مرتفعا عند خط الآفق يشبه جدارا صلبا من اليشم واللازورد وفى أسفل ، وعلى مسقط ارتفاعه ألف قدم بدت خضرة الغــابة ، وظهرت المنحدرات الواطئة متصلة بواد فسيح تمتد عند حافته البعيدة بين حدائق السوق وساحل البحر الذى تحفه أشجار النخيل مدينة كبيرة ، وتقع هذه المنحدرات خلف الغابة ملتوية التواء رأسيا فى شكل أودية صغيرة ونتوءات صخرية ، وتمتد

أفقيا حتى تصل الى درج ضخم من صنع الانسان ، درج من حقول لاتحصى • ومن هذا الموقع المرتفع بدت المدينـة كلها مشرقة ، تشبه صورة زيتية صغيرة رسمت بدقة مما يجده المرء فى كتب العصور الوسطى •

قال الدكتور روبرت : هذه هى شـيفابورام • ومجمع المبانى هذا الذى تراه فوق التل وراء النهـر هو معبد بوذا العظيم • بنى قبل بوروبودور (١) بقليل ، وهـو فى جمال نحته يشبه أى مبنى فى الهند القديمة » • وسادت فترة من الصمت استأنف الحديث بعدها قائلا : وفى هذا البيت الصيفى الصـغير اعتـدنا أن نتنـاول وجباتنا الخفيفة كلما أمطرت السماء • لن أنسى أبدا ذلك الوقت الذى كان ديوجولد يلهو فيه بالتسلق فوق افريز النافذة وهو واقف على ساق واحدة فى وضع شيفا وهو يرقص (وكان حينئذ فى نحو العاشرة من عمره) • مسكينة لاكشمى ، كاد عندئذ يطير صوابها • ولكن ديوجولد كان منذ مولده كأنه أحـد المشتغلين بترميم أبراج الكنائس وتسلقها • مما يجعل الحادث أكثر ابهاما وغموضا»• وهز رأسه وصمت قليلا مرة أخرى ثم قال : آخـر مرة أتينا فيها الى هنا كانت منذ ثمانية أو تسعة أشهر • وكان ديوجولد لايزال على قيد الحيـاة ، ولاكشما لم تبلغ من الضعف بعـد مايمنعها من الخروج مع أحفادها يوما كاملا • وقد قام بهـذا العمل البهلوانى يقلد به شيفا لمصلحة توم كريشنا ومارى ساروجينى • وقف على ساق واحدة ، وأخذ يلوح بيديه بسرعة عجيبة تجعل الرائى يقسم أنه يحرك أربع أذرع • وهنا توقف

(١) أثر بوذى قديم فى أندونيسيا يشبه الهرم شـيد فى القرن الثامن أو التاسع ـ المترجم •

الدكتور روبرت عن الكلام ، والتقط من الأرض شريحة من الملاط ، وقذف بها من النافذة • وقال الى أسفل ، وأسفل ، وأسفل ـ هنا فضاء وفراغ • أليس من العجب أن يكون هذا أقوى رمز للموت وأقوى رمز في الوقت عينه لأكمل حياة وأغناها • وأشرق وجهه فجأة وقال : هل ترى هذا الصقر ؟

ـ صقر ؟

أشار الدكتور روبرت الى مكان يقع وسطا بين وكر الصقور فوق التل والظلام الذى يعلو الغابة حيث شاهد تمثالا مجسما صغيرا بني اللون يمثل السرعة والنهب يتحرك وئيدا بأجنحة لاحراك فيها ، وقال «هذا يذكرني بقصيدة نظمها راجا العجوز عن هذا المكان» وصمت لحظة وأخذ ينشد :

هنا

هنا فوق هذا المرتفع
حيث يرقص شيفا محلقا فوق دنيانا
هنا تسألني
ماذا بربك تظن انك فاعل ؟
لا جواب على سؤالك ياصاح ـ
ما خلا الصقر من تحتنا يدور
وتلك الطيور السوداء تنطلق
في اثر خيوط فضية تمتد في الهواء ـ
تصيح صياحا حاد النغم
تقول ما أبعدها عن وادينا الحار

وتقول لائما ما أبعدها عن قومى !

ومع ذلك ما أقربها !

هنا بين السماء ذات الغيوم

والبحر من تحتنا

أنفذ الى سرها المضىء

كما أنفذ الى سريرتى

يشرقان بغتة فى نظرى ٠

ــ وأظن أن السر هو هذا الفضاء الخالى ٠

ــ أو على الأصح هو مايرمز اليه هــذا الفضاء الخالى ٠ طبيعة بوذا فى فنائنا الابدى ٠ ان هذا يذكرنى ٠٠ ونظر الى ساعته ٠

ولما خرجوا الى وضح النهار سأل ويل : ماذا يأتى بعد ذلك فى البرنامج ؟

أجابه الدكتور روبرت : الصــلاة فى المعبد ٠ وســوف يقدم المتسلقون الصغار ما أنجزوا الى شيفا ــ أو بعبارة أخرى الى صورتهم المثالية التى يؤلهونها ٠ وبعد ذلك يؤدون الجزء الثانى من شعائر العضوية ــ أقصــد تجــربة تحــررهم من أنفسهم ٠

ــ وهل يكون ذلك بتعاطيهم عقار الموكشا ؟

وأومأ الدكتور روبرت برأسه ايجــابا وقال : ان قادتهم يعطونه لهم قبل أن يتركوا كوخ جمعية المتسلقين ٠ ثم يأتون الىالمعبد ،ويفعل العقار فعلهأثناء الصلاة ٠ثم أضاف :وبهذه المناسبة أقول لك ان الصــلاة بالسنسيكريتية ، ولذلك فلن

تفهم منها كلمة واحدة • أما فيجايا فسوف يخطب بالانجليزية ــ وهو يتكلم بوصفه رئيس جمعية المتسلقين • وكذلك سوف أتحدث أنا بالانجليزية • وبطبيعة الحال سوف يتكلم الشباب كذلك فى أغلب الاحيان بالانجليزية •

المعبد من الداخل رطب مظلم ظلام الكهوف • لايخفف من عتمته الا خيط رفيع من ضوء النهار يتسلل من خلال نافذتين مشبكتين ، وسبعة مصابيح تتدلى ، كأنهـا هالة من النجـوم الصفراء المتلألئة ، من فوق رأس التمثال الذى يعتلى المذبح • والتمثال لشيفا وهو من النحاس ولايزيد ارتفاعه عن طول الطفل • وحول التمثال هالة مشتعلة من المجد • وهو يشير بأربع أذرع ، وشعره المضفور يتطاير بشدة • وقدمه اليمنى تدوس فوق تمثال قزم مقيت أشـد مايكون كآبة ، وقـدمه اليسرى مرفوعة برشاقة ــ بهذه الصورة يقف التمثال جامدا منتشيا • وقد جلس فوق الأرض نحو عشرين فردا من البنين والبنات ومعهم الشبان الستة الذين كانوا يرشـدونهم أثناء التسلق ويصدرون اليهم التعليمات ، وكلهم يضع ساقا فوق ساق • ولم يكن الصـغار فى مـلابس التسلق ، بل ينتعلون الصنادل ، عراة الصـدور ، يرتدون سراويل قصيرة زاهية الالوان • ويعلو هذه المجموعة ، فوق أعلى درجة من درجات المذبح ، شوهد كاهن عجوز ، حليق الرأس والوجه ، يرتدى عباءة صفراء ، ويرتل كلاما رنانا غير مفهـوم • وقد سار الدكتور روبرت على أطراف أصابع قدميه متجها نحو المكان الذى كان يجلس فيه فيجايا وموروجان وجلس القرفصاء الى جوارهما ، تاركا ويل مستندا الى قاعدة مريحة •

كان الكاهن يدمدم دمدمة رائعة بالسنسيكريتيه أولا ،

ثم أخذ بعد ذلك ينشد وهو يخنف بأنفه ، وراح بعد النشيد يجأر بابتهالات كهنوتية يرددها بعده المصلون ·

وأحرق البخور فى آنية من النحاس الأصفر ، ثم رفع الكاهن العجوز يديه ليصمت الحاضرون ، وعندئذ صعد خيط من دخان البخور الرمادى فى خط مستقيم متجها نحو الاله فى غضون فترة طويلة حافلة بالتأمل يسودها الصمت المطلق · وعندما التقى الدخان بتيار الهواء المندفع من النافذتين انتشر على شكل سحابة غير مرئية تملأ ظلام المكان بعبق عجيب من عالم آخر · وفتح ويل عينيه ورأى أن موروجان وحده من جميع المصلين يتململ فى حالة من القلق · يتحرك حركات عصبية وتبدو على قسمات وجهه علامات الاستنكار وفقدان الصبر · انه لم يقم قط بالتسلق ، ولذلك فالتسلق فى نظره سخف · وقد رفض أن يتعاطى عقار الموكشا ، ولذلك فأولئك الذين يتعاطونه يتجاوزون حدود العقل ، وكانت أمه تعتقد فى الاسياد الصاعدين الى السماء وتخاطب كوت هومى بانتظام ، واذن فتمثال شيفا وثن مبتذل · وكان الصبى فى عين ويل كالممثل الصامت الذى يعبر بالاشارة · ولكن أحدا لم يعر أدنى التفاتة الى سلوك موروجان لسوء حظه ·

وشق الكاهن العجوز السكون الذى طال وقال : شيفايا ناما ، شيفايا ناما ، وأشار بيده ·

فنهضت من مكانها تلك الفتاة الطويلة التى كان ويل قد رآها وهى تهبط من التل المرتفع وصعدت درجات المذبح · ووقفت على أطراف أصابع قدميها وجسدها يلمع وكأنها تمثال نحاسى آخر فى ضوء المصابيح · وعلقت باقة من زهور فاتحة صفراء فى أعلى ذراعى شيفا اليسريين ، ثم ضمت

راحتيها وتطلعت الى وجه الاله الباسم الهادىء ، وبدأت تتكلم بصوت متهدج فى أول الأمـــر ، ولكنه أخـــذ يثبت ويستقيم تدريجيا ٠

أيها الخالق ، أيها المدمر
يامن تطيل العمر كما تنهى الحياة
يامن ترقص فى ضوء الشمس بين الطيور
ومع الاطفال وهم يلعبون
ويا من ترقص فى ظلمة الليل
بين جثث الموتى وفوق الأرض المحترقة
أى شيفا ، أنت بيرافا المريع المظلم
أنت الصورة المثلى ، وأنت الوهم
أنت لاشىء ، وأنت كل شىء
أنت رب الحياة
ولذا جئت اليك بهذه الزهور
أنت رب الموت
ولذا جئت اليك بقلبى ــ
هذا القلب هو الآن أرضك المحترقة ٠
نارك سوف تلتهم الجهل والنفس ٠
لكى ترقص أى بيرافا بين الرماد
ولكى ترقص ياسيدى شيفا
فى مكان تنمو فيه الزهور
وأرقص معك ٠

ورفعت الفتـــاة ذراعيهـــا ولوحت بهما باشـــارة تذكر بالاخلاص القلبى من مائة جيل من المتعبدين الراقصين ٠ ثم ابتعدت وعادت الىضوء الشفق ٠وصاح صائح : شيفايايناما٠

وشخر موروجان مستهزئا عندما رددت أصوات شابة أخرى «شيفايانامـا ، شيفايانامـا ٠٠» ٠ وأخذ الكاهن يرتل مقطوعة أخرى من كتابه المقدس ٠ وبينما هو يرتل دخـل المعبد من احدى النافذتين المشـبكتين طائر صـغير رمادى اللون رأسه قرمزى ، ورفرف بجناحيه بعنف حول مصابيح المذبح ، ثم صاح صيحة عالية تنم عن السخط والفزع ، انطلق بعـدها خارج المعبد ثانية ٠ واستمر النشيد حتى بلغ ذروته وانتهى بصلاة هامسة من أجل السلام : «شانتى ، شانتى ، شانتى» ٠ واتجه الكاهن العجوز بعد ذلك نحـو المذبح ، والتقط شمعة طويلة ، وأشعلها من أحد المصـابيح المعلقة فوق رأس شيفا وشرع فى اضاءة سبعة مصابيح أخرى معلقة فى كوة عميقة فى أسفل اللوح الذى كانت تقف فوقه الراقصة ٠ وألقت هذه المصابيح ضوءها فوق قطع محدبة من المعدن ، وأظهر ضوءها تمثالا آخر ــ هو تمثال شيفا وبرفاتى ، تمثال يوجين جالسا ، يرفع بيدين من أيديه الاربع رمز الطبلة والنار ، ويربت باليدين الأخريين آلهة الحب ، ذاتالساقين والذراعين الملتوية ، وكانت تمتطيه ، متعانقين عناقا أبديا بجسديهما المصنوعين من البرنز ٠ ولوح الكاهن العجوز بيده ٠ وظهر هـذه المرة صبى ذو بشرة قاتمة قوى العضـلات وأخـذ يخطو فى ضوء المصابيح ٠ وانحنى الصبى وعلق باقة الزهر التى كان يحملها حول رقبة بارفاتى ، ثم لف سلسلة الزهور الطويلة وأسقط عقدة أخرى من نبات السحلبية البيضاء فوق رأس شيفا ٠

وقال : كل منهما يمثل كليهما ٠

وكررت جوقة الصغار بعده : كل منهما يمثل كليهما ٠

وهز موروجان رأسه بشدة

وقال الصبى صاحب البشرة القاتمة : أيها الذاهبون ، أنتم أيها الذاهبون الى الشاطىء الآخر ، يامن ألقيتم مراسيكم فوق الشاطىء الآخر ، أيتها الاستنارة والاستنارة الاخرى ، أيها التحرر الذى اتحد مع التحرر ، أيتها الرأفة بين ذراعى الرأفة اللامتناهية ·

ـ شيفايا ناما ·

ثم عاد الى مكانه · وسادت فترة طويلة من الصمت · وبعدئذ نهض فيجايا على قدميه وبدأ يتكلم ·

قال : الخطر ، الخطر · الخطر الذى نتقبله راضين متخففين · الخطر تقاسمه صديقا ، أو مجموعة أصدقاء · تقاسمه شعوريا ، وبأقصى حدود الوعى حتى يصبح الاقتسام والخطر يوجا · صديقان يربطهما حبل فى جبهة صخرية · وأحيانا ثلاثة أصدقاء أو أربعة · كل منهم على وعى تام بعضلاته المشدودة ، وبمهارته ، ومخاوفه ، وروحه التى يجاوز بها حدود الخوف · وكل منهم ـ بطبيعة الحال ـ على وعى فى نفس الوقت بالآخرين جميعا ، مهتم بهم ، يفعل الصواب لكى يطمئن على سلامتهم · الحياة فى قمة توترها البدنى والعقلى ، الحياة الأوفر ، والأعلى بدرجة لاتقدر بسبب خطر الموت الماثل فى كل حين · ولكن بعد يوجا الخطر هناك يوجا الذروة ، يوجا الراحة والاسترخاء ، يوجا التقبل الكامل الشامل · اليوجا التى تكمن فى القبول الشعورى لما يعطى كما يعطى ، دون رقابة من أحكام العقل الخلقية ، العقل المشغول بشىء آخر ، وبغير اضافة مما جمعه الانسان من أفكار مبتذلة ، وما جمعه بصورة أضخم من أوهام التمنى · ما عليك الا أن تجلس بعضلات مرتخية وعقل متفتح لضوء الشمس وللسحب ،

متفتح للبعيد وللأفق ، متفتح فى النهاية لذلك الشيء الذى ليس بالفكر والذى لا شكل له ولا يعبر عنه بالكلمات ، هذا الشيء الذى يسمح لك سكون القمة بأن تبلغ به المقدس والعميق والدائم فى غضون تيار اللغو الذى يسبح فيه التفكير اليومى المعتاد ·

ـ والآن حان الوقت للهبوط ، لدورة أخرى من يوجا الخطر ، حان الوقت لتجديد التوتر والوعى بالحياة فى كمالها المشرق وأنتم تتعلقون بحافة الهاوية مخاطرين بأنفسكم · وعند سفح التل المرتفع تفكون الوثاق ، وتخطون فوق الممرات الصخرية صوب الاشجار الأولى · وبغتة تجدون أنفسكم فى الغابة ، حيث ينتظركم نوع آخر من اليوجا ، يوجا الغابة ، وهى اليوجا التى تتصف بكونكم على وعى تام بالحياة عند حافتها ، حياة الغابة بكل مافيها من ازدهار وعفن ، وفساد يزحف ، بكل مافيها من نبات السحلبية وأمهات الأربع والأربعين ، وطفيليات وطيور مغردة ، وما يشرب الرحيق الإلهى ومايشرب الدماء · الحياة التى تخرج النظام من الفوضى والقبح ، الحياة التى تؤدى معجزة الميلاد والنمو · تؤديهما ـ فيما يبدو ـ لغير ما سبب غير أن تدمر نفسها · الجمال والفزع ، ومرة أخرى أقول الجمال والفزع · وبغتة وأنتم قافلون من احدى رحلاتكم بالجبال ، بغتة تعلمون أن هناك توافقا ، بل اندماجا ، وهوية واحدة · الجمال يتحد مع الفزع فى يوجا الغابة · والحياة فى وفاق مع الموت المستمر القريب فى يوجا الخطر · الفراغ يتطابق مع الانانية فى يوجا المعطلة الدينية التى فوق الذروة (١) ·

(١) هذه صلوات بوذية فيها كثير من شطحات الخيال و غموض الفكر ـ المترجم ·

وساد الصمت • وتثاءب موروجان بصورة تلفت النظر• وأشعل الكاهن العجوز عودا آخر من البخور ، ولوح به ــ وهو يتمتم ــ أمام الراقصة ، ولوح به مرة أخرى حول شيفا وآلهة وهما يمارسان حبا كأعمق مايكون الحب •

قال فيجايا : تنفسوا بعمق ، والتفتوا وأنتم تتنفسون الى رائحة هذا البخور • وعروها كل انتباهكم • واعرفوها على حقيقتها ــ انها حقيقة يعجز عنها التعبير بالكلمات ، ويعجز عن ادراكها العقل والايضاح •اعرفوها فى خامتها • واعرفوها كلغز من الألغاز • البخــور الذى تتنفسونه حقيقة لاتفسر ، وكذلك تماس بشرة ببشرة ، والحب المحسوس ، وفوق كل شىء لغز الألغاز ، الواحد فى تعدده ، والفراغ الذى هو كل شىء، وباطن الأشياء الموجود بكليته فى كل مظهر ، وفى كل نقطة وكل لحظة • لذلك أرجو أن تتنفسوا وتتنفسوا ، وختم كلامه وهو يجلس قائلا «تنفسوا» •

وتمتم الكاهن العجوز منتشيا قائلا : شيفاياناما •

ونهض الدكتور روبرت واتجه نحو المذبح ، ثم توقف ، وعاد الى مكانه وأشار الى ويل فارنبى •

قال فى همس عندما أدركه ويل : تعال واجلس معى • اننى أحب أن أرى وجوههم •

ــ ربما اعترض رؤياك •

هز الدكتور روبرت رأسه ، وتقدما معا ، واعتليا المذبح، ولما بلغا ثلاثة أرباع السلم الصاعد اليه ، جلسا جنبا الى جنب فى شبه الظل بين الظلام وضوء المصابيح • وفى هدوء شديد

بدأ الدكتور روبرت يتحدث عن شيفا ناتاراجا ، عن سيد الرقص • قال : انظر الى هذا التمثال ، انظر اليه بالعينين الجديدتين اللتين أعطاكهما عقار الموكشا • انظر اليه كيف يتنفس وكيف ينبض ، كيف يخرج من ضياء الى ضياء آخر أشد توهجا • انه يرقص خلال الزمان وبعد الزمان ، يرقص الى الأبد وفى اللحظة الخالدة • انه يرقص ويرقص فى جميع العوالم فى وقت واحد • انظر اليه •

وتمعن ويل فى تلك الأوجه الشامخة الى أعلى ، يحدق مرة فى هذا الوجه ومرة أخرى فى ذلك الوجه فيرى ضياء البهجة والمعرفة والفهم ، ضياء مشرقا ، يرى علامات التعجب التى يحسها المرء أثناء الصلاة ، تلك العلامات التى ترتجف عند حافة النشوة أو حافة الفزع •

وألح عليه الدكتور روبرت أن يزيد من تمعنه • وبعد برهة طويلة من الصمت أعاد قوله : انه يرقص فى جميع العوالم فى وقت واحد • أى والله فى جميع العوالم • أولا فى عالم المادة • أنظر الى الهالة المستديرة الكبرى ، التى تحف بها رموز النار ، والتى يرقص الرب فى داخلها • انها تمثل الطبيعة ، تمثل عالم الكتلة والطاقة • فى داخلها يرقص شيفاناتاراجا رقصة الصيرورة التى لاتنتهى ، رقصة الموت • انها (ليلاه) أو لعبته الكونية • انه يلعب من أجل اللعب ، كالطفل • ولكن هذا الطفل هو ناموس الأشياء ، لعبه هى مجموعات الكواكب ، وملعبه هو الفضاء الذى لا نهاية له ، وبين الاصبع والاصبع فترة مداها ألف مليون سنة ضوئية • انظر اليه هناك فوق المذبح • التمثال من صنع الانسان ، بدعة صغيرة من النحاس لايتجاوز ارتفاعها أربع أقدام • ولكن

شيفاناتاراجا يملأ الكون ، هو الكون • اغمض عينيك وانظر اليه سامقا فى ظلام الليل ، وتابع تلك الأذرع الممتدة امتدادا ليس له غاية ، وذلك الشعر الحوشى يتطاير الى ما لا نهاية •

ـ ناتاراجا وهـو يلعب بين النجـوم وفى الذرات ، ثم أضاف : ولكنه يلعب كذلك داخل كل شىء حى ، وكل مخلوق حساس ، وكل طفل وكل رجل وكل امرأة • اللعب من أجل اللعب • ولكن الملعب الآن هوالشعور ، وصالةالرقص بوسعها أن تحتمل • هذا اللعب بغير هدف يبدو ـ بالنسبة لنا ـ نوعا من الاهانة • وما نريده فعـلا هو (الله) الذى لايحطم خلقه أبدا • واذا كان لابد من الألم والموت فليقم على توزيعها اله الحق ، الذى يعاقب المسىء ويكافىء الطيب بالسعادة الأبدية • أما فى الواقع فالطيب يصيبه الأذى ، والبرىء يكابد ويعانى • ثم ليكن هناك اله يعطف علينا ويطمئن قلوبنا • ولكن ناتاراجا لايفعل شيئا غير الرقص • لعبـه يتنزه عن الموت اوالحيـاة ، ويتنزه عن كل عمل خبيث وكل عمل طيب • بين يديه اليمنيين يرفع الطبلة التى تستدعى الوجود من اللا وجود • دقة للخلق وليقظة الكون • ثم انظر الى أعلى يديه اليسريين • انه يلوح بهما نارا يدمر بها كل ماخلق • انه يرقص فى هذه الناحية ـ ويالها من سعادة ! ثم يرقص فى ناحيةأخرى ، فيكون الألم، والخوف الممقوت ، والدمار ! ثم قفزة ، وخطوة ووثبة • قفز للصحة الكاملة ، وخطوة نحو السرطان والشيخوخة ، ووثبةمن الحياة الكاملة الى العدم ، ومن العدم الى الحياة مرة أخرى • وعند ناتاراجا كل ذلك لعب ، واللعب غاية فى حـد ذاته ، لايهدف الى شىء أبدا • انـه يرقص لانه يرقص ، والرقص بالنسبة اليه هو (ماهاسوخا) ، هو نعيمه الابدى الذى لايحد•

نعم نعيم أبدى .» ثم أعاد العبارة الأخيرة بصيغة الاستفهام «نعيم أبدى ؟» وهز رأسه وقال : بالنسبة الينا ليس هناك نعيم ، ليس هناك الا تذبذب بين السعادة والفزع واحساس بالغضب لأن آلامنا فى رقص ناتاراجا جزء منه كما أن مسراتنا كذلك جزء منه . موتنا كحياتنا . دعنا نتدبر ذلك فى هدوء لبرهة من الزمن .

ومرت الثوانى ، وازداد السكون عمقا . وفجأة وفى فزع شديد بدأت احدى الفتيات فى النحيب . فترك فيجايا مكانه ، وركع الى جوارها ووضع احدى يديه على كتفها ، فكفت عن النحيب .

وأخيرا واصل الدكتور روبرت حديثه قائلا : المعاناة والمرض والشيخوخةوالعجز والموت .(سوف أريكم الأحزان)، ولكن ذلك لم يكن الشىء الوحيد الذى أرانا اياه بوذا . لقد أرانا كذلك نهاية الأحزان .

وصاح الكاهن العجوز منتصرا : شيفاياناما .

ـ افتح عينيك مرة أخرى وانظر الى ناتاراجا وهو فوق المذبح . أنعم النظر . فى يمناه العليا ـ كما رأيت من قبل ـ يمسك طبلة يدعو فيها العالم الى الوجود ، وفى يسراه العليا يحمل النار المدمرة . الحياة والموت ، النظام والانحلال ، هذا وذاك بالقسطاس المستقيم . وانظر الآن الى يدى شيفا الاخريين ، تجد أن يمناه السفلى مرتفعة وراحتها مفتوحة الى أعلى . مامعنى هذه الاشارة ؟ معناها «لاتخف ، كل شىء كما يرام» . ولكن كيف ينجو من الخوف أى امرىء فى قواه العقلية؟ كيف يستطيع أى امرىء أن يزعم أن الشر والألم مما يرام ، فى حين أنه من الواضح أنهما مما لايرام ؟ الجواب عند

ناتاراجا . انظر الآن الى يسراه السفلى ، انه يشير بهـا الى قدميه . وماذا تقوم به قدماه ؟ تمعن تجـد أن قدمه اليمنى تدوس عدلا وانصافا على مخلوق صغير مخيف أدنى صورة من الانسان ــ ذلك هو الشيطان (ميالاكا) . انه قزم ولكنه فى خبثه شديد القوى . مايالاكا تجسيد للجهل ، ومظهر لانانية الجشع وحب التملك . دسه بقدميك ، واقصم ظهره ! هـذا بعينه هو مايفعله ناتاراجا . يدوس هـذا الوحش الصـغير بقدمه اليمنى . ولكنى أريدك أن تلاحظ أنه لايشير باصبعه الى قدمه اليمنى التى يدوس بها . انه يشير الى قدمه اليسرى، الى القدم التى يرفعها عن الارض وهو يرقص . لماذا يشير اليها ؟ لماذا ؟ هذه القدم التى يرفعها ، هذا التحدى بالرقص لقوة الجاذبية ــ رمز الفرج ، رمز الموكشا ، رمز التحرر . ان ناتاراجا يرقص فى كل العوالم فى وقت واحد ــ فى عالم الفيزياء والكيمياء ، فى عالم التجـربة العـادية الانسانية البحت ، وآخيرا فى عالم المثل ، عالم العقـل الاكبر . عالم الضوء الصافى .. والآن ، وبعد لحظـة من الصمت واصـل الدكتور روبرت حـديثه قائلا : والآن أريـدك أن تنظر الى التمثال الآخر ، تمثال شيفا والآلهة . انظر اليهما وهما فى كهفهما الصغير المضىء . ثم اغمض عينيك وانظر اليهما مرة أخرى ــ يتلألآن ، يمتلئان حياة ، يسموان . ما أجملهما ! وفى تعاطفهما أى معنى عميق ! أية حكمة تتجاوز كل الحكم التى نتفوه بها وهما فى تلك التجربةالحسية ، تجربة الاندماج الروحى والتكفير عن الذنوب ! الخـلود يتحاب مع الزمان . الواحد يرتبط فى الزواج بالمتعدد ، والنسبى يصبح مطلقا باتحاده مع الواحد . نيرفانا يتطابق مع سمسارا ، الظاهر من طبيعة بوذا فى الزمن والبدن والشعور .

وأشعل الكاهن العجوز عودا آخر من البخور وقال «شيفايانامإ» ، ثم شرع يشدو بالسنسيكريتية فى هدوء وفى فقرات طويلة متتابعة • واستطاع ويل أن يرى علامات السكون والاصغاء ، وأن يرى البسمة الخفيفة التى تنم عن النشوة والتى تتهلل للفكر الشاقب المفاجىء ، ورؤيا الحق والجمال ، يرى كل ذلك مرتسما على الوجوه الشابة التى تتطلع اليه • وفى الخلف لمح موروجان مستندا الى أحد الأعمدة مترهلا مجهدا ، يعبث بأنفه الاغريقى الدقيق •

وعاد الدكتور روبرت الى الكلام فقال : التحرر ، نهاية الآلام ، الانتهاء من كونك من تظن جهلا أنك هو وأن تصبح من فى الواقع هو أنت • وبفضل الموكشا سوف تعرف لفترة قصيرة من الزمن كيف يكون احساسك عندما تكون من فى الواقع هو أنت ، ومن فى الواقع كنت دائما• انه نعيم لايحده زمان ! ولكن هذا الزمان اللامحدود ـ كأى شىء آخر ـ أمر زائل ، وكأى شىء آخر سوف يمضى • وماذا أنت فاعل بهذه التجربة بعد أن يمضى ؟ ماذا أنت فاعل بكل الخبرات المشابهة التى يجلبها لك عقار الموكشا فى السنوات المقبلة ؟ هل تكتفى بأن تستمتع بها كما تستمتع بأمسية تقضيها فى مسرح العرائس ، ثم تعود الى عملك المعتاد ، وتعود الى مسلك المنحرفين الحمقى الذين تتصور أنك واحد منهم ؟ أم هل ـ بعد هذه اللمحة ـ سوف تكرس حياتك للعمل لا كما تعودت ولكن كما أنت فى الواقع ؟ ان كل مانستطيعه نحن الكبار بتعاليمنا ، وكل ماتستطيع بالا أن تفعله بك بنظمها الاجتماعية هو أن تمدك بالوسائل وبالفرص • وكل مايستطيع فعله عقار الموكشا هو أن يعطيك لمحات متتابعة من الشعور بالبهجة ،

ساعة أو ساعتين ، من حين الى آخــر ، من نعمـــة الاســتنارة والتحرر • والأمر متروك لك بعد ذلك لتقرر ان كنت سوف تستجيب لهذه النعمة وتنتهز هذه الفــرص • ولكن ذلك من شأن المستقبل • أما الآن وفى هذا المكان فكل مايتحتم عليك أن تفعله هو أن تســتمع الى نصيحة طــائر المينة : انتباه ! انتبهوا تجدوا أنفسكم وقد أصبحتم ـ شيئا فشيئا أو بغتة ـ على وعى بالحقائق الاساسية التى تختفى خلف هذه الرموز فوق المذبح •

ولوح الكاهن العجوز بعود البخوروقال : «شيفايا ناما !» وعند أسفل ســلم المذبح جلس الفتية والفتيات بلا حــراك كأنهم خشب مسندة • ثم صدر عن أحد الأبواب صرير ، وسمع الحاضرون وقع أقدام • والتفت ويل فرأى رجلا قصيرا بدينا يشق طريقه بين جماعة المتأملين • وصعد السلم ، ثم انحنى، وهمس فى اذن الدكتور روبرت ، واتجــه بعــد ذلك صوب الباب •

ووضع الدكتور روبرت احدى يديه على ركبــة ويل ، وهمس فى اذنه وعلى شفتيه ابتسامة ، وهز كتفيه وهو يقول «هذا أمر ملكى ، وهذا هو الرجل المسئول عن الكوخ الجبلى • وقد أبلغته الرانى تلفونيا أنها تريد أن ترى موروجان فى أقرب وقت مستطاع • والأمر عاجل» وضحك ضحكة مكتومة ثم نهض وأقام ويل على قدميه •

- ١١ -

أعد ويل فارنبى طعام افطاره بنفسه ، وكان عندما عاد الدكتور روبرت من زيارته الصباحية المبكرة للمستشفى يشرب الفنجان الثانى من شاى بالا ويأكل الخبز المحمص مع المربى .

واستفسر عن صحة لاكشمى فأجابه الدكتور روبرت بقوله : لم تتألم كثيرا أثناء الليل . واستغرقت فى النوم العميق لمدة أربع أو خمس ساعات ، واستطاعت هذا الصباح أن تتناول شيئا من الحساء .

وواصل حديثه قائلا انه يأمل فى مهلة يوم آخر . ولما كان وجوده الى جانبها باستمرار يقلق راحتها ، ولما كانت الحياة لابد — على أية حال — من أن تسير ، وأن تستغل على أحسن صورة ممكنة ، فقد قرر أن يسوق سيارته الى «المحطة المرتفعة» يقوم فيها لبضع ساعات بالعمل مع فريق البحث فى معمل المستحضرات الطبية .

— عمل يتعلق بعقار الموكشا ؟

هز الدكتور روبرت رأسه وقال : كلا . هذا العمل لم يعد الا تكرارا لعملية مقننة ، وقد بات من اختصاص التقنيين ، وليس من عمل الباحثين . هؤلاء يشتغلون بشىء جديد .

وبدأ يتكلم عن الاندولات التى عزلت أخيرا عن بذور

الاولوليكوى التى استوردت من المكسيك فى العام الماضى وزرعت فى حديقة النباتات بالمحطة · ثلاثة اندولات على الأقل لم تكن من بينها سوى واحدة فعالة · وقد أثبتت التجارب على الحيوان أن لها تأثيرا على الجهاز الشبكى ··

ولما ترك ويل وحده جلس تحت المروحة التى كانت تعلو رأسه وواصل قراءته فى «مذكرات عن حقائق الأشياء» ·

« نحن لا نستطيع أن نتخلص بالعقل من اللا عقل الاساسى فى نفوسنا · كل مانستطيعه هو أن نتعلم كيف نكون لا عقليين بطريقة معقولة ·

بعد ثلاثة أجيال من الاصلاح لم تعد فى بالا جموع كقطعان الغنم ولا رعاة طيبون من الكهنوت يجزون صوف القطعان ويخصون ذكورها · ليس هناك قطعان من البقر والخنازير وليس هناك تجار مرخصون للماشية ، ملكيون أو عسكريون ، رأسماليون أو ثائرون ، يسمون ويقيدون ويجزرون · هناك فقط جماعات من الرجال والنساء فى طريقهم الى الانسانية الكاملة ·

النغم أو الحجارة ، العمليات أو الاشياء المحسوسة ؟ تجيب البوذية كما يجيب العلم الحديث على هذا التساؤل بايثار «النغم» · ويقول الفلاسفة الغربيون القدامى «الحجارة» · البوذية والعلم الحديث ينظران الى العالم فى نطاق الموسيقى · أما الصورة التى يتمثلها المرء وهو يقرأ فلاسفة الغرب فهى عبارة عن جسم من الفسيفساء البيزنطى ، متماثل ، مؤلف من ملايين المربعات الصغيرة المصنوعة من مادة حجرية المثبتة فى جدران كاتدرائية كاثوليكية خالية من النوافذ ·

ان رشاقة الراقصة ، وما يصيبها من التهاب المفاصل بعد أربعين عاما ــ هذا وذاك من وظائف هيكلها العظمى • وبفضل تكوين العظام تستطيع الفتاة أن ترقص الباليه على أصابع القدم ، وبسبب هذه العظام عينها ، بعد ما تتآكل قليلا ، يحكم على المرأة العجوز بالتحرك فوق المقعد ذى العجلات • وكذلك فان الدعامة القوية لأية ثقافة من الثقافات هى الشرط الأول لكل ابتكار أو ابداع يقوم به الافراد ، وهى أيضا عـدوهم الأول •

ان الشىء الذى لايمكن أن نتطور فى غيبته حتى يمسى كل منا انسانا كاملا هو فى أغلب الاحيان نفس الشىء الذى يحول دون تطورنا •

وقد أثبت بكل جلاء قرن من البحث فى عقار الموكشا أن الشخص العادى قادر تماما على أن تكون له رؤى بل وعلى أن يشعر بالتحرر الكامل • والرجال والنساء ــ من هذه الناحية ــ الذين يصنعون الثقافة الرفيعة ويستمتعون بهـا لايفضلون أصحاب المعـرفة المحـدودة • ان الخبرة الرفيعة تتفق تمـام الاتفاق مع التعبير الرمزى البسيط •

والرموز التعبيرية التى ابتدعهـا فنانو بالا لاتفضـل الرمـوز التعبيرية التى ابتـدعها الفنانون فى غـيرها من الاماكن • بل لعلها أضعف أثرا وأقل اقنـاعا من النـاحية الجمالية من الرموز التراجيدية أو التعويضـية فى البـلاد الأخرى • ذلك لان الرموز فى بالا هى من ثمرات السـعادة والاحساس بالانجاز ، والرموز فى غيرها من البلاد من ابتداع ضحايا الاحباط والجهل ، والظلم ، والحرب والخرافات التى تشجع ارتكاب الذنوب وتحرض على الجريمة • ان تفوق بالا

لايرجع الى التعبير الرمزى ، وانمـا يرجع الى فن يمكن أن يمارسه كل انسان ــ وان يكن أعلى مرتبة وأكبر قيمة من كل الفنون الاخرى ــ ذلك هو فن الممارسة الكافية لكل العوالم التى نقطنها كبشر ، فن التعرف المباشر بهذه العوالم · ثقافة أهل بالالا لا تقاس كما تقاس الثقـافات الاخـرى (لانعـدام مقـاييس أفضل) · لا تقـاس بانجـازات قلة من الموهوبين البارعين فى الرموز الفنية أو الفلسفية · لا ، انها تقاس بما يفعل ويمارس كل أعضاء المجتمع ، العاديون منهم والمتفوقون ، فى كل حدث من الاحداث وكلما تقاطع الزمان مع الأبدية» ·

ودق التلفون · فهل يتركه يرن ، أم هـل الأفضـل أن يجيب ويخطر المتحدث بأن الدكتور روبرت يقضى يومه فى الخارج · وقرر ويل أن يأخذ بالرأى الآخر فرفع السماعة ·

وقال محاكيا قدرة السـكرتير حينما يرد «هنـا بيت الدكتـور ماك فيل · ولكن الدكتور خـارج البيت طـوال اليوم » ·

وبصوت ملكى غنى رد المتحدث على الطرف الآخـر من التلفون قائلا : هذا أفضل ، كيف حالك ياعزيزى فارنبى ؟

وذهل ويل وتلعثم وهو يشكر صاحبة السمو على تفضلها بالسؤال ·

قالت الرانى : أخذوك بعد ظهر آمس لتشهد حفلة من حفلاتهم الدينية المزعومة ؟

وأفاق ويل بالقدر الكافى من ذهوله فأجاب بكلمة محايدة وبنغمة لا تلزمه أى التزام ، وقال «كانت رائعة» ·

قالت الراني : نعم رائعــة ولكن باعتبــارها كاريكاتير للحفل الديني الصادق ،كاريكاتير لايحترم المقدسات • ولفظت كلمة (الصادق) بنبرة تنم عن التمجيد كما تنم عن الازدراء، ثم قالت : انهم لم يتعلموا قط أن يميزوا تمييزا مبدئيا بين النظام الطبيعى والنظام الخارق للطبيعة •

وتمتم ويل قائلا : تماما ، تماما ••

وسألته صاحبة الصوت المتحدث على الطرف الآخر «ماذا تقول ؟»

فرفع صوته وقال «تماما» •

واستمرت الراني فيحديثها قائلة : يسرنى أنك توافق، ولكنى لم أطلبك على التلفون لابحث معك الفرق بين الطبيعى والخارق للطبيعة ــ على الرغم من الأهمية القصــوى للفارق بينهما • انما طلبتك لكى أتحدث معك فى أمر أكثر عجلة من هذا •

ــ البترول ؟

قالت : نعم البترول • ولقد بلغتنى منذ برهة رسالة من ممثلى الشخصى فى رندانج • ثم أضافت «وبهذه المناسبة أقول له انه فى مركز رفيع وعلى معرفة جيدة» •

وتحير ويل من أولئــك الضــيوف الذين حضروا حفل الكوكتيل فى وزارة الخارجية ، ممن يحسنون الكلام ويرصعون صدورهم بالأوسمة ، من منهم خدع غيره من المخادعين ــ وهو طبعا واحد من هؤلاء •

وواصلت الرانى حـــديثها قائلة : فى الأيـام القليلة الماضية وصل بالطائرة الى رندانج لوبو ثلاثة ممثلين على الأقل لشركات البترول الكبرى الأوربية والامريكية • وقد نقل الى مبلغى أنهم يفاوضون بالفعل أربعا أو خمسا من الشخصيات الرئيسية فى الادارة ممن قد يكون لهم فى وقت لاحق نفوذ فى تقرير من يعطى الامتياز فى بالا •

وطقطق ويل بلسانه طقطقة تنم عن الاستنكار •

وقالت تلميحا ان مبـالغ طـائلة قد عرضت ان لم يكن بطريق مباشر فعلى الأقل باللفظ وبالتلويح المغرى •

قال معلقا : هذا أمر شنيع •

قالت الرانى ان وصف شنيع هو اللفظة المناسبة • ولذلك كان لابد من القيام بعمل ما فى هـذا الخصـوص ، وان يتم العمل فورا • وكانت قـد علمت من باهـو أن ويل قد كتب بالفعل للورد الديهايد ، وان الرد سوف يرد من غير شك فى خلال أيام قليلة • ولكن هذه الأيام القليلة أطول مما يحتمل • والوقت أمر جوهرى ، ليس فقط بسبب ماكانت تفعله هـذه الشركات المتنافسة ، ولكن لاسـباب أخـرى كذلك (وهنـا أخفضت الرانى صوتها بدرجة غريبة) • وبهـذا الصـوت المنخفض أخذت تحثه «الآن ، الآن ، وبغير توان !» يجب أن تبرق الى اللورد الديهايد وتخبره بما يحدث (وأضافت عرضا أن باهو باخلاصه لها قد عـرض عليهـا أن ينقل الرسـالة بالشفرة عن طريق مفوضية رندانج فى لندن) • ويجب أن يصحب الرسالة طلب عاجل بأن يفوض اللورد مراسله الخاص فى أن يتخذ الخطوات اللازمة لضمان نجاح قضيتهما المشتركة

(والخطوات المناسبة فى هذه المرحلة تكون أساسا ذات طبيعة مالية) ٠

واختتمت حديثها قائلة : ولذلك أرجو أن تسمح لى أن أطلب الى باهو أن يرسل البرقية فورا ، باسمي واسمك يامستر فارنبى ٠ وأرجو ياعزيزى أن يكون هذا التصرف مقبولا منك ٠

ولم يكن هذا التصرف مقبولا بتاتا ، ولكن ويل لم يجد مايعتذر به للرفض لانه كتب من قبل ذلك الخطاب الى جو الديهايد ٠ ولذلك صاح متظاهرا بالتحمس للفكرة تحمسا يكذبه سكوته الطويل المريب قبل أن يقول انه يوافق بالطبع، وذلك السكوت الذى كان يبحث خلاله عن رد آخر ٠ ثم أضاف قوله «يجب أن يصلنا الرد فى وقت ما غدا» ٠

وأكدت له الرانى أنهم سوف يتلقونه هذا المساء ٠

ــ وهل يمكن ذلك ؟

ــ ان الله على كل شىء قدير ٠

قال :

ــ هذا صحيح ٠ ولكن ٠٠٠

ــ اننى أومن بما يوحى الى به صوتى الضعيف ٠ وهو يقول لى (هذا المساء) ويقول (انه سوف يفوض فارنبى تفويضا كاملا) وكررت عبارتها بحيوية بالغة ٠ ويقول صوتى الضعيف كذلك (ن فارنبى سوف يحقق نجاحا تاما) ٠

قال شاكا : اننى أتعجب ٠

ــ يجب أن تنجح •

ــ يجب !

ــ نعم يجب

ــ لماذا ؟

ــ لان الله هــو الذى أوحى الى أن أشن حــرب الروح الصليبية •

ــ أنا لا أفهم العلاقة تماما •

قالت : ربما كان من الواجب ألا أخبرك • وصمتت برهة ثم قالت : ولكن لماذا لا أخبرك ؟ لقد وعدنى اللورد الديهايد أن يؤازرنى فى الحــرب التى أشنها بكل مــوارده اذا نجحت قضيتنا • ومادام الله يريد أن ننتصر فى الحرب ، فان قضيتنا لايمكن الا أن تنتصر •

وأراد أن يصيح مجيبا : وهــذا هو المطلوب • كأنهــا معادلة رياضية • ولكنه كبح جماح نفسه ، فليس هذا من الأدب • وعلى أية حال فان الموضوع الراهن ليس من الفكاهة فى شىء •

قالت الرانى : يجب أن أتصــل بباهو حالا ياعــزيزى فارنبى وأنهت المكالمة التليفونية •

وهز ويل كتفيه وعاد الى (مذكرات عن حقائق الاشياء) • ولم يكن لديه شىء آخر يشغل نفسه به •

«الثنائية •• بغيرها يستحيل أن يكون هناك أدب رفيع ، وبها لايمكن ــ بكل تأكيد أن تكون هناك حياة طيبة • «أنا»

تؤكد أن هناك مادة آنانية منفصلة ثابتة · و «أكون» تنكر أن الوجود كله علاقات وتغير · «أنا أكون» · هاتان كلمتان صغيرتان ، ولكنهما تنطويان على باطل ضخم ! ان المثنوى صاحب العقل المتدين ينادى الأرواح المصطنعة من الاعماق السحيقة ، اما غير المثنوى فينادى الاعماق السحيقة فى روحه ، أو بعبارة أدق ، يجد أن الأعماق السحيقة موجودة فعلا لديه» ·

وسمع ضجة أحدثتها عربة مقتربة ، اعقبها سكون عندما أوقف المحرك ، ثم صوت باب ينغلق ووقع أقدام فوق الحصى ، وفوق سلم الفراندة ·

قال فيجايا بصوته العميق : هل أنت مستعد ؟

والقى ويل «مذكراته» جانبا ، والتقط عصاه الخيزرانية ، ونهض على قدميه ، وسار نحو الباب الخارجى ·

قال ويل وهو يتجه نحو الفرانده «نعم مستعد» ·

وأمسكه فيجايا من ذراعه وقال : اذن هيا بنا واحذر درجات السلم ·

وكانت تقف الى جوار عربة الجيب امرأة فى منتصف الاربعينات من عمرها مرتدية ثيابا قرنفليا ، وحول رقبتها عقد من المرجان ، امرأة مستديرة الوجه ·

قال فيجايا : هذه ليلاراو ، أمينة المكتبة ، وسكرتيرة ، وأمينة الصندوق ، والمشرفة على النظام العام · لاغنى لنا عنها·

وصافحها ويل ، وبدت له شبيهة بالسيدات الأنجليزيات الرقيقات الممتلئات حركة ونشاطا اللائى ــ بعد أن يكبر أطفالهن ــ يقمن بالأعمال الخيرية أويتجهن الى تثقيف أنفسهن·

انهن لسن على قدر كبير من الذكاء ، ولكنهن يتصفن بالايثار ، مخلصات ، طيبات حقا ــ ولكن ــ لسوء الحظ ــ باعثات على السأم • وكانت ليلاراو من هذا الطراز لاتختلف عنه الا ببشرتها السمراء •

وقالت السيدة راو مبادرة بالكلام وهم يسيرون الى جوار بركة اللوتس ويمرقون الى الطريق االعام «سمعت عنك من صديقى الصغيرين رادا ورانجا» •

قال ويل : أرجو أن أكون حائزا لرضاهما كما حازا رضاى •

وأشرق وجه السيدة راو بهجة وسرورا وقالت : يسرنى أنك معجب بهما •

وقال فيجايا : أن رانجا ذكى بدرجة غير عادية •

وأضافت الى ذلك راو انه غاية فى الاتزان ، يقف وسطا بين الانطواء والانبساط على العالم الخارجى • يميل دائما ــ وبكل قوة ــ الى الفرار الى ميزفانا أرهات (١) أو الى جنة العلماء الصغيرة الجميلة المنسقة ــ جنة التجريد المطلق • يميل الى هذا الاتجاه ، ولكنه يقاوم الميل فى أغلب الأحيان لان رانجا العالم كان كذلك رانجا آخر ، رانجا يحس فى قلبه الرأفة ، مستعد ــ لو عرفت كيف تناشده بالطريقة الصحيحة ــ أن يفتح قلبه للحقائق المحسوسة فى الحياة وان يكون واعيا ، مهتما معينا بشكل ايجابى • ومن حسن حظه ومن حسن حظ الناس جميعا أنه التقى بفتاة مثل رادا الصغيرة ، فتاة ساذجة ذكية ، فكهة رقيقة ، موهوبة فى احساسها بالحب والسعادة !

(١) قديس بوذى ــ المترجم •

وأفضت السيدة راو بدخيلة نفسها وقالت ان رادا ورانجا من تلاميذها المحببين اليها ·

وظن ويل انهما من تلاميذها فى نوع من المدارس الدينية البوذية ، وحسب أنه بهذا الظن يتفق معها فى الرأى · ولشد ماكان ذهوله عندما علم أنهما تتلمذا عليها فى يوجا الحب ، وان راو ـ هذه العاملة المخلصة فى المستوطنة كانت تلقى عليهما الدروس فى السنوات الست الماضية وفى الفترات التى لاتشتغل فيها بالمكتبة · وذلك حسبما ظن ويل بالطرق التى أباها موروجان والتى ارتأتها الرانى فظيعة لما كانت تتصف به من حب لبنيها يبلغ حد التملك · وفغر ويل فاه ليلقى اليها بسؤال ، ولكن ردود الفعل عنده كانت على مستوى آخر أرفع من ذلك متأثرة بعاملين فى المستوطنة من طراز آخر · فلم تخرج الأسئلة من بين شفتيه · وفات أوان السؤال ،وبدأت السيدة راو تتحدث عن أعمال أخرى تقوم بها ·

قالت : لو عرفت مانعانيه مع الكتب فى هذا الجو ! الورق يتعفن ، والصمغ يسيل ، والغلف تتحلل ، والحشرات تلتهم · ان الأدب المكتوب لايناسب فى الواقع المناطق الاستوائية ·

قال ويل : واذا صدق راجا العجوز فان الادب لايتفق كذلك وكثير من الخصائص المحلية هنا بخلاف المناخ ـ انه لايتفق وكرامة الانسان ، ولا يتفق والحق الفلسفى ، ولايتفق وصحة عقل الفرد وسلامة النظام الاجتماعى ، لايتفق مع أى شيء سوى الثنائية ، والجنون الاجرامى ، والطموح المستحيل ، والذنب الذى لا لزوم له» وكشر بشراسة وقال «ولكن ما علينا · فالكولونيل ديبا سوف يصحح الاوضاع · وبعد

أن تغزىَ بالا ويؤمن جانبها فى الحرب والبترول والصناعة الثقيلة ، سيكون لكم ــ من غير شك ــ عصركم الذهبى فى الأدب وأصول الدين ٠

قال فيجايا : أود أن أضحك ، وما يشغلنى هو أنك على الأرجح قد أصبت الرأى ، وأنا احس احساسا مزعجا أن أبنائى سوف يرون ــ عندما يكبرون ــ نبوءتك تتحقق ٠

ونزلوا من عربة الجيب ، وأوقفوها بين عربة يجرها ثور ولورى يابانى جديد عند مدخل القرية ، وساروا بعد ذلك على الاقدام ٠ وبين البيوت المسقوفة بالقش التى تقع وسط حدائق يظللها النخيل وأشجار الببايا وثمر الخبز كان هناك شارع ضيق يؤدى الى السوق المركزية ٠ وتوقف ويل واستند الى عصاه الخيزرانية وتلفت حواليه ٠ وشهد على أحد جوانب الميدان مبنى شرقيا شديد الزخرفة له واجهة قرنفلية مكسوة بالجص وشرفات فى الأركان الاربعة ــ والظاهر أنه مبنى البلدية ، وفى مواجهته على الجانب الآخر من الميدان يقوم معبد صغير وردى اللون من الحجر الأحمر يتوسطه برج فوق طوابقه المتتالية تماثيل من الصخر تروى قصة تطور بوذا منذ أن كان طفلا مدللا حتى تاثاجاتا (١) ٠ وبين هذين البناءين كانت هناك شجرة استوائية ضخمة تغطى أكثر من نصف المساحة المكشوفة ٠ وعلى طول الممرات الملتوية الظليلة اصطفت أكشاك العشرات من التجار والبائعات ٠ وفيما بين الثغرات فى القبو الأخضر الذى يعلو رؤسهم تتسلل خيوط من ضوء الشمس تسطع على صف من جرار الماء السوداء والصفراء هنا ، وسوار فضى ، ولعبة خشبية ، وثوب من القماش القطنى

(١) المستنير استنارة كاملة ــ المترجم ٠

هناك ، وكومة من الفواكه ، وصدار فتاة مرصــع بالزهور الزاهية هنا ، وبريق أسنان ضاحكة وعيون ، والنصف الأعلى العارى من جسد انسان ذهبى متورد اللون هناك ·

وبينما هم يشقون طريقهم بين الاكشاك تحت الاشجار الضخمة علق ويل بقوله «كل امــرىء هنــا يبدو فى صحة جيدة » ·

قالت السيدة راو : انهم يبدون أصحاء لأنهم أصــحاء ، وســعداء على خــلاف ماعرفت من قبل · وعادت الى ذاكرته الوجــوه ألتى شــهدها فى كلكتــا ومانلا ورندانج لوبو ــ وهى الوجوه التى يراها المرء كل يوم فى شارع فليت وشارع ستراند ــ الوجوه المكتئبة · وتطلع من وجه الى آخر ثم قال : حتى النساء يبدن سعيدات ·

قالت السيدة راو : ليست لأى منهن عشرة أطفال ·

قال ويل : والمرأة فى بلادى ليس عندها عشرة أطفال ، وعلى الرغم من ذلك ترى على وجهها علامات الوهن وعلامات الهم · وتوقف لحظة لكى يراقب بائعة فى منتصف العمر تزن شرائح من ثمر الخبز المجفف بحرارة الشمس لأم شابة تحمل طفلها فى كيس فوق ظهرها · واختتم ملاحظته قائلا «هــذا نوع من الاشراق » ·

قالت السيدة راو بشعور الظافر : بفضل ماثيونا ، بفضل يوجا الحب · وتألق وجهها بمزيج الحماسة الدينية وكبرياء المهنة ·

وساروا تحت ظل الشــجرة الكبرى فى ضــوء الشمس

المتوهج ، ثم صعدوا مجموعة من الدرجات البالية حتى بلغوا ظلام المعبد • وشهدوا تمثالا ذهبيا لبوذيستفا (١) ضخما يتلألأ فى الظلام • وشموا رائحة البخور والزهور الذابلة • ومن مكان ما خلف التمثال طرق آذانهم صوت عابد مختف يتمتم بابتهالات لاتنتهى • ومن باب جانبى جاءت فتاة صغيرة مسرعة وبغير ضوضاء عارية القدمين • ودون أن تعير هؤلاء الكبار التفاتة اعتلت المذبح برشاقة القط ووضعت غصنا من نبات أبيض اللون فى راحة التمثال المفتوحة • وحدقت فى الوجه الذهبى الضخم وتمتمت ببضع كلمات ، وأغمضت عينيها لحظة ، وتمتمت مرة أخرى ، ثم عادت ، وأخذت تشدو بصوت ناعم وهى تهبط ، وأخيرا خرجت من الباب الذى جاءت منه •

قال ويل وهو يراقبها فى خروجها «رائعة • وليس هناك ماهو أروع من ذلك • ولكن ماذا عسى طفلة فى مثل سنها أن تظن أنها فاعلة بالضبط ؟ أية ديانة تؤدى شعائرها ؟»

قال فيجايا شارحا : انها تؤدى الشعائر المحلية لبوذية ماهايانا (٢) ممزوجة بشىء من الشيفية الهامشية •

ــ وهل تشجعون أنتم المثقفين شيئا كهذا ؟

ــ نحن لانشجع ولا نثبط • نحن نقبل العقيدة كما نقبل نسيج العنكبوت الذى تراه فوق الافريز • ان العناكب بطبيعتها لابد أن تنسج هذه الخيوط • وكذلك البشر بطبيعتهم

---

(١) شخص يؤجل تبوذه وانفصاله انفصالا كاملا عن المجتمع لفترة ما حتى يساعد غيره من الناس ــ المترجم

(٢) مذهب بوذى متطور ــ المترجم

لابد أن يكون لهم دين · وليس بوسع العناكب الا أن تصنع مصائد للذباب ، وليس بوسع الانسان الا أن يضع الرموز · ذلك هو السر فى وجود الذهن البشرى · أن يحول فوضى الخبرة المعطاة الى مجموعة من الرموز التى يستطيع أن يتناولها · وأحيانا تقابل الرموز بعض أوجه الحقيقة الخارجية التى تجاوز خبراتنا مقابلة دقيقة الى حد مقبول · عندئذ يكون العلم والادراك العام · وأحيانا أخرى ـ على نقيض ذلك ـ لاتكون للرموز صلة تقريبا بالحقيقة الخارجية · عندئذ يكون الجنون والهذيان · وفى أغلب الاحيان يكون هناك خليط يجمع بين الواقع والخيال ـ هذا هو الدين · والدين جيد أو سيء بنسبة تتوقف على درجة المزج بين الاثنين · فمثلا فى نوع الكالفينية التى نشأ عليها الدكتور أندرو يوجد قدر ضئيل جدا من الواقع مقابل كمية ضخمة من الخيال الخبيث · وفى أحوال أخرى يكون المزيج أصح من ذلك · خمسين فى المائة مقابل خمسين فى المائة ، أو أحيانا أربعة وستين فى المائة أو حتى ثلاثة وسبعين من الصدق والحق · ومزيجنا المحلى يحتوى على قدر ضئيل جدا من السموم» ·

وأومأ ويل برأسه قائلا : تقديم النبات السحلبى الى تمثال الرأفة والتنوير شيء لايضر بتاتا · وبعد الذى رأيته بالأمس أجدنى على استعداد لأن أدلى بشهادة طيبة فى صالح الرقص الكونى والتزاوج السماوى ·

قال فيجايا : واذكر أن مثل هذه الامور ليست اجبارية · الفرصة أمام كل انسان ليتجاوز هذه الحدود · سألتنى ماذا تظن هذه الطفلة انها فاعلة · وأنا أقول لك انها بجانب من عقلها تخاطب شخصا ـ شخصا ضخما سماويا يمكن التزلف

اليه بالنبات السحلبي لكي يعطيها ماتريد • ولكنها أيضا في سنها التي بلغتها لابد أن تكون على علم بالرموز الاكثر عمقا وراء تمثال اميتابها (١) وبالخبرات التي تولد هذه الرموز • ولذلك فهي بجانب آخر من عقلها تعلم تمام العلم أن اميتابها (١) ليست شخصا • بل انها لتعلم كذلك ـ كما شرحوا لها من قبل ـ أن الدعاء اذا كان أحيانا يستجاب له فانما لان الآراء ـ في عالمنا هذا العجيب المؤلف من النفس والمادة ـ تميل الى أن تتحقق اذا أنت ركزت فيها فكرك • وهي تعلم كذلك أن هذا المعبد ليس كما تحب حتى الآن أن يكون ـ بيت بوذا • انما هي تعلم أنه ليس سوى رسم لما يدور في عقلها اللاشعوري ـ مكان ضيق مظلم صغير تزحف على سقفه السحليات في وضع مقلوب وتسكن شقوقه الصراصير • ولكن الاستنارة تكمن فيقلب هذاالظلام القذر• وهناك كذلك شيء آخر تقوم به الطفلة : انها تتعلم درسا عن نفسها بطريقة لا شعورية • فهي تتعلم أنها قد يتكشف لها أن عقلها الصغير هو كذلك العقل الأكبر ، وذلك اذا هي كفت عن محاولة اقناع نفسها بما يخالف ذلك •

ـ ومتى تتعلم هذا الدرس ؟ متى تكف عن اقناع نفسها بغير ذلك ؟

ـ قد لاتتعلمه بتاتا • كثير من الناس لايتعلمونه • وكثيرون آخرون ـ من ناحية أخرى ـ يتعلمونه •

وجذب ويل من ذراعه وقاده الى مكان أكثر ظلمة خلف

---

(١) ربة الرحمة في البوذية التي تساعد النساء في حملهن وترشد المؤمنين عند موتهم الى الجنة الغربيـة » أي أرض اميتابهـا الطاهرة ـ المترجم .

تمثال الاستنارة • وأخذ النشيد يزداد وضوحا ، وكان هناك منشد تكاد العين لاتراه فى الظلام ، رجل كبارة يجلس عاريا الى وسطه ، يلتزم كتمثال اميتابها الذهبى الصمت المطلق ، لايحرك سوى شفتيه •

قال ويل : ماذا يرتل ؟

ــ شيئا بالسنسيكريتية •

كان يكرر سبعة مقاطع ليس مها معنى •

ــ تكرار ليس وراءه طائل •

وعارضته السيدة راو قائلة : انه ليس بالضرورة من غير طائل • فهو أحيانا يذهب بك الى مكان ما •

وزاد على ذلك فيجايا قوله : نعم انه يذهب بك الى مكان ما • ليس لما تعنيه الكلمات أو ما توحى به ، وانما فقط لانها تتكرر • فأنت اذا كررت قولك (هاى ديدل ديدل) كان لذلك نفس الاثر كما لو قلت (أوم) أو (كرياليسون) أو غير ذلك ، كل ذلك له فى النفس أثره ، لانك حينما تشغل ذهنك بالتكرار لايمكن أن تشغله كله بنفسك • والمشكلة هى أنك بمثل هذا التكرار اما تنخفض واما ترتفع ــ اما تنخفض الى حالة من بلاهة اللافكر ، واما ترتفع الى وعى مطلق مصدره اللافكر •

قال ويل : أفهم من ذلك أنك لاتوصى بمثل ذلك لصديقتنا الصغيرة هذه التى كانت تحمل النبات السحلبى ؟

ــ لا أوصى ما لم تكن عصبية أو قلقة بدرجة غير عادية ، وهى ليست كذلك • وأنا أعرفها حق المعرفة ، فهى تلعب مع أطفالى •

ــ اذن ماذا تفعل فى حالتها ؟

ــ أفعل الكثير • ومن بين ما أفعل أقودها ، بعد نحو عام الى المكان الذى نحن ذاهبون اليه الآن •

أى مكان ؟

ــ غرفة التأمل •

وسار ويل وراءه تحت مدخل تعلوه قنطرة وعلى طول ممر قصير • وفتحت السجف وأذابهم فى غرفة كبيرة جدرانها بيضاء ولها نافذة طويلة الى يسارهم تنفتح على حديقة صغيرة ينمو فيها شجر الموز وثمر الخبز • وقد خلت الغرفة من الاثاث اللهم الا بضع حشايا مربعة الشكل منتشرة فوق الأرض • وعلى الحائط المقابل للنافذة علقت صورة زيتية كبرى • رمقها ويل بنظرة ثم تقدم نحوها يتمعنها •

وأخيرا قال : ياللعجب ! من رسم هذه الصورة ؟

ــ جوبندسنج •

ــ ومن هو جوبندسنج •

ــ أحسن مصور للمناظر الطبيعية أنتجته بالا • مات فى عام ٤٨ •

ــ لماذا لم نر قط صورة من صوره ؟

ــ لاننا نحب أعماله حبا جما فلا نصدر أيا منها •

قال ويل : هذا فى مصلحتكم ، وليس فى مصلحتنا • وتطلع الى الصورة مرة أخرى وسأل : هل ذهب هذا الرجل الى الصين فى حياته ؟

ـ لا ، ولكنه درس مع مصور من كانتون كان يقيم فى بالا • وكان بالطبع قد شاهد نسخا عديدةمن المناظر الطبيعية التى رسمت فى عهد سونج» (١) •

قال ويل : أستاذ ينتمى الى سونج آثر أن يصور بالزيت وكان مهتما بتوزيع الضوء فى الصورة •

ـ فقط بعد ماذهب الى باريس ، وكان ذلك فى عام ١٩١٠ ، وهناك عقد صداقة مع فيار •

هز ويل رأسه وقال : يستطيع المرء أن يقدر ذلك من هذا الغنى غير العادى البادى فى اللوحة • واستمر فى نظره الى الصورة فى صمت ، وأخيراألقى بهذا السؤال : ولماذا تعلقونها فى غرفة التأمل •

ورد عليه فيجايا بسؤال آخر ، وقال : ماذا تظن أن يكون السبب ؟

ـ هل لأن هذا هو ماتسمونه رسما يرمز للعقل ؟

ـ المعبد رسم رمزى ، ولكن هذا أفضل منه ، فهو مظهر فعلى • مظهر فعلى للعقل الكبير فى عقل الفرد بالنسبة الى المنظر الطبيعى ، والى اللوحة ، والى خبرة التصوير • وبهذه المناسبة أقول لك انها صورة الوادى الغربى المجاور •

قال ويل : وما أجمل السحب ، وهذا الضوء !

وزاد فيجايا من الشرح قائلا : انه ضوء الساعة الأخيرة

---

(١) سونج أسرة صينية أحرزت مكانة رفيعة فى المجتمع الصينى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ المترجم •

قبل الغسق • وقد توقف المطر منذ قليل وظهرت الشمس مرة أخرى أشد ضياء من أى وقت مضى • ضياؤها هو الضياء الخارق للطبيعة ، الضياء المائل تحت سقف من السحب • ضوء العصر فى آخر النهار الذى ينقش كل سطح يمسه ويعمق كل الظلال •

وحدق ويل فى الصورة وهو يكرر هذه العبارة «يعمق كل الظلال» • ظل هذه السحابة المرتفعة الضخمة تسود سلاسل من الجبال بأسرها وتضفى عليها الظلام • وهناك فى الوسط ظلال السحب الصغيرة المتناثرة • وفيما بين الظل والظل وهج الأرز فى أول نموه ، أو الحرارة الحمراء تشع من الأرض المحروثة ، وتوهج الحجر الجيرى المكشوف ، والاماكن المعتمة والاوراق دائمة الخضرة التى تتلألأ كالماس • وقد أقيمت وسط الوادى مجموعة من البيوت المسقوفة بالقش ، تبدو من بعيد ، صغيرة ، ولكنها واضحة للعين ، ناطقة تماما ، لها دلالة عميقة ! نعم لها دلالتها • ولكنك ان سألت نفسك «دلالة على أى شيء ؟» لم تجد جوابا • ووجه ويل هذا السؤال ملفوظا •

قال فيجايا : تسألنى ما معناها • وأقول لك انها تعنى ماهى عليه • وكذلك الجبال ، والسحب ، والضوء والظلام • ومن ثم كانت هذه الصورة صورة دينية حقا • أما الصور الشبيهة بالدينية فهى تشير دائما الى شيء آخر ، شيء يجاوز الاشياء التى تمثلها ــ تمثل شيئا من الكلام الفارغ الميتافيزيقى أو عقيدة باطلة من العقائد المحلية • ان الصورة الدينية حقا تكون دائما مليئة بالمعنى فى حد ذاتها • ولذلك علقنا هذه الصورة في غرفة التأمل •

ـ وهل الصور دائما للمناظر الطبيعية ؟

ـ تقريبا دائما ، لان المناظر الطبيعية تذكر الناس فعلا بمن يكونون .

ـ وهل هي أفضل من صور تمثل حياة قديس أو مخلص ؟

وأومأ فيجايا برأسه ايجابا وقال : الفارق بينهما ـ أولا ـ هو الفارق بين الموضوعي والذاتي . ان صورة المسيح أو صورة بوذا ان هي الا تسجيل لشيء لاحظه سلوكي وفسره رجل من رجال الدين . أما حينما تواجه منظرا طبيعيا كهذا ، فمن المستحيل عليك سيكولوجيا أن تنظر اليه بعيني واطسن (١) أو بعقل توماس اكونياس (٢) . انما أنت مرغم تقريبا على أن تخضع لتجربتك المباشرة . أنت مضطر من الناحية العملية الى أن تقوم بعملية معرفة للنفس .

ـ معرفة النفس ؟

وأكد له فيجايا مرة ثانية انها معرفة للنفس وقال : ان هذا المنظر للوادي المجاور انما هو منظر ـ اذا ارتفعت درجة

---

(١) سيكولوجي أمريكي (١٨٧٨ ـ ١٩٥٨) أسس مدرسة علم النفس المعروفة باسم « المدرسة السلوكية » ـ المترجم .

(٢) فيلسوف ولاهوتي ايطالي (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) ، ويمتاز مذهبه بالتفريق بين الفلسفة واللاهوت . الاولى تعتمد على العقل والثاني يعول على الوحي دون أن ينكر العقل وفي هذا ما يفرق بين الفلسفة والدين ـ المترجم .

واحدة ـ لعقلك أنت ، لعقل كل امرىء كما هو موجود فوق وتحت مستوى التاريخ الشخصى • ألغاز الظلام ، ولكن الظلام يموج بالحياة • رؤيا الضوء ، والضوء يشع من هذه البيوت الصغيرة المهلهلة كما يشع من الاشجار ، والحشائش ، والمسافات الزرقاء بين السحب • اننا نبذل جهدنا لندحض الحقيقة ، ولكن الحقيقة باقية • الانسان مقدس كالطبيعة ، لانهائى كالفضاء • أرانى أقترب من اللاهوت بصورة خطرة ، والفكرة العامة لم تنقذ قط أحدا • ألزم الوقائع ، وألزم الحقائق المحسوسة» • وأشار باصبعه الى الصورة وقال : نصف القرية في ضوء الشمس ونصفها الآخر فى الظل وفى الخفاء ـ هذه حقيقة • وهذه جبال لونها نيلى ، وتلك جبال من بخار الماء تعلوها ، وهى أكثر منها غرابة ـ هذه حقائق • البحيرات الزرقاء فى السماء ، بحيرات لونها أخضر باهت وأخرى من الترسينا النيئة فوق الارض التى يسطع عليها ضوء الشمس ـ هذه حقائق • وهذه الحشائش فى المقدمة ، ومجموعة أشجار الخيزران على بعد بضع خطوات من المنحدر ، وتلك القمم البعيدة والبيوت الصغيرة العجيبة التى تقع على بعد ألفى قدم فى أسفل الوادى ـ كل هذه حقائق • وأضاف بعبارة معترضة قوله : البعد ـ قدرتها على التعبير عن حقيقة البعد ـ هذا أيضا مما يجعل صور المناظر الطبيعية من الصور الدينية الصادقة •

ـ لأن البعد يضفى على المنظر سحرا ؟

ـ لا • لأنه يضفى واقعا • البعد يذكرنا أن العالم أوسع من أن ينحصر فى أشخاص ، بل أن الأشخاص لهم ما هو اكثر من انفسهم • انه يذكرنا ان هناك ابعادا عقلية داخل رؤوسنا

تبلغ فى ضحامتها هذه الابعاد التى نراها • أن خبرة البعد ، البعد داخل العقل ، وخارج العقل • البعد فى الزمان والبعد فى المكان ــ هذه هى الخبرة الدينية الأولى والأساسية • قال قائل «الموت يمكن فى الحياة ، وهناك أيام لم تعد أياما» ، وأنا أقول هناك أماكن لايحصرها العد ليست هى هذا المكان ! هناك متع انقضى عهدها ، وسعادات ولّت ، وبصائر ــ كلها تحيا فى الذاكرة ، ومع ذلك فهى ميتة ، ميتة ولا أمل فى بعثها • انظر الى هذه القرية فى أسفل الوادى ، واضحة للرؤية حتى فى الظلام ، واقعية لاشك فيها ، ومع ذلك فلا أمل فى بلوغها ، بعيدة عن المنال • انّ صورة كهذه دليل على قدرة الانسان على ان يقبل كل ما فى الحياة من موت ، كل غياب يترك فراغا ولكنه يحيط بكل ماهو موجود • وأضاف الى ذلك فيجايا قوله :عندى ان أسوأ ظاهرة من ظواهر فنكم التجريدى • انه دائما ذو بعدين ، يرفض أن يدخل فى حسابه تجربة البعد العالمية • ان قطعة من التعبير التجريدى قد تكون غاية فى الجمال مثلها فى ذلك مثل الشىء الملون • وهى كذلك يمكن أن تقوم مقام بقع الحبر فى اختبار رورشاخ بصورة أروع • يستطيع كل امرىء أن يجد فيها تعبيرا رمزيا عن مخاوفه وشهواته ومكروهاته وأحلام يقظته • ولكن هل يرى المرء فيها ماهو أكثر من الوقائع الانسانية ، مما يكشفه المرء فى نفسه عندما يواجه عقله بالابعاد الخارجية للطبيعة ، أو بالابعاد الباطنية والخارجية فى آن واحد لصورة منظر

---

(١) اختبار للذكاء وضعه العالم النفسانى السويسرى هرمان رورشاخ استخدم فيه عشر بقع من الحبر ، يطلب من المريض النفسانى أن يقول ما توحى له به هذه البقع • هل يصف البقعة بأكملها أو يصف تفصيلاتها • وأثر اللون والحركة وغير ذلك فى نفسه ــ المترجم •

طبيعى كهذه الصورة التى نراها ؟ (قلت ما هو أكثر من الوقائع الانسانية ، ولعل من الأصح أن أقول ما هو أكثر من الوقائع الانسانية فى صميمها) كل ما عرفه اننى لا أجد فى صوركم التجريدية الحقائق التى تكشف هنا عن نفسها ، وأشك أن احدا غير يستطيع ان يجد فيها هذه الحقائق • ولذلك فان التعبيرية المجردة غير الموضوعية التى تتشدقون بها اليوم ليست دينية فى أساسها • وأستطيع أن أضيف الى ذلك أنها فى أحسن حالاتها مملة تافهة الى أبعد الحدود •

وبعد فترة من الصمت سأله ويل : هل تأتى كثيرا الى هنا ؟

ــ كلما شعرت أنى أوثر التأمل الجماعى على التأمل الفردى •

ــ وكم مرة يكون ذلك ؟

ــ مرة كل أسبوع تقريبا • ولكن هناك بطبيعة الحال من يحب أن يأتى أكثر من ذلك ــ وبعضهم أقل ، أو لايزورون المكان مطلقا • انما يتوقف الأمر على مزاج الشخص • فصديقتنا سوزيلا ــ مثلا ــ بحاجة الى جرعات أكبر من العزلة ، ولذلك فهى قلما تزور غرفة التأمل • فى حين أن شانتا (زوجتى) تحب أن تطل على المكان كل يوم تقريبا •

قالت السيدة راو : وكذلك أنا • ثم قالت وهى تضحك ، غير أن ذلك أمر متوقع • لان السمان يحبون الصحبة حتى وهم يتأملون •

وسأل ويل : وهل تتأملين فى هذه الصورة ؟

ــ لا أتأمل فيها ، بل أتأمل منها ، ان كنت تدرك ماأعنى ،

والأصح أن أقول بمحاذاتها • أنا أنظر اليها ، وينظر اليها الآخرون ، وهى تذكرنا جميعا من نكون ومن لانكون ، وكيف يمكن أن ينقلب مالسنا به الى مانحن به •

وسأل ويل : وهل هناك علاقة • بين ماتتحدثين عنه ، وما شهدته هناك فى معبد شيفا ؟

أجابت : طبعا هناك علاقة • ان عقار الموكشا يقودك الى نفس المكان الذى تبلغه بالتأمل •

— لماذا يأبه المرء اذن بالتأمل ؟

— هذا السؤال كقولك لماذا يأبه المرء بتناول غدائه •

— ولكن عقار الموكشا — وفقا لما تقولين — غداء •

— قالت مؤكدة : انها وليمة، ولذلك كان لابد من التأمل • وأنت لاتستطيع أن تقيم الولائم كل يوم • لان الوليمة دسمة جدا ويبقى أثرها طويلا • ثم ان الولائم يعدها من يتعهد بتقديمها، وليس لك أى دور فى اعدادها • طعامك اليومى أنت تطهوه ، أما عقار الموكشا فهو دعوة خاصة بين الحين والحين •

قال فيجايا : ويمكننا أن نقول — اذا عبرنا بمصطلحات اللاهوت — ان عقار الموكشا يعد المرء لاستقبال النعم بلا مقابل — الرؤى التى تسبق حالة التصوف أو التجارب الصوفية الكاملة • والتأمل طريقة من الطرق التى يشارك بها المرء فى هذه النعم •

— وكيف يكون ذلك ؟

— باستثارة حالة من حالات العقل التى تجعل من الممكن تحويل لمحات النشوة الباطنية الخاطفة الى انارة مستديمة مألوفة • وبمعرفة الانسان نفسه الى درجة لايرغمه فيها

لا شعوره بأن يفعل القبيح ، ويرتكب العبث والباطل مما يفعله المرء فى أكثر الاحيان .

ــ تعنى أنه يساعد المرء على أن يكون أحد ذكاء ؟

ــ ليس أحد ذكاء فيما يتعلق بالعلم والجدل المنطقي ــ وانما أحد ذكاء على مستوى أعمق ، مستوى الخبرة المحسوسة والعلاقات الشخصية .

قالت السيدة راو : أحد ذكاء على هذا المستوى ، حتى ان كان المرء غبياجدا فى المستويات العليا . وربتت على قمة رأسها وقالت : أنا بكماء لا أصلح فيما يصلح له الدكتور روبرت وفيجايا ــ علم الأجنة ، والكيمياء الحيوية والفلسفة وما الى ذلك . وأنا لا أجيد التصوير ولا الشعر ولا التمثيل . ليست عندى مواهب ولا مهارات ، ولذلك كان من الواجب أن أحس النقص الشديد والكآبة . ولكن فى الواقع أنا لا أحس ذلك ــ بفضل عقار الموكشا والتأمل . لا مواهب ولا مهارة . ولكن فى شئون الحياة ، وفهم النــاس ومســاعدتهم ، أشــعر أنى أزداد حساسية ومهــارة . وفيما يســميه فيجايا النعم بغير مقابل ... وهنــا صمتت قليــلا ثم قالت : قد تكون أعظم العباقرة فى العالم ، ولكنك لن تأخــذ أكثر مما أعطيت أنا . أليس كذلك يافيجايا ؟

ــ منتهى الصدق .

ثم عادت الى ويل تقول له : لذلك ترى يامستر فارنبى أن بالا مكان الأغبياء . أكبر سعادة لاكبر عدد من الناس ــ ونحن الاغبياء أكبر الاعداد . النــاس من أمثــال الدكتور روبرت وفيجايا وعزيزى رانجا ــ هؤلاء نعترف بتفوقهم ،

ونعلم تمام العلم أن نوع ذكائهم غاية فى الأهمية • ولكننا نعلم كذلك أن نوع ذكائنا على نفس الدرجة من الأهمية • ونحن لانحسدهم لاننا أعطينا قدر ما أعطوا ، بل أحيانا أكثر مما أعطوا •

قال فيجايا : نعم أحيانا أكثر ، لسبب بسيط ، وهو أن موهبة العمل بالرموز تغرى أصحابها الى اعتياد العمل بالرموز • واعتياد العمل بالرموز عقبة فى سبيل الخبرة المحسوسة وتلقى النعم بلا مقابل •

قالت السيدة راو : لذلك ترى أنك لست بحاجة لان تشعر بالأسف لحالنا • ثم نظرت الى الساعة وقالت : ياالهى ، اذا أنا لم أسرع فسوف أتخلف عن وليمة ديليب •

وسارت مسرعة نحو الباب •

وسخر منها ويل قائلا : الوقت ، الوقت ، الوقت ، الوقت حتى فى هذا المكان للتأمل الذى لا يحده وقت • ان وقت العشاء يقطع الأبدية بدرجة لا رجاء فى اصلاحها • ثم ضحك • وهو من الرافضين دائما ، ويرى أن الرفض هو طبيعة الأشياء •

قالت وهى تبتسم : ولكن أحيانا تقطع الأبدية الوقت ــ حتى وقت العشاء ــ بصورة معجزة • مع السلامة • ولوحت بيدها وانصرفت •

وتساءل ويل بصوت مرتفع وهو يقتفى أثر فيجايا فى ظلام المعبد حتى خرجوا الى وضح النهار • «أيهما أفضل ــ أن تولد غبيا فى مجتمع ذكى ، أو تولد ذكيا فى مجتمع مجنون»؟

قال فيجايا : «ها نحن قد وصلنا» عندما بلغوا نهاية الشارع القصير الذى يربط ما بين السوق وأسفل التل • وفتح بوابة صغيره ، واصطحب ضيفة الى حديقة صغيرة يقع فى أقصاها بيت صغير مسقوف بالقش قائم على ركائز •

ومن خلف البيت اندفع كلب مهجن أصفر اللون وحياهم بنباح مسعور وأخذ يثب هنا وهناك ويهز ذيله تعبيرا عن سروره البالغ • وبعد لحظة هبط ببغاء كبير أخضر اللون ، أبيض الخدين ، منقاره اسود فاحم لامع ، جاء من مكان مجهول وحط فوق كتف فيجايا صائحا ومحدثا ضجة كبرى وهو يرفرف بجناحيه •

قال ويل : الببغاوات لك ، والمينات لمارى ساروجينى الصغيرة • الظاهر أنكم هنا على علاقة طيبة جدا مع حيوانات المنطقة •

وأومأ فيجايا برأسه ايجابا وقال : ربما كانت بالا البلد الوحيد الذى لايجد فيه اللاهوتيون من عالم الحيوان مايدعوهم الى الاعتقاد فى الشياطين • ومن الواضح أن الشيطان ــ عند الحيوان فى كل مكان آخر ــ هو الانسان •

وصعدا السلم للفراندة ومرقا من الباب الخارجى المفتوح ليدخلا حجرة المعيشة الرئيسية فى البيت • وشهدا على مقربة

من النافذة امرأة شابة ترتدى ثيابا أزرق وتجلس فوق مقعد منخفض ترضع وليدها • فرفعت وجهها الذى يشبه فى شكله القلب ، الجبهة عريضة تستدق الى أسفل حتى الذقن المدببة • وحيتهما بابتسامة •

قال فيجـايا وهـو ينحنى ليقبلها : جئت ومعى ويل فارنبى •

ومدت شانتا يدها الطليقة الى الرجل الغريب •

وقالت : أرجو ألا يكون لدى السيد فارنبى اعتراض على الطبيعة فى حالتها البدائية • وأبعد الطفل فمه عن ثدى أمه ذى الحلمة السمراء وتجشأ ، وكأنه يريد أن يؤيد ماتقول أمه • وظهرت بين شفتيه فقـاعة بيضـاء من اللبن ، وانتفخت ثم انفجرت • وتجشأ مرة أخرى ، ثم عاود الرضـاعة • وقالت أمه : ان آداب المائدة عند راما حتى وهو فى الشهر الثامن من عمره بدائية جدا •

قال ويل فى أدب جم : انه نموذج طيب • ولم يكن من المهتمين بالاطفال ، وكان دائما يحمد الله كلما أسقطت مولى حملها ، مع أن مولى كانت تشعر بخيبة الأمل فى اشباع رغبتها فى أن يكون لها ولد •

ثم قال : الى أى منكما سيكون شبيها ــ أنت أم فيجايا ؟

وضحكت شانتا ، وشـارك فيجـايا في الضحك بنغمة مختلفة •

أجابت : انه بالتأكيد لن يشبه فيجايا •

ــ ولم لا ؟

قال فيجايا : لسـبب مقنع ، وهـو أننى لست مسئولا وراثيا ٠

ــ بعبارة أخرى أن الطفل ليس لفيجايا ٠

ونظر ويل الى الوجهين الضاحكين ، ثم هز كتفيه وقال «لقد يئست» ٠

وأوضحت له شانتا الأمر قائلة : منذ أربع سنوات أنجبنا توأمين هما صورتان حيتان لفيجايا ٠ وفكرنا أنه من الأمتع لنا هذه المرة أن نحدث تغييرا كاملا ، فقررنا أن نعزز الأسرة بنوع يختلف كل الاختلاف فى تكوينه البدنى وفى مزاجه ٠ هل سمعت بجوبندسنج ؟

ــ أرانى فيجايا تصويره فى غرفة التأمل ٠

ــ هذا هو الرجل الذى اخترناه أبا لراما ٠

ــ ولكنى فهمت أنه قد مات ٠

وافقته شانتا على ذلك وقالت : ولكن روحه باقية ٠

ــ ماذا تعنين ؟

ــ ج و ت ص

ــ ج و ت ص ؟

ــ نعم التجميد والتلقيح الصناعى ٠

ــ فهمت ٠

قال فيجايا : فى الواقع اننا طورنا التلقيح الصـناعى وسبقناكم فى ذلك بعشرين عاما ٠ ولكنا لم نفـد منه كثيرا بطبيعة الحال حتى توافرت لدينا القوى الكهربائية والثلاجات التى يعتمد عليهـا ٠ ولم نحصـل على ذلك الا فى أواخـر

الثلاثينات · ومنذ ذلك الحين ونحن نستخدم التلقيح الصناعى على نطاق واسع ·

وقاطعته شانتا قائلة : ولذلك فان رضيعى قد يصبح مصورا فى المستقبل ـ أى اذا ورث هذه الموهبة · وحتى اذا لم يكن التصوير من المواهب التى تورث فسوف يختلف فى جوهره ومظهره عن أخويه وعن والديه · مما يكون ممتعا ومجالا للدراسة لكل من يهمه الأمر ·

سأل ويل : وهل يمارس الكثيرون هذا الصنيع ؟

ـ ان عددهم يتزايد · وأستطيع أن أؤكد أن جميع الأزواج الذين يقررون أن يكون لهم طفل ثالث يمارسون التلقيح الصناعى · وكذلك يمارسه عدد كبير ممن لايرغبون فى أكثر من طفلين · خذ أسرتى مثالا · كان من بين أفراد أسرة أبى من يعانون من مرض السكر ، لذلك آثر والداى ـ أبى وأمى ـ أن ينجبا طفليهما بالتلقيح الصناعى · أخى ينحدر من ثلاثة أجيال من الراقصين ، وأنا ـ وراثيا ـ ابنة ابن عم الدكتور روبرت ، مالكولم شاكرا فارتى ماك فيل الذى كان يعمل سكرتيرا خاصا للراجا العجوز ·

وأضاف فيجايا : وهو مؤلف أحسن كتاب فى تاريخ بالا· كان شاكرا فارتى ماك فيل من أقدر رجال جيله ·

ونظر ويل الى شانتا ثم الى فيجايا ·

وسأل : وهل تم توريث هذه القدرة ؟

أجاب فيجايا : الى درجة أنى أجد صعوبة كبرى فى الاحتفاظ بمركزى من حيث تفوق الذكورة · شانتا أحد منى

ذكاء ، ولكنها لاتستطيع ـ لحسن الحظ ـ أن تبلغ شأوى فى القوة العضلية ·

وقالت شانتا بعده متهكمة : القوة العضلية · اننى أذكر قصة عن امرأة شابة اسمها دليلة ·

واستمر فيجايا فى كلامه قائلا : وبهذه المناسبة ، شانتا لها اثنان وثلاثون أخا من أحد الوالدين وتسع وعشرون أختا من أحـد الوالدين · وأكثر من ثلث هـؤلاء من ذوى الذكاء النادر ·

ـ اذن أنتم تحسنون العنصر ·

ـ بكل تأكيد · وبعد قرن آخر يبلغ معدل الذكاء عندنا مائة وخمسين ·

ـ مع أن معدل الذكاء عندنا ، بمعدل التقدم الحـالى ، يهبط الى خمسة وثمانين · ومع تحسن العـلاج الطبى تبقى العيوب الوراثية ويتوارثها الناس ، مما يجعـل الحكم أيسر كثيرا للدكتاتوريين فى المستقبل ·

وأضحكته هذه الفكاهة العالمية · وصمت برهة ثم سأل : وماذا عن التلقيح الصناعى من الناحيتين الخلقية والدينية ؟

قال فيجايا : فى الأيام الخالية كان هناك عدد كبير من المعارضين من أصحاب الضمائر الحية أما اليوم وبعد ما تبينت مزايا التلقيح الصناعى بجلاء فان أكثر الأزواج يرون أنه من الأفضل خلقيا أن يغامروا بالحصول على طفل من صنف متفوق بدلا من أن يخاطروا ـ كالعبيد ـ بأن يثبتوا بالتناسل ما قد يكون هناك من انحراف أو عيوب فى أسرة الزوج · ورجال

الدين مشغولون ، يبررون التلقيح الصناعى بتناسخ الارواح ونظرية كارما (١) • والآباء الاتقياء يشعرون بالسعادة لانهم يعطون أطفال زوجاتهم فرصـة لايجاد مصير أفضل لانفسهم ولذريتهم •

ــ هل قلت مصيرا أفضل ؟

ــ نعم لانهم يحملون جـراثيم وراثية لسـلالة أفضل • والسلالة أفضل لانها مظهر من مظاهر (الكارما) الافضل ، ولدينا بنك مركزى للسـلالات الممتازة لكل أنواع التكوين البدني والامزجة ، في بيئتكم الوراثة عند أكثر الناس لاتجد فرصة طيبة • أما فى بيئتنا فهى تجد فرصة حسنة • وبهذه المناسبة أقول لك ان لدينا سجلاتللانساب والاجناس البشرية ترجع الى السبعينات من القرن التاسع عشر • ومن ثم ترى أننا لانعمل فى الظـلام • ونحن ــ مثـلا ــ نعلم أن جـدة جوبندسنج من ناحية أمه كانت وسيطا موهوبا وعاشت حتى بلغت السادسة بعد التسعين •

قالت شـانتا : ولذلك فنحن قد يكون لدينـا فى الأسرة عرافة فيالمائة من عمره •وتجشأ الطفلمرة أخرى ،وضحكت• ثم قالت : هذا ماخبرتنا به الكاهنة بعبارة مبهمة كالعادة • والتفتت الى فيجايا وقالت له : اذا أردت أن تتناول غداءك فى الميعاد تستطيع أن تعده بنفسك • فان راما سوف يشـغلنى لفترة عشر دقائق أخرى على الأقل •

---

(١) قاعدة فى البوذية تقول بأن المرء يثاب أو يجازى وفقـا لأعماله ــ المترجم •

ونهض فيجايا ، ووضع احدى راحتيه على كتف زوجته ومسح براحته الأخرى برفق شديد ظهر الطفل الأسمر ·

وانحنت شانتا ولمست بخدها قمة رأس الطفل الذى نما فوقه شعر خفيف ، وهمست له قائلة : هـذا أبوك ، أبوك الطيب ، الطيب ···

وربت فيجايا مرة أخرى بلمسة خفيفة ثم انتصب قائما، ووجه خطابه الى ويل قائلا له : كنت تتعجب كيف نعيش عيشة طيبة مع الحيوانات المحلية ، سوف أريك · ورفع يده ، ونادى «بولى ، بولى» · وقفز الطائر الكبير من فوق كتفه ووقف فوق سبابته الممتدة · وأخذ يغني «بولى طائر طيب جدا» · وأرخى يده حتى لامس جسم الطـائر جسد الطفل ثم حـرك الطائر ببطء شديد ، وقد مس ريشه البشرة السمراء ، وكرر الحركة الى الامام والى الخلف ، وهو يكررقوله «بولى طائر طيب جدا» ·

وأخـذ الببغاء يضحك ضحكات خفيفـة ، ثم انحنى من مكانه فوق اصبع فيجايا الى الامام وأخذ يداعب برفق شديد اذن الطفل الصغرى ·

وقالت شانتا مرددة فى همس شديد عبارة فيجايا «انه طيب جدا ، طيب» ·

قال فيجايا : لقد لقط الدكتور أندرو هذه الفكرة حينما كان يشتغل عالما طبيعيا فى (ميلامبوس) · من احدى قبائل غينيا الجديدة · انهم من العصر الحجرى ، ولكنهم مثلكم أنتم المسيحيين ومثلنا نحن البوذيين يعتقدون فى المحبة · وخلافا لكم ولنا اخترعوا طرقا عملية جـدا يجعلون بهـا عقيدتهم واقعا · وكانت هذه الأساليب أحد كشوفهم السعيدة · ربت

على الطفل وأنت تطعمه تضاعف سروره · ثم قدمه وهو يرضع ويتلقى لمسات الحنان الى الحيوان أو الشخص الذى تريده أن يحبه · لامس بجسده جسده · وأوجد بين الطفل ومن تريده أن يحب تلامسا بدنيا دافئا · وفى نفس الوقت كرر لفظة ما مثل قولك (طيب) · انه فى أول الأمر لن يدرك سوى النغمة والصوت · ولكنه سوف يستوعب المعنى كاملا فيما بعد عندما يتعلم الكلام · ذلك أن الطعام مضافا اليه لمسات الحنان مضافا اليه التلامس وكلمة (طيب) يساوى الحب · والحب يساوى السرور ، والحب يساوى الرضا ·

ـ هذا بافلوف بعينه ·

ـ ولكنه بافلوف للاغراض الطيبة فقط · بافلوف من أجل المودة والثقة والرأفة · فى حين أنكم تستخدمون بافلوف فى غسل المخ ، ولبيع السجائر والفودكا ، وتستخدمونه لبث روح الوطنية · تستخدمونه لمصلحة الحكام المستبدين ، وقادة الجيوش ، وكبار رجال المال ·

أبى الكلب الأصفر أن يبقى وحده فى الجو البارد فانضم الى الجماعة وأخذ يلعق كل مايتحسسه بغير تمييز ـ ذراع شانتا ، فيجايا ، قدمى الببغاء ، ظهر الطفل · وجذبت شانتا الكلب اليها ومسحت بفروة جنبه بشرة الطفل ·

وقالت : هذا كلب طيب ، طيب · الكلب توبى طيب ، طيب جدا ، الكلب توبى ·

وضحك ويل قائلا : ألا ينبغى لى أن أدخل فى هذه العملية ؟

أجابت شانتا : هممت أن أقترح عليك ذلك · غير انى خشيت أن يكون ذلك مما لايتفق وكرامتك ·

قال فيجايا : تستطيع أن تحتل مكانى ، فأنا لابد أن أنصرف لكى أعد الغداء ·

وخرج من الباب الذى يؤدى الى المطبخ وهو لايزال يحمل الببغاء · وجذب ويل كرسيه ، وانحنى الى الامام وبدأ يربت على جسد الطفل الصغير ·

وهمست شانتا قائلة : هذا رجل آخر ، انه رجل طيب ياولدى ، رجل طيب ·

وبيسمة خفيفة مكتئبة قال : ياليت هذا كان صحيحا !

ـ انه الآن وفى هذا المكان صحيح · وانحنت مرة أخرى نحو الطفل وكررت قولها «انه رجل طيب ، رجل طيب ، طيب» ·

وحدق فى وجهها المنشرح الباسم فى صمت ، ولمس بأطراف أصابعه جسم الطفل الصغير وأحس نعومته ودفئه · طيب ، طيب ، طيب ··· كان من الممكن أن يعرف كذلك هذه الطيبة ــ لو اختلفت حياته كل الاختلاف عما كانت عليه فى الواقع ، ذلك الواقع المقزز الخالى من المعنى · لذلك لاتصدق كل مايقال لك حتى لو كان مايقال لك صادقا كما هى الحال فى هذه اللحظة · ونظر مرة أخرى بعين قصد أن يلتقط بها قيمة أخرى فشهد كاريكاتورا لاحدى صور ميملنج (١) الدينية · «العذراء والطفل ، الكلب ، بافلوف ، والصداقة

(١) مصور عاش فى القرن الخامس عشر ــ المترجم

الطارئة» وفجأة كاد أن يفهم فى دخيلة نفسه لماذا كره مستر باهو هؤلاء القوم كرها شديدا · لماذا صمم ــ كالعادة وبغير حاجة الى ذكر ذلك ــ باسم الله على تحطيمهم ·

ومازالت شانتا تتمتم لطفلها «طيب ، طيب ، طيب» ·

انهم أطيب مما يجب ــ تلك كانت جريمتهم · ولم تكن الطيبة أمرا مسموحا به ، ومع ذلك ما أثمنها ! وكم تمنى من كل قلبه لو انه كان مشاركا فيها · وقال لنفسه «عاطفية مطلقة !» ثم قال بصوت مرتفع «طيب ، طيب ، طيب» ، وكررها متهكما ·

وسأل : ولكن ماذا يحدث عندما يشب الطفل عن الطوق ويتكشف له أن أمورا عديدة وأشخاصا كثيرين سيئون ، سيئون ، سيئون للغاية ؟

أجابت : المودة تبعث المودة ·

ــ نعم من الودود ، ولكن ليس من الجشعين ، أو من المغرمين بالسلطة ، أو ممن خابت آمالهم أو كانت فى نفوسهم مرارة ، فالمودة عند هؤلاء ضعف ، ودعوة الى الاستغلال ، والتهديد ، والانتقام بغير عقوبة ·

ــ ولكن على المرء أن يخاطر ، وأن يبدأ · وليس هناك ــ لحسن الحظ ــ مخلد · فان الناس الذين تكيفوا على الخداع والتهديد والمرارة سيكونون جميعا من الأموات بعد بضع سنين · سوف يموتون ويحل محلهم رجال ونساء نشأوا على الطريقة الجديدة · ذلك ماحدث لنا ، ومايمكن أن يحدث لكم ·

ـ نعم يمكن ، ولكن مع القنبلة الهيدروجينية والوطنية وزيادة السكان بنسبة خمسين مليونا كل عام ، يكاد ذلك أن يستحيل •

ـ لاتستطيع الحكم حتى تجرب •

ـ ولن نجرب مادامت الدنيا على حالتها الراهنة • وسوف تبقى على هذه الحالة بطبيعة الحال حتى نحاول فعلا • نحاول وننجح على الاقل مثلما نجحتم • ويعود بى هـذا الحديث الى سؤالى الأول • ماذا يحدث لو أن هذا الذى نشـأ على الطيب الطيب الطيب تبين له أن هناك حتى فى بالا كثيرا من السىء السىء السىء ؟ ألا يصـاب مثل هـذا الطفل بصـدمة غـير مستحبة ؟

ـ نحن نحاول أن نطعمهم ضد هذه الصدمات •

ـ كيف ؟ هـل تصـنعون مالايسرهم وهـم لايـزالون صغارا ؟

ـ لاتقـل مالايسرهم ، بل قل ماهـو واقعى • نعلمهم الحب والثقة ، ولكننا نعرضهم للواقع ، الواقع بكل أوجهـه ، ثم نحملهم مسئوليات • نحن نحملهم على أن يدركوا أن بالا ليست جنة عدن أو أرض كوكين (١) • نعم هى مكان جميل ، ولكنه لايكون جميلا الا اذا قام كل من فيه بالعمل الطيب وسلك سلوكا طيبا • لان حقائق الحياة هى حقائق الحيـاة ، حتى هنا •

---

(١) أرض كوكين قصة خرافية شاعت فى العصور الوسطى تتخيل ان فى هذه الأرض كل مالذ وطاب ـ المترجم

ـ وماهى حقائق الحيـاة التى ترينهـا فى تلك الافاعى المروعة التى لقيتها وأنا فى منتصف طريقى فوقهذا المرتفع؟ تستطيعين أن تقولى لها انت طيبة ، طيبة ، طيبة ، وتكررينها ماشئت ، ولكن الأفاعى سوف تعض على الرغم من ذلك ٠

ـ تريد أن تقول انها تستطيع أن تعض ٠ ولكن هل هى سوف تستخدم هذه القدرة فى واقع الأمر ؟

ـ ولم لا ؟

قالت شانتا : انظر هناك ٠ فأدار رأسه ورأى أن ماكانت تشير اليه فجوة فى الحـائط من خلفه ٠ وفى داخـل الفجوة تمثال من الصخر لبـوذا ، فى نصف الحجم الطبيعى ، جالسا فوق قاعدة اسطوانية عليها نقوش عجيبة تعلوه ظلة تشـبه لوحا من الرصاص تتهدل خلفه لترتكز فوق عمود عريض ٠ وواصلت حديثها قائلة «هـذه صـورة مصغرة لبـوذا فى مجمع المحطة ـ ذلك التمثال الضخم القائم الى جـوار بحيرة اللوتس » ٠

قال : هذه قطعة رائعة من فن النحت ٠ والابتسامة على شفتيه تعطى المرء فكرة عن الرؤية البهيجة كيف تكون ٠ ولكن ما علاقة هذا التمثال بالافاعى ؟

ـ أعد النظر

وأعاد النظر ٠ وقال : لا أرى شيئا له دلالة خاصة ٠

ـ أمعن النظر ٠

ومرت ثوان ، لاحظ بعدها ـ وقد صـدمته الدهشة ـ شيئا عجيبا بل ومدعاة للقلق ٠ فما كان يظنه قاعدة اسطوانية

مزخرفة زخرفة عجيبة تبين له فجأة أنه أفعى ضخم ملتف حول نفسه · وتلك الظلة المتدلية التى كان بوذا يجلس تحتها لم تكن سوى قلنسوة مفلطحة لثعبان ضخم ، رأسه المسطح وسط طرفها الأمامى ·

مذاهب الخصوبة ؟ انها لم تقم أى فواصــل · فهل كانت من يكون أحيانا عديم الملاحظة بدرجة عجيبة ·

ــ هل هذه هى المرة الأولى التى تشاهد فيها بوذا على هذه الصورة ؟

ــ أول مرة · هل هناك اسطورة حولها ؟

أومأت برأسها ايجابا وقالت : وهى من الاساطير المحببة الى نفسى · سمعت طبعا عن شجرة بوذى ؟

ــ نعم ، أعرفها ·

ــ لم تكن هــذه الشــجرة الوحيــدة التى جلس تحتهــا جوتاما (١) وقت استنارته · فلقد جلس بعــد شــجرة بوذى لسبعة أيام تحت شجرة من أشجار جزر الهند الشرقية اسمها شجرة جوتهيرد ، انتقل بعدها الى شجرة موشاليندا ·

ــ من هو موشاليندا ·

ــ موشاليندا هو ملك الافاعى · ولما كان من الآلهة فلقد كان يعرف مايحدث ، ولذلك فعندما كان بوذا يجلس تحت شجرته ، كان ملك الافاعى هذا يزحف من جحره ، ممتدا لعدة

---

(١) هذا هو اسم أسرة بوذا ــ اما كلمة بوذا فهى وصف أو لقب ومعناها « العارف » أو « المستنير » أو « الواعى » ــ المترجم

أمتار ، يقدم ولاء الطبيعة للحكمة • وعنـدئذ تهب عاصفة شديدة من الغرب • فيلتف الثعبان المقدس حول جسم الانسان الذى يفـوقه قداسـة ، وينشر ظلته فـوق رأسـه ، ويحمى تاثاجاتا (١) من الريح والمطـر خـلال الأيام السـبعة التى يستغرقها تأمله • ومن ثم فأنت تراه جالسا هناك حتى يومنا هذا ، تحته ثعبان ، وفوقه ثعبان ، وهـو على وعى بالثعبان والضوء الشفاف فى آن واحد ، يدرك مابينهما من تطابق فى النهاية •

قال ويل : ما أشد الخـلاف بين هـذا وبين نظرتنا الى الأفاعى !

ــ ونظرتكم الى الأفاعى هى نظرة الاله اليها ــ هل تذكر ماجاء فى سفر التكوين ؟

وذكر النص وهو «سأغرس العداوة بينك وبين المرأة • وبين ذريتها وذريتك» •

ــ ولكن (الحكمة) لاتغرس العداوة مطلقا • ذلك الصراع الذى لامعنى له ولا هدف منه بين الانسان والطبيعة ، وبين الطبيعة والاله ، وبين الجسد والروح ! (الحكمة) لاتقيم هذه الفواصل التى لاتستند الى العقل •

ــ وكذلك العلم •

ــ الحكمة تأخذ العلم فى ركابها وتخطو به الى أبعد من حدوده •

---

(١) المستنير استنارة كاملة ــ المترجم

وواصل ويل حديثه قائلا : وماذا عن الطوطم ؟ وعن مذاهب الخصوبة ؟ انها لم تقم أى فواصل • فهل كانت من (الحكمة) ؟

ـ بالتأكيد ـ الحكمة البدائية ، الحكمة على مستوى العصر الحجرى • ولكن بعد فترة مايبدأ الناس احساسهم بأنفسهم وتبدو لهم آلهة الظلام القديمة شيئا زريا ، ويتغير المنظر ، وتظهر على خشبة المسرح آلهة النور ، والانبياء ، وفيثاغورس ، وزرادشت ، واليانيون (١) ، والبوذيون الأوائل • وهؤلاء فيما بينهم يبشرون بعصر الصراع الكونى ـ أرموزد ضد اهريمان ، ويهوه ضد الشيطان والأبعال (الآلهة المحلية) ، ونيرفانا ازاء سمسارا ، والظاهر ازاء مثل افلاطون • وباستثناء مايدور فى عقول قلة من أتباع تانترا وماهايانا وتاو ومن الزنادقة المسيحيين ، استمر الصراع قرابة ألفى عام •

وتساءل : وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك كانت تباشير البيولوجيا الحديثة •

ضحك ويل وقال : قال الله (ليكن داروين) فكان نيتشه والامبريالية وأدولف هتلر •

قالت : نعم حدث هذا ، ولكن كان هناك أيضا امكان وجود نوع جديد من الحكمة لكل انسان • أخذ داروين الطوطمة القديمة ورفعها الى مستوى علم الأحياء • وعادت

(١) اتباع مذهب من المذاهب الدينية الشبيهة بالبوذية والتى انتشرت فى جزر الهند الشرقية ـ المترجم

مذاهب الخصوبة القديمة فى صورة علم السلالات وهافلوك أليس · وعلينا الآن أن نخطو خطوة أخرى الى الامام · كانت الدروراينيه عبارة عن مفاهيم علمية ترتكز على حكمة العصر الحجرى · والحكمة الجديدة التى يعيها الانسان ــ أعنى نوع الحكمة التى تنبأ بها بصورة خاطفة زن وتاو وتانترا ــ نظرية بيولوجية متحققة فى ممارسة حية ، هى الداروينية مرتفعة الى مستوى الرأفة والبصـــيرة الروحانية · وختمت حـــديثها قائلة : ومن ثم تــرى أنه ليس هنـــاك سبب فوق الارض ــ وبالتالى ليس هناك سبب فى السماء ــ يمنع بوذا أو غيره فى هذا المجال من أن يرى الضوء الشفاف متمثلا فى الثعبان ·

ــ على الرغم من أن الثعبان قد يقتله ؟

ــ نعم على الرغم من ذلك ·

ــ وعلى الرغـــم من أنه أقـــدم رمـــوز الجنس وأكثرها شيوعا ؟

ضحكت شانتا وقالت : تأملا تحت شجرة موشالندا ــ هذه هى النصيحة التى نسديها لكل عاشقين · وأثناء تأملات الحب هذه اذكرا ماتعلمتما فى الصغر · الافاعى اخوتكم ، للافاعى حق الرأفة والاحترام منكم ، الافاعى بايجاز طيبة · طيبة ، طيبة ·

ــ والافاعى كذلك سامة ، سامة ، سامة ·

ــ ولكنك ان تذكرت أنها طيبة كما هى سامة ، وتصرفت على هذا الاساس ، فهى لن تستخدم سمومها ·

ــ من قال هذا ؟

ـ هى حقيقة ملحوظة ٠ أولئك الذين لاتفزعهم الافاعى، وأولئك الذين يقتربون منها وليس فى عقولهم عقيدة ثابتة بأن الافعى لاتكون طيبة الا بعد موتها ، أولئك قلما تعضهم الأفاعى ٠ فى الأسبوع القادم سوف أستعير حية جارنا التى يتلهى بها ٠ وسوف أعطى راما غداءه وعشاءه لبضعة أيام فى ثنايا لفائف هذه الحية ٠

وأتى من خارج المنزل صوت ضحكات عالية ، ثم صخب من أصوات الاطفال يقاطع أحدهم الآخر بالانجليزية وبلغة أهل بالا ٠ وبعد لحظة دخلت الغرفة مارى ساروجينى فارعة القوام عليها سيما الامومة اذا وازنتها بمن معها ، يحيط بها توأمان متشابهان يبلغ عمر كل منهما أربعة أعوام ، ويسير خلفها طفل قوى جميل الصورة ، هو الطفل الذى كان يرافقها عندما فتح ويل عينيه على بالا لأول مرة ٠

ارتمى التوأمان فوق أمهما وقالت مارى ساروجينى عندئذ «التقطنا تارا وأرجونا من روضة الأطفال» ٠

حملت شانتا الرضيع فوق احدى ذراعيها ، وطوقت بالاخرى الصبيين الصغيرين ، وتبسمت شاكرة وقالت : هذا فضل منك ٠

وقال توم كريشنا «مرحبا بكم» ٠ وتقدم خطوة الى الامام ، وبعد لحظة من التردد قال : كنت أفكر ٠٠٠ ثم كف عن الكلام ، ونظر الى أخته كأنه يوجه اليها سؤالا ٠ وهزت مارى ساروجينى رأسها ٠

وسألته شانتا : فيم كنت تفكر ؟

ـ في الواقع كان كلانا يفكر .. هل يمكن أن نتناول الطعام معك ؟

وتطلعت شانتا الى توم كريشنا وماري ساروجيني على التناوب وقالت : الافضل أن تذهب الى فيجايا وتسأله ان كان هناك مايكفي اطعامكما . فهو الذي يقوم بالطهو اليوم .

وقال توم كريشنا في فتور : سوف أذهب . وبخطى متثاقلة عبر الغرفة وخرج من بابها الى المطبخ . ونظرت شانتا الى ماري ساروجيني تسألها : ماذا حدث ؟

ـ لقد حذرته أمه على الاقل خمسين مرة انها لاتحب أن يحضر معه السحالي الى البيت ، ولكنه أتى بها هذا الصباح . ولذلك غضبت عليه .

ـ فقررتما أن تتناولا الطعام هنا ؟

ـ اذا لم يوافقك هذا ياشانتا حاولنا راوس أو راجاجينا داساس .

وأكدت لها شانتا أن هذا يوافقها كل الموافقة وقالت : انما طاف بخاطري أنه من الخير لتوم كريشنا أن يتبادل الحديث مع فيجايا .

قالت ماري ساروجيني جادة : أصبت تماما . وبصوت جاد نادت تارا وأرجونا لكي يصحباها الى الحمام ، وقالت لشانتا وهي تسير أمامهما : سوف نغتسل . انهما في غاية القذارة .

وانتظر ويل حتى ابتعدوا بحيث لايستطيعون السمع ،

والتفت الى شانتا وقال : أعتقد أننى شاهدت الآن على الطبيعة ناديا من نوادى التبنى المتبادل ٠

قالت شانتا : نعم ، ولكنك ــ لحسن الحظ ــ شهدته بصورة مخففة ٠ لان توم كريشـنا ومارى سـاروجينى يتفقان مع أمهما اتفاقا يلفت النظر ٠ وليس فى هـذه الحـالة مشكلة شخصية ــ فقط مشكلة المصير ، المشكلة الضـخمة المخيفة ــ مشكلة موت ديوجولد ٠

سأل : وهل سوف تتزوج سوزيلا مرة أخرى ؟

ــ أرجـو ذلك ٠ فهـو فى مصلحة الجميع ٠ من صـالح الاطفال أن ينفقوا بعض الوقت مع نائب من نواب أبيهم ٠ فى مصلحة توم بصفة خاصة ، فقد بلغ السن التى يكتشف فيها الصبى ذكورته ٠ انه لايزال يصيح كالرضـيع ، ولكن بعد لحظة تراه يتباهى ويتفاخر ويحضر السحالى معـه الى البيت ليثبت أنه رجل مائتين فى المائة ٠ من أجل هذا بعثت به الى فيجايا ، لان فيجايا فيه كل الصفات التى يحب توم كريشنا أن يكون عليها ٠ يبلغ من الطول ثلاث ياردات ، ومن العرض ياردتين ، قوى للغاية ، قادر قدرة عظيمة ٠ فاذا ما أرشد توم كريشنا الى السلوك الصحيح أصغى اليه ، ولو أسديت له أنا أو أمه نفس النصيحة ما أصغى الينا ٠ مع أن فيجايا لاينصحه الا بما ننصحه به ٠ لان توم ــ فوق انه ذكر مائتين فى المائةــ حساس للانوثة خمسين فى المائة ٠ ولهذا فهو فى الواقع قد بدأ حياته الجدية ٠ ثم ختمت حديثها وهى تتطلع الى الرضيع النائم فوق ذراعها وقالت : والآن لابد أن أضع هـذا الرجل الصغير فى فراشه واستعد للغداء ٠

- ١٣ -

بعد ما انتهى التوأمان من الاستحمام وتسريح الشعر جلسا فوق مقعديهما المرتفعين · وحومت مارى ساروجينى حولهما أما فخورة بهما قلقة عليهما · وعند الفرن كان فيجايا يغرف الأرز والخضراوات من اناء من الفخار · وبحذر شديد وتعبير على وجهه ينم عن تركيز الفكر حمل توم كريشنا الأطباق بعد ملئها الى مائدة الطعام ·

قال فيجايا بعد ما انتهى من ملء الطبق الاخير «انتهينا» · ومسح يديه وسار نحو المائدة واتخذ له مقعدا ، ثم وجه خطابه الى شانتا قائلا لها : يحسن أن تخبرى ضيوفنا بطريقة صلاتنا قبل البدء فى الطعام ·

فالتفتت الى ويل وقالت : فى بالا نحن لانصلى صلاة المائدة قبل تناول الطعام · انما نصليها ونحن نتناوله · ولعل الاصح أن أقول اننا لانقول الدعاء وانما نمضغه ·

ـ تمضغونه ؟

قالت : صلاة المائدة هى اللقمة الأولى من كل طبق من أطباق الطعام ـ نمضغها ونمضغها حتى لايبقى شىء منها · وفى أثناء المضغ نوجه انتباهنا الى نكهة الطعام ودرجة نضجه وحرارته ، كما نوجه الانتباه الى الضغط الواقع على الاسنان واحساس عضلات الفكين ·

ـ وأظنكم أثناء ذلك تشكرون الواحد المستنير ، أو شيفا ، أو أيا كان ماتقدسونه ؟

وهزت شانتا رأسها مؤكدة قولها : ان ذلك يشتت الانتباه • وتركيز الانتباه هو المقصود • الانتباه الى ممارسة شيء أعطيته ، شيء لم تخترعه • وليس تذكر صيغة من الكلمات موجهة الى شخص ما فى خيالك • وأدارت عينيها حول المائدة ، وقالت : هل نبدأ الآن ؟

صاح التوأمان بصوت واحد «هيا» والتقط كل منهما ملعقته •

ولبرهة طويلة ساد الصمت الذى لم يسمع فيه سوى طقطقة التوأمين بشفاههما لانهما لم يتعلما بعد أن يأكلا الا بهذه الطريقة •

وأخيرا سأل أحد الصغار «هل نبلع الآن ؟»

وأومأت شانتا برأسها موافقة • وقام الجميع بابتلاع الطعام • وحدثت بعد ذلك قرقعة بالملاعق وتفجر الكلام من الافواه الممتلئة •

وسألت شانتا : كيف أحسست بالنعمة ؟

قال ويل : أحسست مذاق أشياء مختلفة تتتابع • أو لعله من الأصح أن أقول انها صور مختلفة متتابعة من الموضوع الرئيسى الذى يتألف من الارز والكركم والفلفل الأحمر (الشطة) وشيء مورق لم أتبينه وغير ذلك • ومن الممتع حقا أن المذاق لم يثبت على شكل واحد • اننى فى الواقع لم ألاحظ ذلك من قبل •

ـ وبينما كنت تتنبه الى هذه الاشياء كنت لوقت ما تتخلص من أحلامك فى اليقظة ، ومن ذكرياتك ، ومن طموحاتك ، ومن الآراء السخيفة ـ من كل أعراض (ذاتك) ·

ـ تقصدين لا أتذوق (نفسى) ؟

ونظرت شانتا الى الطرف الآخر من المائدة حيث كان زوجها ، وسألته : مارأيك يافيجايا ؟

قال : الأمر وسط بين من أنا ومن لست أنا · التذوق هو اللا أنا يقوم بشىء لكل كيانى العضوى · والتذوق فى الوقت نفسه هو أنا فى حالة وعى بما يحدث · وهذا هو مغزى صلاة المائدة بالمضغ ـ أن أجعل الأنا أكثر وعيا بما يقوم به اللا أنا ·

وعلق على ذلك ويل بقوله : جميل ، ولكن ما مغزى هذا المغزى ؟

وتصدت شانتا للجواب وقالت : مغزى المغزى هو أنك حينما تتعلم أن توجه مزيدا من الانتباه الى كثير مما هو ليس أنت فى هذا المحيط (أعنى الطعام) والى كثير مما هو ليس أنت فى كيانك (أعنى احساسك بالتذوق) ربما وجدت نفسك فجأة متنبها الى ما ليس أنت فى الجانب الآخر من الوعى ثم قالت : وربما كان من الأفضل أن نعبر عن ذلك بطريقة مخالفة فنقول ان ماليس أنت على الجانب الآخر من الوعى يجد أنه من الايسر له أن يجعل نفسه معروفا لك أنت الذى تعلمت أن تكون أكثر وعيا بما لست أنت فى جانب الفسيولوجيا (وظائف الاعضاء) · وحدث صوت تصادم أعقبه صراخ من أحد التوأمين فقطع ذلك عليها حديثها ، وبعد ما مسحت

ما انسكب على الارض ، واصلت حديثها قائلة : وبعد ذلك على المرء أن يفكر فى مشكلة الأنا واللا أنا من حيث علاقتهما بالناس الذين يبلغ طول الواحد منهم أقل من اثنين وأربعين بوصة · من يجد لذلك حلا مضمونا له جائزة قدرها ستة بلايين وأربعمائة ألف روبية · ومسحت عينى الطفل ، وجعلته ينظف أنفه ، ثم قبلته وذهبت الى الفرن لتأتى بطبق آخر من الأرز ·

وبعد ما انتهى الغداء سأل فيجايا : ماهى أعمالكم بعد ظهر اليوم ؟

أجاب توم كريشنا جادا : علينا واجب خاص بالفزاعة (١) ·

قالت ساروجينى : فى الحقل الذى يقع تحت المدرسة ·

قال فيجايا : اذن سأحملكما الى هناك فى العربة والتفت الى ويل فارنبى وقال : هل تحب أن ترافقنا ؟

أومأ ويل برأسه موافقا ، ثم قال : ولو سمح لى ، أود أن أزور المدرسة ، وأنا قريب منها ، وربما حضرت بعض الدروس فى الفصول ·

ولوحت لهم شانتا من الفراندة مودعة ، وبعد بضع دقائق بلغوا عربة الجيب المركونة ·

قال فيجايا وهو يدير محرك السيارة : المدرسة فى الطرف الآخر من القرية · وعلينا أن نسلك الطريق الجانبى الى أسفل ثم نصعد ثانية ·

---

(١) الفزاعة ما ينصب فى المزرعة لتخويف الطير ـ المترجم

وانحدروا خلال الحقول التى تحيط بها المصاطب ، حقول الارز والذرة والبطاطا ، ثم ساروا فوق ارض مستوية ، وعلى يسارهم بركة اسماك صغيرة كثيرة الوحل ، وعلى يمينهم بستان من أشجار ثمرة الخبز ، واخيرا بلغوا حقولا أخرى ، بعضها أخضر ، وبعضها الآخر ذهبى ــ وهناك ظهرت المدرسة ، فسيحة بيضاء تظللها أشجار باسقة ٠

قالت مارى ساروجينى : ــ هناك تقبع الفزاعات

ونظر ويل فى الاتجاه الذى كانت تشير اليه ٠ ولاحظ ان الأرزالأصفر الذىينمو فى أقربالحقول المحاطة بالمصالبكاد أن يستحق الحصاد ٠ وكان هناك صبيان صغيران يرتدى كل منهما ازارا قرنفلى اللون وفتاة صغيرة رداؤها الاسفل ازرق اللون ، وثلاثهتم يتناوبون جذب الخيوط التى تحرك عرائس فى الجحيم الطبيعى متصلة بأعمدة على جانبى الحقل الضيق ٠ والعرائس من الخشب منحــوته نحتــا جميلا وليست مكسوة بالخرق وانما بأردية فاخرة ٠ وتطلع اليها ويل فى دهشة ٠

وصاح : ان سليمان بكل ماكان له من أمجاد لم يمكن فى زى هذه العرائس ٠

واسترسل فى خياله وذكر ان سليمان لم يكن الا ملكا من الملوك ، أما هذه الفزاعات الفاخرة فهى كائنــات من مرتبة أعلى ٠ احداها بوذا المستقبل ، والأخرى تمثل الآب عند أهل جزر الهند الشرقية مرحا مبتهجا ، الآب كما يراه الرائى فى

كنيسة سيستين (١) وهو ينحنى على آدم ذلك المخلوق الجديد · وعند كل جذبة للخيط حرك بوذا المستقبل رأسه وباعد بين ساقيه فلا يكونان فى شكل اللوتس ، ثم رقص رقصة أسبانية فى الهواء ، ثم ضم ساقيه مرة أخرى وجلس لحظة بلا حراك ، حتى كانت جذبة أخرى للخيط تفيقه من تأملاته · وفى تلك الاثناء يلوح الآب بذراعه الممتدة ، ويهز سبابته منذرا ، ويفتح ويضم فمه الذى يحيط به الشعر كالحصان ، ويدير عينين من الزجاج تشع منهما نار الوعيد يهدد بها أى طائر يجسر على الاقتراب من الارز · وهبت أثناء ذلك ريح عاتية رفرفت من شدتها أرديته ذات اللون الأصفر الفاقع الموشحة بتطريز بارز ـ بنى وابيض واسود ـ يمثل النمور والقردة · فى حين أن ثياب بوذا المستقبل الفاخرة المصنوعة من حرير الرايون الاحمر والبرتقالى تنتفخ وتلتف حوله ، وبها عشرات من الاجراس الصغيرة الفضية تشنشن بغير توقف ·

سأل ويل : هل كل الفزاعات عندكم مثل هذه ؟

أجاب فيجايا : تلك كانت فكرة راجاالعجوز · أراد أن يجعل الاطفال تدرك أن كل الآلهة من صنع الانسان ، ونحن الذين نشد خيوطهم لنزودهم بالقوة التى يشدون بها خيوطنا ·

قال توم كريشنا : نجعلهم يرقصون ، ونجعلهم يهتزون وضحك مسرورا ·

ومد فيجايا يدا غليظة ربت بها على رأس الطفل الاسمر

---

(١) احدى روائع الفاتيكان ، وهى الكنيسة الخاصة بالبابوات شيدت فى عام ١٤٧٣ ـ المترجم

ذى الشعر المجعد ، وقال «أحيى فيك هذه الروح» ثم التفت ثانية الى ويل وقال باسلوب شبيه باسلوب راجا العجوز بشكل واضح «ان الصفة الوحيدة الكبرى التى تميز «الآلهة» (بغض النظر عن تخويف الطيور والآثمين ومواساة البائسين أحيانا) تنحصر فى هذا : انها ترتفع فوق الاعمدة ، ولذلك فان الناظر اليها يتطلع الى أعلى • وعندما يتطلع انسان الى أعلى ـ حتى ان كان الى الاله ، لايمكنه الا أن يرى السماء • وما أدراك ما السماء ؟ انها هواء وضوء منتشر ، ولكنها كذلك رمز للفضاء الذى لايحد ، الفضاء الحامل (واعذرنى فى هذه الاستعارة) الذى منه يخرج كل شىء ، الحى وغير الحى ، صانعو العرائس وعرائسهم المقدسة ، يخرج الى العالم الذى نعرفه ـ أو على الاصح العالم الذى نظن أننا نعرفه •

وكانت مارى ساروجينى تصيخ لهذا الحديث فهزت رأسها موافقة عليه ، وتطوعت بقولها : كان أبى يقول ان النظر الى الطيور فى السماء أفضل • واعتاد أن يقول ان الطيور ليست ألفاظا ، انما هى حقائق ، حقائق كالسماء ذاتها وأوقف فيجايا العربة ، وقال والاطفال يقفزون منها «أتمنى لكم وقتا ممتعا • اجعيهلم يرقصون ويهتزون» •

وهرع توم كريشنا ومارى ساروجينى صائحين مهطعين لكى يلحقا بالمجموعة الصغيرة التى كانت فى الحقل الواقع فى أسفل الطريق •

وأدار فيجايا عربة الجيب الى الطريق المؤدية الى المدرسة وقال : لننتقل الآن الى الأوجه التربوية الجادة • سوف أترك العربة هنا وأعود الى المحطة سيرا على قدمى ، وبعد ماتنتهى

من جولتك اطلب الى غيرى أن يسوق لك العربة حتى البيت .
وأطفأ كهرباء العربة وسلم مفتاحها الى ويل .

وفى مكتب المدرسة كانت السيدة نارايان مديرة المدرسة تتحدث من خلف الطاولة الى رجل ذى شعر أبيض ووجه مستطيل حزين كوجه كلب من كلاب الشرطة تظهر عليه خطوط وتجاعيد .

وعند تقديم كل فرد الى الآخر قال فيجايا : هذا مستر شاندرا مينون وكيل الوزارة عندنا .

قالت المديرة : وهو يقوم الآن بدورة تفتيشية لنا .

وأضاف الى ذلك وكيل الوزارة وقد أحنى ظهره احتراما للسيدة نارايان وهو يواجهها «وأنا أوافق كل الموافقة على ماكل ماشهدت» .

قال فيجايا معتذرا وهو يتجه نحو الباب : لابد أن أعود الى عملى .

وسأل مستر مينون : هل تهمك التربية بصفة خاصة ؟

أجاب ويل : بل الأصح أن تقول اننى جاهل بها بصفة خاصة . نشأونى ولم يربونى . ولذلك أحب أن أرى التربية على حقيقتها .

وأكد له وكيل الوزارة أنه جاء الى المكان الصحيح «لان روذامستد الجديدة من أحسن مدارسنا» .

سأل ويل : وبماذا تقيسون جودة المدرسة ؟

ـ بالنجاح .

ـ النجاح فى أى شىء ؟ الحصول على المنح الدراسية ؟ أم الاعـداد للوظيفـة ؟ أم اطاعة الاوامـر على إطـلاقها بغير شرط ؟

قال المستر مينـونون : كل ذلك • ويبقى السؤال الأساسى • لماذا يكون لنا بنون وبنات ؟

هز ويل كتفيه وقال : الاجابة تتوقف على الموطن • مثلا لماذا يكون هناك بنون وبنات فى أمريكا ؟ الاجابة : للاستهلاك على نطاق كبير • ويترتب على الاستهلاك على نطـاق كبير الاتصال الجمـاهيرى ، والاعـلان الجماهيرى ، والمخـدرات الجمـاهيرية متمثلة فى التـلفزيون ، والتفكير الوضـعى والسجائر • والآن بعد ما دخلت اوربا فى تجربة الانتاج على نطـاق واسع ، لمـاذا يكون لهم بنون وبنـات ؟ للاسـتهلاك الجمـاهيرى ، ومايترتب عليه ـ شـأنهم فى ذلك شأن البنين والبنات فى أمريكا • فى حين أن فى روسيا اجابة أخرى • البنون والبنات لتقوية الدولة الوطنية • ومن ثم كان هناك كل هؤلاء المهندسين ومعلمى العلوم ، وخمسون فرقة عسكرية مستعدة للضرب المباغت ومجهزة بكل شىء من الدبابات الى القنابل الهيدروجينية والصواريخ بعيدة المـدى • والأمـر كذلك فى الصين ، مع المبالغة فيه • لماذا يكون لديهم بنـون وبنات ؟ ليكونوا وقودا للمدافع ، وقودا للصـناعة ، وقودا للزراعة ، وقودا لبناء الطرق • ولذلك فالشرق شرق والغرب غرب ـ فى الوقت الراهن • ولكن الشرق والغرب قد يلتقيان باحدى طريقتين • الغـرب قد يخشى الشرق الى الحـد الذى يجعله يتخلى عن فكرته من أن البنين والبنات للاسـتهلاك على نطاق واسع ، ويقرر ـ بدلا من ذلك ـ من أنهم وقود للمدافع

وأنهم لتعزيز قوى الدولة • ومن الناحية الاخرى فان الشرق قد يجد نفسه تحت ضغط الجماهير التواقة للاجهزة والتى تتحرق شوقا لكى تحيا حياة أهل الغرب ، الى الحد الذى يجعل الشرق يغير وجهة نظره ويقول ان البنين والبنات هم فى الواقع للاستهلاك على نطاق كبير • ذلك ماسوف يقرره المستقبل • أما الآن فالاجابات الحالية عن سؤالك متعددة تستبعد كل اجابة منها الاخرى •

قال مستر مينون : والاجابة فى الشرق والغرب على السواء تختلف عن الاجابة عندنا • لماذا يكون لأهل بالا بنون وبنات ؟ انهم ليسوا للاستهلاك الكبير ولا لتعزيز الدولة • نعم ان الدولة لابد أن توجد ، ولابد أن يتوافر لكل امرىء مايكفيه • هذا أمر لايحتاج الى نقاش ، وبهذين الشرطين يستطيع البنون والبنات أن يتبينوا مايراد بهم فى الواقع — بهذين الشرطين فقط نستطيع أن نبرم أمرا •

— ولماذا يكون عندكم — فى واقع الأمر — بنون وبنات ؟

— لكى يحققوا ذواتهم ، لكى يصبحوا كائنات بشرية ناضجة •

وأومأ ويل برأسه ايجابا وعلق على ذلك بقوله : هذا ماجاء فى «مذكرات عن حقائق الاشياء • جاء فى هذه المذكرات «كن من أنت فى الواقع» •

قال مستر مينون : كان الراجا العجوز مهتما أساسا بالناس كما هم فى الواقع على المستوى الذى يجاوز الفردية • وبطبيعة الحال نحن من هذه الناحية لا نقل عنه اهتماما • ولكن

همنا الاول هو التعليم الاولى . والتعليم الاولى يعالج الافراد على اختلاف أشكالهم وأحجامهم وأمزجتهم ومواهبهم ونقائصهم . أما الافراد فى وحدتهم التى تجاوز وجودهم المادى فهم من شأن التعليم العالى . ويبدأ ذلك فى سن المراهقة وهو يسير جنبا الى جنب مع التعليم الأولى فى مرحلته المتقدمة .

قال ويل : فهمت انه يبدأ مع تجربة عقار الموكشا لأول مرة .

— هل سمعت عن عقار الموكشا ؟

— شهدته وهو يفعل فعله .

وأوضحت ذلك المديرة بقولها : لقد أخذه الدكتور روبرت بالامس ليشهد حفلا من حفلاته .

وأضاف ويل : ولقد ترك فى هذا الحفل أثرا عميقا . اننى حينما أفكر فى تربيتى الدينية ... ولم يكمل العبارة فكان بذلك أفصح منه لو أكملها .

وواصل مستر مينون حديثه قائلا : المراهقون — كما كنت أقول — يتلقون النوعين من التربية فى آن واحد . نساعدهم فى ممارسة وحدتهم التى تجاوز وجودهم المادى ، وحدتهم مع كل الكائنات الحساسة الاخرى ، ونعلمهم فى الوقت نفسه فى فصول السيكولوجيا والفسيولوجيا ان كل فرد منا له تكوينه الذى يتفرد به ، وان كل امرىء يختلف عن كل امرىء آخر .

قال ويل : عندما كنت فى المدرسة بذل المربون جهدهم

لكى يزيلوا هذه الفوارق ، أو على الأقل يكسونها بنفس المثل التى سادت فى الفترة المتأخرة منحكم الملكة فكتوريا ــ حينما كان المثل الاعلى أن يكون المرء رجلا مهذبا دارسا انجليكانيا لاعبا للكرة . والآن خبرنى ماذا تصنعون وأنتم تعلمون أن كل امرىء يختلف عن كل امرىء آخر .

قال مستر مينون : نبدأ بتحديد الفوارق ــ من هذا الطفل بالضبط أو ماهو من حيث التشريح والكيمياء الحيوية والسيكولوجيا ؟ وفى المراتب العضوية أى هذه الاجهزة له عنده الاسبقية : الامعاء ، أم العضلات ، أم الجهاز العصبى ؟ ما مدى اقترابه من هذه الحدود المحورية الثلاثة ؟ ومزيج عناصره التى يتألف منها ، بدنية كانت أم عقلية ، الى أى حد هى منسجمة والى حد هى متنافرة ؟ ورغباته الموروثة ، ما مقدار حجمها من حيث حب السيطرة ، والروح الاجتماعية ، والانزواء فى عالمه الداخلى ؟ كيف يقوم بالتفكير والادراك الحسى والتذكر ؟ هل هو ممن يتعملون بالنظر أو من غير هؤلاء ؟ هل يعمل عقله بالصور أو بالالفاظ ، أو بهما معا فى آن واحد ، أو بغير هذا وذاك ؟ وقدرته على رواية القصص ، الى حد هى قريبة من السطح ؟ هل يرى العالم كما كان يراه وردزورث (١) وتراهيرن (٢) حينما كانا فى عهد الطفولة ؟ واذا كان كذلك ماذا نعمل لكى نحول دون أن يتلاشى تألق النفس ونضرتها فى ضوء النهارالمشترك بين الناس أجمعين ؟ وبعبارة أعم ، كيف نربى الاطفال على مستوى المفاهيم دون

---

(١) شاعر رومانيكى انجليزى ــ المترجم

(٢) رجل انجليزى من رجال الدين عاش فى القرن السابع عشر وله شعر صوفى ــ المترجم

أن نقتل قدرتهم على الخبرة المركزة التى لايعبر عنها باللفظ؟ وكيف نوفق بين التحليل والرؤيا ؟ وهناك أسئلة عديدة أخرى يجب أن نسألها وأن نجيب عنها . مثلا ، هل هذا الطفل يمتص كل الفيتامينات التى يحتويها طعامه ، أم هل هو عرضة لنقص مستديم اذا نحن لم نتعرف عليه ونعالجه يحد من حيويته ، ويظلم مزاجه ، ويجعله يرى القبح ، ويحس الملل ، ويفكر تفكير الأحمق والحاقد ؟ وماذا عن مقدار السكر فى دمه ، وعن تنفسه ، وعن وقفته وجلسته والطريقة التى يستخدم بها كيانه العضوى حينما يعمل ، أو يلعب أو يدرس ؟ ثم هناك أيضا تلك الاسئلة التى تتعلق بمواهبه الخاصة . هل تبدو عليه امارات تدل على أن له موهبة موسيقية ، أو حسابية ، أو موهبة فى تناول الالفاظ ، ودقة الملاحظة والتفكير المنطقى والخيالى فيما يلاحظه ؟ وأخيرا الى حد سوف يستجيب للايحاء عندما يكبر ؟

ان كل الاطفال أفراد يسهل التأثير عليهم بالتنويم المغناطيسى ـ وهم فى هذا وسطاء جيدون لدرجة أن كل أربعة من خمسة منهم يمكن أن يساقوا بالكلام حتى يستطيعوا المشى وهم نيام . فى حين أن النسبة على عكس ذلك مع البالغين . فأربعة من كل خمسة منهم لايمكن اطلاقا أن تحادثهم حتى يستطيعوا المشى وهم نيام . واذا أخذنا مائة من الاطفال عشوائيا ، من هم العشرون طفلا الذين سوف يكبرون ويصبحون قابلين للايحاء الى حد المشى وهم نيام ؟

سأل ويل : وهل تستطيعون أن تحددوهم مسبقا ؟ ثم ماجدوى ذلك ان كان هذا ممكنا ؟

أجاب مستر مينون : نعم نستطيع أن نحـددهم • ومن الأهمية بمكان أن نتعرف عليهم • بل هو أكثر أهمية فى عالمكم الذى تعيشون فيه • فمن الناحية السياسية تجد أن العشرين فى المائة الذين يمكن تنويمهم مغناطيسيا بسـهولة والى حد معين هم أخطر العناصر فى مجتمعاتكم •

ـ أخطر العناصر ؟

ـ نعم لان هؤلاء هم الذين قدر لهم أن يكونوا ضـحايا الدعاة • فى الديمقراطيات القديمة فيما قبل العصر العلمى كان الخطيب الذى يسحر بلفظه والذى يستند الى تنظيم من ورائه يستطيع أن يحول هذه العشرين فى المائة ممن عندهم استعداد للمشى أثناء النوم الى جيش منظم من المتعصبين الذين يكرسون حياتهم لجلب المزيد من المجد والسلطة للرجل الذى قام بتنويمهم • وفى ظل النظام الدكتاتورى هؤلاء المنومون أنفسهم يمكن التحدث اليهم واقناعهم بعقيدة معينة ويمكن تعبئتهم ليكونوا نواة قوية للحزب الذى يقدر على كل شىء • ومن ثم ترى أنه من الاهمية بمكان لأى مجتمع يقيم للحرية قدرها أن يكون باستطاعته أن يتعرف على أولئك الذين يمكن فى المستقبل تنويمهم وهم لما يزالون فى الصغر • وبعد مايتم التعـرف عليهم ينـومون ويدربون تدريبـا منظما على ألا يستسلموا لتنويم أعداء الحـرية • ومن الافضـل ـ بطبيعة الحال ـ اعـادة تنظيم المؤسسات الاجتماعية لكى يصـبح من العسير أو المستحيل أن يظهروا أو أن يكون لهم أى تأثير •

ـ وهذه هى الحال عندكم فى بالا على ما أظن ؟

قال مسـتر مينـون : تمـاما • ولذلك فان الذين لديهم الاستعداد لتلقى التنويم لايشكلون خطرا ما •

ـ لماذا اذن تجشمون أنفسكم مشقة التعرف عليهم مقدما ؟

ـ لأن موهبتهم لها قيمة كبرى اذا أحسن استخدامها ·

سأل ويل : هل ذلك للتحكم فى المصير ؟ وتذكر ذلك الأوز العراقى الذى يستخدم فى العلاج النفسى ، وكل ماقالت سوزيلا بشأن امكان الضغط على أزرار النفس الذى يقوم به كل امرىء لنفسه ·

هز وكيل الوزارة رأسه وقال : ان التحكم فى المصير لايتطلب شيئا أكثر من غيبوبة خفيفة · وكل امرىء تقريبا قادر على ذلك · أما أولئك المستعدون لاستقبال التنويم فهم العشرون فى المائة الذين يمكن أن يروحوا فى غيبوبة عميقة · وفى الغيبوبة العميقة وحدها دون سواها يمكن تعليم الشخص كيف يتلاعب بالزمن ·

وسأل ويل : وهل تستطيع أنت أن تتلاعب بالزمن ؟

هز مستر مينون رأسه وقال : لسوء حظى انى لم استطع قط ان اروح فى غيبوبة عميقة · كل ما اعرف تعلمته بالطريقه البطيئة الطويلة · ولكن السيدة نارايان كانت احسن منى حظا · كانت واحدة من العشرين فى المائة أصحاب الامتياز فأخذت كل أنواع الطرق التربوية المختصرة مما لم يتيسر أبدا لى ولأمثالى ·

سأل ويل وقد التفت نحو السيدة المديرة : ماهذه الطرق المختصرة ؟

اجابت بقولها : هى طرق مختصرة للتذكر ، وللحساب ،

وللتفكير ، وحل المسائل • يبدأ الفرد بأن يتعلم كيف يحس عشرين ثانية وكأنها عشر دقائق ، والدقيقة كأنها نصف ساعة وهذا أمر سهل جدا فى حالة الغيبوبة العميقة • يستمع المرء الى ايحاء معلمه ويجلس ساكنا لفترة طويلة جـدا ــ ساعتين كاملتين ، ويستطيع ان يقســم بذلك • وبعد ان يفيق من الغيبوبة ينظر الى الساعة ، فيــدرك أن الزمن الذى أحسه ساعتين لم يستغرق سوى اربع دقائق فى الواقع •

قال مستر مينون : لايعرف احد كيف يكون ذلك • غيران كل تلك الحكايات التى تروى عن الغرقى الذين يرون حياتهم كلها منبسطة أمامهم فى بضع ثوان صادقة كل الصدق • ان العقل والجهاز العصبى ــ أو لعل من الاصح أن نقول بعض العقول وبعض الاجهزة العصــبية ــ قادران على هــذا العمل الفذ • وهذا كل مايعرفه أى انسان • وقد عرفنا هذه الحقيقة منذ ستين عاما ، ونحن نستغلها منذ ذلك التاريخ • نستغلها ــ كما نستغل غيرها من الحقائق ــ لأغراض تربوية •

واستأنفت السيدة نارايان حديثها قائلة : هذه ــ مثلا ــ مسألة حسابية • قد تستغرق فى الحالة الطبيعية نحو نصف ساعة لحلها • أما اليوم فأنت تستطيع أن تتلاعب بالزمن بحيث تصبح الدقيقة الواحدة فى اعتبارك الشخصى مساوية لثلاثين دقيقة • وعندئذ تشرع فى حل المسألة • وبعد ثلاثين دقيقة باعتبارك الشخصى تجــد أن المســألة قد حلت • ولكن ثلاثين دقيقة باعتبارك الشخصى ليست بمؤشرات الساعة الا دقيقة واحدة • فأنت كنت تعمل ــ بغير احساس بالعجلة أو الاجهاد ــ بالسرعة التى يعمل بها أحد أولئك الاطفال الذين يحسبون بسرعة غير عادية ممن يظهرون بين الحين والحين • سوف يظهر

فى المستقبل عباقرة مثل أمبير (١) وجوس (٢) ، أو بلهاء مثل ديز ــ كلهم بحيلة التلاعب بالزمن التى نبثها فى نفوسهم يستطيع أن يؤدى عمل ساعة فى دقيقتين ــ وأحيانا فى بضع ثوان • أنا لست الا طالبة متوسطة ، ولكنى كنت أستطيع أن أروح فى غيبــوبة عميقــة ، فكان معنى ذلك أنــه كان من المستطاع تعليمى كيف أختصر الزمن الى واحد على ثلاثين من طوله الطبيعى ــ والنتيجة أننى استطعت أن أستوعب قدرا من المعرفة ماكان من الممكن أن أســتوعبه بالطريقة العــادية • وتستطيع أن تتصور مايحدث اذا عرف انسان من أصــحاب معدلات الذكاء العبقرية أن يتلاعب بالزمن • ســوف تكون النتائج خيالية !

قال مستر مينون : انهم لسوء الحظ قليلون جدا • ففى الجيلين السابقين توافر لنا اثنان فقط من أصحاب العبقريات الحقيقية الذين يستطيعون أن يتلاعبوا بالزمن ، ونحو خمسة أو ستة أشخاص من المرتبة الثانية • غير أن ماتدين به بالا لهذه القلة يفوق كل تقدير • ولذلك لا عجب اننا نبحث بدقة عمن لديهم استعداد لتلقى التنويم !

وبعد فترة قصيرة من الصمت ختم ويل الحديث بقوله : أنتم بالتأكيد توجهون أسئلة عــديدة خاصة بفحص التلاميذ الصغار • ماذا تصنعون عندما تعثرون على ماتبتغون ؟

قال مستر مينون : نبدأ بتعليمهم وفقا لنتائج البحث • فنحن مثلا نوجه أسئلة خاصة بالتكوين البدنى للطفل وخاصة

---

(١) عالم فرنسى فى الطبيعة والرياضيات (٢٧٧٥ ــ ١٨٣٦) ــ المترجم

(٢) عالم ألمانى فى الرياضيات والفلك (١٧٧٧ ــ ١٨٥٥) ــ المترجم

بمزاجه • وعندما نظفر بالاجابة نفرز أكثرهم خجلا ، وأشدهم توترا عصبيا ، وأكثرهم سرعة للاستجابة والمنطوين على أنفسهم من الاطفال ، ونضمهم فى مجموعة واحدة • وشيئا فشيئا تتضخم المجموعة • نضم اليها أولا بضعة أطفال ممن لهم ميول نحو الاجتماع بغير قيود ، ثم نضم بعد ذلك طفلا أو طفلين من أصحاب العضلات ممن لهم ميول عدوانية وعندهم حب للسيطرة • وقد وجدنا أن هذه هى أفضل السبل لكى نجعل الاطفال ـ بنين وبنات ـ المتطرفين فى هذه الاتجاهات الثلاثة متفاهمين متسامحين بعضهم مع بعض • وبعد بضعة أشهر من الاختلاط الذى يخضع للرقابة الدقيقة نجد أنهم على استعداد لان يعترفوا بأن الناس من أصحاب التكوين الوراثى المختلف لهم من حق البقاء ما لغيرهم •

قالت السيدة نارايان : وهذا المبدأ نعلمه صراحة كما نطبقه تدريجا • فى الصفوف الدنيا نقوم بالتعليم عن طريق التشبيه بالحيوانات المألوفة • القطط تحب الاعتزال ، والاغنام تحب التجمع • الدلق متوحش لايمكن استئناسه • وخنزير غينيا رقيق ودود • هل أنت كالقط أو النعجة أو الخنزير الغينى أو الدلق ؟ نتحدث فى هذا بالحكايات الرمزية، ويتبين لنا أن الاطفال الصغار أنفسهم يمكن أن يدركوا حقيقة التنوع البشرى والحاجة الى التسامح المتبادل والعفو المتبادل •

قال مستر مينون : وفيما بعد حينما يبدأون فى قراءة (جيتا) (١) نبين لهم العلاقة بين التكوين والدين • أشباه

---

(١) مزامير هندوكية ـ المترجم

الغنم وأشباه الخنازير الغينية يحبون الطقـوس والحفـلات العامة والأحاسيس التى تثيرها الاجتماعات الدينية التى تعقد لاحياء الروح الدينية فى النفوس • وهؤلاء يمكن توجيه ميول أمزجتهم نحو طريق العبادة • وأشباه القطط يحبون العزلة ويمكنهم بتأمـلاتهم الذاتية أن يسـيروا فى طـريق معرفة النفس • وأشباه الدلق يريدون أن يصنعوا شيئا ما ، والمشكلة هى كيف نحول رغبة العدوان فى نفوسهم الى طـريق العمل المنزه عن الغرض •

قال ويل : وهل طريق العمل المنزه عن الغرض هو ماكنت أشاهد بالأمس • الطـريق الذى يتمثل فى قطـع الاخشاب وتسلق الصخور ؟

قال مستر مينون : قطع الاشجار وتسلق الصخور حالات خاصة • واذا عممنا الاحكام قلنا ان الطريق الذى يبلغ الى (كل الطرق) يتمثل فى اعادة توجيه السيطرة •

ــ وما تلك ؟

ــ المبدأ غاية فى البساطة • تأخذ القوة التى تتولد عن الخوف أو الحسـد أو كثرة النورا درينالين ، أو عن أى دافع باطنى آخر يكون لسبب ما وفى وقت ما فى غـير موضعه ــ تأخذ هذه القوة وبدلا من أن تستخدمها فى القيام بعمل يسىء الى شخص ما ، وبدلا من كبتها وبذلك تفعل بصـاحبها شيئا لا يسر ، توجهها شعوريا فى مجرى يمكن عن طريقه أن تصنع شيئا نافعا ، وان لم يكن نافعا فهو على الاقل لايضر •

قالت المديرة : اليك مثالا بسيطا • الطفل الغاضب أو الذى خاب أمله يستجمع قوة تمكنه من أن ينفجر باكيا ، أو

أن يسب أو يقاتل . واذا كانت القوة التي تولدت تكفى لشيء من هذا فهي تكفى للجرى أو الرقص ، وأكثر من كافية للشهيق بعمق خمس مرات . وسوف أريك شيئا من الرقص فيما بعد . أما الآن فدعنا نحصر أنفسنا في التنفس . ان الشخص الغاضب الذى يتنفس خمس مرات بعمق يخفف كثيرا من التوتر وبذلك يتيسر له أن يتصرف تصرفا معقولا . لذلك نحن نعلم أطفالنا كل أنواع الالعاب التي تعتمد على التنفس، يلعبونها كلما غضبوا أو اضطربوا . وبعض هذه الالعاب تقوم على أساس المنافسة ، من من المتنافسين مثلا يستطيع أن يشهق بدرجة أعمق ويقول وهو يزفر (أوم) لاطول وقت ممكن ؟ هذه مضاربة بين اثنين تنتهى دائما بالتصالح . غير أن التسابق في التنفس لايكون في محله ـ بطبيعة الحال ـ في كثير من الحالات . ولذلك كان لدينا لعبة صغيرة يستطيع الطفل الغاضب أن يلعبها منفردا ، وهي لعبة تقوم على أساس الفنون الشعبية المحلية . اننا ننشىء كل الاطفال في بالا على الاساطير البوذية ، وفي أكثر هذه القصص الخيالية الدينية يوجد شخص ما لديه رؤيا الكائن العلوى . البوذيساتفا (١) مثلا يرى رؤياه في تفجر الاضواء ، وفي المجوهرات وأقواس قزح . ومع الرؤيا المتألقة هناك دائما حاسة للشم على نفس الدرجة من الروعة . فالصواريخ الضوئية تكون مصحوبة بعطر شذى يفوق الوصف . نحن نأخذ هذه الصور الخيالية التقليدية ـ وليست بي حاجة الى القول بأنها جميعا تقوم على أساس التجارب الخيالية التي تحدث فعلا من أثر الصوم أو حرمان الحواس أو بعض العقاقير ـ ونطلقها لتفعل فعلها .

(١) الشخص الذى يؤجل قيامه بدور بوزا لكى يساعد غيره من الناس ـ المترجم

نقول للاطفال ان المشاعر العنيفة هى كالزلازل · تهزنا هزا شديدا حتى تظهر الشروخ فى الجدران التى تفصل ذواتنا عن طبيعة بوذا العالمية المشتركة · يغضب المرء فيتشقق شىء فى نفسه ، ومن خلال الشقوق تهب نفحة من عطر الاستنارة السماوية ، فيها رائحة الشنبق والايلنغ والفردينيا ولكنها أكثر منها عجبا بدرجة لاتحد · وهذا المعنى السماوى الذى تكشف لك مصادفة يجب ألا يفوتك · هذا المعنى يوجد كلما ثار فى نفسك الغضب · استنشقه ، وتنفسه ، واملأ به رئتيك ، مرة بعد أخرى ·

ــ وأطفالكم يقومون بذلك فعلا ؟

ــ بعد مانقوم بتعليمهم بضعة أسابيع يفعله أكثرهم كشأن من شئون حياتهم العادية · وكثيرون منهم ــ فوق ذلك ــ يشمون فعلا ذلك العطر الذى حدثتك عنه · والنواهى القديمة (لاتفعل كذا ، ولا تفعل كذا) تتحول الى ايجابيات (افعل كذا، وافعل كذا) ويجد ثوابه لما يفعل · لقد حولنا مسار القوة الضارة بطبيعتها الى اتجاهات لاتكون فيها ضارة ، بل قد تعود فعلا بالخير · وفى أثناء ذلك نعطى الاطفال ــ بطبيعة الحال ــ تدريبا منتظما ومتدرجا بعناية تامة فى الادراك وفى استخدام اللغة استخداما صحيحا · نعلمهم الانتباه الى مايرون ومايسمعون ، ونطلب اليهم فى الوقت نفسه أن يلاحظوا كيف تؤثر مشاعرهم ورغباتهم فى مايمارسونه فى العالم الخارجى، وكيف تؤثر عاداتهم اللغوية فى مشاعرهم ورغباتهم بل وفى احساساتهم · ان ما تسجله عيناى وأذناى شىء ، والكلمات التى استخدمها والحالة النفسية التى أكون عليها وما تسمح لى بادراكه وتفهمه والعمل بمقتضاه الاهداف التى اتجه

نحوها ــ كل ذلك شيء آخر • ومن ثم فأنت ترى اننا نضم ذلك كله بعضه الى بعض فى عملية تربوية واحدة • ان مانقدمه للاطفال فى وقت واحــد هو تدريب فى الادراك والتخيل ، وتــدريب فى الفســيولوجيا والســيكولوجيا التطبيقيين ، وتــدريب فى الســلوك الخلقى العمــلى والديانة العملية ، وتدريب فى استخدام اللغة استخداما صحيحا ، وتدريب فى معــرفة النفس • وبعبارة موجــزة هو تدريب لمركب الجسم والعقل كله من كل أوجهه •

سأل ويل : ما عــلاقة كل هذا التدريب المعقــد لمركب الجسم والعقل بالتربية النظامية ؟ هل هو يعاون الطفل فى حل مسائل الحساب ، أو التزام قواعد النحو فى الكتابة ، أو فهم مبادىء الفيزياء ؟

قال مســتر مينون : ان ذلك يعــاونه كثيرا ، فمركب الجسم والعقل المدرب يكون أسرع وأشمل كثيرا فى تعلمه من هذا المركب اذا لم يدرب • وهو كذلك أقدر على ربط الوقائع بالافكار ، وربطهما معا بحياة صاحبه • وفجأة وعلى حين بغته أخذ يضحك عاليا ، وكانت مفاجأة لان ذلك الوجه المستطيل الحزين يوحى بأنه لايتــلاءم مع أى تعبير عن المرح أكثر من ابتسامة خفيفة يخرجها صاحبها من قلب حزين •

ــ مايضحكك ؟

ــ طاف بخيالى شخصان التقيت بهما فى زيارتى الاخيرة لانجلترا ، فى كمبردج • أحــدهما عالم فى الذرة ، والآخر فيلسوف • وكلاهما من المشاهير • أما أحدهما فعمره العقلى ــ خارج المعمل ــ يبلغ نحو احدى عشرة سنة • أما الآخر فقد كان أكلة بدينا ، لايحاول أن يخفف من وزنه • وهذان مثلان

متطرفان لما يحدث اذا أنت أخذت صبيا ذكيا ، وأخضعته خمسة عشر عاما لتربية نظامية مركزة وأهملت مركب العقل والجسم الذى يقوم بالتعلم وبالعيش ٠

ـ أفهم من ذلك أن نظامكم لايخرج هذا النوع الشاذ من الوحش الأكاديمى ؟

هز وكيل الوزارة رأسه وقال : لم أر قط أحدا من هذا الطراز حتى ذهبت الى اوربا ٠ انهم هناك مبعث للضحك من شدة الغرابة ٠ ولكنهم كذلك مدعاة للأسى ٠ مساكين ! انهم منفرون بدرجة عالية !

ـ هذا الذى يدعو الى الأسى والذى ينفر بدرجة عالية هو الثمن الذى ندفعه نظير التخصص ٠

ووافقه على ذلك مينون وقال : نعم للتخصص ، ولكن ليس بالمعنى الذى تستخدمون الكلمة لتدل عليه ٠ التخصص بالمعنى الآخر ضرورى ولا مناص منه ٠ وليست هناك حضارة بغير تخصص ٠ ولكنك ان تعهدت بالتربية مركب العقل والجسم كله مع الذكاء الذى يستخدم الرمز ، فان ذلك النوع من التخصص اللازم لايؤذى كثيرا ٠ ولكنكم لاتتعهدون بالتربية مركب العقل والجسم ٠ وعلاجكم للمبالغة فى التخصص العلمى هو بضع دراسات فى العلوم الانسانية ٠ حسنا ! ان كل تربية يجب أن تتضمن دراسات فى العلوم الانسانية ٠ ولكن لاتخدعكم الاسماء ٠ ان العلوم الانسانية وحدها لاتجعل من الطالب انسانا ٠ وليست الا صورة أخرى من صور التخصص على المستوى الرمزى ٠ ان قراءة افلاطون أو الاستماع الى محاضرة عن ت٠س٠ اليوت لاتربى الانسان

الكامل · انها تربى الطالب على معالجة الرموز ـ شأنها فى ذلك شأن دراسة الفيزياء أو الكيمياء ـ وتترك بقية مركب العقل والجسم الحى فى حالة بدائية من الجهل البدائى والعجز· ومن هنا كانت تلك المخلوقات المنفرة التى تثير الأسى أمثال أولئك الذين أدهشونى عند أول زيارة لى للخارج ·

وسأل ويل : وماذا عن المعلومات التى لا غنى عنها والمهارات العقلية اللازمة ؟ هل تعلمون بالطريقة التى نعلم بها ؟

ـ نعلم بالطريقة التى أرجح أنكم سوف تعلمون بها بعد نحو عشر سنوات أو خمس عشرة سنة · خذ الرياضيات على سبيل المثال · بدأت الرياضيات ـ تاريخيا ـ بتطوير بعض الحيل النافعة ، وحلقت فيما وراء الطبيعة ، وأخيرا عبرت عن نفسها فى بنيات وتحولات منطقية · ونحن فى مدارسنا نعكس هذه المراحل التاريخية · نبدأ بالبنية والمنطق ، ونتخطى مرحلة ماوراء الطبيعة ، ونسير من المبادىء العامة الى تطبيقات معينة ·

ـ وهل يفهم الاطفال ؟

ـ أفضل بكثير مما يفهمون لو بدأنا بالحيل النفعية · بعد الخامسة من العمر تقريبا يستطيع أى طفل ذكى أن يتعلم أى شىء تقريبا اذا نحن قدمناه له بالطريقة الصحيحة · المنطق والبنية فى شكل ألعاب وألغاز · الاطفال يلعبون وبسرعة لاتصدق يدركون المغزى · وبعدئذ نستطيع أن ننتقل الى التطبيقات العملية · واذا نحن علمنا بهذه الطريقة تعلم الاطفال على الاقل ثلاثة أمثال مايتعلمونه اليوم من حيث

المقدار ، وأربعة أمثاله من حيث الشمول ، فى نصف الوقت . خذ مجالا آخر يستطيع المرء فيه أن يستخدم الالعاب فى تثبيت فهم المبادىء الاساسية . ان كل التفكير العلمى يقع فى حدود الاحتمالات . والحقائق الأزلية الأبدية ليست سوى درجة عالية من الاحتمال . وقوانين الطبيعة التى لاتتغير ان هى الا متوسطات احصائية . كيف يمكن أن نقحم هذه الافكار العميقة غير الواضحة فى رؤوس الاطفال ؟ نلعب معهم الروليت ، ونجرى القرعة ونسحب اليانصيب . نعلمهم كل صنوف الالعاب بالورق والنرد .

قالت السيدة نارايان : أكثر مايحب الاطفال لعبة الافاعى والسلالم المتطورة كما يحبون لعبة الأسر المندلية السعيدة .

وأضاف مستر مينون : وفيما بعد نعلمهم لعبة أكثر من ذلك تعقيدا ، يشترك فيها أربعة أشخاص يلعبون بمجموعة من الأوراق مؤلفة من ستين ورقة مصممة برسوم خاصة ومقسمة الى ثلاثة أصناف ـ هذه اللعبة نسميها البريدج السيكولوجى . توزع الاوراق اعتباطا بالصدفة ، ولكن اللعب يحتاج الى مهارة ، والى تمويه وتعاون مع الشريك .

قال ويل : ألعابكم فيها التطور ، ومندل ، والسيكولوجيا . الظاهر ان التربية عندكم متأثرة بالبيولوجيا الى حد كبير .

قال مينون : هى كذلك . ان اهتمامنا الأول ليس بالفيزياء والكيمياء ، انما هو بعلوم الحياة .

ـ هل هذا مبدأ من مبادئكم .

ـ ليس الى كل الحدود . انما هو أمر يتعلق كذلك بالملاءمة

والضرورة الاقتصادية • ليس لدينا المال الذى يكفى للبحث فى الفيزياء والكيمياء على نطاق واسع ، والواقع أننا لسنا فى حاجة فعلية الى مثل هذا البحث ــ فليست لدينا صناعات ثقيلة ننافس بها غيرنا ولا تسليح نجعله أشد فتكا ، ولا أقل رغبة فى الهبوط على ظهر القمر • طموحنا متواضع يقتصر على أن نعيش بانسانية كاملة منسجمين مع أوجه الحياة الأخرى فوق هذه الجزيرة على خط العرض هذا على هذا الكوكب • نستطيع أن نأخذ عنكم نتائج البحوث فى الفيزياء والكيمياء ونطبقها ــ ان أردنا أو استطعنا ماديا ــ على أغراضنا الخاصة • وفى الوقت نفسه نركز على البحث الذى يبشر بأن يجلب الخير الوافر لنا ــ وذلك فى علوم الحياة والعقل • وأضاف الى ذلك قوله : لو أن رجال السياسة فى البلاد التى استقلت حديثا تصرفوا بالعقل لفعلوا مثلنا • ولكنهم يريدون أن يبددوا طاقاتهم ، يريدون أن تكون لهم جيوش ، ويريدون أن يحلقوا بأهل أمريكا وأوروبا الذين يدمنون التحرك بالآلات والنظر الى التلفزيون • وواصل حديثه قائلا «ليس أمامكم اختيار ، فأنتم ملتزمون بتطبيق الفيزياء والكيمياء بلا رجعة ، على الرغم من نتائجهما السيئة ، العسكرية والسياسية والاجتماعية • ولكن البلاد النامية غير ملتزمة • ليس عليها أن تحذو حذوكم • ومازالت حرة تستطيع أن تسلك الطريق الذى سلكنا ــ طريق البيولوجيا التطبيقية ، طريق تنظيم التناسل ، والانتاج المحدود والتصنيع المختار الذى يتيحه تنظيم التناسل ، الطريق الذى يؤدى الى السعادة التى تنبع من الباطن وتنعكس على الظاهر ، من خلال الصحة ، والوعى ، وتغيير وجهة النظر الى العالم ، وليس الى أوهام السعادة التى تسير عكسا من الظاهر الى الباطن ، من خلال لعب الاطفال

وحبوب الدواء وأسباب اللهو التى لاتتوقف · هـذه البـلاد النامية مازال بوسعها أن تأخذ باسـلوبنا ، ولكنها لاتريد ، وترغب فى أن تكون مثلكم تماما · كان الله فى عونها · ولما كان مستحيل عليها أن تفعل مافعلتم ــ على الأقل فى خـلال الفترة التى قدرتها ــ فقد حكمت على نفسها بالفشل وخيبة الأمل ، وكتب عليهـا الشـقاء الذى يترتب على الانهيـار الاجتماعى والفوضى ، ومن ذلك الى شقاء العبـودية للحكام المستبدين · هذه مأساة يمكن التنبؤ بها تماما ، وهم يسيرون نحوها وعيونهم مفتوحة ·

قالت المديرة : وليس بوسـعنا أن نفعل شـيئا فى هذا الصدد ·

قال مستر مينون : لا نستطيع أن نفعل شيئا اللهم الا أن نستمر فى اداء ما نفعل الآن ونأمل أملا مستحيل التحقيق أن تكون الأمة التى وجدت سبيلها لأن تعيش عيشة سعيدة سعادة انسانية مثلا يحتذى · الفرصة ضعيفة جدا ، ولكن من يدرى ربما حدث ذلك ·

«مالم تتكون راندنج الكبرى قبل ذلك» ·

قال مستر مينون جـادا وموافقـا : نعم ، ما لم تتكون راندنج الكبرى قبل ذلك · ومع ذلك فلابد لنـا من مواصلة السير فى ما أخذناه على أنفسنا ــ أعنى التربية · هل هناك شىء آخر تريد أن تعرفه يامستر فارنبى ؟

قال ويل : هناك الكثير ــ مثـلا متى تبـدأون تدريس العلوم ؟

ــ نبدأه فى نفس الوقت الذى نبدأ فيه تعليم الضرب والقسمة . والدروس الاولى فى علم البيئة .

ــ علم البيئة ؟ أليس هذا موضوعا معقدا بعض الشىء ؟

ــ من أجل هذا نبدأ به . يجب ألا نعطى الاطفال فرصة لكى يتخيلوا أن أى شىء من الاشياء له كيان مستقل عن غيره من الاشياء الاخرى . يجب أن نوضح لهم منــذ البــداية أن الحياة كلها علاقات . نريهم العلاقات فى الغابات ، والحقول ، والبرك والمجارى المائية ، والقــرية والريف من حــولها . ولا نكل التكرار .

وقالت المديرة : وأحب أن أضيف الى ذلك أننا نعلم دائما علم العلاقات موصولا بأخلاقيات العلاقات . الاتزان ، الأخذ والعطاء ، لا اسراف ــ هذه هى القاعدة فى الطبيعة . واذا نقلنا هذه القاعدة من الوقائع الى الاخلاق كان من الواجب أن تكون هى كذلك القاعدة بين الناس . وكما قلت من قبل ان الاطفال يجدون أن من اليسير أن يفهموا الفكرة اذا قدمناها لهم فى حكاية عن الحيوان . نعطيهم تفسيرا حــديثا لحكايات ايسوب الخرافية ــ لا نقص عليهم القصص الذى نضفى فيه صفات الانسان على الحيوان ، وانما نحكى لهم حكايات صادقة من البيئة تنطوى على أخلاقيات عالمية فى صلبها .

ومن الحكايات العجيبة التى نرويهــا للاطفــال قصــة التآكل . وليس عندنا هنا أمثلة جيدة للتآكل ، ولذلك نعرض عليهم صورا لما حدث فى راندنج وفى الهند والصين واليونان وبلاد المشرق ، فى افريقيا وأمريكا ــ كل الأماكن التى حاول فيها الانسان بجشعه وغبائه أن يأخذ ولا يعطى ، وأن يستغل

بغير محبة أو ادراك • اذا أنت أحسنت معاملة الطبيعة أحسنت الطبيعة معاملتك • واذا أنت آذيت الطبيعة أو حطمتها حطمتك الطبيعة • في منطقة من المناطق التي تتصحر بسبب اجهادها بالزراعة تظهر هذه الحقيقة بجلاء : (افعل بغيرك ماتحب أن يفعل بك) ـ ومن الاسهل للطفل أن يدرك ويفهم هذا المبدأ في الطبيعة أكثر مما يستطيع في أسرة أو قرية متهالكة • ان الجروح النفسية لاتظهر ـ وعلى أية حال فان الاطفال لايعلمون عن الكبار الا القليل • ولما كانوا يفتقرون الى معايير للمقارنة فهم يظنون أن المواقف السيئة من المسلمات ، كأنها من طبيعة الأشياء • في حين أن الفرق واضح بين عشرة أفدنة من المراعي الخضراء وعشرة أفدنة من الاخاديدالجرداء التي تعصف فيها الرمال • والرمال والاخاديد من الرموز التي نتمثل بها • اذا واجهها الطفل سهل عليه أن يدرك الحاجة الى المحافظة على الخضرة ، ومن المحافظة على الخضرة ينتقل الى الاخلاق ـ يسهل عليه أن ينتقل من (القاعدة الذهبية) فيما يتعلق بالنبات والحيوان والارض التي تغذيها الى (القاعدة الذهبية) فيما يتعلق بالانسان •

وهنا نقطة هامة أخرى • ان الاخلاق التي يصل اليها الطفل من حقائق علم البيئة ومن الحكايات الرمزية عن التآكل هي أخلاقيات عالمية • ليس في الطبيعة (شعب مختار) ولا (أرض مقدسة) ولا (رؤيا تاريخية فذة) • ان الاخلاق القائمة على أساس الاحتفاظ بالخضرة لاتعطي الفرد مبررا لاحساسه بعلو المنزلة ، أو لمطالبته بمزايا خاصة • ان مبدأ (افعل بغيرك كما تحب أن يفعل بك) ينطبق على تعاملنا مع كل أنواع الحياة في كل أرجاء الارض • ولن يبقى الانسان فوق هذا الكوكب

الا اذا عامل الطبيعة بالرحمــة والذكاء · ان مبــادىء علم البيئة تؤدى مباشرة الى مبادىء البوذية ·

وبعد لحظة من الصمت قال ويل : منذ بضعة أسابيع كنت أتصفح كتاب ثوروالد عما حدث فى ألمانيا الشرقية فيما بين يناير ومايو من عام ١٩٤٥ · هل اطلع أحدكما على هــذا الكتاب ؟

هزا رأسيهما

فنصحهما ويل ألا يفعــلا وقال : كنت فى درســدن بعد ضربها بالقنابل فى شهر فبراير منذ خمسة أشهر · وفى ليلة واحدة احترق من المدنيين الأحياء خمسون أو ســتون ألفا ــ أكثرهم من اللاجئين الهاربين من الروس · وقد حدث كل ذلك لان أودلف الصغير لم يتعلم علم البيئة ·

وابتسم ويل ابتسامته التهكمية الســاخرة وقال : انه لم يتعلم المبادىء الأولية لصيانة الطبيعة ·

وأخذ الناس ماحدث مأخذ الفكاهة لانه كان أفظع من أن يتناولوه بالحديث جادين ·

ونهض مستر مينون والتقط حقيبته ·

وقال : لابد أن أنصرف · وصافح ويل · وكان اللقاء بينهما مصدر سرور له ، وتمنى لمستر فارنبى اقامة سعيدة فى بالا · وقال له انه ان أراد أن يعرف المزيد عن التربية فى بالا فليس عليه الا أن يسأل السيدة نارايان ، فليس هناك من يفضلها فى الارشاد والتعليم ·

وبعد ما انصرف وكيل الوزارة قالت السيدة نارايان : هل تحب أن تزور بعض فصول الدراسة ؟

ونهض ويل وسار خلفها حتى خرجا من الغرفة وبلغا احدى الردهات ·

وفتحت المديرة باب فصل من الفصول وقالت : هنا رياضيات ، وهذا هو الصف الخامس فى المرحلة الأعلى · تقوم بها السيدة آناند ·

وانحنى ويل وهى تقدمه اليها · ورحبت به المدرسة ذات الشعر الابيض مبتسمة وقالت هامسة : نحن كما ترى مستغرقون فى احدى المسائل ·

وتلفت حواليه · ورأى عشرين طالبا وطالبة منهمكين وهم فى مقاعد جلوسهم فى التفكر ، منكبين على كراساتهم مركزين الاذهان فى صمت وهم يعضون أطراف الاقلام · تتألق فى حرارة الجو أجسامهم الذهبية فيما فوق السراويل القصيرة البيضاء أو الكاكى أو فيما فوق الجونيلات الطويلة زاهية الألوان · أجسام البنين يبدو منها القفص الصدرى تحت البشرة ، وأجسام البنات أكثر امتلاء وأشد نعومة ، وقد بدأت أثداؤهن الصغيرة تعلو صدورهن ، قوية ، جميلة التكوين ، رشيقة كأنها من تصميم مثال زخرفة ينحت الحور من الصخر ، لايلتفت اليهن أحد · وما كان أشد سرور ويل لأن يكون فى مكان يباح فيه هذا الذى يعد فى مكان آخر اثما من الآثام ·

وفى أثناء ذلك كانت السيدة أناند تشرح له ــ فى صوت خافت حتى لاتشتت أذهان المشتغلين بحل المسائل عن أداء واجبهم ــ كيف أنها تقسم كل فصل دراسى من فصولها مجموعتين · مجموعة الذين يتعلمون بالنظر ممن يفكرون فى اطار هندسى كما كان يفعل قدماء اليونان ، ومجموعة الذين

لايتعلمون بالنظر الذين يفضلون الجبر والتجريدات التى لا شكل لها · وعلى كره منه صرف ويل نظره عن هذا العالم من الجمال الذى لا تأثيم فيه ، جمال الاجسام الشابة ، واستسلم لتفكير عميق فى تنوع البشر وتدريس الرياضيات·

وانصرفا · وفى الغرفة المجاورة · وهى عبارة عن فصل دراسى جدرانه باهتة زرقاء معلق عليها صور لحيوانات استوائية كان البوزيساتفا (صغار البوذيين) ومعهم الشاكتى (١) ، وهم يشكلون الصف الخامس الأدنى ، يتلقون درسا فى مبادىء الفلسفة التطبيقية يأخذونه مرة كل اسبوعين · وأثداء البنات فى هذا أصغر حجما ، والأذرع أرق والعضلات أخف · وطلاب الفلسفة هؤلاء لم يتجاوزا حد الطفولة الا بعام واحد فقط ·

وعندما دخل ويل والسيدة نارايان الغرفة كان الرجل الواقف الى جوار السبورة يقول : الرموز شائعة · ورسم صفا من الدوائر الصغيرة وأخذ يرقمها ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ و ن · وقال تصوروا أن هذه الارقام تمثل أفرادا من الناس · ومن كل دائرة صغيرة رسم خطا يصل الدائرة بمربع على يسار السبورة · وفى وسط المربع كتب حرف «ر» وقال : هذا الحرف هو نظام الرمز الذى يستخدمه الناس عندما يريدون أن يتبادلوا الحديث · كلهم يتحدث نفس اللغة ــ انجليزى ، بالى ، اسكيمو ، الامر يتوقف على المكان الذى يعيشون فيه · الألفاظ عامة · يختص بها كل المتكلمين بلغة ما ، وهى مدونة فى القواميس · والآن دعنا ننظر الى الاشياء التى تحدث خارج الفصل ·

---

(١) ربات الامومة والانوثة فى الهندوكية ــ المترجم

وأشار الى النافذة المفتوحة وظهر من خلالها ستة ببغاوات تطير بألوانها الزاهية تحت سحابة بيضاء • ومرت الببغاوات خلف شجرة ثم اختفت • ورسم المعلم مربعا آخر فى الجانب الآخر من السبورة وأسماه « أ » ــ وهو الحرف الأول من «أحداث» ، وربط هذا المربع بالدوائر بخطوط • وقال : ان مايحدث فى الخارج عام ــ أو على الاقل عام الى حد كبير • ومايحدث عندما يتكلم فرد ما أو يكتب الكلمات عام كذلك • ولكن مايحدث داخل هذه الدوائر الصغيرة خاص • وأكد كلمة خاص بوضع احدى يديه على صدره • ثم مسح جبينه • وكرر كلمة (خاص) • ومس جفنيه وطرف أنفه بسبابته السمراء وقال : دعونا الآن نقوم بتجربة صغيرة • رددوا بعدى كلمة (يقرص) •

وبصوت واحد أجش ردد الطلاب «يقرص ، يقرص ••» «ى ، ق ، ر ، ص (يقرص) • هذه كلمة عامة ، تجدونها فى المعاجم اللغوية • والآن يقرص كل منكم نفسه • شديدا أشد ! »

وفعل الأطفال كما أمروا متأوهين «آه ، أوه» ، وهم يقهقهون •

ــ هل يستطيع أحدكم أن يحس ما أحسه جاره ؟

رددوا جميعا بصوت واحد «لا» •

قال الرجل : «يبدو أن •••» كم عددكم ؟

ونقل بصره على المقاعد التى كانت أمامه وواصل الحديث قائلا : يبدو أنه كان هناك ثلاثة وعشرون ألما منفصلا

متميزا عن غيره • ثلاثة وعشرون فى هذه الغرفة الواحدة • ومايقرب ثلاثة آلاف مليون فى العالم كله • أضف الى ذلك آلام جميع الحيوانات • وكل ألم من هذه الآلام خاص كل الخصوصية • ليست هناك وسيلة لنقل الخبرة من أحد مراكز الآلام الى مركز آخر • لا اتصال الا بطريق غير مباشر عن طريق (ر) • وأشار الى المربع الذى يقع على يسار السبورة ، ثم الى الدوائر التى تقع فى الوسط وقال : هنا آلام خاصة فى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ن ـ وهناك أخبار عن الآلام الخاصة فى المربع (ر) حيث يمكنك أن تقول (يقرص) وهى كلمة عامة مدونة فى المعجم اللغوى • ولاحظ مايلى : هناك كلمة عامة واحدة هى (يقرص) لتدل على ثلاثة آلاف مليون تجربة خاصة ، كل واحدة منها تختلف عن غيرها بنفس الدرجة تقريبا التى يختلف بها أنفى عن أنوفكم ، كما أن أنوفكم يختلف كل واحد منها عن الآخر • الكلمة ترمز فقط للطرق التى تتشابه بها الاشياء أو الاحداث التى هى من نوع واحد عام • ولذلك كانت الكلمة عامة ، ولما كانت عامة فلايمكن أن تمثل الطرق التى تختلف بها الاحداث التى هى من نوع واحد عام •

وساد صمت • ثم رفع المعلم بصره الى أعلى وألقى سؤالا :

ــ هل يعرف أحد منكم هنا شيئا عن ماهاكاسيابا ؟

وارتفعت أيد كثيرة • وأشار باصبعه الى فتاة صغيرة فى ازار أزرق وحول عنقها عقد من الصدف جالسة فى الصف الأول •

ــ آميا ، تكلمى •

وفى لهفة بدأت آميا تتكلم وفى لسانها لثغة ٠

قالت : ماهاكاثيابا هو الحوارى الوحيد الذى استطاع أن يفهم ماكان يتحدث عنه بوذا ؟

ــ وفيم كان بوذا يتكلم ؟

ــ انه لم يكن يتكلم ولذلك لم يفهموه ٠

ــ ولكن ماهاكاسيابا فهم ماكان يتحدث عنه على الرغم من أنه لم يتكلم ــ هل هذا ماقصدت ؟

وأومأت الفتاة الصغيرة برأسها ايجابا فقد كان ذلك ماقصدت تماما ، وقالت : ظنوا أنه سوف يلقى عليهم موعظة، ولكنه لم يفعل ٠ وكل مافعله هو أنه التقط زهرة ورفعها الى أعلى لكى يراها الجميع ٠

وصاح صبى صغير يرتدى مئزرا أصفر اللون كان يتلوى فى مقعده ، ويكاد لايستطيع أن يكبت رغبته فى الافصاح عما كان يعرف ، وقال : تلك كانت الموعظة ، ولكن أحدا لم يستطع أن يفهم هذا النوع من المواعظ ، فيما عدا ماهاكاسيابا ٠

ــ وماذا قال ماهاكاسيابا عندما رفع بوذا تلك الزهرة ؟

صاح الصبى الذى كان يرتدى مئزرا أصفر اللون بنغمة الظافر «لاشىء !»

وأضافت الى ذلك آميا قولها : ابتسم فقط ، ومن ذلك عرف بوذا أنه فهم كل ماكان يقصد اليه ٠ ولذلك بادله الابتسام ، ولبثا كذلك يبتسمان ، ويبتسمان ٠

قال المعلم : حسنا والتفت الى الصبى ذى المئزر الاصفر وقال له : اذكر لنا ماتظن أن ماهاكاسيابا قد فهم •

وساد الصمت ، ثم هز الطفل رأسه خجلا وتمتم قائلا : لست آدرى •

ــ وهل يدرى منكم أحد ؟

وكانت هناك محاولات عدة للاجابة ــ ربما قد فهم أن الناس قد سئمت الموعظة ــ حتى موعظة بوذا • وربما كان يحب الزهور كما أحبهـا الواحد الرؤوف • وربمـا كانت الزهرة بيضاء اللون مما جعله يفكر فى (الضوء الصافى) • وربما كانت زرقاء اللون ، وذلك كان لون شيفا •

قال المعلم : هذه اجابات جيدة ، وبخاصة الاجابة الأولى• فالمواعظ فعلا مملة وبخاصة للواعظ • ولكن هنـاك سؤالا آخر • اذا كانت احدى اجاباتكم هى مافهم ماهاكاسيابا عندما رفع بوذا الزهرة ، فلماذا لم يعبر عنها بالألفاظ ؟

ــ ربما كان ممن لايحسنون الكلام •

ــ بل كان متحدثا ممتازا •

ــ ربما كان فى حلقه التهاب •

ــ اذا كان حلقه ملتهبا ما ابتسم مبتهجا كما فعل •

ومن آخر الغرفة صاح صوت أجش قال : خبرنا أنت •

وقاطعته أصوات أخرى قائلة : نعم خبرنا أنت •

وهز المعلم رأسه وقال : اذا كان ماهاكاسيابا والواحد الرؤوف لم يستطيعا أن يعبرا بالكلمات فكيف أستطيع أنا ؟ والآن دعنا نلقى نظرة أخرى على الاشـكال المرسـومة على

السبورة · هناك الكلمات العامة ، والاحداث العامة الى حد ما ، ثم الافراد ، وهم مراكز خاصة كل الخصوصية للألم واللذة · وانى لأتساءل هل هى خاصة كل الخصوصية · ربما كان ذلك لايصدق كل الصدق · ربما كان هناك نوع من الاتصال بين الدوائر ـ بطريقة غير الطريقة التى أتصل أنا بكم بها الآن ، أعنى الكلمات ـ طريقة مباشرة · وربما كان ذلك هو ماكان يتحدث بوذا عنه بعد ما انتهت موعظته التى ألقاها بالزهر ولم يستعمل فيها الكلمات · قال لتلاميذه ، عندى كنز من التعاليم التى لاتخطىء ، عقل النرفانا (١) العجيب ، الشكل الحقيقى الذى لا شكل له ، الذى يجاوز كل الالفاظ ـ أقصد التعليم الذى يعطى ويستقبل خارج جميع المذاهب · هذا التعليم أسلمته الآن لماهاكاسيابا ·

والتقط المعلم اصبع الطباشير مرة أخرى ورسم قطعا ناقصا تقريبيا أحاطت خطوطه كل الاشكال الاخرى على السبورة ـ الدوائر الصغيرة التى تمثل الكائنات البشرية ، والمربع الذى يمثل الاحداث ، والمربع الآخر الذى يمثل الالفاظ والرموز ، وقال : كل شكل من هذه الاشكال منفصل ، ومع ذلك فكلها واحد · الناس ، والاحداث ، والالفاظ : كلها مظاهر للعقل الكبير ، للحقيقة الكبرى ، للفراغ · وماكان يقصده بوذا وما فهمه ماهاياكاسيابا هو أن المرء لايستطيع أن يعبر عن هذه التعاليم باللفظ ، وليس بوسعه الا أن يكون هو هى · وذلك شىء سوف تتكشفونه حينما يحين أوان دخولكم أعضاء فى هذا المذهب ·

---

(١) السعادة القصوى فى البوذية التى تتخطى الألم عن طريق قتل الشهوات ونسيان الواقع الخارجى ـ المترجم

قالت المديرة هامسة : آن لنا أن نخرج ٠

ولما انغلق الباب خلفهما وأصبحا فى الردهة مرة أخرى قالت لويل : نحن نستخدم هذه الطريقة عينها عنـد تدريس العلوم ، بدءا بعلم النبات ؟

ــ ولماذا تبدأون بعلم النبات ؟

ــ لان هذا العلم يمكن ربطه بسهولة بما كان يدور حوله الحديث الآن ــ قصة ماهاكاسيابا ٠

ــ هل هذه هى نقطة البدء ؟

ــ لا ٠ نحن نبدأ بداية عادية بالكتاب المقـرر ٠ نعطى الاطفال كل الحقائق الأولية الواضحة ، مرتبة ترتيبا محكما ومصنفة وفقا للقوالب المعروفة ٠ المرحلة الأولى هى مرحلة علم النبات البحت ٠ وتستغرق من ستة الى سـبعة أسابيع ٠ وبعد ذلك يقضى الاطفال يوما كاملا فيما نسميه بناء الجسور ٠ ساعتان ونصف الساعة نحاول خلالها أن نجعل الاطفال يربطون كل ماتعلموا فى الدروس السابقة بالفن ، واللغة ، والدين، ومعرفة النفس ٠

ــ علم النبات ومعـرفة النفس ــ كيف تقيمون بينهما جسرا ؟

أكدت له نارايان أن الأمر غاية فى البسـاطة وقالت : نعطى كل طفل زهرة معروفة ــ زهرة الخبيزة مثلا ، وأفضل منها زهرة الجاردينيا (لان زهـرة الخبيزة ليس لها أريج) ٠ ماهى الجاردينيا من الناحية العلمية ؟ مم تتألف ؟ أوراق ، والسداة ، والمـدقة ، والمبيض ، وما الى ذلك ٠ ونطلب الى

الاطفال أن يدونوا وصفا تحليليا للزهرة موضحين الوصف بالرسم الدقيق • وبعد مايؤدون ذلك نمنحهم فترة للراحة ، وفى نهايتها نقرأ لهم قصة ماهاكاسيابا ونطلب اليهم أن يفكروا فيها • هل كان بوذا يعطى درسا فى علم النبات ؟ أم هل كان يعلم تلاميذه شيئا آخر ؟ وان كان الأمر كذلك فما هو ؟

ــ خبرينا ماهو ؟

ــ وليس هناك ــ بطبيعة الحال ــ اجابة يمكن أن تصاغ فى الالفاظ ــ كما يتضح ذلك جليا من القصة • لذلك نطلب الى البنين والبنات أن يتوقفوا عن التفكير ويكتفوا بالنظر ، ونقول لهم (لاتنظروا نظرة تحليلية ، لاتنظروا كما ينظر العلماء ، أو حتى كما ينظر البستانى • حرروا أنفسكم من كل شىء تعرفونه وانظروا ببراءة تامة الى ذلك الشىء الماثل أمامكم والذى لاتكاد تصدقه العقول • انظروا اليه وكأنكم لم تروا له شبيها من قبل ، وكأنه لايحمل اسما ولاينتمى الى فصيلة معروفة • انظروا اليه متنبهين ولكن بموقف سلبى ، مستقبلين ، دون أن تطلقوا عليه اسما أو تصدروا عليه حكما أو تخضعوه للمقارنة • واستنشقوا لغزه وأنتم تنظرون اليه، وتنفسوا روح الحس ، وعطر الحكمة ، حكمة الضفة الأخرى •

وعلق على ذلك ويل بقوله : ما أشبه ماتقولين بما كان يقول الدكتور روبرت فى حفل التنصيب •

قالت السيدة نارايان : شبيه به بطبيعة الحال • ذلك أن تعلم نظرة ماهاكاسيابا للامور هو أفضل اعداد لتجربة عقار الموكشا • كل طفل يبلغ سن التنصيب يقبل عليه بعد تربية

طويلة على فن الاستقبال ، أى أن يكون المرء مستقبلا • الجاردينيا أولا كنموذج نباتى ، ثم الجاردينيا ذاتها فى تفردها ، الجاردينيا كما تراها عين الفنان ، ثم بعد ذلك الجاردينيا وهى فى أشد حالات الاعجاز كما يراها بوذا وماهاكاسيابا •

ثم أضافت الى ذلك قولها : ولست بحاجة الى أن أقول اننا لا نحصر أنفسنا فى الزهور • كل دراسة يتلقاها الاطفال تتخللها وقفات دورية لبناء الجسور • كل شىء من الضفدعة المشرحة الى المجرة اللولبية ينظر اليه الطلاب مستقبلين له ومفكرين فيه ، باعتباره تجربة جمالية أو روحانية وباعتباره فى الوقت نفسه من حقائق العلم أو التاريخ أو الاقتصاد • والتدريب على الاستقبال متمم ومصحح للتدريب على التحليل ومعالجة الرموز • وكلا التدريبين لا غنى عنهما اطلاقا • اذا أنت أهملت أحدهما فلن تصبح كائنا بشريا كامل النمو •

وساد صمت ، وأخيرا سأل ويل : وكيف ينظر المرء الى الآخرين ؟ هل يأخذ بنظرة فرويد أو بنظرة سيزان ؟ بنظرة بروست أو بنظرة بوذا ؟

ضحكت السيدة نارايان وسألته : بأى نظرة من هذه النظرات ترانى ؟

أجاب : أعتقد أولا انى أراك بنظرة عالم الاجتماع • أنظر اليك باعتبارك ممثلة لثقافة غير مألوفة • ولكنى كذلك أدرك من أنت من حيث الانطباع • وأظن ـ وأرجو أن تسامحينى فى ظنى ـ انك قد تقدمت فى السن بصورة تثير الاعجاب • فأنت على صورة طيبة من حيث الجمال والعقل

والنفس والروح بأى معنى من معانى هـذه الكلمة ــ واذا أخـذت بالانطباع كان لذلك أهميته • أما اذا أنا لم آخـذ بالانطباع وحكمت بمفهومى للكلمة كان الأمـر كله هراء بحت •

وضحك ضحكة خفيفة كما يضحك الضبع •

قالت السيدة نارايان : يستطيع المرء دائما ــ ان أراد ــ أن يستبدل بالفكرة الشائعة أفضـل الافـكار الذهنية التى يستمدها من استقبال المحسوسات • ولكن المسألة هى :

ــ لماذا يحتم المرء على نفسه أن يختار اما هذا واما ذاك؟ لماذا لايؤثر أن يسـتمع الى الجـانبين ويوفق بين نظرتيهما ؟ صانع المفاهيم الذى تحكمه التقاليد والذى يأخذ بالتحليل ، ومن يستقبل المؤثرات الخارجية ويكون الصورة وهو متنبه برغم موقفه السلبى ــ ان كلا الطـريقين ليس معصـوما من الخطأ ، وكلاهما معا يؤدى للمرء وظيفة طيبة معقولة •

واستوضحها ويل : الى أى حـد يكون تدريبكم على فن الاستقبال فعالا ؟

أجابت : للاستقبال درجات ، ففى دروس العلوم ــ مثلا ــ قليل جدا منه • العلم يبدأ بالملاحظة ، ولكن الملاحظة دائما تتخير ، فالمرء ينظر الى العالم من خلال نافذة مخرمة للمفاهيم التى أسقطت عليه • واذا أنت أخذت عقار الموكشا كادت هذه المفاهيم أن تتلاشى ، فلا تختار وتصنف خبراتك فورا ، بل تكتفى بالاستقبال • والأمر فى هـذه الحالة أشـبه بما قاله وردزورث (هات معك قلبا يشاهد ويستقبل) • وفى ساعات بناء الجسور التى تحـدثت عنها يكون هنـاك قـدر كبير من

الانتقاء والاسقاط ، ولكنه أقل حجما مما كان يحدث فى الدروس السابقة للعلوم · فالطفل لايتحول فجأة الى تاثاجاتا صغير ، ولا يصل الى حالة الاستقبال الصافية التى تأتى مع عقار الموكشا · ما أبعد الاطفال عن ذلك · وكل ما أستطيع أن أقوله ان الاطفال يتعلمون ألا يأخذوا الاسماء والأفكار السائدة مأخذ الجد · ولفترة قصيرة تراهم يأخذون أكثر مما يعطون ·

ـ وماذا يفعلون بما يأخذون ؟

أجابت السيدة نارايان وعلى ثغرها ابتسامة : اننا نكتفى بأن نطلب اليهم أن يحاولوا المستحيل · نطالبهم بأن يترجموا الخبرة الى ألفاظ · ماذا تكون هذه الزهرة ؟ وهذه الضفدعة المشرحة ؟ وهذا الكوكب الذى تراه على الطرف الآخر من المنظار المقرب ؟

ماذا تعنى ؟ بماذا توحى اليك لكى تفكر ، أو تشعر ، أو تتصور ، أو تتذكر ؟ نوجه اليهم هذه الاسئلة لتكون جزءا من العطاء البحت الذى لايخضع للمفاهيم المسبقة · ونطلب اليهم أن يدونوا اجاباتهم على الورق · نقول لهم انكم بطبيعة الحال لن تفلحوا ، ولكن عليكم أن تحاولوا · فان ذلك يساعدكم على ادراك الفرق بين الالفاظ والاحداث ، بين أن تعرف عن الاشياء وأن تتعرف عليها · وبعد أن ينتهوا من الكتابة نقول لهم أعيدوا النظر الى الزهرة ، وبعد ذلك أغمضوا عيونكم دقيقة أو دقيقتين ، ثم ارسموا ما خطر لكم عندما كانت عيونكم مغمضة · ارسموه أيا كان ـ شيئا غامضا أو واضحا ، شيئا كالزهرة أو مختلفا عنها كل الاختلاف · ارسموا مارأيتم

أو حتى مالم تروا ، ارسموه ولونوه بأصـــباغكم وأقلامكم ٠ واستريحوا مرة أخرى ، وقارنوا الرسم الأول بالرسم الثانى، وقارنوا بين الوصف العلمى للزهرة وبين ماكتبتم عنها حينما لم تكونوا تحللون ماترون ، وحينما كنتم تتصرفون وكأنكم لم تعرفوا شـيئا عن الزهـرة ولم يكن متاحا لكم سوى لغز وجودها يهبط عليكم طفرة من السماء ٠ ثم قارنوا رسومكم وما كتبتم مع رسوم غـيركم من البنين والبنات زمـلائكم فى الفصـل الدراسى وماكتبوا ٠ .سوف تجـدون أن الأوصـاف والرسوم التحليلية متشابهة ، فى حين آن الرسوم والكتابات الأخرى يختلف كل واحد منها عن الآخـر اختـلافا كبيرا ٠ ما صلة ذلك بما تعلمتم فى المدرسة ، والبيت ، والغـابة ، والمعبد ؟ عشرات الاسئلة ، وكلها ملحة ٠ ان الجسور يجب أن تقام فى جميع الاتجاهات ٠ يبدأ الطالب بعلم النبات ــ أو بأية مادة أخرى فى منهج الدراسة ــ ويجد أنه فى نهاية فترة بناء الجسور يفكر فى طبيعة اللغـة ، وفى الانـواع المختلفة للخبرة ، وفيمـا وراء الطبيعة وسير الحيـاة ، وفى المعـرفة التحليلية وحكمة (الشاطىء الآخر) ٠

سأل ويل : انى لأعجب أشـد العجب كيف استطعتم أن تعلموا المعلمين الذين يقومون الآن بتعليم الاطفال بناء هـذه الجسور ؟

قالت السيدة نارايان : بدأنا تعليم المعلمين منـذ مائة وسبعة أعوام ٠ شكلنا فصولا من الشـبان والشـابات ممن تلقوا تلعيمهم بالطـريقة التقليدية بين أهـل بالا ٠ تعلمو أدب المباشرة ، والزراعة الجيدة ، والفنون والحرف الجيدة وشيئا عن الطب الشعبى ، وطرائف عن الفيزياء والنبات

والعقيدة فى قوة السحر ، وصدق القصص الخيالية • لا علم ، ولا تاريخ ، ولا شىء عما يجرى فى العالم الخارجى • ولكن معلمى المستقبل هـؤلاء كانوا من البـوذيين التقـاة ، مارس أكثرهم التأمل ، وقرأوا جميعا الكثير من فلسفة ماهايانا أو استمعوا اليهـا • ومعنى ذلك أنهم فى مجـالات الميتافيزيقا التطبيقية وعلم النفس كان تعليمهم أكمل وأكثر واقعية عما تتعلمه أية مجموعة من معلمى المستقبل فى الجزء من العـالم الذى تسكنونه • وكان الدكتور أندرو انسانيا تدرب تدريبا علميا ولم يأخذ العقائد مأخـذ التصـديق بغير فحص ، كما كشف عن قيمة الماهايانا البحت والماهايانا التطبيقية • وكان صديقه الراجا بوذيا على مذهب تانترا وقد كشف عن قيمة العلم البحت والعلم التطبيقى • ومن ثم فلقد رأى كلاهما بكل وضوح أن المعلم الذى باسـتطاعته أن يعلم الاطفـال كيف يكونون انسانيين كاملين فى مجتمع يليق بالكائنات البشرية الكاملة أن يعيشوا فيه ـ هذا المعلم ينبغى أن يتعلم أولا كيف يستغل هذين العالمين أحسن استغلال •

ـ وماذا كان احساس هؤلاء المعلمين أثناء اعدادهم ازاء ذلك ؟ هل قاوموا هذا الأتجاه ؟

هزت السيدة نارايان رأسها وقالت : كلا ، لم يقاوموه لسبب وجيـه وهو أن هذا الاتجاه لم يهاجم أى شىء عزيز عليهم • فلقد كانت بوذيتهم محلا للاحترام • وكل ما طلب اليهم التخلى عنه هـو علم العجائز والحكايات الخرافيـة • وفى نظير ذلك قدمت اليهم كل ضروب الحقائق التى كانت اكثر تشـويقا والنظريات التى كانت اكثر نفعا • واتحدت الآن تلك الامور المثيرة الواردة من العالم الغربى ، عالم المعرفه

والقوة والتقدم ، مع نظريات البوذية والحقائق النفسية في الميتافيزيقا التطبيقية ، وبمعنى ما خضع علم الغرب لمذهب البوذية · وهذا البرنامج الذي جمع بين أفضل مافي العالمين لم يكن به ما يؤذي احساس الوطنيين المتدينين حتى أشدهم حساسية واكثرهم حماسة ·

وبعد فترة من الصمت قال ويل : انني افكر في معلمي المستقبل عندنا · هل يمكن تعليمهم في هذه المرحلة المتأخرة ؟ وهل يمكنهم أن يتعلموا كيف يستغلون أفضل مافي العالمين أحسن استغلال ؟

ـ ولم لا ؟ فانه لايتحتم عليهم أن يتخلوا عن أي أمر من الأمور التي لها عندهم أهمية حقيقية · غير المسيحيين منهم يستطيعون أن يواصلوا تفكيرهم في الانسان ، والمسيحيون يستطيعون أن يواصلوا عبادتهم لله · لن يحدث أي تغير ، غير أن يفكروا في الله باعتباره موجودا في كل الوجود ، ويفكروا في الانسان على أنه يستطيع بطبيعته أن يتجاوز حدود نفسه ·

ضحك ويل وقال : وهل تظنين أنهم يتقبلون هذا التغيير بغير احتجاج ؟ أنت متفائلة ·

قالت السيدة نارايان : نعم متفائلة لسبب بسيط وهو أن الانسان اذا عالج مشكلة ما بذكاء وواقعية ، فان النتائج لابد أن تكون طيبة · وهذه الجزيرة تبرر قدرا من التفاؤل · والآن دعنا ننصرف لنشاهد درس الرقص ·

وعبرا فناء تظلله الاشجار ، ودفعا بابا متحركا ، وخرجا من الصمت الى دق الطبل الايقاعي وصوت الناي يردد نغمة خماسية كانت في مسمع ويل شبيهة بالنغمة الاسكتلاندية ·

وسأل : هل هذه موسيقى حية أم معبأة ؟

وأجابت نارايان فى اقتضــاب : هــذا شريط يابانى • وفتحت بابا آخــر وكشفت عن جيمنازيم فســيح به شــابان ملتحيان وسيدة عجوز تسترعى النظر بخفة حركتها وترتدى سروالا من الساتان الاسود ، وهؤلاء يقومون بتعليم حركات الرقص الرشــيق لنحــو عشرين أو ثلاثين من صــغار البنين والبنات •

سأل ويل : ماهذا ؟ أهو لهو أو تعليم ؟

قالت المديرة : كلاهما ، وهو كذلك درس فى الاخلاق التطبيقية • شبيه بتمرينات التنفس التى كنا نتحدث عنها منذ لحظة ــ ولكنه أكثر فعالية لانه أشد عنفا •

كان الاطفال يتغنون غناء جمــاعيا بهــذه العبــارة : ضربوا بأقدامكم. ومع الغناء يضربون الأرض ــ بكل قواهم ــ بأقدامهم الصغيرة التى يكسونها بالصنادل • وفى المرة الاخيرة وهــم يكررون قــولهم : اضربوا بأقــدامكم ، ضربوا الأرض بشدة ، وبدأوا حركة راقصة جديدة وهم يدورون ويهتزون •

قالت الســيدة نارايان : هــذه رقصــة راكشاسى على المزمار •

سأل ويل : وما هى راكشاسى ؟

ــ راكشاسى نوع من العفــاريت ، ضخم جــدا ، منفر للغاية • كل الميول القبيحة تتمثل فيه • ورقصة راكشاسى على

المزمار حيلة للتنفيس عن الطاقة التى يثيرها الغضب والفشل ٠

وطرقت مسمعى ويل مرة أخرى تلك الصيحة : اضربوا بأقدامكم يتغنى بها الاطفال مرددين ٠

وصاحت السيدة العجوز الضئيلة ــ وهى تضرب لهم مثلا قويا قائلة :

ــ اضربوا مرة أخرى ، بكل قواكم ، وكل عنف !

وفكر ويل بينه وبين نفسه : أيهما أفضل للاخلاق وللسلوك الرشيد ؟ طقوس العربدة أو «الجمهورية» (١) ، أخلاق نيقوماخوس أو الرقص الكوريبانتى (٢) ؟

قالت السيدة نارايان : كان الاغريق أعقل من أن يفكروا بصيغة اما هذا واما ذاك ٠ كانوا يفكرون دائما بصيغة ليس هذا فقط ، وانما كذلك ، ليس فقط افلاطون وآرسطو ، وانما كذلك ربات المهرجانات ٠ ولولا تلك المزامير التى تخفف التوتر لعجزت الفلسفة الاخلاقية ، ولولا الفلسفة الاخلاقية لما عرفت المزامير فى أى اتجاه تسير ٠ كل مافعلناه هو أننا أخذنا صفحة من كتاب الاغريق القديم ٠

قال ويل : حسنا مافعلتم ٠ ثم تذكر أنه رجل لايصدق كل مايقال (وكان دائما يتذكر ذلك فى الحين أو فيما بعد ، ومهما كان سروره ومهما كانت حماسته) ٠ تذكر ذلك فانفجر

---

(١) يقصد جمهورية افلاطون ــ المترجم

(٢) طقوس اغريقية قديمة كانت تؤدي بمصاحبة الرقص والموسيقى ــ المترجم

ضاحكا ، وقال : ان الرقص الكوريباتي لم يمنع الاغريق من التقاتل ـ وان كان ذلك أمر لا أهمية له على المدى البعيد • ثم ماذا ينفعكم رقص راكشاسي على المزمار اذا قرر الكولونيل ديبا أن يتحرك ضدكم ؟ هل يساعدكم الرقص على الرضا بما قدر لكم ؟ ربما ـ وهذا كل مافي الأمر •

قالت السيدة نارايان : نعم هذا كل مافي الأمر ، غير أن مجرد الرضا بالقدر ميزة كبرى في حد ذاته •

ـ الظاهر انك تأخذين كل الامور بنفس مطمئنة •

ـ وما جدوى أن نأخذ الامور بعصبية ؟ ان ذلك لايجعل موقفنا السياسي أفضل • ولا يترتب عليه الا أن يكون موقفنا الشخصي أسوأ بدرجة كبرى •

وكان الأطفـــال يرددون جمـــاعة «اضربوا بأقدامكم» والألواح الخشبية تهتز تحت أقدامهم الضاربة •

وواصلت السيدة نارايانحديثها قائلة : أرجو ألا تتصور أن هذه هي الرقصة الوحيدة التي نعلمها • نعم ان تحـــويل اتجاه القوى التي تولدها المشاعر الســـيئة أمـــر هام ، ولكن لايقل عنه أهمية توجيه المشاعر الطيبة والمعرفة الصحيحة نحو الافصاح عن نفسها • في هذه الحالة تكون الحركات تعبيرية، وكذلك تكون الاشارات تعبيرية • لو أنك زرتنا بالأمس حينما كان الاستاذ الزائر هنا لأطلعتك كيف نعلم هـــذا النوع من الرقص • ولا أستطيع ذلك اليوم لسوء الحظ • ولن يعود الى زيارتنا قبل الثلاثاء •

ـ أي أنواع الرقص يعلم ؟

حاولت السيدة نارايان أن تصف هذا الرقص : لا وثب، ولا رفس الى أعلى ، ولا عدو . الاقدام ثابتة دائما فوق الارض . مجرد انحناءات وحركات جانبية بالركب ومفاصل الأوراك . كل التعبير تقوم به الاذرع والمعاصم والايدى ، والرأس والعنق ، والوجه ، والعينان خاصة . حركات بالاكتاف الى أعلى والى أمام ـ حركات رشيقة فى حد ذاتها ومحملة كذلك بالمعنى الرمزى . الفكر يتخذ شكلا بالطقوس وبالحركات الرشيقة . الجسم كله يتحول الى حروف هيروغلوفية ، والحروف يتبع بعضها بعضا ، كما تتتابع الاوضاع متغايرة للانتقال من دلالة الى دلالة ، كالقصيدة الشعرية أو قطعة الموسيقى . حركات العضلات تمثل حركات الوعى ، والانتقال من الصيغة المثالية الى الصيغ المتعددة ، والانتقال من المتعدد الى الواحد الموجود فى كل مكان وزمان .

وختمت حديثها بقولها : انه تأمل بالحركة . هو ميتافيزيقا ماهايانا يعبر عنها لا بالكلمات ولكن بالحركات الرمزية والاشارات .

وانصرفا من الجيمنازيوم عن طريق باب غير الباب الذى دخلا منه ، واتجها يسارا سائرين فى ممر قصير .

وسأل ويل : وماذا بعد ذلك ؟

وأجابت السيدة نارايان : الصف الرابع الأدنى ، وهم الآن يدرسون مبادىء علم النفس العملى .

وفتحت بابا أخضر اللون .

وسمع ويل صوتا ليس غريبا عنه يقول : تعلمون الآن

أنه لاداعى لان يحس أحــد بالألم · فلقــد قلتم لأنفسكم ان الدبوس لايؤذى ، فلم يؤذ ·

وولجا الغرفة ، ووجدا سوزيلا ماك فيل ، طويلة القامة وسط نحو عشرين طالبا ، من الصغار ذوى البشرة السمراء ، بعضهم بدين وبعضهم هزيل · فابتسمت لهما ، وأشارت الى مقعدين فى احدى زوايا الغــرفة ، ثم عــادت الى الاطفال · وكررت قولها : لاداعى لان يحس أى انســان بالألم · ولكن لاتنسوا أبدا أن الألم دائما يعنى أن هنــاك خللا ما · لقــد تعلمتم أن تبعــدوا الألم ، ولكن لاتفعلوا ذلك بغير تفكير ، ولا تفعلوه دون أن تسألوا أنفسكم ما سبب هذا الألم ؟ واذا كان الألم شديدا ، أو اذا لم يكن هناك سبب واضح له ، افضوا الى أمهاتكم به أو الى معلمكم أو الى أى كبير فى نادى التبنى المتبادل الذى تنتسبون اليه · ثم ابعــدوا الألم بعــد ذلك · ابعدوه وأنتم تعلمون أنه اذا كانت هناك حاجة الى عمل ما ، فلابد من أدائه · هل فهمتم ؟ · · ·

وبعــد ما أجــابت عن جميع الاسئلة التى وجهت اليها قالت : والآن دعنا نقوم ببعض ألعــاب التظاهر · اغمضوا عيونكم وازعموا أنكم تنظرون الى طائر المينة العجوز المسكين صاحب الساق الواحــدة الذى يزور المدرســة كل يوم لكى تطعموه · هل ترونه ؟

وطبعا استطاعوا أن يروه · وكان من الواضح أن المينة صاحبة الساق الواحدة صديقة قديمة ·

ـ انظروا اليه بالوضوح الذى رأيتموه به اليوم ساعة الغداء · ولا تحملقوا فيه · ولا تبذلوا جهــدا · اكتفوا بأن

تروا ماينطبع فى أعينكم ، ونقلوا عيونكم ــ من منقاره الى ذيله ، ومن عينه المستديرة الصغيرة اللامعة الى ساقه البرتقالية ٠

وتلقائيا قالت فتاة صغيرة : اننى أسمعه كذلك ٠ انه يصيح (كارونا ، كارونا !)

وبسخط شديد قال طفل آخر : ليس هذا صحيحا ٠ انه يقول : انتباه !

وأكدت لهما سوزيلا انه يقول هذا وذاك : وربما كان ينطق بكلمات كثيرة غير ذلك ٠ ولكننا الآن سوف نقوم بتظاهر واقعى ، ازعموا أن هناك طائرين من طيور المينة من ذوى الساق الواحدة ٠ ثلاثة منها ٠ أربعة ٠ هل ترون الأربعة ؟

واستطاعوا

ــ أربعة طيور من طيور المينة ذوى الساق الواحدة فى الأركان الأربعة لأحد الميادين ، وطائر خامس وسط الميدان٠ والآن تخيلوا أن الطيور قد غيرت لونها فصارت بيضاء ٠ خمس مينات بيضاء برؤوس صفراء وساق واحدة برتقالية ٠ والآن تخيلوا أن الرؤوس زرقاء ، فاقعة الزرقة ــ والطائر فيما عدا ذلك قرنفلى اللون ٠ خمسة طيور قرنفلية رؤوسها زرقاء ٠ وهى فى تغير دائم ، فهى الآن أرجوانية ٠ خمسة طيور أرجوانية رؤوسها بيضاء ولكل منها ساق واحدة خضراء باهتة اللون٠٠ يا الهى ! ماهذا الذى يحدث ! انها ليست خمسة ، بل هناك عشرة ٠ لا ، عشرون ، خمسون ، مائة ٠ مئات ومئات٠ هل ترونها ؟

واستطاع بعضهم أن يراها دون أدنى صعوبة ٠ وأما

أولئك الذين لم يستجيبوا كل الاستجابة فقد اقترحت لهم سوزيلا أهدافا أكثر تواضعا ·

قالت : تخيلوها اثنا عشر ، واذا استكثرتم هذا العدد فاجعلوها عشرة أو ثمانية · فهذا العدد كذلك كبير جدا ·

واسترسلت في حديثها بعد ما استحضر الاطفال جميعا كل الطيور الارجوانية التى خلقها كل منهم وفق قدرته ، وقالت : والآن تطير الميئات ·وصفقت بيديها ثم قالت :طارت! كلها ، ولم تبق واحدة منها · ولن تروا بعد ذلك ميئات · ستروننى أنا · أنا واحدة صفراء · وأنا مرتين خضراء ، وأنا ثلاث مرات زرقاء فوقى بقع قرنفلية · أربعة منى فى لون أحمر قان ، كأشد ماتكون الحمرة · وصفقت بيديها مرة أخرى وقالت : لقد ولوا جميعا · وهذه المرة ترون السيدة نارايان مع ذلك الرجل العجيب صاحب الساق المتصلبة الذى جاء معها · أربعة من كل منهما ، ويقفون فى دائرة كبرى بالجيمنازيوم · انهم الآن يرقصون رقصة الراكشاسى على المزمار وينشدون ، «اضربوا بأقدامكم ، اضربوا بأقدامكم» ·

وقهقهوا جميعا · لان ويل المتعدد والمديرة المتعددة ظهروا قطعا فى صورة هزلية للغاية ·

وطقطقت سوزيلا بأصابعها ·

وقالت : ابعدوا هذه الصور عن أذهانكم ! لقد اختفت! والآن كل منكم يرى ثلاثا من أمهاتكم وثلاثة من آبائكم يجرون حول الملعب · انهم يسرعون فى الجرى ، وفجأة يختفون ، ثم يظهرون · وبعد لحظة لاترونهم · انهم هناك ، انهم ليسوا هناك ، هناك ، لا ···

وتحـولت القهقهة الى ضحك متواصل ، وعنـدما بلغ الضحك أقصاه دق الناقوس ، وانتهى درس مبادىء علم النفس العملى ٠

وبعد ما انصرف الاطفال الى اللعب وعـادت السـيدة نارايان الى مكتبها سأل ويل : ما مغزى هذا كله ؟

أجابت سوزيلا : المغزى هو أن نجعل الناس يدركون أنهم ليسوا تحت رحمة الذاكرة أو التصورات الخيالية كلية ٠ فاذا اضطرب المرء لما يجرى فى رأسـه اسـتطاع أن يفعل شـيئا للتخلص من هذا الاضطراب ٠ الأمـر كله أن نعلمه مايفعل ونمكنه بعد ذلك من الممارسة ــ وهى الطريقة التى يتعلم بها المرء كيف يكتب أو يعزف بالمزمار ٠ هـؤلاء الاطفال الذين رأيتهم كانوا يتعلمون طريقة غاية فى البسـاطة ــ طريقة سوف ننميها فيما بعد حتى تصبح وسيلة للتحرر ٠ ولن يكون التحرر كاملا بطبيعة الحال ٠ ولكن نصف الرغيف أفضل كثيرا من انعدام الخبز ٠ ان هذه الطريقة لن تسوقك الى الكشف عن طبيعتك البوذية ، ولكنها تعينك على الاستعداد لهذا الكشف ــ تعينك بتحـريرك من مطـاردة ذكرياتك الأليمـة لك ، ومطاردة الندم والقلق على المستقبل من غير مبرر ٠

قال ويل : صدقت ، وأحسنت اختيار اللفظ حينما قلت: المطاردة ٠

ــ ليست المطاردة أمرا محتوما ٠ فان بعض الاشباح يمكن طردها بسهولة كبرى ٠ كلما ظهر شبح منها عالجه بالخيال ٠ وعامله كمـا تعاملنا مع تلك المينات ، ومعك ومع السـيدة نارايان ٠ غير زيه واعطه أنفـا آخـر ، وعـدده ، ثم مره

بالانصراف ، واستدعه مرة أخرى واجعله يقــوم بعمل يثير الضحك • ثم امحه محوا • تصــور ما كان بوسعك أن تفعله بأبيك لو كنت تعلمت قليلا من هذه الحيل الصغيرة فى طفولتك! لقد كنت تحسبه عملاقا مخيفا • ولكن ذلك لم يكن ضروريا • كنت تستطيع بخيالك أن تحول هذا العملاق الى صورة أخرى خيالية ، بل الى مجموعة من الصور الخيالية • فترى عشرين منها ترقص على كعــوب أقدامها وتغنى وتنشــد : رأيت فى المنام أنى أقطن قاعات من المرمر • ان دراسة مختصرة فى مبادىء علم النفس العملى كان من الممكن أن تجعل حيــاتك مختلفة كل الاختلاف •

وفكر ويل ـ وهما يتجهان نحو العربة الجيب التى كانت بانتظاره فيما كان يمكنه أن يفعل فى حادث وفاة مولى • أى طقوس كان يمكنه أن يمارسها بالتعاويذ الخيالية يطرد بهــا الأرواح الشريرة التى كانت تتلبس بها تلك الشيطانة البيضاء التى تعطرت بالمسك وجسدت رغباته المقيتة المسعورة ؟

وبلغا عربة الجيب • وسلم ويل سوزيلا المفاتيح واستقر فى مقعده بشىء من المشقة • واقتربت منهما عــربة قديمة صغيرة من ناحية القرية محدثة ضجيجا عاليا وكأنها تحت دافع عصبى لتعوض حجمها الصغير • ودارت العربة على طــريق سير العربات وهى ماتزال تقعقع وتهتز ، وأخيرا توقفت الى جوار عربة الجيب •

والتفتا • وألفيا موروجان مطلا من نافذة العربة أوستن الملكية ، ووراءه كانت تجلس الرانى بحجمها الضخم مرتدية الموصلين الابيض ومنتفخة كركام السحاب • وانحنى ويل فى اتجاهها واستخرج منها ابتسامة غــاية فى اللطف ، سرعان

ما اختفت عندما التفتت الى سوزيلا التى ردت الرانى تحتيها بايمائة بعيدة برأسها ٠

وسألها ويل فى أدب جم : هل أنتما على سفر بالعربة ؟

قالت الرانى : حتى شيفابورام فقط ٠

وأضاف الى ذلك موروجان بشىء من مرارة النفس قائلا: اذا استطاع هـذا القفص الصـغير المحطم أن يتماسك حتى هناك ٠

وأدار مفتاح الحرارة ، وخرج من المحـرك صوت أخير يشبه الفواق ثم توقف تماما ٠

وواصلت الرانى حديثها قائلة : هناك قوم لابد لنا من لقائهم ، وبنغمة مفعمة بدلالات التآمر أضافت قولها ولعل من الأصح أن أقول ان هناك شخصا واحدا ٠

وابتسمت لويل وكادت أن تغمز له بعينيها ٠

وزعم ويل أنه لم يدرك أنها تتحدث عن باهـو ، وعلق بقوله «صدقت» دون أن يلتزم برأى ما ، وأشـفق عليها من الجهد والقلق اللذين لابد أن يقتضيهما الحفل الذى يقام فى الأسبوع القادم بمناسبة بلوغ مورجان سن الرشد ٠

وقاطعه مورجان بسؤله : ماذا تفعل هنا ؟

ـ قضيت بعد الظهر مهتما اهتماما عميقا بالتربية فى بالا ٠

ورددت الرانى العبارة الأخيرة فقالت : التربية فى بالا٠

ومرة أخرى قالت بنغمة حزينة وبفاصل بين الكلمتين : التربية ـ فى بالا وهزت رأسها ٠

قال ويل : أنا شخصيا اعجبت بكل ما رأيت وسمعت عنها ـ من المستر مينون والمديرة حتى الدرس فى مبادىء علم النفس العملى كما تعلمه السيدة ماك فيل ، محاولا بهذه الأخيرة أن يستدرج سوزيلا الى الحديث ٠

وأشارت الرانى بأصبع الأتهام الغليظه الى الفزاعات التى ظهرت فى الحقول السفلية ، وما زالت تتجاهل سوزيلا عن عمد ٠

وسألت : هل رأيت هذه يامستر فاربنى ؟

وكان قد رآها فسأل : واين فى غير بالا يجد المرء فزاعات جميلة ، قديرة ، ولها دلالتها الميتافيزيقية فى آن واحد ؟

قالت الرانى بصوت يتهدج من الشعور بالسخط والاكتئاب : وهذه الفزاعات لا تفزع الطيور فتبعدها عن الارز فحسب ، بل تفزع كذلك الاطفال وتبعدهم عن فكرة تجسيد الآلهة ورفعت رأسها وقالت :

ـ استمع !

وكان قد انضم الى كريشنا ومارى ساروجينى خمسة أو ستة أصحاب ، وكلهم يلعب بشد الخيوط التى تهز العرائس الخارقة للطبيعة ٠ وصدرت عن المجموعة أصوات عالية تغنى سويا ٠

وعندما تكرر الغناء للمرة الثانية تبينت كلمات الانشودة لويل ٠ كانوا ينشدون :

ـ شدوا هيا شدوا

ـ بالارادة القوية شدوا

ـ الارباب تهتز

ـ والسماء فى مكانها ثابتة

قال : برافو ثم ضحك ٠

وقالت الرانى منفعلة : هذا لايسرنى ، ولا يضحكنى ، إنها مأساة ، وأي مأساة ٠

وأصر ويل على موقفه وقال : أنا أعلم أن هذه الفزاعات الفاتنة كانت من اختراع جد موروجان ٠

قالت الرانى : كان جد موروجان رجلا يدعو للاعجاب ٠ غاية فى الذكاء ، وبنفس الدرجة غاية فى الانحراف ـ مواهبه عظيمه ـ ولكن للأسف ، يستخدمها فى الشر والايذاء ! وأسوأ من هذا كله أنه كان مليئا بالروحانية الكاذبة ٠

ـ الروحانية الكاذبة ؟ شخص ويل ببصره نحو أضخم نموذج للروحانية الصادقة ، ومن خلال الرائحة الأخاذة لمنتجات البترول استنشق رائحة خشب الصندل التى تشبه رائحة البخور التى ينفثها العالم الآخر ٠ الروحانية الكاذبة؟

وفجأة ألفى نفسه فى حالة من التعجب ـ وتخيل وقد أخذته الرعدة ـ على أية صورة تكون الرانى اذا هى تجردت فجأة من صفتها الصوفية وتعرضت عارية للضوء بكل ضخامتها وشحمها ٠ والآن تخيل هذا الجسم البدين العارى مضروبا مرة فى ثلاثة ، ثم مرتين ، ثم عشر مرات ـ لقد طبق السيكولوجيا العملية التطبيقية بروح الانتقام !

وأخذت الراني تكرر قولها : نعم ، الروحانية الكاذبة • يتحدث عن التحرر ، ولكنه ــ بسبب رفضه العنيد لاتباع الطريق الحق ــ يعمل دائما لمزيد من العبودية ، ويمثل دور المتواضع • ولكن في قلبه كل الكبرياء ــ يامستر فارنبي ــ حتى لقد رفض أن يعترف بأية سلطة روحانية أعلى من سلطته • السادة ، تجسد الآلهة ، والتقاليد الموروثة العظمى ــ كل ذلك ليس له عنده معنى • ومن ثم كانت هذه الفزاعات المخيفة • ومن ثم كان نشيد الكفر الذى تعلم الاطفال التغنى به • اننى حين أفكر في هؤلاء الصغار المساكين الابرياء وكيف يزج بهم عمدا على طريق الانحراف أكاد لا أطيق نفسي يامستر فارنبى ، وأجد • • •

قال موروجان الذى كان ينظر فى قلق وبشكل واضح الى ساعة معصمه • اسمعى ياأمى ، اذا أردنا أن نعود على وقت العشاء ، فالأفضل أن ننصرف الآن •

وكان يتكلم بنغمة السلطة الجافة • وأحس بصورة واضحة وهو يمسك بعجلة قيادة السيارة ــ على الرغم من أنها اوستن قديمة صغيرة ــ انه أضخم حقا من حقيقته • وأدار محرك السيارة دون أن ينتظر من الراني ردا • وزاد من سرعتها تدريجا ولوح بيده ثم انطلق •

قالت سوزيلا : تخلصنا تخلصا حسنا •

ــ ألا تحبين مليكتك العزيزة ؟

ــ ان دمى يغلى منها •

وأنشد ويل : «اضربى بقدمك» ساخرا منها •

قالت : صدقت • وهى تضحك • ولكن لسوء الحظ ليس

من المعقول فى هذه المناسبة آن ترقص رقصة الراكشاشى على المزمار • وتألق وجهها فجأة بنار الشر ، وبغير انذار لكمته فى أضلعه لكمة قوية تدعو الى العجب وقالت : الآن أحس أننى مرتاحة •

ادارت محرك السيارة وانطلقا ــ هبطا الى الطريق الجانبى ، ثم صعدا الى الطريق العام الذى يقع بعيدا عن الطرف الآخر للقرية ، ثم اتجها نحو مجمع محطة التجارب • وتوقفت سوزيلا عند بيت صغير سقفه من القش ، كغيره من البيوت • وصعدا ست درجات الى الفراندة ، ثم دخلا حجرة المعيشة التى طليت جدرانها باللون الابيض •

وعلى اليسار كانت هناك نافذة متسعة علقت بين العمودين الخشبيين الواقعين على جانبيها البارزين أرجوحة • فأشارت اليها وقالت : هذه لك ، وتستطيع أن ترفع ساقيك • ولما جلس ويل فى الأرجوحة الشبكية سألته بعد ما سحبت مقعدا من الاغصان اللينة وجلست الى جواره ، قالت : فيم نتحدث ؟

ــ هل نتحدث عن الخير والحق والجمال ؟

ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال : أم هل نتحدث عن القبح والشر وعما هو أكثر صدقا ؟

قالت وقد تجاهلت محاولته أن يتفكه : نستطيع فى ظنى أن نواصل الحديث عندما انتهينا اليه فى المرة الماضية ــ نتحدث عنك •

ــ هذا بعينه هو ما اقترحته ــ القبح ، والشر ، والأصدق من كل صدق رسمى •

سألته : هل أنت تستعرض اسلوبك فى الحديث ، أم هل أنت تريد أن تتحدث عن نفسك فعلا ؟

أكــد لهـــا أنه يريد ويستميت فى ذلك فعلا « بمقدار ما أستميت فى عدم الرغبة فى حديثى عن نفسى» • ومن ثم ، كمـــا رأيت ، كان اهتمـــامى الذى لايفتر بالفن ، والعلم ، والفلسفة ، والسياسة ، والأدب ــ أى شىء الا ما له فى النهاية أية أهمية» •

وساد صمت طــويل • ثم بدأت ســوزيلا تتحــدث عن كاتدرائية ولز وكأن ذكراها قد عادت اليها عــرضا ، وعن استدعاء الغربان ، وعن الأوز العراقى الابيض الذى يسبح بين انعكاسات السحب الطافية • وبعد بضع دقائق كان هو أيضا يسبح •

قالت : كنت سعيدة جدا طوال الوقت الذى قضيته فى ولز • سعيدة بشــكل عجيب • وكــذلك كنت أنت ، أليس كذلك ؟

لم يحر ويل جوابا • وكان يســتعيد فى ذاكرته تلك الأيام التى قضاها فى الوادى الأخضر ، قبل أن يتزوج مولى، وقبل أن يتحابا • ماأروع السكون ! وياله من عالم صلب حى بغير ديدان ، عالم الحشائش والزهور المتفتحة ! حينما سرى بينهما شعور طبيعى لم تشبه شائبة ، شعور لم يحس مثله منذ تلك الايام البعيدة وقتما كانت عمته مارى ماتزال على قيد الحياة • ذلك الشخص الوحيد الذى أحبه فعلا ــ ثم كانت مولى خليفة لها • أية سعادة ! لقد انتقل الحب الى مفتاح آخــر ــ ولكن اللحن والايقاع الثرى الدقيق هو بعينه • وفى الليلة

الرابعة من مقامها طرقت مولى الجدار الذى كان يفصل بين حجرتيهما ، ووجد باب غرفتها مفتوحا الى نصفه فتحسس طريقه فى الظلام الى الفراش الذى كانت أخت الرحمة تبذل فيه الجهد لتؤدى دور الزوجة العاشقة ، وهى عارية مطمئنة الضمير · وبذلت جهدها ولكنها فشلت فشلا ذريعا ·

وفجأة ، كما كان يحدث تقريبا كل مساء ، سمع رياحا عاصفة ووقع الامطار فوق الخضرة الكثيفة ، وقد كتم بعد المسافة صوت المطر ــ واشتد وقع الامطار المنهمرة كلما اقترب رذاذها · ومرت بضع ثوان طرقت بعدها قطرات المطر زجاج النوافذ ، كما كانت تفعل بنوافذ مكتبه فى ذلك اليوم الذى تم فيه لقاؤهما الأخير · وذكر قولها : هل تعنى حقا ماتقول ياويل ؟

آلمته الذكريات وأخجلته مما جعله يحس الرغبة فى النحيب ، وعض شفتيه ·

سألته سوزيلا : فيم تفكر ؟

انه لم يكن يفكر ، بل كان يراها فعلا ، ويسمع صوتها فعلا وهى تقول : هل تعنى حقا ماتقوله ياويل ؟

ومن خلال وقع قطرات المطر رن فى اذنه ما أجاب به حينما قال : نعم أنا حقا أعنى ما أقول ·

وخف صوت سقوط الامطار على زجاج النافذة ــ ولم يدر ان كان هنا أم هناك ، الآن أو حينذاك ــ وخف هبوب العاصفة حتى أمسى تمتمة وهمسا ·

وأصرت سوزيلا على سؤالها : فيم تفكر ؟

ـ آفكر فيما فعلت بمولى •

ـ وما ذاك ؟

لم يرد أن يجيب • ولكن سوزيلا كانت عنيدة متصلبة •

ـ خبرنى ماذا فعلت •

وعصفت الريح مرة أخرى بشدة حتى شخشخت النوافذ واشتد سقوط المطر ، وكأنه ـ كما ظن ويل ـ قد اشتد عمدا • وأمطرت السماء بصورة تحتم عليه أن يستمر فى تذكر ما لم يرد أن يذكر ، وأن يتفوه بصوت عال بأمور مخجلة يتبغى له أن يحتفظ بها لنفسه مهما كان الثمن •

ـ خبرنى •

وعلى الرغم من نفسه ، وعلى مضض ، أخبرها بما حدث •

ـ هل تعنى حقا ماتقول ياويل ؟ وبسبب بابز ـ نعم بابز ، كان الله فى عونه : صدقت أم لم تصدقى ! ـ كان فعلا يعنى مايقول ، وخرجت مولى والمطر ينهمر •

ـ وعندما رأيتها للمرة الثانية كانت فى المستشفى •

وسألته سوزيلا : وهل كان المطر مايزال منهمرا ؟

ـ نعم كان مايزال ينهمر •

ـ كما ينهمر الآن ؟

« تقريبا » والواقع آن ماسمعه ويل هذا المساء لم يكن ذلك الرذاذ الذى يسقط فى المناطق الاستوائية ، بل كان ذلك الطبل الذى كان يدق نافذة الحجرة الصغيرة التى كانت مولى تلفظ فيها أنفاسها الأخيرة •

وكان يقول لها من خلال وقع سقوط المطر « هذا أنا ، أنا ويل» • ولم يحدث شيء ما • وفجأة أحس بيد مولى تتحرك بين راحتيه حركة تكاد ألا تحس • كانت تضـغط على يديه بارادتها ، وبعد بضع ثوان ارتخت يدها بغير ارادتها ارتخاء نهائيا •

ـ خبرني ثانية ياويل •

هز رأسه • فلقد كانت الذكرى أليمة مذلة •

وأصرت على قولها : خبرني مـرة أخـرى ، فتلك هي الوسيلة الوحيدة •

وبجهد جهيد بدأ يروى القصة البغيضة مرة أخرى • هل حقا كان يعنى مايقول ؟ نعم ، كان حقا يعنى مايقول ـ يعنى الايذاء ، وربما يعنى القتل (وهل يعرف الانسـان ماينوى حقـا ؟) • (كل شيء لبـابز أو ضاعت الدنيا) ليست دنيـاه بطبيعة الحال ـ دنيا مولى ، وفي وسط هذه الدنيا الحياة التي أوجدتها • تنطفىء جذوتها من أجل تلك الرائحة العطرة في جنح الظلام ، ومن أجل اسـتجابات عضلية ، من أجل متعة كبرى ، ومن أجل تلك المهارات التي لا حياء فيها ولكنها تسكر المرء وتبلغه الذروة •

ـ مع السلامة ياويل وانغلق الباب وراءها محدثا طقطقة خفيفة حادة •

وأراد أن يسترجعها ، ولكن عشيق بابز تذكر المهارات ، والاسـتجابات ، وتذكر جسـما يفوح منـه شـذى العطر ويتأوه من فرط اللذة • تذكر كل ذلك ، ووقف عند النافذة يرقب السيارة وهي تشق طريقها وسط الامطار ، راقبها وهي

تدور عند الناصية وقد امتلأت نفسه بشعور الانتصار المشين · لقد تحرر أخيرا ! بل بات أكثر تحررا ــ كما تبين له ذلك بعد ثلاث ساعات وهو في المستشفى ــ مما كان يظن · لانه كان الآن يحس ضغط أصابعها خفيفا في النهاية ، ويحس رسالة حبها النهائية · ثم توقفت هذه الرسالة عندما ارتخت يدها وفجأة وبصورة مرعبة انقطعت أنفاسها · وهمس قائلا «لقد ماتت» ، وأحس بالاختناق · «لقد ماتت» ·

قالت سوزيلا وقد قطعت صمتا طويلا : افرض انك لم تكن مسئولا عن موتها ، وافرض أنها ماتت فجأة دون أن يكون لك دخل في وفاتها · ألا يكون موتها في هذه الحالة مؤسفا كذلك ؟

سألها : ماذا تقصدين ؟

قالت : أقصد أن الامر لايقتصر على مجرد الشعور بالذنب لوفاة مولى · انما هو الموت نفسه ، والموت في حد ذاته ، هو الذى تراه مروعا والآن تذكرت ديوجولد وأضافت قولها : انه شر لا معنى له ·

كرر عبارتها «شر لا معنى له» ثم قال : نعم ، وربما كان هذا هو الذى حتم على أن أكون شاهدا محترفا للاعدام · لانه يخلو كلية من المعنى ، ولأنه وحشى للغاية · تابعت رائحة الموت في الدنيا كلها من أقصاها الى أقصاها ، جشعا كالنسر الوحشى · المرتاحون في هذه الدنيا ليست لديهم أية فكرة عن أحوال العالم · ولست أقصد أحواله في الأوقات الشاذة ، كأيام الحرب ، ولكن في كل حين ، أى والله في كل حين · وبينما كان يتكلم كان يرى ــ رؤيا مختصرة شاملة مفصلة كل

التفصيل كرؤيا الغريق ـ كل المناظر البغيضة التى شـهدها خلال رحلاته التى تقاضى عليها أجـرا عاليا لكل جحيم وكل مجزرة تعافها النفس حتى لاتصـلح للرواية • الزنوج فى جنوب افريقيا ، والرجل يختنق فى غرفة الغاز فى سان كنتين، والاجسام التى تكوى فى بيت ريفى بالجزائر ، والجماهير فى كل مكان ، ورجال الشرطة ورجـال المظـلات فى كل مكان ، والاطفال ذوو البشرة السـوداء فى كل مكان ، وأصـحاب الأرجل الخشبية ، وأصحاب الكروش ، والذباب فوق جفونهم القذرة ، والروائح المقززة للجـوع والمرض فى كل مكان ، ورائحة الموت النتنة • وفجأة ، من خلال رائحة الموت النتنة ، كان يتنفس شذى المسك الذى كانت تتعطر به بابز • يتنفسه ممزوجا ومشبعا برائحة الموت • يتنفس شذاها ويذكر فكاهته عن كيمياء المطهـر والفردوس • المطهـر تتراثيلين ديامين وهيـدروجين كبريتيد ، والفردوس سيمترينيتر وبسيبوتيل تولوين مع بعض الشوائب العضوية المنوعة ـ ها ـ ها ـ ها ! (الا ما أحلى متع الحياة الاجتماعية) • ثم ـ وعلى حين غرة ـ تحل محل روائح الحب والموت رائحة حيوان نتنة ـ رائحـة كلب •

واشتد هبوب الريح وطرقت قطرات المطر زجاج النوافذ وانتشرت على سطحه •

سألته سوزيلا : أما زلت تفكر فى مولى ؟

أجاب : كنت أفكر فى شىء نسيته تماما • ولا أحسب أنى جاوزت الرابعة من عمرى عندما حدث ، والآن تعود الصورة الى ذاكرتى • تايجر المسكين •

سألته : من كان تايجر المسكين !

تايجر ، كلبه الاحمر الجميل • تايجر مصدر النور الوحيد فى ذلك البيت الكئيب الذى قضى فيه طفولته • تايجر العزيز • وسط المخاوف والبؤس وفيما بين الطرفين ، الكره السافر لكل شىء وكل انسان من أبيه ، ورقة الشعور والتضحية بالنفس من أمه ، كان تايجر يبدى حسن النية بغير جهد ، ويظهر الصداقة تلقائيا ، يشب وينبح تعبيرا عن سرور لا يمكن كبته ! كانت أمه تضعه فى حجرها وتحدثه عن الله وعن يسوع ، ولكن تايجر كان يحدثه عن الله أفضل مما كانت ترويه له أمه من قصص الانجيل • كان تايجر عنده هو التجسيد • وذات يوم أصاب هذا الحيوان المقدس سل الكلاب •

سألته سوزيلا : وماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ سلته كانت فى المطبخ ،وكنت هناك جاثما الى جوارها • أربت عليه ، ولكن شعره يختلف فى ملمسه عما كان عليه قبل مرضه • أحسه لزجا ، وتفوح منه رائحة كريهة • ولولا أنى كنت افرط فى حبه لوليت هاربا • لم أحتمل أن أقترب منه • ولكنى أحبه ، أحبه أكثر من أى شىء وأكثر من أى انسان • وبينما كنت أربت عليه كنت أقول له انه سوف يشفى بعد قليل ، فى وقت قريب ــ صباح الغد • وفجأة يرتعد وأحاول أن أهدىء من رعدته فأمسك برأسه بين يدى • بغير جدوى • وتتحول الرعدة الى تقلص مريع ، وكنت أشعر بالاشمئزاز اذا نظرت اليه ، ويتملكنى الخوف ــ خوف شديد • وبعدئذ تهدأ الرعدة والرعشة وبعد برهة قصيرة يسكن سكونا مطلقا •

واذا رفعت رأسه وألقيتها من يدى سقط الرأس مكانه ثقيلا ، كما تسقط قطعة اللحم وبداخلها عظام ٠

وتهدج صوت ويل ، وسال الدمع على خديه ، وأخذ يرتعد من النشيج كأنه طفل فى الرابعة من عمره يبكى كلبه ويجابه حقيقة الموت المزعجة التى لايستطيع ادراكها ٠ ثم فى لمح البصر تغير مايجرى فى وعيه كالعربة تدير مفتاحها فتتغير من سرعتها ٠ وعاد رجلا رشيدا ، ولم يعد يسبح فى الخيال ٠

ومسح عينيه وتمخط من أنفه وقال : أنا آسف ، ولكن هذا كان أول عهدى بالفزع الأكبر ٠ كان تايجر صديقى ، وكان عزائى الوحيد ٠ ومن الواضح أن ماحدث كان شيئا فوق طاقة الفزع الاكبر ٠ وحدث مثل ذلك مع عمتى مارى ـ الشخص الوحيد الذى أحببته فعلا وأعجبت به ووثقت فيه ٠ ثم أصابها الفزع الأكبر !

قالت سوزيلا : زدنى علما بما حدث ٠

تردد ويل ، ثم هز كتفيه وقال : ولم لا ؟ كانت مارى فرانسيس فارنبى الاخت الصغرى لأبى ٠ تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، سنة واحدة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى ، من جندى فى الجيش العامل ٠ فرانك ومارى ، ومارى وفرانك ، أى انسجام بينهما ، وأى احساس بالسعادة !٠ وضحك ، ثم استرسل قائلا :

حتى خارج بالا يمكن أن يجد المرء هنا وهناك جزرا يسودها العيش الكريم ، جزرا صغيرة ، بل ـ ومن حين الى آخر ـ جزرا كاملة مثل تاهايتى ـ ولكنها دائما محاطة بالفزع الأكبر ٠ كانا فى شرخ شبابهما يعيشان فى جزيرتهم بالا

الخاصة بهم • وذات صباح جميل فى ٤ أغسطس من عام ١٩١٤ ذهب فرانك وراء البحار فى حملة عسكرية ، وفى ليلة عيد الميلاد ولدت مارى طفلا مشوها عاش حتى شهدت أمه بعينيها مايمكن أن يفعله الفزع الأكبر اذا حل بالانسان • الله وحده يستطيع أن يصنع مخلوقا بهذه البلاهة وضعف العقل • ولست بحاجة الى أن أقول ان فرانك أصيب بعد ثلاثة أشهر بشظية من قنبلة ومات متسمما من جراحه • وصمت ويل قليلا ثم واصل حديثه قائلا :

حدث كل ذلك قبل عهدى • عندما عرفت عمتى مارى لأول مرة كانت فى العشرينات من عمرها ، تكرس نفسها لخدمة المسنين • المسنين فى المؤسسات ، والمسنين محبوسين فى بيوتهم ، والمسنين يطول بهم العمر وهم عبء على أبنائهم وأبناء أبنائهم ــ أمثال سترلد براج وتيثونس (١) • وكلما اشتد عجز المعمر الذى لا رجاء فيه ، وأمعن فى نزواته وبالغ فى شكواه كان أفضل لديها • كنت فى صغرى أمقت أشد المقت العجائز الذين كانت عمتى مارى تعنى بهم • رائحتهم كريهة، قبحهم مخيف ، يبعثون الملل ودائما غاضبون • ولكن عمتى مارى كانت تحبهم من كل قلبها ــ تحبهم مهما كانت الظروف، تحبهم على الرغم من كل شيء •

وكانت أمى تتحدث كثيرا عن فعل الخير فى المسيحية ، ولكنى لسبب ما لم أصدق ما كانت ترويه لى ، كما أنى لم أحب قط كل الاشياء التى كانت تضحى بنفسها من أجلها وهى

---

(١) أمير طروادة فى الاسطورة اليونانية أحبته الآلهة ايروس وجلبت له الخلود ولكنها لم تجلب له دوام الشباب • فلما شاخ اخذت ترعاه • ولكنها فى النهاية حولته الى جندب ــ المترجم

ترغم نفسها على ذلك ارغاما ـ لم تكن محبة ، بل كان واجبا تؤديه . ولكنى لم أكن مع عمتى مارى فى أدنى شك . كان حبها أشبه بالاشعاع الطبيعى ، شيئا يكاد يحسه المرء احساسه بالضوء والحرارة . وعندما كانت تأخذنى لأقيم معها فى الريف ، وفيما بعد عندما كانت تفد الى المدينة وأزورها كل يوم تقريبا ، كنت أحس كأنى أخرج من ثلاجة الى ضوء الشمس . كنت أحس الحياة تدب فى بدنى فى الضوء الصادر عنها ، فى دفئها المشع . وبعدئذ فعل الفزع الأكبر فعله . وكانت تتفكه به أول الأمر ، وبعد العملية الأولى قالت : أنا الآن أمازون (١) .

سألته : ولماذا شبهت نفسها بالأمازون ؟

ـ لان الامازونيات كن يبترن أثداءهن اليمنى . كن محاربات والثدى يقف عقبة فى الطريق وهن يطلقن السهام بالقسى الطويلة . وكرر عبارته (الآن أنا من الامازون) واستطاع بمخيلته أن يرى البسمة على وجهها الذى يشبه وجه النسر ، وأن يسمع بذاكرة الاذن نغمة السرور فى صوتها الواضح الرنان . واستطرد قائلا : وكان لابد بعد بضعة أشهر من بتر الثدى الآخر . وكانت بعد ذلك الاشعة السينية والمرض ثم الانهيار شيئا فشيئا . وارتسمت على وجه ويل الضراوة والقسوة ، واستطرد قائلا : لولا أن حالتها كانت شنيعة فوق الوصف ، لقلت ان الامر مدعاة حقا للضحك . انها صورة رائعة لسخرية القدر ! هنا روح يشع منه الخير والحب والمحبة النادرة ، ثم ـ ولسبب غير معروف ـ يحدث شيء من الخلل . وبدلا من أن يستهين الجسم بهذا الخلل ، نرى

(١) الامازون فى الاساطير اليونانية امرأة طويلة قوية مسترجلة ـ المترجم

أن جزءا منه يخضع للقانون الثاني للديناميكا الحرارية · ومع تدهور الجسم يفقد الروح فضيلته ، هويته الخاصة · ففارقتها بطولتها ، وتبخرت منها المحبة وطيبة القلب · ولم تعد في الشهور الاخيرة من حياتها العمة مارى التي أحبها وأعجب بها · كانت انسانا آخر ، انسانا لايكاد يتميز عن أسوأ العجائز وأضعفهم الذين صادقتهم في ماضيها وكانت لهم سندا قويا (وكانت هذه آخر وأروع لمسة من لمسات القدر الساخر) · لا مناص من اذلالها والحط من قدرها ، ولما بلغت أدنى درجات الحطة ، ألقى بها الى الموت في عزلتها ، ببطء وبألم شديد ·

وألح في قوله أنها كانت في عزلة ، لايستطيع أحد ـ بطبيعة الحال ـ أن يعينها ، ولايمكن لانسان أن يكون الى جوارها · ان الناس قد يقفون الى جانبك وأنت تعاني الألم أو تعالج سكرات الموت · ولكنهم في الواقع الى جوارك في عالم آخر · أما في عالمك فأنت وحيد تماما · وحدك في آلامك وفي موتك ، كما تكون وحدك في حبك ، وحتى في المتعة التي لاتكون أبدا الا مشتركة ·

روائح بابز وتايجر ، ورائحة العمة مارى وهي تموت بعدما أحدث السرطان ثقبا في الكبد وشاعت في جسمها المهزول رائحة نفاذة عجيبة ، رائحة الدم الفاسد · ووسط هذه الروائح ، التي كان يعيها متقززا أو كالمخمور ، كان هناك شعور منعزل ـ شعور الطفل ، والصبي ، والرجل ، في عزلة دائمة ، وحيدا لا سبيل الى الخروج من وحدته · ثم قال : وفوق كل شيء آخر ، لم تزد هذه المرأة في عمرها عن الثانية والأربعين · ولم ترد أن تموت ، ورفضت أن تقبل

ماكانوا يفعلون بها • ولكن الفزع الاكبر كان لابد أن يشدها بقوته الى أسفل • وكنت هناك ، وشهدت ماحدث •

ـ ومن أجل ذلك كنت من الرافضين ؟

ورد عليها بقوله : وهل يمكن لأى انسان الا أن يكون رافضا • الرضا تظاهر ، وتفكير ايجابى وحسب • ولكن الحقيقة الاساسية النهائية هى الرفض دائما • (لا) للروح ، (لا) للحب ، (لا) للعقل ، (لا) لأى مغزى ولأى انجاز !

هذا تايجر ملىء بالحيوية ، مرح ، فيه شىء لله • ثم يتحول بفعل الفزع الاكبر الى حزمة من المهملات يأتى الطبيب البيطرى ويؤجر على ازالتها • ثم هذه العمة مارى بعد تايجر • تتكسح وتتعذب • وبعدئذ تسحل فى الوحل ، وتنحط ، وأخيرا تتحول ـ كما تحول تايجر ـ الى حزمة من المهملات • غير أن الحانوتى فى حالتها هو الذى وكل اليه ابعادها ، وقد جىء بقسيس مأجور ليوهمنا أن كل شىء على مايرام بمعنى سام وبنظرة بيكويك • وبعد عشرين عاما جىء بقسيس مأجور آخر ليكرر هذا الاجراء المعقد العجيب بعينه بجوار نعش مولى • «اذا كنت كغيرى من الناس قد قاتلت مع الوحوش فى افيسس (١) ، فأى فائدة لى من هذا اذا لم يبعث الموتى ؟ دعنا نأكل ونشرب ، لاننا فى الغد سوف نموت» •

وضحك ويل كالضبع مرة أخرى : أى منطق صارم ، أى احساس ، وأى قواعد خلقية مهذبة !

---

(١) مدينة فى آسيا الصغرى ، وجه اليها القديس بولس رسالة خاصة بالوئام والانسجام فى الحياة الروحية ـ وهو تشبيه مشهور **للمسيحى فى نضاله الروحى بالجندى المحارب ـ المترجم •**

ولكنك من الرافضين • فلماذا تثير أى اعتراض ؟

ــ أنت على حق وماكان يبغى لى ، ولكن الانسان بطبيعته يعشق الجمــال ، ويحب أن يرفض باسلوب جميل • وأشــاح بوجهه ليعبرعن اشمئزازه وهو يردد قوله : دعنا نأكل ونشرب، لاننا فى الغد سوف نمــوت ، وكشر فى نظــرته تعبيرا عن شعوره بالاشمئزاز •

قالت سوزيلا : ومع ذلك فالنصيحة رائعــة بمعنى ما • الأكل والشرب والموت ــ ثلاثة مظاهر أولية للحياة العالمية غير الشخصية • الحيوانات تعيش هذه الحياة العالمية غير الشخصية دون علم بطبيعتها • وعامة الناس يعــرفون طبيعتها ولكنهم لايعيشونها ، واذا هم فكروا فيها جديا يرفضون قبولها • أما الشخص المستنير فهو يعلمها ، ويعيشها ، ويقبلها قبولا كاملا• انه يأكل ويشرب واذا جاء أجله يموت ــ ولكنــه يأكل وهو مكترث ، ويشرب وهو مكترث ، ويموت وهو مكترث •

وسأل متهكما : ويبعث مرة أخرى مع الموتى ؟

ــ هذا سؤال كان بوذا يرفض أن يناقشه • ان الاعتقاد فى حياة أبدية لم يساعد انسانا قط على العيش فى الابدية• وبطبيعة الحال لم يســاعده على ذلك عــدم الاعتقاد • لذلك يجب أن تتوقف بتاتا عن الادلاء بالحجج التى تؤيد أو الحجج التى تدحض (هذه هى نصيحة بوذا) وامض فى عملك •

ــ أى عمل ؟

ــ عمل كل انسان ــ الاستنارة • ومعناها : الآن وفى هذا المكان ، المهمة الاولى لممارسة كل أنواع اليوجا التى تزيد من وعيك •

قال ويل : ولكنى لا أريد المزيد من الوعى ، بل أريد أن أكون أقل وعيا • أقل وعيا بالاهـوال كموت عمتى مارى ، والأحياء الشعبية فى رندانج لوبو • أقل وعيا بالمناظر المؤذية والروائح الكريهة ـ بل والروائح المستساغة أحيانا • وقد أضاف ذلك عندما تذكر رائحة الكلب وسرطان الكبد ونفحة الطيب التى كانت تهب عليه من الركن القرنفلى • «أقل وعيا بدخلى الكبير مع فقر الآخرين فقرا ينزلهم عن المكانة الانسانية أقل وعيا بصحتى الممتازة فى خضم من الملاريا والدوسنتاريا، وأقل وعيا بمتعتى الجنسية المحصنة من الامراض وسط خضم من الاطفال الذين يمـوتون جـوعا • (اللهم سامحهم لأنهم لايعلمون مايفعلون) • انها نعمة ، ولكنى لسوء الحظ أعلم ما أفعل • ولكنى أعلمه أكثر مما ينبغى • ثم تطلبين الى بعد ذلك أن أكون أكثر وعيا مما أنا عليه ؟

قالت : أنا لا أطلب اليك شيئا • انما أنا أنقل اليك فقط نصيحة توارثها حكيم عن حكيم بدءا من جوتاما وانتهاء براجا العجوز • وابدأ بأن تكون على وعى تام بما تظن من تكون ، ان ذلك يعينك على أن تصبح على وعى بمن أنت فى الواقع •

هز كتفيه وقال : يظن المرء أنه فذ وعجيب وانه مركز الكون • فى حين أنه ليس فى الواقع سوى معوق بسيط فى سير الانتروبيا (١) المستمر •

ـ هذا بعينه هو النصف الأول من رسالة بوذا • الزوال ، ليست هناك روح باقية ، وحزن لا مناص منه • ولكن بوذا لم

---

(١) الانتروبيا فى علم الفيزياء مقيـاس للطاقـة فى نظام دينمى حرارى ـ المترجم •

يقف عند هذا الحد ، ولرسالته نصف آخر • هذا التباطؤ المؤقت في الانتروبيا هو كذلك حقيقة من الحقائق المثالية الصافية ، وعدم وجود الروح الباقية هو كذلك الطبيعة البوذية •

ــ عدم وجود الروح ــ هذا أمر من اليسير مجابهته • ولكن ماذا عن وجود السرطان ، ووجود الانهيار البطيء ؟ وماذا عن الجوع وكثرة النسل والكولونيل ديبا ؟ هل هؤلاء كذلك من المثالية البحت ؟

ــ طبعا • ولكنى لست فى حاجة الى أن أقول انه يستحيل اطلاقا على أولئك المنغمسين الى الاذقان فى أى من هذه الشرور أن يكشفوا عن طبيعة بوذا فى نفوسهم • ان الصحة العامة والاصلاح الاجتماعى شرطان مسبقان لا غنى عنهما لأى نوع من أنواع الاستنارة العامة •

ــ ولكن على الرغم من الصحة العامة والاصلاح الاجتماعى فان الناس يموتون • وأضاف ساخرا : حتى فى بالا •

ــ ولذلك كانت بوذية ديانا (١) من النتائج الطبيعية للرفاهية ــ كل يوجات الحياة والموت لابد منها ، لكى تكون على وعى ــ حتى عند الآلام النهائية ــ بمن أنت فى الواقع ، على الرغم من كل شيء •

وسمع وقع أقدام على خشب الفراندة ، وصوت طفلة ينادى «أماه !»

وردت سوزيلا : أنا هنا ياعزيزتى •

---

(١) بوذية التأمل ــ المترجم

وانفتح الباب الخارجي على مصراعيه ودخلت الغرفة ماري ساروجوني على عجل ٠

وقالت بانفاس متقطعة : أمي ٠ انهم يريدونك أن تحضري فورا ٠ ان جدتي لاكشمي ٠٠٠ ووقع بصرها لاول مرة على انسان في الارجوحة الشبكية ، فذعرت وكفت عن الكلام ٠ ثم قالت : لم أكن أعلم أنك هنا ٠

ولوح لها ويل بيده دون أن يتكلم ٠ وردت عليه بابتسامة آلية ، وعادت تقول لأمها : ساءت حال جدتي لاكشمي فجأة ٠ ولايزال جدي روبرت في محطة المرتفع العالي ، ولم يمكن الاتصال به تلفونيا ٠

ـ هل أتيت عدوا طوال الطريق ؟

ـ الا في الاماكن شديدة الانحدار ٠

وطوقت سوزيلا الطفلة وقبلتها ، ثم نهضت على قدميها في خفة وكأنها تتأهب لعمل ما ٠

وقالت : انها أم ديوجولد ٠

قال : هل هي ٠٠٠؟

وصوب نظره نحو ماري ساروجيني ، ثم عاد فنظر الى سوزيلا ٠ هل الموت من المحظورات ؟ وهل يجوز للمرء أن يتحدث عنه في حضرة الاطفال ؟

ـ تريد أن تقول هل هي تموت ؟

أومأ برأسه ايجابا ٠

قالت سوزيلا : كنا نتوقع موتها طبعا ، ولكن ليس

اليوم ، فقد بدت اليوم أحسن حالا ثم هزت رأسها وقالت . لابد أن أذهب وأكون الى جـوارها حتى ان كانت فى عـالم آخر ثم أضافت قولها : الواقع انه ليس عالما آخر تماما كما تظن . آنا آسفة لاننا نترك عملنا ناقصا . ولكن سوف تكون هناك فرص أخرى . والآن ماذا تريد أن تفعل ؟ تستطيع أن تبقى هنا ، وأستطيع أن أنزلك عنـد الدكتـور روبرت ، وتستطيع أن ترافقنى ومارى ساروجينى .

ـ كمحترف لمشاهدة الاعدام .

وأجابت مؤكدة : لا ، ليس بهذه الصفة ، بل كانسان ، بحاجة الى أن يعرف كيفَ يعيش ثم كيف يموت . بحاجة ماسة الى ذلك ، كشأننا جميعا .

قال : بل بحاجة الى ذلك أكثر من أغلب الناس . ولكن ربما كنت عائقا .

ـ اذا كنت تسـتطيع ألا تعـوق نفسك فلن تكون عائقا لغيرك .

وتناولت يده وساعدته على النزول من الارجوحة . وبعد دقيقتين كانا يسيران بالعربة بعد بركة اللوتس ، وتمثال بوذا الضخم وهو يتأمل تحت رأس الأفعى ، والعجل الابيض ، وولجا البوابة الرئيسية للمجمع . وقد انتهى سقوط المطر ، وفى سماء خضراء ومضت السحب الضخمة كأنها ملائكة السماء . وناحية الغرب كانت الشمس متوهجة كأنها من الخوارق .

غروب الشمس والموت ، الموت ومن أجله كانت القبلات، القبلات والميلاد ثم الموت لجيـل آخر ممن يشـاهدون غروب الشمس .

سأل ويل : ماذا تقولون لمن يأتيه الموت عندكم ؟ هل تقولون لهم ألا يزعجوا أنفسهم بالخلود ، وأن يواصلوا المسير ؟

ــ اذا أردت أن تضع السؤال فى هذه الصيغة ، أقول لك نعم هذا بعينه هو مانفعل · نستمر فى حالة الوعى ــ هذا هو فن الموت كله ·

ــ وأنتم تعلمون هذا الفن ؟

ــ أريد أن أضع الحقيقة فى صيغة أخرى · اننا نعاونهم على الاستمرار فى ممارسة فن العيش حتى وهم يموتون · أن يعرف المرء من هو فى الحقيقة ، وان يستشعر الحياة العامة غير الشخصية التى تعيش فى كيان كل منا ــ هذا هو فن العيش ، وهذا مانستطيع أن نعين من يموتون منا على الاستمرار فى ممارسته ــ حتى النهاية ، وربما بعد النهاية ·

سألها : بعد النهاية ؟ ولكنك قلت ان هذا شىء تفترضون أن من يجيئه الموت منكم لايفكر فيه ·

ــ اننا لانسألهم أن يفكروا فيه · انما نحن نعاونهم ــ اذا كان هناك شىء من هذا ــ على أن يمارسوه · اذا كان هناك شىء من هذا (كررت العبارة) واذا كانت الحياة العامة مستمرة بعد ما تنتهى الحياة الخاصة بالفرد ·

ــ وهل أنت شخصيا تعتقدين أنها مستمرة ؟

ابتسمت سوزيلا وقالت : ان ما أراه أنا شخصيا ليس فى صميم الموضوع · وكل ما يهم هو ما يمكن أن امارسه لا

شخصيا ــ وأنا على قيد الحياة ، وأنا أموت ، وربما وأنا من الأموات ٠

وسارت بالعربة حتى مكان أوقفتها فيه وأوقفت محركها ودخلا القرية على الاقدام ٠ وكان عمل اليوم قد انتهى ، واشتد الزحام فى الشارع الرئيسى حتى تعذر عليها المسير ٠

وأعلنت سوزيلا أنها سوف تواصل المسير وحدها ، ثم التفتت الى مارى ساروجينى وقالت لها «كونى بالمستشفى بعد ساعة ، لا قبل ذلك» ٠ وخلفتهما لتشق طريقها بين جماعات المشاة ، وسرعان ما اختفت عن الانظار ٠

قال ويل وهو يبتسم للطفلة التى كانت تجاوره : انت الآن مسئولة ٠

فأومأت برأسها جادة وأمسكت بيده وقالت : هيا بنا الى الميدان لنشاهد مايجرى فيه ٠

وسألها ويل وقد شرعا فى المسير فى الشارع المزدحم :

ــ ما عمر جدتك لاكشمى ؟

أجابت مارى ساروجينى : اننى فى الواقع لا أدرى ٠ ولكنها تبدو مسنة جدا ٠ وربما كان ذلك لانها مصابة بالسرطان ٠

سألها : هل تعرفين ماهو السرطان ؟

وكانت مارى ساروجينى على علم تام به ٠ قالت : انه مايحدث عندما ينسى جزء منك كل مايتعلق ببقية الاجزاء ، ويسلك مسلك المجانين ــ ينتشر وينتشر كأن العالم ليس به

أحد غيره • وتستطيع أحيانا أن تعالج الأمر • ولكنه في العادة يواصل الانتشار حتى يموت المصاب •

ــ وهذا ماحدث ــ كما فهمت ــ لجدتك لاكشمى •

ــ وهى الآن بحاجة الى شخص يساعدها على الموت •

ــ وهل أمك كثيرا ماتعاون الناس على الموت •

أومأت برأسها وقالت : نعم ، انها تتقن ذلك كل الاتقان •

ــ هل شهدت فى حياتك أحدا يموت ؟

أجابت مارى ساروجينى ، وقد بدت عليها الدهشة لان يوجه اليها مثل هذا السؤال وقالت «طبعا» وأخذت تحسب فى عقلها وقالت : شهدت خمسة أشخاص وهم يموتون • أو ستة اذا عددنا الاطفال •

ــ أنا لم أر أحدا قط يموت وأنا فى مثل سنك •

ــ عجبا !

ــ شهدت كلبا فقط •

ــ موت الكلاب أسهل من موت الناس • لان الكلاب لايتحدثون عن الموت قبل وقوعه •

ــ وما هو احساسك نحو •••• نحو من يموت من الناس ؟

ــ الموت أسهل من ميلاد الاطفال • الميلاد مريع • أو على الأقل يبدو مريعا • ولكنك يجب أن تذكر أن الميلاد لايؤذى أبدا • فلقد استبعدوا هنا الألم •

قال ويل : صدقت أو لا تصدقين ، أنا لم أر قط في حياتي طفلا يولد .

ودهشت لذلك ماري ساروجيني وقالت : أبدا ؟ حتى حينما كنت في المدرسة ؟

وتخيل ويل ناظر مدرسته وهو بملابسه الرسمية الكاملة يقوم على تربية ثلثمائة صبي في ثياب سوداء ويقودهم في رحلة الى الراقدين بالمستشفى ، وقال بصوت مرتفع : حتى حينما كنت في المدرسة .

ـ لم تر أحدا يموت ، ولم تر طفلا يولد ، كيف عرفت الحقائق ؟

قال : في المدرسة التي كنت أذهب اليها لم نعرف الحقائق ، وكل ماعرفناه هو الألفاظ .

نظرت اليه الطفلة ، وهزت رأسها ، ثم رفعت يدا صغيرة سمراء وضربت جبهتها ضربة لها دلالتها ، وقالت : هذا جنون ، أم هل كان معلموك أغبياء ؟

ضحك ويل وقال : كانوا مربين أصحاب العقول الجبارة يؤمنون بأن العقل السليم في الجسم السليم ويتمسكون بتقاليدنا الغربية السامية . والآن خبريني ، ألم تخافي أبدا ؟

ـ من منظر النساء وهن يلدن ؟

ـ لا ، من منظر الناس وهم يموتون . ألم يروعك هذا ؟

ـ وبعد لحظة من الصمت قالت : نعم روعني .

ـ وماذا صنعت ؟

ـ صنعت ماعلمونني أن أصنع ـ حاولت أن أتبين أى جانب منى خاف ولماذا خاف ·

ـ وأى جانب وجدت ؟

أشارت مارى ساروجينى بسبابتها الى فمها المفتوح وقالت : هذا · هذا الذى يقوم بكل الكلام · كان فيجايا يسميه (المتحدث الصغير) · انه يتكلم دائما عن كل شيء كريه أذكره ، وكل شيء ضخم عجيب مستحيل أتصور أنى أستطيع أداءه · انه هو الذى يخاف ·

ـ لماذا يخاف ؟

ـ فى ظنى أنه يخاف لانه لايكف عن الحديث عن كل الامور المفزعة التى قد تحدث لصاحبه · يتحدث أحيانا جهرا وأحيانا سرا · ولكن هناك بين جنبى جانبا آخر لايخاف قط ·

ـ وما هو ؟

ذلك الجانب الذى لايتكلم ـ انه يكتفى بأن ينظر ويصغى ويحس مايجرى فى باطنى · وأضافت مارى ساروجينى الى ذلك قولها : وهو أحيانا يرى بغتة أن كل شيء جميل حقا · لا ، لقد أخطأت · انه يرى الجمال فى كل حين ، ولكنى لا استطيع ذلك ـ اللهم الا اذا نبهنى وذلك عندما يحدث فجأة · كل شيء جميل ، جميل ، جميل ، حتى قذارة الكلاب وأشارت الى عينة منها عند أقدامهما تقريبا ·

ومرقا من الشارع الضيق الى السوق · وكانت الخيوط

الاخيرة من الشمس الغاربة لاتزال تسقط على برج المعبد المخروط ، وعلى تلك الابراج الصغيرة القرنفلية المقامة على سطح صالة البلدية • اما فى السوق فقد كانت هناك بوادر الشفق ، كما أسدل الليل ستاره فعلا تحت شجرة التين الضخمة • وقد أشعلت النسوة البائعات فوق الاكشاك المصابيح التى تدلت فى حبال عقدت على غصون الاشجار • وظهرت تحت ظلال الاشجار بقع لها شكلها ولونها ، ومن فراغ تكاد لاتراه العين برز أشخاص سمر البشرة الى الضوء لحظة ثم اختفوا ثانية فى الفراغ المجهول • وفى المساحات التى تقع بين الابنية المرتفعة رنت أصوات حديث بالانجليزية المختلطة بلغة أهل بالا ، كما ترددت الضحكات ، والصيحات ونغمات الغناء ونباح الكلاب وصياح الببغاوات • وفوق أحد الابراج القرنفلية الصغيرة قبعت مينتان تصيحان بغير كلل نداء الانتباه والرأفة • ومن مطبخ فى العراء وسط الميدان هبت نكهة طعام شهى يطهى فوق النار ، نكهة البصل والفلفل، والسمك المقلى ، والكعك ، والأرز المغلى ـ ومن خلال هذه الروائح القوية الطيبة هبت رائحة زكية حلوة صافية كالأثير، هى رائحة أكاليل الزهر ذات الألوان المتعددة معروضة للبيع بجوار نافورة مياه ، وتذكر المرء بالعالم الآخر •

أحلو لك الظلام وفجأة أشعلت المصابيح التى تدلت من أقواس عليا فوق الرؤوس • وتلألأت عقود النسوة وخواتمهن وأساورهن براقة لامعة على بشرتهن المتوردة النحاسية الزيتية • وفى ضوء المصابيح المتدلية بدت خطوط أجسادهن وأشكالهن أكثر سحرا وأظهر صورة وأقوى وجودا • وفى محاجر العيون وتحت الأنوف والأذقان اشتد عمق الظلال • وبرزت النهود

الصـــغيرة وقد شكلها الضـــوء والظـــلام ، وظهرت الخطوط والتجاعيد واضحة فى أوجه العجائز •

وسارا بيدين متشابكتين وسط الزحام •

وحيت مارى ساروجينى امرأة نصف ، ثم اتجهت نحو ويل وسألته : هل أنت ذلك الرجل الذى وفد من الخارج ؟

وأكد لهـــا أنه من الخـــارج من كل جانب من جـــوانبه تقريبا •

وحدقت فيه لحظـــة فى صمت ، ثم ابتسمت له مشـــجعة وربتت على خده •

قالت : كلنا فى غاية الأسف لك •

وانطلقا ، حتى بلغا حاشية مجموعة من الناس تجمعت عند سفح درجات المعبـــد لتستمع الى شـــاب يعـــزف على آلة موسيقية طويلة الرقبة تشبه العود ويغنى بلغة بالا • وكان يعزف نغما متلاحقا مرة ، متقطعا كزقزقة الطير مرة أخرى ، وينتهى بنغمة عالية قوية بهيجة فى أعقابها صيحة • وتضحك الجمـــاهير • ويتلو ذلك بعض الفواصل الموسيقية وبيت أو بيتان من النشيد ، ثم يضرب المغنى ضربته الأخيرة على الوتر • وردد الحاضرون صياح الاستحسان وعلت ضحكاتهم وأخذت جماعة منهم تعلق على ماسمعت بعبارات غير مفهومة •

سأل ويل : ماذا يعنى كل هذا ؟

أجابت مارى ســـاروجينى : انه نشـــيد للبنين والبنات وهم يتزاوجون •

وأحس بريبة المذنب ، ولما تطلع الى وجه الفتاة المطمئن

أدرك أنـه لم يكن ثمت داع لقلقه • اذ كان من الواضح أن تزاوج البنين والبنات آمر مسلم به تماما كالذهاب الى المدرسة آو تناول ثلاث وجبات كل يوم ، آو الموت •

واستمرت مارى ساروجينى فى حديثها قائلة : ان ما أضحكهم هو قوله ان بوذا المستقبل لن يغادر منزله ليجلس تحت شجرة بوذى ، فسوف تأتيه الاستنارة وهو فى فراشه مع الاميرة •

سألها ويل : وهل تظنين هذه فكرة حسنة ؟

أومأت برأسها مؤكدة وقالت : ومعنى ذلك أن الاميرة سوف تستنير كذلك •

قال ويل : آصبت كبد الحقيقة ، وانى باعتبارى رجلا لم أفكر فى الأميرة •

وضرب العازف على آوتار العود ضربات متلاحقة عجيبة، أتبعها بنغمات متماوجة وشرع يغنى بالانجليزية هذه المرة ، وأنشد :

الكل يتحدث عن الجنس
لا تأخذهم مأخذ الجـد
مومسا كانت آم راهبا
بولس كان أم فرويد
اذا أنت أحببت
استحالت شفتاك
واستحال ثدياها بمعجزة

الى طبيعتهما
الى الصورة المثلى
والفراغ المطلق

وانفتح باب المعبد على مصراعيه · وهبت رائحة البخور ممتزجة بروائح البصل والسمك المقلى من حولهم · وبرزت امرأة عجوز وفى حذر شديد أحنت ظهرها المهتز وهى ترقى درجة بعد درجة ·

وسألته مارى ساروجينى وهما يتأهبان للمسير : من هو بولس ، ومن هو فرويد ؟

وقص لها قصة الخطيئة الأولى وقصة الخلاص · وأصغت اليه الفتاة باهتمام مركز ·

وعلقت بقولها : اننى لا أدهش لما جاء فى الأغنية ، بألا نأخذهما مأخذ الجد ·

قال ويل : ونأتى بعد ذلك الى الدكتور فرويد ونظرية مركب أوديب ·

قالت مارى ساروجينى : أوديب (١)؟ هذا اسم استعراض للعرائس · شهدته فى الاسبوع الماضى ، وسوف يعرضونه مرة أخرى هذا المساء · هل تحب أن تشاهده ؟ انه لطيف ·

قال : لطيف ؟ لطيف ؟ كيف تقولين عنه ذلك ، وقد تبين

---

(١) أوديب فى أساطير اليونان ، بطل طيبة ، قتل أباه لايوس وتزوج أمه جوكاستا دون علم منه ، ولما عرف الحقيقة فيما بعد فقأ عينيه وانتحرت أمه وظل هائما على وجهه يكفر عن خطيئته التى أنزلت النقمة بطيبة وبأبنائه حتى مات فى كولونا — المترجم ·

أن المرأة العجوز هى أمه وقد شنقت نفسـها ، وفقأ أوديب عينيه ؟

قالت مارى ساروجينى : ولكنه لم يفقأ عينيه ٠

ـ بل لقد فعل فى البلد الذى وفدت منه ٠

ـ ليس هنا ٠ انه يقول فقط انه سوف يفقأ عينه ، وهى تقول انها تحاول فقط أن تشنق نفسـها ٠ وقد تم انقاذهما بالحديث مع كل منهما ٠

ـ من فعل ذلك ؟

ـ فتى وفتاة من بالا ٠

سأل ويل : كيف تدخلا فى الامر ؟

ـ لست أدرى ٠ ولكنهما هناك ٠ نحن نسمى المسرحية هنا (أوديب فى بالا) ٠ ولذلك كان وجودهما لابد منه ٠

ـ تقولين انهما تحدثا الى جوكاستا وأنقذاها من الانتحار، والى أوديب وأنقذاه من أن يعمى نفسه ؟

نعم ، وفى الوقت المناسب ٠ وكان ذلك عندما لفت الحبل حول رقبتها ، وعندما أمسك بدبوسين ضخمين ٠ ولكن الفتى والفتاة من بالا قالا لهما ألا يتصرفا تصرفا أحمق ٠ والأمر كله لم يكن سوى مصادفة ٠ فهو لم يعرف أن الرجل العجوز أبوه ٠ ومع ذلك فان الرجل العجوز هو الذى بدأ بالعدوان وضربه على رأسه فأفقد أوديب صوابه ـ ولم يكن أحـد قد علمه رقصة راكشاسى على المزمار ٠ ولما نصبوه ملكا تزوج الملكة العجوز ـ وهى فى الحقيقة أمه ، ولكن كليهما لم يكن على علم بذلك ٠ وبطبيعة الحال كل ماكان ينبغى لهما عمله

عندما عرفا الحقيقة أن يتخليا عن الزواج • وقصة زواجه بأمه كانت سببا فى أن يموت كل انسان بفيروس ـ كل هذا هراء ، اخترعه قوم أغبياء كان علمهم محدودا •

ـ ولقد ظن الدكتور فرويد أن كل الأولاد الصغار يريدون فعلا أن يتزوجوا من أمهاتهم ويقتلوا آباءهم • والأمر على عكس ذلك مع البنات ـ انهن يردن أن يتزوجن من آبائهن •

سألت مارى ساروجينى : أى الآباء وأى الأبناء ، عندنا الكثير منهم •

ـ تقصدين فى نادى التبنى المتبادل •

ـ فى نادينا اثنان وعشرون منهم •

ـ الأمان فى كثرة العدد ؟

ـ ولكن أوديب المسكين لم ينتم الى ناد من هذه النوادى • ثم انهم ـ فوق ذلك ـ علموه تلك الحكايات المريعة التى تروى غضب الآلهة على الناس كلما ارتكبوا خطأ من الاخطاء •

وشقا طريقهما فى الزحام حتى بلغا ساحة سورت بالحبال بها مائة أو يزيدون من المشاهدين الذين استووا على مقاعدهم • وفى أقصى الساحة لمحا مقدمة خشبية زاهية اللون فى حمرة ذهبية تتألق فى ضوء مصابيح قوية سلطت عليها ، هى مقدمة مسرح العرائس • وأخرج ويل حفنة من قطع النقود الصغيرة كان قد أعطاها اياه الدكتور روبرت ودفع ثمن تذكرتين • ودخلا ثم جلسا فوق مقعد أعد لشخصين •

دق الناقوس وارتفع ستار المسرح الصغير فى غير جلبة ،

ووقعت عيونهما على أعمدة بيضاء قائمة على أرض خضراء ، تشكل واجهة قصر طيبة الملكى ، وظهــر تمثال لاله من آلهة اليونان له شعر كث فى خديه جالسا وسط سحابة تعلو المثلث الذى أقيم فى أعلى واجهة المبنى • ومن اليمين دخل قسيس شبيه بالاله تماما الا أنه أصغر حجما وأقل فخارا فى ردائه، وانحنى للمشاهدين ثم اتجه صوب القصر وصــاح بصــوت كصوت المزمار لايتفق بتاتا مع اللحية المهيبة للقسيس بصورة مضحكة ، صاح قائلا : «أوديب» ودقت الطبول ايذانا بانفتاح الباب للملك القادم متوجا ينتعل حذاء يبلغ منتصف الساق كان يلبسه ممثلو التراجيديا اليــونانية ، وحيــاه القسيس بانحناءة الاحترام ، ثم سمح الملك الدمية له بالكلام •

قال صاحب الصوت المزمارى : استمع الى مآسينا •

أطرق الملك برأسه وأصغى •

قال : انى أسمع أنات الرجال على فراش الموت ، وأسمع عــويل الأرامل ، ونحيب من فقــدوا أمهاتهم ، وتمتمة دعاء وتضرع •

قال الاله المتلفع بالسحاب : تضرع ! حياكم الله • وربت على صدره •

قالت مارى ساروجينى هامسة : أصابهم فيروس ، كالحمى الآسيوية ، بل وأسوأ منها •

قال القسيس متبرما بصوته الرفيع : اننــا لانكف عن الابتهال ، ونقدم الضحايا الثمينة ، كلنا أطهار ، نكفر عن خطايانا بتعذيب أنفسنا أيام الاثنين والاربعــاء والجمعة •

ولكن طوفان الموت يزداد انتشارا ويزداد عدد الموتى يوما بعد يوم • أعنا أيها الملك أوديب ، أعنا •

ــ الله وحده يعين •

صاح الاله المعتلى : حياك الله ، حياك الله •

ــ ولكن كيف ؟

ــ الله وحده يملك القول •

قال الاله بصوته العميق : صحيح ، صحيح تماما •

ــ لقد ذهب كريون شقيق زوجتى الى العرافة يستشيرها• وعندما يعود ــ ولابد أن يعود على عجل ــ سوف نعرف ماتنصح به السماء •

وصححه صاحب الصوت العميق قائلا : بل ماتأمر به السماء •

ضحك المشاهدون وسألت مارى ساروجينى : هل كان الناس حقا بكل هذه الحماقة ؟

قال لها ويل مؤكدا : حقا وصدقا •

وبدأ الفونوغراف يعزف نشيد الموتى •

ومن اليسار الى اليمين سار على خشبة المسرح فى بطء شديد موكب الشاكلين فى ثياب الحداد يحملون النعوش المكسوة بالملاءات • دمية بعد دمية ، وما أن اختفت المجموعة جهة اليمين حتى عادت ثانيةمن اليسار • وكأن الموكب بغير نهاية وجثث الموتى بغير حصر •

قال اوديب وهو يشهد مرور الموكب : هذا ميت ، وهذا ميت ،آخر ، وآخر ، وآخر •

قال صاحب الصوت العميق : هذا درس لهم . كل انسان يتحول الى شيء تافه !

واستمر اوديب فى كلامه فقال :

نعش الجندى ، ونعش البغى
والطفل فى برودة الصخر
ينضم الى ثديين لم يرضعا
يحسان ألما خفيفة
والشابة فى هلع تنصرف
عن الوجه الاسود المنتفخ
الذى كان فيما مضى
يرفع الرأس عن الوسادة يفضضها بنوره القمر
متلهفا للقبل
ماتوا ، كلهم ماتوا
يبكيهم من من بعدهم يموتون
ويحملهم من حكم عليهم بالفناء
وبخطى ثقيلة يسيرون
الى حديقة من أشجار السرو
وهناك تستقبلهم حفرة عميقة
ومنهم تفوح الروائح الكريهة
فى وجه القمر .

وبينما كان يتحدث دخلت من ناحية اليمين دميتان أخريان ، فتى وفتاة ، فى أبهى حلة بالية ، واتجها الى الناحية

الأخـرى نحو الثـاكلين فى ثوب الحـداد ، ووقفا بذراعين متشابكتين على خشبة المسرح على يسار الوسط بقليل ٠

وما ان انتهى أوديب من كلامه حتى قال الفتى :

ــ ولكنا نحو الحدائق الوردية نسير

وهناك يتلى هراء من طقوس الرؤيا

يبعث فى الآذهان

من جلود ممسوسة

ولحم يذوب

الأبدى الموجود فى كل الوجود ٠

ومن الفضاء الاعلى دمدم صاحب الصوت العميق سائلا :

وماذا عنى ؟ الظاهر أنكم نسيتم أننى من العالم الآخر الكامل ٠

وواصل الموكب الحزين الذى لايكاد ينتهى مسـيره نحو المقابر ٠ والآن سكت المترنمون بنشيد الموت ،وخفت الموسيقى فلم تسمع الا نغمة واحدة من البوق والطبل ، واستمرت الى ما لا نهاية ٠ ورفع الفتى يده وقال :

ــ أنصتوا ! هذا اللحن الرتيب ٠ هذه النغمة الموسيقية المتكررة ٠ وأخـذ الثاكلون يرددون سـويا على آلات غـير منظورة ٠

ــ الموت ، الموت ، الموت ، الموت ٠٠٠

قال الفتى : ولكن الحياة تعرف أكثر من نغمة واحدة ٠

وقاطعته الفتاة بقولها : الحياة تستطيع أن تغنى بصوت عال وصوت منخفض ٠

ـ وهذا النغم الرتيب الذى لاينتهى ، نغم الموت ، يجعل الموسيقى أكثر غنى •

قالت الفتاة : نعم أكثر غنى •

وشرع الصادح والثلاثى يتغنون غناء شجيا •

وأخذ اللحن الرتيب والغناء يخفتان تدريجا حتى انتهيا الى الصمت • اوختفى آخر الثاكلين وأوى الفتى والفتاة الى ركن قصى يستطيعان فيه أن يتبادلا القبلات ، دون أن يزعجهما أحد •

ودقت الطبول مرة أخرى ، ودخل كريون (١) ، بدينا يرتدى سترة قصيرة ضيقة ، قادما لتوه من دلفى ، وفى جعبته كثير من اجابات الكهان • ودار الحديث لبضع دقائق بين كريون وأوديب بلغة أهل بالا ، وقامت مارى ساروجينى بدور المترجم •

ـ يسأل أوديب ماذا قالت الآلهة ، ويرد الآخر ان ماقالته الآلهة هو أن كل ماحدث يرجع الى أن رجلا ما قتل الملك العجوز ، الملك الذى سبق أوديب • ولم يستطع أحد أن يلقى القبض عليه ، وهو مايزال حيا فى طيبة ، وهذا الفيروس الذى يفتك بالناس جميعا أرسلته الآلهة نوعا من أنواع العقوبة ـ هذا ماروى كريون عما قيل له • ولست أدرى لماذا يجازى كل هؤلاء الناس الذين لم يعتدوا على أى أحد ، ولكن هذا ماقال ان الآلهة قد أفضت به اليه • ولن يختفى الفيروس حتى يقبضوا على الرجل الذى قتل الملك العجوز ويطردوه

---

(١) فى قصة أوديب الاغريقية هو شقيق جوكاستا الذى حكم طيبة بعد نفى أوديب ـ المترجم •

من طيبة • ويقــول أوديب ــ طبعا ــ انه ســوف يقوم بكل شيء بمستطاعه ليعثر على الرجل ويتخلص منه •

وشرع الفتى يلقى خطابا من الركن الذى آوى اليه ــ وكان الخطاب هذه المرة بالانجليزية :

هذا الاله
الذى يكون على حقيقته
عندما يكون غامضا متساميا
يتكلم هراء غير ربانى
حينما يكون واضح الكلام •
فى غضبة الأسد يقول
الخطيئة سبب الوباء
وعليكم يكون الندم
ونقول : هذه قذارة فاكسحوها •

وضحك المشاهدون ، وفى أثناء ذلك ظهــرت مجموعة أخــرى من الشــاكلين من الجــانبين وعبرت المسرح فى بطء شديد •

قالت الفتــاة : كارونا ، الرأفة • ان معــاناة الاغبياء واقعية كأية معاناة أخرى •

وأحس ويل بلمسة على ذراعه ، وتلفت واذا به ينظر الى الوجه العابس الجميل ، وجه موروجان •

قال موروجان غاضبا «كنت أبحث عنك فى كل مكان» وكأن ويل قد أخفى نفسه عمــدا لا لشيء الا لكى يغضــبه •

ورفع صوته فى الكلام فالتفتت اليه رؤوس كثيرة ، ونادى بعضهم يطلب الصمت ٠

واستمر الصبى فى تذمره بغض النظر عن صياح الاحتجاج وقال : لم أجدك عند الدكتور روبرت ، ولم أجدك عند سوزيلا ٠

ـ الصمت ، الصمت ٠٠٠

وصاح صاحب الصوت العميق صيحة عالية من بين السحب التى كانت تحيط به وقال : «الصمت !» وأضاف متضجرا : ان الأمور تتأزم والهكم لايستطيع أن يسمع حديث نفسه ٠

قال ويل وقد اشترك بضحكه مع الضاحكين : حسنا ، حسنا ٠ ونهض قائما وهرع الى باب الخروج يتبعه موروجان ومارى ساروجينى ٠

سألته مارى ساروجينى : ألا ترى النهاية ٠ ثم التفتت الى موروجان وقالت فى نغمة التأنيب : كنت تستطيع أن تبقى ٠

قال موروجان فى اقتضاب : كونى فى حالك ٠

ووضع ويل احدى يديه على كتف الطفلة وقال : لحسن الحظ ان روايتك للنهاية كانت من الوضوح بحيث لم أرد أن أشهدها بعينى رأسى ٠ ثم أضاف متهكما : وبالطبع صاحب السمو يحب دائما أن يكون فى المحل الأول ٠

واستل موروجان ظرف خطاب من جيب البيجاما الحريرية

البيضاء التى كانت تخطف عين الممرضة الصغيرة وسلمها لويل قائلا : هذه الرسالة من أمى • وهى عاجلة •

وعلقت مارى ساروجينى وهى تشم عبير خشب الصندل الحلو الذى كان يفوح من رســالة الرانى ، وقالت : ما أحلى رائحتها !

وفض ويل الرســالة وهى من ثلاث ورقات فى زرقــة السماء مزينة بخمس نجوم زهرات من اللوتس ذهبية اللون تحت تاج ملكى • ما أكثر الكلمات التى تحتها خط ، وما أكثر الكلمات التى كانت مخطوطة بحروف التاج ! وشرع يقرأ :

لقد كان صوتى الضعيف ياعــزيزى فارنبى على حق ــ كعادته ! قيل لى مرارا وتكرارا عن الدور الذى قدر لصديقنا المشترك أن يؤديه لبالا الصغيرة المسكينة و (عن طريق المعونة المالية التى سوف تسمح له بالا بالاسهام بها للحملة الصليبية الروحية) للعالم أجمع • ولذلك لم تكن مفاجأة لى عندما قرأت البرقية (التى وصلت منذ بضع دقائق عن طريق باهو المخلص وزميله فى السلك السياسى فى لندن) ان اعلم ان اللورد«أ» قد أعطاك السلطة الكاملة (والتى تخول لك من غير شك) فى أن تتفاوض نيابةعنه ــ نيابة عنا ،لان مصلحته هىمصلحتك ومصلحتنا (لاننـــا جميعا صليبيون كل بطــريقته الخاصة) ومصلحة الروح !!

وليس وصول برقيةاللورد «أ» هو النبأ الوحيد الذىأنهيه اليك • فالحوادث (كما علمنا اليوم مساء من باهو) تسير على عجل نحو نقطــة التحول الكبرى فى تاريخ بالا ــ تســير على عجل أكثر مما ظننت من قبل أن يكون فى حدود الامكان •

ولأسباب بعضها سياسى (الحاجة الى تعويض الانهيار الذى أصاب حديثا شعبية الكولونيل «د») وبعضها اقتصادى (أعباء الدفاع أثقل من أن تتحملها رندانج وحدها) وبعضها فلكى (يقول الخبراء ان هذه الايام مواتية بصورة فذة لمغامرة مشتركة يسهم فيه الحمل (أنا وموروجان) وذلك النموذج للعقرب ، الكولونيل «د») تقرر التعجيل بالاجراء الذى كان محددا له أصلا ليلة خسوف القمر فى نوفمبر القادم • ولما كان الامر كذلك فانه من الضرورة بمكان لثلاثتنا هنا أن نجتمع بغير ابطاء لكى نقرر مايجب عمله ، فى هذه الظروف الجديدة سريعة التغير ، لكى ننهض بمصالحنا الخاصة ـ المادية والروحية • ان (الصدفة) المزعومة التى أتت بك الى شواطئنا فى أشد اللحظات حرجا فى هذا الزمن كانت ـ كما يتبين قطعا لك ـ الهية بصورة واضحة • وبقى علينا أن نتعاون كصليبيين مخلصين مع تلك القوى المقدسة التى تناصر قضيتنا بصورة لا لبس فيها • لذلك لابد أن تحضر فورا • وموروجان عنده عربة يحضرك بها الى بيتنا المتواضع ، حيث تلقى بالتأكيد ياعزيزى فارنبى استقبالا حارا جدا من المخلصة لك
فاطمة ر •

طوى ويل الأوراق الثلاث العطرة الزرقاء التى خطت فيها الرسالة وأعادها الى الظرف • ولم يرتسم على وجهه أى تعبير ، ولكنه كان يخفى وراء هذا القناع من اللامبالاة غضبا شديدا • غضب لهذا الفتى سيء الخلق الماثل أمامه ، فاتنا فى بيجامته الحريرية البيضاء ، كريها فى سخفه المدلل ، وغضب عندما شم من الخطاب نغمة أخرى لتلك المرأة الهمجية البشعة التى بدأت بافساد ابنها باسم محبة الام وطهارة النفس ، وهى

الآن تحثه باسم الله وباسم جماعة من الاسياد الواصلين لكى يصبح صليبيا روحانيا يرمى القنابل تحت راية جو الديهايد التى تفوح برائحة البترول • وغضب ــ فوق هذا وذاك ــ من نفسه لانه تمادى فى مشاركته لهذا الزوج السخيف الخبيث فى مؤامرة ــ الله وحده يعلم مقدار دناءتها ــ ضد الاصول الانسانية التى لم يمنعه قط رفضه لما يشيع بين الناس من الايمان بها والتحرق شوقا اليها •

قال موروجان بنغمة تظـاهر فيها بالثقة : هل ننصرف الآن ؟ وكان واضحا أنه يفترض أن من المبادىء المسلم بها أن فاطمة ر• حينما تصدر أمرا كانت الطاعة بالضرورة واجبة بغير تردد •

أحس ويل أنه بحاجة الى بعض الوقت تبرد فيها حرارة الغضب فلم يسارع بالرد عليه • بل أشاح بوجهه لكى يشاهد الدمى التى ابتعدت عنه الآن • وكانت جـوكاستا وأوديب وكريون يجلسون علىدرجات سلم القصر ينتظرون فيما يبدو وصول تيريسياس (١) • وفى أعلى ظهر صاحب الصوت العميق وقد أخذته سنة من النوم • كما كانت مجموعة من الثاكلين المتشحين بثوب الحداد تعبر المسرح • وعلى مقربة من أضواء مقدمة المسرح بدأ الفتى البالى يلقى خطابا فى شعر منثور :

الضياء والرأفة ــ

أمران بسيطان بساطة يعجز عنها التعبير •

وهذه البساطة لبثت جيلا بعد جيل

---

(١) كاهن في الأساطير اليونانية كفيف البصر عاش فى طيبة ، وقد عوضه زيوس عن فقدان بصره بالقدرة على التنبؤ ــ المترجم •

بانتظار الحيل الفكرية
التى تعرف الواحد فى المتعدد
وان كل شىء هنا حاضر
وأن الحقيقة مستترة فى الخيال ·
انتظرت ولاتزال تنتظر
فى تيه من العبث
وفى غموض شديد
يتشابكان بغير تمييز ــ
النزوة تختلط بالمحبة
والصدق بوظيفة الكلية
والجمال فى الطعام المهضوم
والصفراء ، والسائل المنوى ·
واسم الله مع الطعام
واسم الله مع غياب الطعام
أو رنين الاجراس
وهى تدق فجأة
دقة ، دقتين ، ثلاث دقات
فى آذان مصغية

وضرب العازفون على أوتار القيثار ، ونفخ النافخون أنفاسا طويلة في المزمار ·

وقال موروجان مرة أخرى : هل ننصرف الآن ؟

ولكن ويل رفع يده ليسكته · وتحركت الى وسط المسرح الفتاة الدمية وهى تغنى

ثلاثة مليارات من خلايا المخ
من الداخل الى الخارج
ذلك هو الفكر
وبلايين من أشواط البليارد
تحدد للانسان ايمانه وشكه
الايمان عندى تصادم بينها
والمنطق عندى انزيم لديها
والادرينالين القرنفلى رؤياى
والادرينالين الابيض جرائمى
أنا التنظيم المحسوس
لعشرات من حركاتها
وكل ذرة فى وحدتها
تنبىء بالضرورة من أكون

نفد صبر موروجان فأمسك بويل من ذراعه وقرصه قرصة قوية ، وصاح قائلا : هل أنت آت ؟

والتفت اليه ويل غاضبا ، وجذب ذراعه ليخلصها من قبضة الفتى وقال له : ماهذا الذى تصنع بى ، أيها الأحمق الصغير ؟

وشعر موروجان بشىء من الخوف فغير من نغمته وقال : أردت أن أعرف هل أنت مستعد للذهاب الى أمى ؟

أجابه ويل : لست مستعدا ، ولن أذهب ·

وصاح موروجان بنغمة تنم عن دهشة بالغة وقال :

ـ كيف لاتذهب ، وهى بانتظارك ، وهى ···

ـ قل لامك اننى آسف وعندى موعد سابق مع انسان يحتضر ·

ـ ولكن الامر غاية فى الاهمية ·

ـ وكذلك الموت ·

وأخفض موروجان صوته وقال همسا : ان شيئا ما يحدث ·

ومن خلال ضجيج الزحام المضطرب صاح ويل : أنا لا أستطيع أن أسمعك ·

وتلفت موروجان حواليه وجلا ، ثم خاطر برفع صوته قليلا وقال : ان شيئا ما يحدث ، شيئا خطيرا ·

وبالمستشفى شيء يحدث أشد خطرا !

وبدأ موروجان يتكلم وقال : لقد سمعنا لتونا ·· ثم تلفت حواليه مرة أخرى ، وهز رأسه ، وأكمل العبارة قائلا : لا ، أنا لا أستطيع أن أخبرك بالأمر هنا · ولذلك لابد لك أن تأتى الى المنزل · الآن · ليس لدينا وقت نضيعه ·

ونظر ويل الى ساعته وردد عبارته : ليس لدينا وقت نضيعه ثم التفت الى مارى ساروجينى وقال : لابد من الذهاب نضيعه · ثم التفت الى مارى ساروجينى وقال : لابد من الذهاب ·

أي الطرق نسلك ؟

قالت : سأريك وانطلقا بأيد متشابكة ·

وقال موروجان متوسلا : مهلا ، مهلا ! ولما توقف ويل وماری ساروجینی عن المسير شق طـريقه فى الزحام ليلحق بهما • وصاح فى أعقابهما : ماذا أقول لها ؟

وقد كان مابدا على الصبى من فزع مذلا له بصورة تدعو الى الضحك • وتغيرت حال ويل من الغضب الى التفكه ، وضحك ضحكة عالية ، ثم توقف عن المسـير وسـأل : ماذا تقولين لها ياماری ساروجینی ؟

قالت الطفلة : أقول لها ماحدث بالضبط • أقصد لو كانت أمى • وبعد اعادة التفكير قالت : ولكن الرانى ليست أمى • وتطلعت الى موروجان وسألته : هل تنتمى الى ناد من نوادى التبنى المتبادل ؟

وطبعا لم يكن موروجان ينتمي الى أى ناد منها • كما كانت فكرة هذه النوادى عند الرانى من الكفر • لأن الله وحده هو الذى يجعل المرأة أما • وأرادت هذه الصليبية الروحانية أن تكون وحدها مع هذه الفريسة التى أعطاها الله اياها •

هزت ماری ساروجینی رأسها وقالت : ليس لك ناد ، هذا أمر مريع ! لو كان لك ناد لذهبت الى احدى أمهاتك ومكثت معها بضعة أيام •

وتملك الرعب قلب موروجان عندما خطر له أنه سوف ينهى الى أمه الوحيدة نبأ فشله فى مهمته ، وفى حالة هستيرية عاد الى الموضوع بصيغة أخرى ، وظل يردد قوله : لست أدرى ماذا تقول •

قال له ويل : هناك وسيلة واحدة تعرف بها ماذا سوف تقول • اذهب الى بيتك واستمع •

وتوسل اليه موروجان أن يرافقه وشدد قبضته على ذراع ويل .

قال ويل : قلتلك لاتمسنى . فسحب يده القابضة فورا . وابتسم ويل مرة أخرى . ورفع عصاه مشيرا بها للوداع وقال : خيرا فعلت . طبت مساء ياصاحب السمو . ثم التفت الى مارى ساروجينى وقال بروح مرحة : أرنى الطريق ياماك فيل .

وسألته مارى ساروجينى : هل كنت تتصنع أم هل كنت غاضبا فعلا ؟

وأكد لها أنه فعلا غضب وصدقا . ثم تذكر ماشهده فى جيمنازيوم المدرسة . ودمدم بالنغمات الأولى لأغنية راكشاسى المزمارية ، وضرب على الرصيف بعصاه ذات الطرف الحديدى .

قال : هل كان ينبغى لى أن أضرب بقدمى .

ـ ربما كان أفضل .

ـ هل تظنين ذلك ؟

ـ سوف يمقتك بعد ما يتخلص من الرعب الذى تملكه .

هز ويل كتفيه ، مستهينا الى أقصى حد . ثم أخذ الماضى يتراجع والمستقبل يقترب وهما يبتعدان عن قوس المصابيح التى كانت تضىء السوق ويصعدان الشارع المظلم شديد الانحدار الذى يتلوىحتى المستشفى ، وعندئذ بدأت تتغير حالته النفسية . قال لها : أرنى الطريق ياماك فيل ـ ولكن الى اين يتجه الطريق ، ومن اين يبتعد ؟ انه يتجه نحو مظهر آخر من مظاهر الفزع الأكبر ويبتعد عن كل أمل فى الاستمتاع

بسنة التحرر التى وعـده بها جـو الديهايد والتى كان من الميسـور (لأن بالا كان محكوما عليها بالهلاك على اية حال) وليس من الخيانه ولا مما يتنافى مع الأخلاق أن يظفر بها ٠ ولا يبتعد عن الأمل فى الحرية فحسب ، بل ربما يبتعد كذلك عن أى رجاء فى أجر عال يتقاضاه نظـير استعباده كمراقب محترف للاعدام ، اذا شكت الرانى لجو واذا سخط عليه جو سخطا شديدا ، فهل يعود ، هل يحاول أن يجد موروجان ، ويقدم له الاعتذار ويفعل ما تأمره به تلك المرأة المريعة ؟ وعلى بعد مائة ياردة فى أعلى الطريق بدت له أضواء المستشفى وهى تتلألأ بين الأشجار ٠

قال : دعنا نسترح لحظة ٠

سألته مارى ساروجينى جزعة : هل أنت متعب ؟

ــ قليلا ٠

وتلفت الى الوراء واستند على عصاه وألقى على السوق نظرة ٠ وفى ضوء قوس المصابيح تألقت صالة البلدية باللون القرنفلى كأنها جرعة ضخمة من شراب التوت ٠ وفوق قمـة برج المعبد رأى مجمـوعة من التماثيل الهنـدية فى ترتيب فوضوى الى آخر حد وقد علا بعضها بعضا فوق الافارين ــ أفيال ومجموعة من البوذيسـتافا ، والعفـاريت ، وبنات خارقات للطبيعة ذوات نهود بارزة وأرداف ضخمة ، ومجموعة من تماثيل شيفا وهى تطفر مرحا ، وصفوفا من بوذات سبقت وبوذات المستقبل هادئة منتشية ٠ وفى أسفل المساحة التى تقع بين صـالة البلدية وهـذه التماثيل الميثولوجية ، كان جمهور من الناس يتزاحم ، وظهر بين الزحام وجـه عابس وبيجاما بيضاء من الساتان ٠ فهل يعود ؟ ربما كان ذلك هو

التصرف الصحيح ، الآمن ، الحكيم • ولكن صوتا باطنيا ــ وليس صوتا ضعيفا كصوت الرانى ، ولكنه صوت جهير صاح به «قذارة ! قذارة !» هل هو الضمير ؟ كلا • الاخلاق ؟ لا قدر الله ! انما قذارة زائدة ، وقبح ، وانحطاط لايرضاها نداء الواجب ـ هذه أشياء لايمكنه كرجل صاحب ذوق أن يسهم فيها •

قال لماری ساروجینی : هل نواصل السير ؟

ودخلا دهليز المستشفى ، وكانت لدى الممرضة الجالسة عند المكتب رسالة من سوزيلا اليهما ، مؤداها أن تذهب مارى ساروجيني مباشرة الى منزل السيدة راو حيث تستطيع هى وتوم كريشنا أن يقضيا ليلتهما • أما فارنبى فعليه أن يتوجه فورا الى الغرفة رقم ٣٤ •

قالت الممرضة : الطريق من هنا وفتحت بابا متأرجحا •

و تقدم ويل • وبفعل شرطى منعكس قال تلقائيا فى أدب جم شكرا وابتسم • ولكنه بشعور المكتئب المستاء فى أعماقه أخذ يعرج نحو المستقبل المخوف •

قالت الممرضة : الباب الأخير على اليسار ، وعادت الى مكتبها فى الدهليز ، وقالت والباب ينغلق من خلفه : والآن أتركك لتسير وحدك •

وأخذ يردد لنفسه : وحدى ، وحدى وتطابق المستقبل المخوف مع الماضى الذى يطارده ، وتمثل له الفزع الأكبر بغير حدود فى الزمان والمكان • ان هذا الممر الطويل بجدرانه الخضراء شبيه كل الشبه بالممر الذى سلكه منذ عام ليصل الى الغرفة الصغيرة التى رقدت فيها مولى تلفظ أنفاسها الأخيرة • وعاوده الحلم المزعج • وبحكم القضاء والقدر ، وبوعى منه،

تقدم نحو قمة الاحلام المزعجة • الموت ، صورة أخرى من الموت •

وأخذ يعد دقات قلبه ، اثنتان وثلاثون ، ثلاثة وثلاثون ، أربعة وثلاثون ••• وطرق الباب وأخذ يصغى الى دقات القلب • وانفتح الباب ، واذا به أمام رادا الصغيرة وجهها لوجه •

همست قائلة : كانت سوزيلا بانتظارك •

وساروا ويل وراءها فى الغرفة • وانعطف حول احدى الستائر فوقعت عينه على صورة جانبية لسوزيلا هى ظلها فى ضوء المصباح ، وعلى سرير مرتفع ، ووجه نحيل أسمر ملقى على وسادة ، وذراعين لا تزيدان عن عظام يكسوها الجلد ، وعلى يدين كأنهما مخلبان • الفزع الأكبر مرة أخرى • ارتعد وابتعد • وأشارت رادا الى مقعد بجوار النافذة المفتوحة فجلس عليه وأغمض عينه ـ أغمضها ماديا عن الحاضر ولكنه بذلك فتحهما فى دخيلة نفسه على ذلك الماضى البغيض الذى ذكره به الحاضر • رحل بمخيلته الى تلك الغرفة التى استلقت فيها العمة مارى ، أو على الأصح من كانت فى وقت ما العمة مارى ، أما آنئذ فهى شخص آخر لاتكاد تعرفه ـ شخص آخر كأنه لم يسمع بفعل الخير وبالشجاعة وهما لب حياة العمة مارى ، شخص آخر امتلأت نفسه حقدا على كل من اقترب منه بغير تمييز ، كارهة لهم أيا كانوا لا لشىء الا لأنهم لم يصابوا بالسرطان ، لأنهم لا يتألمون ، ولم يحكم عليم بالموت قبل الأوان • ومع هذا الحسد الخبيث لما يتمتع به غيرها من صحة وسعادة كانت تتبرم بمرراة اشفاقا على نفسها ، وتستعشر اليأس القاتل •

لماذا يحدث هذا لى ؟ لماذا •

فى مخيلته أستطاع ويل أن يسمع هذا الصوت الأجش الشاكى ، وأن يرى هذا الوجه الذى تشــوه وســالت فوقه الدموع • وقد كانت الشخص الوحيد الذى أحبه فعلا وأعجب به من كل قلبه • ومع ذلك فقد أحس نحوها بالازدراء وهى تنهار ــ الازدراء بل المقت الشديد •

ولكى يفر من الماضى فتح عينيه • فرأى رادا جالسة على الأرض ، تضع ساقا على ساق ، معتــدلة ، وقد جلست جلسة التأمل • وظهرت سوزيلا مثلها فى سكون المتأمل جالسة فى كرسيها الى جوار السرير • ثم نظر الى الوجه المستلقى على الوسادة • وكان كذلك ساكنا ، فى هدوء يكاد أن يكون هدوء الموت البارد • وفى الخارج فى ظلمة الخضرة صاح طاووس على حين غرة • وتلت فترة من الصمت اشتد عمقه بالقياس الى هذا الصياح • الصمت الحافل بالمعانى الملغزة المريعة •

وضعت سوزيلا احــدى يديها على ذراع المرأة العجوز وقالت : لاكشمى • وأعادت النداء بصوت أعلى : لاكشــمى • وما عتم الوجه الذى اكتسى بهدوء الموت جامدا لايتحرك •

قالت سوزيلا : لاتسترسلى فى النوم •

لاتسترسل فى النوم ؟ ولقد كان النوم ــ النوم المصطنع الذى أعقب الحقن ــ بالنسبة للعمة مارى فترة الراحة الوحيدة من تمزق النفس الذى أصابها من اشفاقها على نفســها ومن المخاوف التى ألحت عليها •

ــ لاكشمى !

وقالت السيدة العجوز همسا : لم أكن فى الحقيقة نائمة . انما هو الضعف المميت ، وكأنى أطفو بعيدا عن هذا المكان .

قالت سوزيلا : ولكن لابد لك أن تكونى هنا ، ولابد لك من أن تعلمى انك هنا . فى كل حين . ودفعت وسادة أخرى تحت كتفى المرأة العجوز ، ومدت يدها الى زجاجة بها أملاح لها رائحة خاصة كانت موضوعة على النضد الصغير المجاور للسرير .

واستنشقت لاكشمى ، وفتحت عينيها وحدقت فى وجه سوزيلا ، وقالت : لقد نسيت كم أنت جميلة ، ولكن ديوجولد كان دائما ذا ذوق حسن . وارتسم على وجهها الأعجف للحظة واحدة شبح ابتسامة مزعجة . وبعد لحظة أخرى غيرت من لهجة حديثها وقالت : مارأيك ياسوزيلا ؟ هل سنراه ثانية ؟ أقصد هناك ؟

وفى صمت ربتت سوزيلا على يد المرأة العجوز . ثم ابتسمت بغتة وقالت : كيف كان الراجا العجوز يصوغ هذا السؤال ؟ هل تظنين أننا سوف نراه هناك ؟

ــ وماذا تظنين أنت ؟

ــ أظن أننا خرجنا جميعا من ضياء واحد واننا جميعا سوف نعود الى نفس الضياء .

ودار بذهن ويل أن هذه كلها كلمات فى كلمات فى كلمات . وبجهد جهيد رفعت لاكشمى احدى يديها وأشارت فى اتهام الى المصباح الذى كان على النضد المجاور للسرير .

وهمست قائلة : انه يتوهج فى عينى ·

خلعت سوزيلا المنديل الحريرى الاحمر الذى كانت تلف به رقبتها ولفت به ظلة المصباح المصنوعة من الرق · وتحول الضوء من أبيض كاشف بلا موراة الى معتم وردى يشع الدفء كذلك الضـــوء ـ كمـــا طاف بمخيلة ويل ـ الذى سقط على فراش بايز المتغضن كلما أضاء الاعلان عن شراب بورترزجين باللون القرمزى ·

قالت لاكشمى : هـــذا أفضل · وأغمضت عينيها · ثم عادت الى الكلام بعد فترة طويلة من الصمت وقالت فجـأة : الضوء ، الضوء ، انه لايزال يســطع · وســادت فترة من السكون ، ثم همست أخيرا بقولها «ما أجمله ، ما أجمله !» وفجأة جفلت وعضت شفتها ·

ووضعت سوزيلا يد المرأة العجوز بين راحتيها وسألتها هل الألم شديد ؟

قالت لاكشمى : يكون الألم شديدا لو كان من آلامى ، ولكنه ـ لست أدرى كيف ـ ليس من آلامى · الألم هنا ، وأنا فى مكان آخر · الأمر شبيه بما يتكشف للمرء عندما يتعاطى عقار الموكشا · لاشىء فى الواقع يتعلق به · حتى الألم ·

ـ هل لازلت ترين الضوء ؟

هزت لاكشمى رأسها وقالت : عندما أعود بذاكرتى الى الوراء أستطيع أن أقول لك متى اختفى · اختفى عندما بدأت أقول ان الألم ليس فى الواقع من آلامى ·

ـ مع أن ماقلت كلام طيب ·

ـ أعلم ذلك ، ولكنني كنت أعبر عنه (بالكلام) . وارتسم على وجه لاكشمى مرة أخرى شبح العادة القديمة ، عادة الانزعاج لغير ما سبب .

سألتها سوزيلا : فيم تفكرين ؟

ـ فى سقراط .

ـ سقراط ؟

ـ ثرثرة فى ثرثرة فى ثرثرة ـ حتى حينما تناول تلك المادة فعلا . لاتجعليني أتكلم ياسوزيلا . عاونيني على أن أخرج من ضياء نفسى .

وبعد فترة من السكون قالت سوزيلا : هل تذكرين ذلك الوقت الذى ذهبنا فيه جميعا الى معبد شيفا القديم الذى يقع فوق محطة المرتفع الشاهق ؟ أنت وروبرت وديوجولد وأنا والطفلان ـ هل تذكرين ؟

وابتسمت لاكشمى مسرورة بالذكرى .

ـ أذكر خاصة ذلك المنظر الذى يشاهده الرائى من الجانب الغربى للمعبد ـ المنظر الذى يمتد فوق البحر . اللون الأزرق ، والأخضر والأرجوانى ـ وظلال السحب كالمداد . والسحب نفسها ـ الثلج ، والرصاص ، والفحم النباتى ، ولون الساتان . ثم ألقيت سؤالا ونحن نشاهد المنظر . هل تذكرين يالاكشمى ؟

ـ تقصدين سؤالى عن الضوء الصافى ؟

قالت سوزيلا مؤكدة : نعم عن الضوء الصافى . لماذا يتحدث الناس عن (العقل) وكأنه ضوء ؟ هل لأنهم رأوا ضوء

الشمس فوجدوه من الجمال بحيث يمسى من الطبيعى أن يطابقوا طبيعة بوذا مع أصفى مايمكن من كل ضوء صاف ؟ أم هل وجدوا ضوء الشمس جميلا لانهم ـ بالشعور أو باللاشعور ـ شاهدوا منذ بدء حياتهم للعقل الأكبر رؤى على شكل الضوء ؟ وقالت سوزيلا وهى تبتسم لنفسها : وكنت أول من أجاب • وكنت قبل ذلك قد قرأت شيئا لأحد السلوكيين الامريكان ولم أكف عن التفكير ـ ولم أقدم اليك سوى (وجهة النظر العلمية) • ان الناس يسوون بين العقل (أيا كانت طبيعته) وهلوسة الضوء ، لانهم كثيرا ماشاهدوا الشمس وهى تغرب وتأثروا بها أشد التأثر • ولكن روبرت وديوجولد لايريان هذا الرأى ، ويصران على أن الضوء الصافى هو الذى يسبق •

ـ ان المرء يولع بغروب الشمس لانه يذكره بما يجرى دائما ـ عرف أو لم يعرف ـ داخل جمجمته وخارج الزمان والمكان • وقد وافقتهما يالاكشمى ـ هل تذكرين ؟ قلت (كنت أود أن أؤيدك ياسوزيلا ، على الأقل لانه ليس من الصواب أن يكون رجالنا على حق فى كل الأوقات • ولكنهم فى هذه الحالة مصيبون بشكل واضح جدا • وبالطبع كانوا مصيبين وبالطبع كنت مخطئة كل الخطأ • وليست بى حاجة الى القول انك عرفت الاجابة الصحيحة قبل أن تسألى السؤال» •

وهمست لاكشمى قائلة : اننى لم أعرف شيئا قط ، بل استطعت فقط أن «أرى» •

وقالت سوزيلا : أذكر ما قلته لى عن رؤيتك للضوء الصافى • هل تريديننى أن أذكرك به ؟

وأومأت المرأة المريضة برأسها موافقة •

قالت سوزيلا : كانت المرة الأولى وأنت فى الثامنة من عمرك ، عندما وقعت عيناك على فراشة برتقالية على ورقة من أوراق الشجر ترفرف بجناحيها فى ضوء الشمس ـ وفجأة تألق الضوء الصـافى ـ الذى يرمز للحقيقة الكبرى المثالية البحت ـ من خلالها ، كأنه شمس أخرى •

وهمست لاكشمي : بل أشد اشراقا منها •

ـ ولكنه ضوء أخف ، فأنت تستطيعين أن تحـدقى فى الضوء الصـافى ولا يصيبك العمى • واذكرى هـذا الآن • فراشـة على ورقة خضراء ، ترفرف بجناحيها ـ واذا بطبيعة بوذا حاضرة حضورا كليا ، انه الضوء الصافى الذى يفوق ضوء الشمس فى اشراقه • وكنت حينذاك فى الثامنة فقط من عمرك •

ـ وماذا فعلت لاستحق ذلك ؟

وتذكر عندئذ ويل تلك الأمسية التى سبقت وفاة عمته مارى باسبوع أو مايقرب منـه والتى حـدثته فيها عن تلك الأوقات السعيدة التى قضياها معا فى بيتها الصغير قريبا من أروندل ، البيت الذى كانت وصـية عليه ، والذى قضى به أحسن أيام عطلاته ، يشعل النار فى أعشاش الدبابير فيطردها منها بدخانها ، ويقوم بالرحلات فوق العشب أو تحت أشجار الزان ، ويذكر لفائف السجق فى بوجنور ، وقارئة البخت الغجرية التى تنبأت له أن يصل الىمنصب وزير المالية، وتذكر حامل الصولجان فى الكنيسة بردائه الاسود وأنفه الأحمر الذى طاردهما خارج كاتدرائية تشيتشستر لأنهمـا أغـرقا فى

الضحك • وكررت العمة ماري في مرارة : اغرقتما في الضحك ، اغرقتما في الضحك • • •

وواصلت سوزيلا حديثها قائلة : والآن عودى بذاكرتك الى ذلك المنظر الذى بدا من معبد شيفا • واذكرى تلك الاضواء والظلال على سطح البحر ، وتلك البقع الزرقاء التى تتخلل السحاب • اذكريها ، ثم أطلقي العنان لفكرك ، أطلقى له العنان حتى يظهر اللافكر • أشياء فى الفراغ • وفراغ فى الحقيقة الكبرى • والحقيقة الكبرى فى صورة أشياء مرة أخرى ، داخل عقلك • اذكرى ماجاء فى سوترا (١) «وعيك المشرق ، الفراغ ، الذى لاينفصل عن الجسم المشرق العظيم، لايخضع لميلاد أو موت ، انما هو نفس الضوء الثابت الذى لايتغير ، هو بوذا أميتابها (٢) •

وكررت لاكشمى العبارة قائلة : هو نفس الضوء ، ومع ذلك فقد أظلمت الدنيا كلها مرة أخرى •

قالت سوزيلا : أظلمت لأنك تجهدين نفسك ، وأظلمت لانك تريدينها أن تضىء • اذكرى ما أعتدت أن تقولى لى وأنا طفلة صغيرة : بخفة يابنيتى ، بخفة • تعلمى أن تصنعى كل شىء بخفة • فكرى بخفة ، واعملى بخفة ، واشعرى بخفة ـ نعم اشعرى بخفة ، حتى أن كنت بعمق تشعرين • دعى الامور تحدث بخفة واجهيها بخفة • وكنت فى تلك الأيام جادة بشكل غير معقول ، كنت صغيرة متزمتة لا تجد الفكاهة الى

---

(١) السوترا فى الهندوكية تفسير الأوبانيشاد (كتاب التصوف الهندى) ، ومنها تفرعت المدارس الفلسفية الهندية ـ المترجم

(٢) اميتابها هو رب الجنة الغربية ـ أرض الصفاء والنقاء ـ المترجم

نفسى سبيلا • بخفة ، بخفة شديدة : هذه أغلى نصيحة قدمت لى • والآن أنا أقول لك نفس هذا الكلام يالاكشمي •• بخفة، ياعزيزتى ، بخفة حتى فى ساعة الموت • ليس هناك أمر ثقيل ، أو ينذر بالشر ، أو أكيد • لا فصاحة فى الكلام ، ولا هزات فى الموسيقى ، ولا تشخيص يحس صاحبه أنه يحاكى المسيح أو جوته أو نيل الصغيرة • وبالطبع لا لاهوت ولا ميتافيزيقا • مجرد حقيقة الموت وحقيقة الضوء الصافى • ألق كل أعباءك وسيرى الى الامام • حواليك رمال متحركة ، تجذب قدميك ، وتحاول أن تسيخ بك الى هوة الخوف والاشفاق على النفس واليأس • لذلك يجب أن تخففى الوطأ فى المسير • مهلا ياعزيزتى • على أطراف أصابع قدميك ، لا أعباء على ظهرك ، ولا حتى حقيبة الاسفنج • تخلصى من كل العوائق •

تخلصى من كل العوائق ••• ذكرت ويل هذه العبارة بعمته المسكينة مارى وهى تغوص الى أبعاد أعمق وأعمق كلما خطت خطوة فى الرمال المتحركة • أعمق وأعمق حتى غابت نهائيا والى الأبد فى الفزع الأكبر وهى تكافح وتحتج حتى آخر رمق فى حياتها • ونظر مرة أخرى الى ذلك الوجه الأعجف المستلقى على الوسادة ورأى على شفتيه ابتسامة •

واستمع الى همس أجش ينادى : الضوء ، الضوء الصافى • انه أمامى ، أراه وأنا أحس الألم ، على الرغم من الألم •

سألتها سوزيلا : وأين أنت ؟

ــ هناك ، فى الزواية • حاولت لاكشمى أن تشير ، ولكن الاصبع المرفوعة اهتزت وسقطت على الملاءة بلا حراك • أرى نفسى هناك ، وتستطيع هى أن ترى جثمانى فوق الفراش •

ـ هل تستطيع أن ترى الضياء ؟

ـ لا · الضياء هنا ، حيث يستلقى جسدى ·

وانفتح باب غرفة المريضة فى هدوء ، والتفت ويل وأمكنه أن يرى شبح الدكتور روبرت النحيل يخرج من وراء الستار الى الشفق الوردى ·

ونهضت سوزيلا وأشارت اليه ليجلس مكانها فوق الفراش · وجلس الدكتور روبرت ، وانحنى الى الأمام ، وأمسك بيد زوجته فى احدى يديه ووضع يده الاخرى على جبينها ·

وهمس قائلا : هذا أنا ·

ـ أخيرا · · ·

قال لها ان شجرة قد سقطت فوق خط التلفون · ولم يمكن الاتصال بمحطة المرتفع العالى الا بالمسير على الطريق · وقد بعثوا برسول فى عربة ، ولكن العربة تحطمت ، فضاع من الزمن أكثر من ساعتين ، وختم الدكتور روبرت حديثه قائلا : ولكن أحمد الله فقد استطعت أن أكون هنا فى النهاية ·

وتنهدت المرأة التى تعانى سكرات الموت تنهدا عميقا ، وفتحت عينيها لحظة ، وتطلعت اليه وهى تبتسم ، ثم أغمضت عينيها ثانية ، وقالت : عرفت انك حضرت ·

وبصوت هادىء قال : لاكشمى ، لاكشمى وسحب أطراف أصابعه فوق جبينها المجعد مرة تلو المرة وهو يقول :

«محبوبتى» وسال الدمع على خديه ، ولكن صوته كان ثابتا وتحدث بحنان يصدر عن قوة لا عن ضعف ·

وهمست لاكشمى : لم أعد هناك ·

وفسرت سوزيلا لحميها هذه العبارة وقالت : كانت هناك فى الزاوية وهى تنظر الى جسدها هنا فى الفراش ·

ـ ولكنى عدت الآن · أنا والألم ، أنا والضياء ، أنا وأنتم ـ كل ذلك معا ·

وصاح الطاووس مرة أخرى ، ومن خلال أصوات الحشرات التى تعد فى هذه الليلة الاستوائية نوعا من الصمت ، ومن بعيد ولكن فى وضوح تام سمع صوت موسيقى مرحة ، بالمزامير وعلى الأوتار وبدق الطبول المستمر ·

قال الدكتور روبرت : انصتوا · هل تستطيعون أن تسمعوا · انهم يرقصون ·

ورددت لاكشمى وراءه : يرقصون ، يرقصون ·

وهمست سوزيلا : يرقصون برقة كأن لهم أجنحة ·

وارتفع صوت الموسيقى مرة أخرى وطرقت الاسماع ·

قالت سوزيلا : موسيقى الغزل باروبرت ، هل تذكر ؟

ـ وهل أنسى أبدا ؟

وقال ويل لنفسه : هل يستطيع المرء أن ينسى أبدا ؟ هل يستطيع المرء أن ينسى تلك الموسيقى الأخرى البعيدة ـ وقريبا منه ، فى سرعة وضحل غير عاديين صوت أنفاس النزع الاخير تطرق أذنى صبى صغير ؟ فى البيت القائم على

الجانب الآخر من الشارع كان شخص ما يتدرب على موسيقى براهمز فالس التى كانت عمته مارى تحب أن تعزفها • وأخذت تعد ضرباتها ، واحد ، اثنين ، ثلاثة ، واحد ، اثنين، ثلاثة ، ثم ووواحد ، إثنين ، ثلاثة ، واحد ، واحد ، اثنين ، ثلاثة ، واحد ، و ••• وهنا اهتزت تلك المرأة الغريبة البغيضة • التى كانت فيما مضى العمة مارى وتنبهت من سباتها المصطنع وفتحت عينيها • وظهر على وجهها الشاحب النحيل تعبير عن أسوأ حالة من حالات المرض الخبيث • وكادت تصيح بصوت أجش لايميز السامع قائلة : اذهب وقل لهم كفوا عن العزف • وتحولت آثار المرض الخبيث الى آثار اليأس ، وشرعت هذه الغريبة ــ هذه الغريبة البغيضة التى تدعو الى الاشفاق ــ فى النحيب ولم تتمالك نفسها • دقات موسيقى براهمز فالس : تلك كانت قطع الموسيقى ــ بين كل ماتملك من الانغام ــ التى أحبها فرانك أكثر من أى شىء آخر •

وهبت نفحة أخرى من الهواء البارد جلبت معها نغمة أعلى من تلك الموسيقى المرحة البهيجة •

قال الدكتور روبرت : هؤلاء الشباب الذين يتراقصون ، وهذا الضحك وهذه الشهوة ، وتلك السعادة التى لاتشوبها شائبة ! كل ذلك هنا ، يخلق جوا ، كأنه مجال من مجالات القوة • سرورهم وحبنا ــ حب سوزيلا ، وحبى ــ كل ذلك يأتلف ويقوى بعضه بعضا ــ الحب والسرور يلفك ياعزيزتى • الحب والسرور يرفعانك الى هدوء الضوء الصافى • استمعى الى الموسيقى • هل لازلت تسمعينها يالاكشمى ؟

قالت سوزيلا : لقد شطحت مرة أخرى ، حاول أن تستعيدها •

ودفع الدكتور روبرت احدى ذراعيه تحت جسدها المهزول ورفعه قليلا الى وضع الجلوس · وتدلى رأسها على أحد الجانبين واستند الى كتفه ·

وظل يهمس لها «حبيبتي ، حبيبتي · · ·»

وانفرج جفناها لحظة · وفى همس يكاد لايسمع كرر ويل قوله : «اشتدى بريقا» · وعندئذ ارتسمت على شفتيها ابتسامة السعادة ، قوية حتى لتكاد أن تكون ابتهاجا ، وغيرت من ملامح وجهها ·

ومن خلال دموعه بادلها الدكتور روبرت الابتسام ، وأخذ يربت على شعرها الأشيب ويقول : الآن تستطيعين أن ترحلى ياعزيزتى وأخذ يردد قوله : ارحلى ، ارحلى · ارحلى عن هذا الجسم المسكين العجوز · انك لم تعودى بحاجة اليه · دعيه يسقط عنك · اتركيه راقدا هنا ككومة من الثياب البالية ·

وفغر فوها فى وجهها الأعجف ، وفجأة تحولت أنفاسها الى غطيط ·

وضمها الدكتور روبرت الى صدره وهو يقول : حبيبتى، عزيزتى · ارحلى الآن · ارحلى · اتركى جسدك البالى هنا ، واذهبى ياعزيزتى الى الضياء ، الى السكون ، الى السكون الحى ، سكون الضوء الصافى · · ·

ورفعت سوزيلا احدى اليدين المرتخيتين ولثمتها ، ثم التفتت الى رادا الصغيرة ·

وقالت لها همسا وقد لمست كتفها : آن لك أن تذهبى ·

تنبهت رادا من تأملاتها وفتحت عينيها وأومأت برأسها ،

واتجهت فى صمت على أطراف أصابع قدميها صـوب الباب وكأنها تزحف زحفا • واستدعت سوزيلا ويل باشارة منها ، وسارا معـا خلف رادا • وفى صمت سـار ثلاثتهم فى الممر خـارج الغـرفة ، وعنـد البـاب المتـأرجح استأذنت رادا بالانصراف •

وقالت همسا : أشكركما على استبقائكما لى معكما •

قبلتها سـوزيلا وقالت : بل الشـكر لك لانك عاونت لاكشمى على تخفيف الامر عليها •

وتبع ويل سـوزيلا عبر الردهة حتى زلفـا الى الظلام الدافىء العطـر • وفى صمت هبطا من الجبل متجهين نحـو السوق •

وأخيرا قال وهو تحت ضغط عجيب أراد به أن يخفى مشاعره ويتظاهر بنوع رخيص من السخرية : أظن أنهـا ستسرع الآن لتمارس شيئا من الماثيونا مع صديقها الفتى •

وقالت سوزيلا فى هدوء : الواقع أنها مكلفة بالسهر فى أداء واجبها • واذا لم يكن الأمر كذلك فماذا يمنع انتقالها من يوجا الموت الى يوجا الحب ؟

ولم يجب ويل فى الحال ، فقد كان يفكر فيما حدث بينه وبين بابز ليلة تشييع مولى • يوجا نقيض الحب ، يوجا الادمان الممقوت ، والشهرة وبغض النفس الذي يعزز النفس ويجعلها أكثر مدعاة للبغض •

وأخيرا قال : أنا آسف فقد حاولت أن أكون ممجوجا •

ـ هذا شبح أبيك ، وسوف نحاول أن نبعده عنك •

وعبرا ساحة السوق وبلغا الآن ـ عنـد نهـاية الشارع

القصير الذى يسلكه الخارج من القرية ـ المكان المكشوف الذى كانت تقف فيه عربة الجيب • وعندما ساقت سوزيلا العربة الى الطريق العام سطع شعاع المصابيح الامامية على عربة صغيرة خضراء كانت تسير هابطة من الجبل صوب الطريق الجانبى •

ـ أليست هذه هى العربة أوستن الصغيرة الملكية ؟

قالت سوزيلا : هى بعينها • وتعجبت الى أين كانت الرانى وموروجان يتجهان فى هذا الوقت من الليل •

وخطر ببال ويل أنهما لايقصدان خيرا • وبدفعة مفاجئة أفضى لسوزيلا بمهمة رحلته التى كلفه بها جـو الديهايد ، وبمداولاته مع الملكة الام والمستر باهو •

واختتم حديثه قائلا : ولديك مايبرر ابعادى عن البلاد غدا • وأكدت له أن ذلك لايمكن أن يتم الآن وهو بسبيل تغيير رأيه وأضـافت قولهـا : ومـع ذلك فان مافعلته لايمكن أن يكون له تأثير على القضية الحقيقية • عـدونا هو البترول بوجه عام • وليس هناك فارق بين أن تستغلنا شركة جنوب شرقى آسيا للبترول أو شركة ستاندارد فى كليفورنيا •

ـ هل تعلمين أن موروجان والرانى كانا يتآمران ضدك؟

ـ انهما لايخفيان ذلك •

ـ لماذا اذن لاتتخلصين منهما ؟

ـ لان الكولونيل ديبا يعيدهما فى الحال • الرانى هى أميرة رندانج • اذا نحن طردناها كان ذلك سببا فى اشتعال الحرب •

ـ ماذا اذن تستطيعين ان تفعلى ؟

ـ أحاول أن أردهما الى الصواب ، وأن أجعلهما يغيران رأيهما ، وآمل في نتيجة طيبة ، واستعد لأسوأ الظروف ٠

ـ وماذا انت فاعلة اذا حلت بك اسوأ الظروف ؟

ـ احاول ان استغل الموقف احسن استغلال ٠ فالفرد حتى في اسوأ المجتمعات يستبقي شيئا من الحرية ٠ الانسان يفكر بينه وبين نفسه ، ويتذكر ويتخيل بينه وبين نفسه ، ويحب بينه وبين نفسه ، ويموت وحيدا ـ حتى تحت حكم الكولونيل ديبا ٠ وصمتت قليلا ثم سألته : هل سمح لك الدكتور روبرت بتعاطي عقار الموكشا ؟ وأومأ برأسه ايجـابا ، فقالت : هل تحب أن تجربه ؟

ـ الآن

ـ الآن ٠ اذا كان لايهمك أن تسهر الليل كله بفعله

ـ ليس عندى ماهو خير من ذلك ٠

وحذرته سوزيلا قائلة : ربما وجدت أنك لم تحب قط شيئا أسوأ منه ٠ فعقار الموكشا قد يسمو بك الى السماء ، وقد يقذف بك فى الجحيم ٠ وقـد يدفع بك اليهما معا فى وقت واحد أو بالتناوب ٠ وربما دفع بك (ان كنت حسن الحظ ، أو ان أنت تأهبت لذلك) الى ماوراء كل منهما ٠ ثم الى ماوراء ذلك ، وتعود الى نقطة الابتداء ـ الى هنـا ، الى روذامسـتد الجديدة ، والى عملك المعتاد ٠ ولكن الآن بالطبع هذا الفعل المعتاد مختلف كل الاختلاف ٠

دقـة ، دقتـان ، ثلاث دقات ، أربـع ـ وهـكذا حتى اثنتى عشرة ، أعلنت بها الوقت الساعة التى كانت بالمطبخ • أى تناقض هذا ، لان الزمن لم يعد له وجود ! ان جرس الساعة يدق دقات مزعجة لا معنى لها وسط احـداث الحـاضر التى لايحدها زمان ، وسط اللحظة الراهنة لاتفتأ تتغير لا بأبعاد الثوانى والدقائق ولكن بأبعاد الجمال ، والدلالة ، والكثافة ، والالغاز الذى يزداد عمقا •

«سعادة مشرقة» ـ خرجت الكلمات من أضـحال عقله كالفقاقيع ، وطفت على السطح ثم اختفت فى متاهات الضوء الحى التى كانت تنبض وتتنفس من وراء عينيه المغمضتين • «سعادة مشرقة» • هذا هو أقرب وصف لما رآه • ولكن ذلك الحدث الذى لايحـده زمان والذى لايفتـأ يتغير كان شـيئا لاتستطيع الكلمات أن تعبر عنـه الا بالكاريكاتير والتصغير ، ولايمكنها اطلاقا أن تنقله • لم تكن سعادة فقط بل كان كذلك ادراكا • ادراكا لكل شىء ، دون معرفة بأى شىء • المعـرفة تقتضى أن يكون هناك من يعرف والاوجـه المختلفة المتعددة للمعـروف ولما يمكن أن يعـرف • أمـا الآن ، وراء عينيه المغمضتين فلا شاهد ولا مشهود • ليست هناك الا حقيقة واحدة

يمارسها ، وهى اتحادة فى شعور من السعادة مع وحدة الوجود (١) ·

وفى رؤى متعاقبة اشتد الضوء اشراقا ، والادراك عمقا، واشتد الاحساس بالسعادة الى درجة مستحيلة لا تطاق · قال لنفسه «ياالهى العزيز !» · ثم سمع صوت سوزيلا آت من عالم آخر ·

ـ هل تشعر أنك تريد أن تقول لى شيئا عما يحدث ؟

وانقضى بعض الوقت حتى استطاع ويل أن يجيب على سؤالها · فقد كان النطق عسيرا ، لا بسبب عائق مادى ، ولكن لأن الكلام كان يبدو شيئا من السخف الذى لايتحقق من ورائه هدف · وأخيرا همس قائلا : الضياء ·

ـ وأنت هناك تنظر الى الضياء ؟

وبعد فترة طويلة من صمت التفكير قال : أنا لا أنظر اليه ، انما أنا هو · وكرر قوله مؤكدا أنا هو ·

وفى حضور الضياء كان غيابه · وليام آسكويث فارنبى ـ لم يكن هناك هذا الشخص لا فى أساسه ولا جوهره · فى الاساس والجوهر لم يكن هناك شىء سوى السعادة المشرقة ، والادراك الذى لايعرف ، والاتحاد مع الوحدة فى وعى بغير حدود لايفرق بين شىء وآخر · هذه ـ كما اتضح له ـ هى الحالة الطبيعية للعقل · كما كان هناك ـ بصورة لا تقل

---

(١) فى هذا الفصل نرى ويل فارنبى وقد وصل الى مرتبة عليا من مراتب التصوف متأثرا بعقائد أهل بالا حيث يحل الادراك المباشر محل المعرفة اللفظية · كل ما يرى وما يسمع يبعث على التأمل العميق ـ المترجم

تأكيدا ـ ذلك المراقب المحترف للاعدام ، ذلك المقبل فى ادمان على بايز والذى يمقت نفسه لهذا السبب • كان هناك كذلك ثلاثة آلاف مليون نوع من أنواع الشعور كل منها منفصل عن الآخر ، وكل منها مركز لعالم من عوالم الاحلام المزعجة ، عالم يستحيل فيه لأى مخلوق ذى عينين أو ذرة من الاخلاص مع النفس أن يقبل الامور على علاتها • آية معجزة خبيثة تلك التى حورت الحالة الطبيعية للعقل الى هذه الجزر الشيطانية التى تنعزل كل واحدة منها عن الأخرى ، جزر البؤس والانحراف ؟

وفى دنيا السعادة والادراك هذه كانت تعود الى الذاكرة بين الحين والحين ذكريات قديمة وآثار متخلفة من المشاعر السابقة كالوطاويط تظهر فى ضوء الشمس الغاربة • ومن هذه الذكريات القديمة فلسفة أفلوطين (١) ، ومذهب المعرفة الروحية (٢) ، ومذهب الواحد الأحد وما يتفرع منه ، وهكذا أخذ يعود الى الماضى السحيق حتى أحس الهول المتراكم • ومن المشاعر المتخلفة الشعور بالغضب والاشمئزاز عندما أصبحت الأهوال المتراكمة ذكريات معينة لما رآه وفعله ، ولما أصابه من غيره وأصاب غيره منه • وهو (وليام آسكويث فارنبى) الآن لا وجود له أساسا •

ولكن خلف هذه الذكريات المضطربة ومن حولها ومن

---

(١) مؤسس الأفلاطونية الحديثة (٢٠٥ ــ ٢٧٠) بشر بأن كمال الانسان يتحقق بتجرده عن الجسد واندماجه مع الواحد (الله) ومعرفته بالشهود المباشر ــ المترجم

(٢) مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا ان المادة شر وان الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية ــ المترجم

داخلها بشكل ما ذلك العالم السماوى ، عالم السعادة والطمأنينة والادراك • وقد تبدو بعض الوطاويط فى ضوء الشمس الغاربة ، ولكن هناك حقيقة ثابتة ، وهى أن معجزة الخلق الرهيبة قد انقلبت ــ فبعد أن كان بائسا منحرفا بصورة خارقة للطبيعة تحول الى عقل محض ، الى عقل على حالته الطبيعية ، ليست له حدود ، ولا يميز شيئا عن شىء ، سعيدا سعادة مشرقة ، مدركا بغير معرفة •

الضوء الآن ، والضوء فى هذا المكان • ولما كان المكان بغير حدود والزمان بغير توقيت فلم يكن هناك شخص خارج الضوء لينظر الى الضوء • أمست الحقيقة هى الوعى والوعى هو الحقيقة •

ومن ذلك العالم الآخر ، فى مكان ما الى اليمين طرق أذنه للمرة الثانية صوت سوزيلا •

سألته : هل أنت سعيد ؟

اكتسحت موجة من اشعاع أشد اشراقا كل تلك الافكار والذكريات المضطربة ، ولم يعد هناك الآن شىء سوى الشفافية البلورية للنعمة والسعادة •

وبغير أن ينطق ، ودون أن يفتح عينيه ابتسم وأومأ برأسه ايجابا •

واصلت حديثها قائلة : هذا ما أسماه ايكهارب (١) الله• سعادة ساحرة ، مكثفة بدرجة لايتصورها العقل وتجل عن

---

(١) عالم من علماء الدين الألمان المتصوفين (١٢٦٠ ــ ١٣٢٨) كان يرى ان الله قريب من الانسان ، بل ان فى كل فرد منا قبس من نور الله ــ المترجم •

الوصف • ووسط هذه الحالة يتجلى الله ولاينطفىء نوره •

(يتجلى الله ولا ينطفىء نوره) ••• ما أصدق هذا القول ! ولشد ماكان تأثيره على ويل فأخذ يقهقه من غرابة التشبيه • وقال وهو يلهث : هل يكون نور الله كالنور ينبعث من بيت يحترق ؟ أو كالنور فى احتفالات الرابع عشر من شهر يوليه ! وانفجر مرة أخرى فى ضحكات عالية •

ومن وراء جفنيه المغمضتين تدفقت السعادة المشرقة الى أعلى كأنها شلال منعكس • تدفقت الى أعلى من اتحاد الى اتحاد أكمل ، ومن انعدام الشخصية الى مايجاوز الذاتية بدرجة مطلقة •

كرر لنفسه : هل يكون نور الله كنور الرابع عشر من شهر يوليه ! ومن قلب تيار السعادة المتدفق الى أعلى أطلق ضحكة أخرى تنطوى على الفهم والتمييز •

سألته سوزيلا : وما رأيك فى الخامس عشر من شهر يوليه ، والصبيحة التالية ؟

ـ ليست هناك صبيحة تالية •

هزت رأسها وقالت : اننى أشتبه فى أن تكون فى حالة نيرفانا •

ـ وماذا يضير فى هذا ؟

ـ هذا روح محض ، نقاؤه مائة فى المائة ـ هذا شراب لا يستسيغه الا أشد الناس ادمانا فى التأمل • البوذيساتفا يخففون النيرفانا بمقادير متساوية من الحب والعمل •

ـ هذه حالة أفضل •

ـ تقصد أنها ألذ • لذلك كان اغراؤها قويا • الاغراء الوحيد الذى يرضى عنه الله • انه ثمرة الجهل بالخير والشر • ثمرة حلوة المذاق ، كأنها المنجة الفاخرة ! هى الطعام الذى تناولته الآلهة بلايين السنين • وفجأة ظهر الانسان ، وتفجرت معرفة الخير والشر • فأنبت الله نوعا جديدا من الثمرات أقل فى مذاقه حلاوة • وقد طعمت منــذ لحظــة شريحة من المنجة الفاخرة الأولى ، لذلك فأنت تستطيع أن تدرك الله •

وسمع صريرا صادرا من أحد المقاعد ، وخشخشة ثياب، ثم سلسلة من أصوات الحركة التى لم يستطيع تفسيرها • ماذا كانت تصنع ؟ كان يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال لو أنه فتح عينيه • ولكن من ذا الذى يهمه حينذاك ماكانت تصنع؟ لم يعد لأى شىء أهمية ســوى بريق هــذا التيار من السعادة والادراك الذى يندفع الى أعلى •

قالت : من المنجة الفــاخرة الى ثمرة المعرفة ـ ســوف أفطمك على مراحل متدرجة •

طرق أذنه طنين • ومن الاضحال طفت الى سطح الشعور فقاعة من فقاقيع المعرفة • كانت سوزيلا تضع اسطوانة على قرص الحاكى المستدير ، وبدأ الفونوغراف يدور •

وســمعها تقول : هــذا جوهان سباستيان باخ • أقرب الموسيقى الى السكون ، أقربها الى الروح الصــافى مائة فى المائة على الرغم من ارتفاع النغم •

وتحول الطنين الى أصوات موسيقية • وانبثقت الى أعلى فقاعة أخرى من فقاقيع المعرفة • وكان يستمع الى كونسرتو براندنبرج الرابع •

كانت بطبيعــة الحــال هى بعينها كونسرتو براندنبرج الرابع التى كثيرا ما استمع اليها فى الماضى — هى بعينها ، ومع ذلك فهى على أتم اختلاف معها · هذا الأليجرو (الموسيقى الخفيفة السريعة) كان يعرفه عن ظهر قلب · ومعنى ذلك انه كان فى أحسن وضع ممكن ليتأكد أنه لم يســمع به قط من قبل ·فأولا أنه لم يكن هو — وليام آسكويث فارنبى — الذى كان يصغى · وكانت الاليجرو تكشف عن نفسها باعتبارها عنصرا فى الحدث الراهن العظيم ، كانت مظهرا لايبعد الا خطوة واحدة عن السعادة المشرقة · وربما كان ذلك وصفا لها لطيفا · ففى ظروف أخرى يكون هذا الاليجرو هو السعادة المشرقة ، هو الفهم الذى لايستند الى معرفة لكل شىء يدرك من خلال ناحية معينة من نواحى المعرفة · كان الوعى الذى لايميز مجــزءا فى نغمات وعبــارات موســيقية ومع ذلك فمايزال هو هو بعينه بكل مغزاه · وكل ذلك بطبيعة الحال لم يخص أحدا ما · فقد كان فى نفس الوقت هنا ، وهناك ، وفى اللامكان · ان الموسيقى التى استمع اليها — باعتباره وليام أسكويث فارنبى — مائة مرة من قبل ، ولدت مرة أخرى وعيا لايمتلكه · ولذلك كان الآن يستمع اليهــا لأول مرة · ان كونسرتو براندنبرج الرابع — وهو ليس ملكا له — من روعة الجمال وعمق المعنى الكامن فيه مايفوق كثيرا أى شىء ألتمسه من قبل فى نفس هــذه الموسيقى عنــدما كانت ملكا خاصا له ·

ثم طفت فقاعة معناها «يالك من أبله» وكأنهــا تعليق ساخر · وهذا الأبله دأب على ألا يقبل أى أمر من الأمــور الا ماكان منه فى مجال الجمال · وكان دائما ينكر — لأنه لايمثل

الا نفسه ـ كل جمال وكل معنى يتمنى قبوله · لم يكن وليام آسكويث فارنبي سوى مصفاة قذرة ، يتسرب اليه منها البشر، والطبيعة ، بل والفن الذى يعشقه بعد ما تعتمه كله سحابة داكنة ويتلوث بالوحل ، وتقل قيمته ، ويتغير ، ويصبح أقبح من حقيقته · أما فى هذا المساء فلأول مرة يكون وعيه بقطعة من الموسيقى مباشرا لايعوقه عائق · بين عقله والصوت ، وبين عقله والنموذج · وبين عقله والدلالة لاتوجد بلبلة من سير الاشخاص التى لا علاقة لها بالموضوع ، والتى تغرق الموسيقى أو تخلق نشازا ليس له معنى · كونسرتو براندنبرج الرابع هذا المساء حقيقة نقية ، لايفسده تاريخ شخصى ، ولا أفكار ثانوية ، ولا غباوات متأصلة يغطى بها الأبله المسكين الذى يرفض كل شيء وبخاصة فى الفن ـ شأنه فى ذلك شأن كل نفس أخرى ـ يغطى بها معطيات الخبرة المباشرة ·

لم يكن كونسرتو براندنبرج الرابع هـذا المساء مجرد شيء غـير مملوك فى حـد ذاته ، بل كان كذلك ـ بطـريق المستحيل ـ حدثا راهنا فى فترة من الزمن لاتنتهى · وربما كان من الأصح أن نقول بغير زمان (بطريقة أكثر استحالة ، نظـرا لانه كان يتألف من ثلاث حركات ويعـزف بسرعته المعتادة) · وبندول الايقاع يسيطر على كل عبارة من عباراته، ولكن مجموع العبارات لم يكن مدى من الثوانى والدقائق · كان هناك (ايقاع) ولم يكن هنـاك زمن · ماذا كان هنـاك اذن ؟

أجاب ويل رغما عنه «الخلود» · لان هذه الكلمة كانت من تلك الالفاظ الميتافيزيقية السخيفة لايحلم رجـل مهذب الفكر أن ينطق بهـا حتى لنفسـه ، بله أن يتفوه بهـا أمام

الجمهور · وقال بصوت مرتفع : الخلود ياأخوانى · الخلود ، هراء فى هراء · ولم يكن لسخريته ــ كما توقع ــ أى تأثير · ففى هذه الليلة كان لهذه الكلمة من الدلالة المحسوسة ما لغيرها من الكلمات الاخرى التى يحرم ورودها على اللسان · وبدأ يضحك ·

سألته : ما يضحكك ؟

أجاب : الخلود · وسواء صدقتنى أم لم تصدقنى ، انه حقيقة ككل مايفرزه جسم الانسان ·

ووافقته وقالت : حسنا ما قلت !

ولبث هناك ممعنا فى الاصغاء لايتحرك ، يتابع باذنه وبصيرته تيارات الصوت المتشابكة ، وتيارات الضوء التى تقابلها وتنسجم معها ، والتى تتدفق فى تسلسل متعاقب غير محدودة بزمن · وكل جملة من هذه الموسيقى المألوفة المبتذلة كانت كشفا غير مسبوق لصورة من صور الجمال تندفع الى أعلى كأنها نافورة غزيرة المياه · وتتتابع الرؤى ، وكل منها جديد مذهل فى حد ذاته · تيار يتداخل فى تيار ــ تيار عزف الكمان المنفرد ، وتيارات الاسطوانتين ، والتيارات المتنوعة من البيان القيثارى والاوركسترا الصغيرة المؤلفة من أوتار متنوعة · كل منها منفصل ، متميز ، منفرد ــ ومع ذلك فكل تيار كان منسجما مع غيره ، كل منها كان على طبيعته بفضل علاقته بالكل الذى هو جزء منه ·

وسمع صوته الباطنى يقول : يا الهى ·

ووسط هذه التغيرات المتتابعة بغير حدود زمنية كانت الاسطوانات تنفث نغمة طويلة واحدة · نغمة لاتشوبها نغمات

جانبية أعلى ، واضحة ، صافية ، فارغة كأنها من السماء • نغمة (وقد خرجت هذه اللفظة فوارة كأنها فقاعة) من التأمل الصافى • وهنا وردت على خاطره كلمة فاحشة أخرى غير موحية وقد اكتسبت الآن معنى ماديا ويمكنه أن ينطق بها دون احساس بالخجل • تأمل صاف ، لايعبأ بشىء، يجاوز امكان الحدوث ، ويخرج عن اطار الاحكام الخلقية • ومن خلال الاضواء المندفعة الى أعلى لمح فى ذاكرته صورة لوجه رادا المشرق وهى تتحدث عن الحب باعتباره تأملا ، وصورة أخرى لرادا وهى تجلس ساقا على ساق فى سكون عميق مركز فى مؤخرة السرير الذى كانت لاكشما تلفظ فوقه أنفاسها الأخيرة • هذه النغمة الطويلة الصافية كانت معنى كلماتها والتعبير المسموع لصمتها • ومع هذا الفراغ السماوى لصوت المزمار الذى يدعو الى التأمل كان يتدفق دائما من خلاله وبحذائه صوت الكمان الثرى ، ذبذبة فى ذبذبة عاطفية قوية • وتحيط بهما معا ـ نغمات الانفصال الذى يدعو الى التأمل ، ونغمات الاشتباك العاطفى ـ شبكة من النغم الحاد الجاف تنبعث من أوتار البيان القيثارى • الروح والغريزة ؛ العمل والرؤيا ـ تحيط بها كلها شبكة العقل • يدركها بالفكر المنطقى ، ولكن من الواضح أنه يدركها من الظاهر فقط فى حدود الخبرة التى تختلف اختلافا أساسيا عن الاطار الذى يزعم الفكر المنطقى أنه يوضحه •

قال : انه شبيه بالوضعى المنطقى •

ـ أى شىء ؟

ـ ذلك البيان القيثارى •

كالوضعى المنطقى ذلك ماكان يجرى فى اضحال عقله · اما فى الاعمـاق فان ذلك الحـدث الأكبر ـ حـدث الضـوء والصوت ـ كان يتكشف فى بيان سرمدى · كالوضعى المنطقى يتحدث عن أفلوطين وجولى دى ليسبيناس (١) ·

وتغيرت الموسيقى مرة أخرى ، وأصبح الكمان هو الذى يواصل (بنغمه العاطفى) نغمة التأمل الطويلة ، فى حين أن الاسطوانتين كأنتا تعـزفان موضـوع المشـاركة بالعمل ، وتكررانه بما يدعو الى الانفصال ، وهنا بين الحين والحين كان يتردد الوضعى المنطقى ، فى سخف وان يكن ليس عنـه غنى ، يحاول أن يشرح فى لغة لاتتناسب مع الحقـائق كل ماكان يدور ·

وفى الخلود الذى كان واقعا كافرازات الجسـم البشرى استمر فى اصغائه لهذه التيارات الصوتية المتداخلة ، واستمر يشاهد التيارات الضوئية المتشابكة ، واستمر فى كونه فعلا (هناك ، وهنـا وفى اللامكان) كل مارأى وكل ماسـمع · والآن ـ على حين غرة ـ تعرضـت صفة الضـوء لشىء من التغير · فلقد انتفت صـفة الاسـتمرار عن تلك التيارات المتشابكة التى كانت أول عامل من عوامل التميز المرن لفهم مايقع عى الجانب الأبعد لكل معرفة تفصيلية · وحلت محلها ـ فجأة ـ هذه الاشكال التى ينفصل أحدها عن الآخر فى تتابع لاينتهى ـ وهى أشكال لاتزال محملة بصورة واضحة بالنغمة المشرقة للوجود الذى لايميز شـيئاً عن شىء ، ولكنهـا الآن

---

(١) جولى دى ليسبيناس كاتبة فرنسـية عاشت فى القرن الثامن عشر ، واشتهرت بصالونها الأدبى الذى كان مركزا للموسوعيين ـ المترجم

محددة ، منعزلة ، متفردة • ظهـرت له سلسلة من الكواكب المضيئة ، فضية ووردية ، صفراء وخضراء شـاحبة وزرقاء جنطيانية ، وقد برزت من مصدر خبيء للاشكال ، ومع توقيت الموسيقى تجمعت عن عمد فى صفوف جميلة مركبة تركيبا لايصدقه العقل • نافورة لاتنفد تنتشر فى تشكيلات يحسها ، وفى تشابك من االنجوم الحية • وأخذ يرمقها ويحيا حياتها كما يحيا حياة الموسيقى التى كانت تسايرها ، وهى تتكاثر فى تشابكات أخرى ملأت الابعـاد الثـلاثة لفضاء داخلى ، وتتحول باسـتمرار الى بعد أبدى آخـر من أبعـاد النـوع والدلالة •

سألته سوزيلا : ماذا تسمع ؟

وأجاب : أسمع ما أرى ، وأرى ما أسمع •

ـ صف لى ماتشاهد •

وبعد صمت طويل أجاب ويل : مرآها ومسمعها هوالخلق •

ولكنه ليس الخلق الذى يتم دفعة واحدة • انما هو ا لمق الذى يتواصل ولا يتوقف •

ـ خلق متواصل من لاشيء ولا مكان الى شيء ما ومكان ما ـ هل هو كذلك ؟

ـ هو كذلك

ـ أنت تحرز تقدما •

لو واتاه اللفظ ، ولو كان اللفظ عنـد النطق به أقل تفاهة ، لشرح لها ويل كيف أن الفهم الذى لا يستند الى معرفة والسعادة المضيئة يفضلان حتى موسيقى جوهان سباستيان باخ •

وقالت سوزيلا مرةاخرى : أنت تحرز تقدما ثم أضافت : ولكن لا يزال أمامك طريق طويل • هل تحب أن تفتح عينيك الآن ؟

هز ويل رأسه مؤكدا رفضه •

ـ آن الأوان لكى تعطى نفسك فرصة لاكتشاف حقائق الاشياء •

تمتم قائلا : حقائق الاشياء هى هذا الذى أرى •

وأكدت له أنها ليست هى وقالت : ان كل مارأيت وسمعت وكنت ليس الا الحقيقة الأولى • والآن لابد لك أن ترى الحقيقة الثانية • تنظر ، ثم تضم الحقيقة الأولى الى الحقيقة الثانيةوتجعل منهما حقيقة واحدة •لذلك افتح عينيك ياويل وافتحهما واسعتين •

أخيرا قال وعلى مضض «ليكن ذلك» وفتح عينيه وهو يستشعر الخوف من حظ سيء ينتظره • وقد اختفى الضوء الداخلى فى نوع آخر من الضوء • وحل محل نافورة الاشكال والاجرام السماوية الملونة وهى مصطفة صفوفا يراها رأى العين والاشكال المشبكة التى تتغير قصدا تكوين ثابت يتألف من أعمدة وخطوط قطرية ومسطحات واسطوانات منحنية ، وكلها منحوت من مادة تشبه العقيق الحى ، وكلها يخرج من مصدر واحد للؤلؤ الحى النابض • ونظر ويل الى هذا فى ذهول وشيء من عدم الادراك كرجل أعمى أبل من عماه حديثا ليجابهه للمرة الأولى لغز الضوء واللون • وبعد انتهاء عشرين فاصلة موسيقية من كونسرتو براندنبرج الرابع طفت فى شعوره فقاعة من فقاقيع التفسير •

وفجأة عرف ويل أنه ينظر الى مائدة صغيرة مربعة ، خلفها مقعد هزاز ، وخلف المقعد حائط غفل أبيض • وكان تفسير ذلك مطمئنا له ، ذلك أن اللغز الذى واجهه فى الابدية التى مارسها — فيما بين فتح عينيه وظهور المعارف التى شاهدها — قد اشتد عمقه من جمال لا تفسير له الى ذروة من الغربة المضيئة التى امتلأت بها نفسه وهو ينظر بشىء من الفزع الميتافيزيقى • وهذا اللغز المخيف لم يكن سوى قطعتين من أثاث وحائط فسيح • وخفت مخاوفه ، ولكن دهشته تضاعفت • كيف يمكن لاشياء مألوفة عادية أن تكون على هذه الصورة ؟ لم يكن ذلك قطعا بالامكان ، ولكن ها هو ذا قد حدث •

وانتقل اهتمامه من التكوينات الهندسية بالعقيق البنى الى خلفيتها اللؤلؤية • وكان يعرف أن اسمها «جدار» ولكنها فى واقع الخبرة عملية حية ، وسلسلة متصلة من التحول من الجص والطلاء الى مادة خارقة للطبيعة — الى لحم المسيح الذى مافتىء يتغير وهو ينظر اليه من مجد الى مجد • حاولت الكلمات الفقاعية أن تفسر ما رآه على أنه طلاء أبيض للجدار ، ولكن روحا لها قدرة التشكيل كانت تثير فى مخيلته سلسلة لا نهاية لها من الألوان الاخرى التى يتميز كل منها تماما عن غيره ، باهتة أحيانا غزيرة أحيانا أخرى ، برزت له من مكان مستتر وألقت نورها المتوهج على ذلك الجلد السماوى المتألق •

ياللعجب ! ولابد أن تكون هناك معجزات أخرى ، عوالم أخرى يغزوها وتغزوه • وأدار رأسه يسارا (وقد ظهرت الكلمات الفقاعية الملائمة فى الحال) فوقعت عينه على المنضدة

ذات السطح المرمرى التى تناولا عليها طعام العشــاء • ثم توالت الفقاعات كثيفة يتلو بعضها بعضا • ان هــذه الرؤية التى تسمى (المنضدة) يمكن أن يراها الانسان على أنها صورة رسمها فنان تكعيبى عجيب ، انسان مهلم مثل جوان جرى (١) بروح تراهين (٢) وموهبة لرسم المعجزات بالاحجار الكريمة وبألوان أوراق الزنبق التى تتغير أطيافها •

وأدار رأسه قليلا نحو اليسار وأذهله بريق المجــوهرات التى رآها • أى مجوهرات هــذه ! ألواح ضــيقة من الزمرد والتوباز ، ومن الياقوت الأحمر والياقوت الأزرق واللازورد، كلها يتوهج ، صفا فوق صف ، أشبه ماتكون بقوالب الطوب الاحمر الكثيرة فى أحد جدران أورشليم الجــديدة • وأخيرا ــ وليس فى البدء ــ كانت الكلمة • فى البدء كانت الجواهر، والنوافذ المصنوعة من الزجاج الملون ، وجدران الفردوس • والآن فقط ، وفى النهــاية البعيدة ظهرت الكلمة (خــزانة الكتب) للنظر •

رفع ويل بصره من الجواهر الناطقة واذا به فى قلب منظر طبيعى من المنطقة الاستوائية • لماذا ؟ وأين ؟ ثم تذكر أنه (وهو فى عالم آخر) عندما دخل الغــرفة أولا كان قد لاحظ فوق خزانة الكتب صورة كبيرة رديئة بالالوان المائية • بين الكثبان الرملية وآجــام النخيل يجرى مصب نهر يأخــذ فى الاتساع كلما اتجه نحــو البحر ، وتبــدو فوق الأفق آكام السحب ترتفع فى السماء الشــاحبة • ومن أضــحال نفسه

---

(١) مصور تكعيبى أسبانى (١٨٨٧ ــ ١٩٢٧) ــ المترجم

(٢) قسيس انجليزى أديب كتب نثرا ونظم شــعرا ميتافيزيقيــا (١٦٣٧ ــ ١٦٧٤) ــ المترجم

خرجت كلمة «ضعيفة» كالفقاعة تطفو فوق سطح الماء • ومن الواضح أن الصورة من رسم هاو للفن موهبته محدودة •

ولكن هذا الخاطر ليست له الآن أية أهمية ، لان المنظر الطبيعى لم يعد صورة ، وانما هو موضوع الصورة ـ هو نهر حقيقى ، وبحر حقيقى ، ورمال حقيقية تتوهج فى ضوء الشمس ، وأشجار حقيقية باسقة فى سماء حقيقية ، حقيقية الى ما لا نهاية ، حقيقية الى حد المطلق •

وهذا النهر الحقيقى الذى يختلط بالبحر الحقيقى هو كيانه شخصيا وقد احتوته القدرة الالهية • وظهرت فوق السطح فقاعة لفظية تتساءل فى سخرية : هل هى القدرة الالهية بين علامات التنصيص ، أم القدرة الالهية التى تدعو الى التعجب بالمعنى البكويكى الحديث ؟ هز ويل رأسه • والجواب عنده كان هى القدرة الالهية فحسب ـ ليست القدرة التى يمكن أن يعتقد فيها المرء ، ولكنها القدرة الواقعية التى تواجهه وتفصح عن نفسها • ومع ذلك فهذا النهر لايزال نهرا ، وهذا البحر هو المحيط الهندى • وليسا شيئا آخر فى ملابس تنكرية • انما هما هما بعينيهما بغير لبس • ولكنهما كذلك القدرة الالهية بغير لبس •

سألته سوزيلا : أين أنت الآن ؟

لم يدر رأسه نحوها وقال : فى السماء على ما أظن • وأشار الى صورة المنظر الطبيعى •

ـ مازلت فى السماء ! متى تهبط على الأرض ؟

ومن الأضحال الغرينية خرجت فقاعة من فقاقيع الذكريات •

ـ فى مكان أعمق يحتويه الضياء ، كما قال وردزورث ٠

ـ ولكن وردزورث تحدث كذلك عن موسيقى الانسانية الساكنة الحزينة ٠

قال ويل : ليس فى صورة المنظر الطبيعى التى أشاهدها ـ لحسن الحظ ـ بشر ٠

وضحكت ضحكة خفيفة وقالت : ولا أى حيوان ٠ سحب فقط وخضروات تخدع بمنظرها البرىء ٠ ويحسن بك لذلك أن تنظر الى مافوق الأرض ٠

وأرخى ويل بصره ٠ وتمثلت له الفواصل فى ألواح خشب الأرضية فى صورة نهر بنى اللون ، وهذا النهر عبارة عن رسم تخطيطى فى دوامة لاتفتر عن الدوران للحياة الدنيوية المقدسة ٠ ووسط هذا الرسم تقع قدمه اليمنى ، عارية تحت أربطة الصندل الذى ينتعله ، ولشد ماكانت دهشته حينما أدرك أن لهذه القدم أبعادا ثلاثة وكأنها قدم من المرمر لتمثال بطل من الابطال تسطع عليه الأضواء ٠ ومن الألفاظ العفوية التى تفسر له مايشاهد ، «الالواح» ، «الفواصل» ، «القدم» ارتد اليه اللغز الذى لا سبيل الى حله ولكنه مفهوم ، على مافى ذلك من تناقض ٠ مفهوم ذلك الفهم الذى لايستند الى المعرفة وهو الفهم الذى كان مايزال مهيأ له على الرغم من الأشياء المحسة والألفاظ التى برزت من الذاكرة ٠

وفجأة ، وبطرف عينه ، لمح حركة اندفاع سريع ٠ وتحقق له أن الانفتاح للسعادة والفهم هو كذلك انفتاح للفزع ، ولعدم الادراك بتاتا ٠ وبدأ قلبه يدق بشدة أرجفته ، وكأن هذا القلب مخلوق غريب يسكن صدره ويضطرب من ألم

مبرح • واعتقد على كره منه أنه يوشك أن يلاقى الفزع الأكبر فأدار رأسه وأخذ ينظر حواليه •

قالت مطمئنة له : هذه احدى سحليات توم كريشنا التى يلهو بها •

كان الضوء ساطعا كأى وقت سبق ، ولكن السطوع هذه المرة كان يرمز الى شيء آخر • وميض الشر المطلق يشع من كل قشرة رمادية خضراء على ظهر المخلوق الذى تراءى له ، كما يشع من عينين كالسبج ، ومن حلقه القرمزى النابض، ومن أطراف خياشيمه المسلحة وفمه المشقوق • وصرف عنه النظر • ولكن عبثا • لان الفزع الاكبر كان يتطلع اليه من كل شيء يقع عليه البصر • ان تلك التكوينات التى رسمها فنان تكعيبى للغز انقلبت الآن الى آلات معقدة تنفث الضغينة • وذلك المنظر الطبيعى الاستوائى الذى مارس فيه اتحاده مع الله ـ بات الآن ـ وفى نفس الوقت ـ أشبه بتلك الصور المقلدة التى تعافها العين والتى شاعت فى العهد الفيكتورى ، أو كأنها السعير فى حقيقته • وصفوف المجوهرات الناطقة خيم عليها وهى على رفوفها حلك الظلام كأشد مايكون الظلام • هذه الجواهر التى خرجت من أعماق الاعماق تبدو الآن رخيصة • مبتذلة بدرجة لاتوصف ! وبعد أن كانت ذهبا ولؤلؤا وأحجارا ثمينة لم تعد الآن الا كزينة شجرة عيد الميلاد، والبريق الزائف يشع من الصفيح الملون والبلاستيك • لايزال كل شيء ينبض بالحياة ، ولكنها الحياة التى تلمسها فى أخس صالات البيع والشراء التى تقع فوق سطح الأرض • وهذه ـ كما أكدت الموسيقى الآن ـ هو ماتخلقه دائما القدرة الكبرى ـ شيء شبيه بمحلات ولورث على النطاق العالمى ،

محلات مليئة بالاهوال التى تنتج على أوسع نطاق · أهوال الابتذال ، وأهوال الألم ، والقسوة ، وانعدام الذوق والبلاهة والحقد المقصود ·

واستمع الى سوزيلا وهى تقول : انها ليست وزغة (١) ، ليست واحدة من السحالى المنزلية اللطيفة الصغيرة · انها من ذلك النوع الغريب الضخم تسربت من الخارج ، انها من مصاصات الدماء · ولكنها ــ بطبيعة الحال ــ لاتمص الدماء، حلوقها حمراء ــ هذا كل ما فى الأمر ، يتحول وجهها الى اللون الأرجوانى اذا أنت أثرتها · ومن ثم اكتسبت ذلك الاسم السىء · انظر اليها ! انها تتحرك هناك !

وطأطأ ويل رأسه مرة أخرى · انها حقيقة خارقة للطبيعة ــ تلك السحلية المريعة ذات القشور ، والعينين السوداويين الخاويين ، وفم كفم القاتل ، وحلق فى حمرة الدماء ينتفخ مع بقاء الجسم ممتدا على الارض ساكنا سكون الموت ــ هذه السحلية هى الآن على بعد ست بوصات من قدمه ·

قالت سوزيلا : لقد رأت بعينيها غداءها · انظر الى يسارك عند حافة الحصير ·

أدار ويل رأسه ·

وواصلت حديثها وقالت :جونجيلس جونجيلويديس (٢)· هل تذكر ؟

---

(١) سام ابرص ــ المترجم
(٢) نوع من أنواع الحشرات ــ المترجم

نعم كان يذكر • ذكر (فرس النبى) تلك الحشرة الضارعة التى استقرت على سريره • لكن ذلك كان فى عالم آخر • ان ماراه فى ذلك العالم لم يكن سوى حشرة غريبة المنظر • أما مايراه الآن فهو عبارة عن كائنين وحشيين طـول كل منهما بوصة ، رهيبين للغاية ، يتلاقحان • لونهما شاحب فى زرقة مخطط ومعروق بلون قرنفلى ، ترفرف بأجنحتها باستمرار ، كأنها أوراق الزهر يهزها النسيم ، ملونة عند أطرافها باللون البنفسجى الداكن • كأنها زهور مقلدة • ولكن المرء لايخطىء فيهما الشكل الحشرى • والآن تغيرت حتى ألوانها الزهرية • واستحالت تلك الأجنحة الى زوائد لأداتين لامعتين مطليتين بالمينا مما يعرض فى صالة البيع للاشياء الرخيصة ، وكأنهما نموذجين صغيرين مما يراه الانسان فى الكابوس ، أو آلتين مصغرتين لعملية اللقاح • والآن أدارت احدى آلتى الكابوس ــ وهى الانثى ــ رأسها الصغير المفلطح ، وكأنها استحالت كلها فما فاغرا ، عيناها بارزتان فى نهاية عنقها الطويل ــ أدارت رأسها (وياللعجب) بدأت تلتهم رأس الآلة الذكر • مضغت أولا عينا ارجوانية ، ثم أردفتها بالوجه المزرق • وسقط على الأرض مابقى من الرأس • وترنح العنق المقطوع بوحشية ولم يعقه ثقل العينين والفكين • أما الآلة الانثى فقد أطبقت بفكيها على القطعة المقطوعة التى كانت ترشح ، وأمسكت بها ، فى الوقت الذى ثابر فيه الذكر مقطوع الرأس على أن يحاكى فى سخرية بغير انقطاع آريز (١) بين ذراعى أفروديت ، وهو يلتهم التهاما •

(١) آريز فى الأساطير اليونانية آله من آلهة الحرب أحب أفروديت حبا عنيفا وتزوج منها ــ المترجم

وبطرف عينه لمح ويل حركة وثب أخرى ، فأدار رأسه بحدة وأمكنه أن يرى السحلية وهى تزحف نحو قدمه • وأخذت تقترب شيئا فشيئا فوجه بصره وجهة أخرى فزعا • وأحس شيئا يمس أصابع قدمه ،واستمر يدغدغ مشط القدم • ثم توقفت الدغدغة ، ولكنه أحس شيئا من الثقل فوق قدمه ، قشورا جافة تلمسها • وأراد أن يصيح ، ولكنه كان فاقد الصوت ، وحاول أن يتحرك فأبت عضلاته أن تستجيب •

وأخذت الموسيقى تعزف المقطع الأخير السريع بغير توقيت ، الفزع يتقدم بنشاط ملحوظ ، الفزع فى زى مزركش مزخرف يقود الرقص •

الفزع متمثلا فى القشور ، ساكن تماما ، فيما خلا النبض فى حلقه الأحمر ، هذا الفزع رقد على مشط قدمه يحدق بعينين لاتعبران فى فريسته التى حكم عليها القدر • وقد تشابك النموذجان الصغيران للكابوس وأخذا يرتعشان كما ترتعش أوراق الزهر فى الريح ، ويهتزان فى تشنج من أثر الآلام التى يثيرها التلاقح والموت فى وقت واحد معا • وانقضت فترة كأنها قرن من الزمان طويل ، واستمرت الرقصة المرحة الخفيفة ، رقصة الموت ، على فاصل موسيقى بعد فاصل آخر •

وفجأة أحس خمشا من أنياب صغيرة تتحرك فوق جلده • لقد زحفت مصاصة الدماء من فوق مشط قدمه الى الأرض • ولبثت مكانها ساكنة سكونا مطلقا لفترة كأنها عمر طويل • وبسرعة غير معقولة انطلقت فوق الالواح الخشبية وفوق الحصير • وفتحت فاها الذى يشبه الشق ثم أغلقته • ومن بين الفكين القاضمين برز طرف جناح بتفسجى اللون مازال

يرفرف كورقة السحلبية يهزها النسيم · واهتزت ساقان هزا عنيفة برهة من الزمن ، ثم اختفتا عن الانظار ·

ارتعد ويل وأغمض عينيه · ولكن فيما بين ما أحس من أشياء وما تذكر وما تخيل ــ وهو يعبر الطــريق ــ طــارده الفزع · وفى وهج الضوء الباطنى امتد عمود لا نهــاية له من الحشرات التى لمعت كمــا يلمع الصــفيح ومن الزواحف البراقة ، متجهة من اليسار الى اليمين ، وخارجة من مصــدر خفى للكابوس نحــو ذروة وحشــية مجهــولة · جونجيلس جونجيلويديس بالملايين ، تتوسطها مصاصات للدماء لاتعــد ولا تحصى · آكل ومأكول ــ الى الأبد ·

وفى أثنــاء ذلك ــ كان المقطــع الموســيقى الأخــير من كونسرتو براندنبرج الرابع يعــزف ويعــزف باســتمرار بالقيثارة والمزمار والكمان · يالها من موسيقى خفيفة مرحة تعزف نشيد الموت · يمين ، شمال ، يمين ، شمال · · · ولكن ماهى كلمة الأمر للحشرات سداسية الأرجل ؟ وفجأة تحولت الحشرات سداسية الأرجل الى حيــوانات تســير على قدمين · وتحول العمود اللانهائى من الحشرات بغتة الى عمود لانهائى من الجند ، يسيرون كأولئك الجند ذوى القمصان البنية التى كانت تسير فى شوارع برلين قبل اندلاع الحرب بعام واحد · ألوف الألوف من الجند ، أعلامهم ترفرف ، وأزياؤهم الرسمية تتوهج ببريق جهنمى كأنهم نفــايات يسطع عليها الضــوء الكاشف · كالحشرات يسيرون بأعــداد لا حصر لهــا ، وكل واحد منهم يتحرك بدقة الآلة ، وبالانقياد الكامل الذى تتصف به الكلاب الوفية · ووجوههم ، يالها من وجوه ! لقد شهد من

قبل ختام شريط الانباء الالماني ، وهاهم يعودون مرة أخرى، بصورة واقعية خارقة للطبيعة حية ذات أبعاد ثلاثة ٠

وهذا وجه هتلر الوحشي بفمه المفتوح يصيح ٠ وهذه وجوه المستمعين من كافة الفئات المتنوعة ٠ وجوه ضخمة بلهاء تستقبل كل مايلقي عليها فوق لوحة بيضاء ٠ وجوه أناس يمشون وهم نيام بعيون مفتوحة ٠ ووجوه شباب نوردى ملائكي تسبح في رؤى طوبوية ٠ وجوه قديسين في حلل مزخرفة في بهجة ونشوة ٠ وجوه المحبين وقد بلغت بهم اللذة ذروتها ٠ شعب واحد ، مملكة واحدة ، قائد واحد ٠ اتحاد في وحدة خلية النحل ٠ فهم بغير معرفة للهراء والشعوذة ٠

ثم يعود شريط الانباء الى الصفوف المكتظة ، الى الصلبان المعقوفة ، الى الفرق النحاسية ، ومنومها المغناطيسي يصيح فوق المنصة ٠ وهنا مرة أخرى في وهج ضيائه الباطني يظهر طابور الاشخاص في الزى البني فيما يشبه الحشرات ، يسير الى غير غاية على أنغام هذه الموسيقى التافهة المزعجة ٠ الى الامام أيها الجنود النازيون ٠ الى الامام أيها الماركسيون ، الى الامام أيها المسيحيون ، الى الامام كل شعب مختار ، وكل صليبي ، وكل صانع للحرب المقدسة ٠ الى الامام نحو الشقاء، والشر ، والموت ٠

وفجأة وجد ويل نفسه متطلعا الى ماسوف يتحول اليه هذا الطابور السائر عندما يبلغ نهاية المسير ــ ألوف الجثث في أوحال كوريا ، كتل لا حصر لها من القاذورات تتسخ بها الصحراء الافريقية ٠ وهنا (وقد أخذ المنظر يتغير بسرعة ومفاجأة مذهلة) هنا ترقد الجثث الخمس الملوثة التي رآها منذ بضعة أشهر فقط ، وجوهها الى أعلى وحلوقها جريحة في فناء

عزبة جزائرية • وهنا ــ من ماض يسبق هذا التاريخ بنحو عشرين عاما ــ ترقد تلك المرأة العجوز ، ميتة عارية تماما وسط صخور بيت مشيد من الجص فى غابة سنت جون • وهنا ــ بغير انتقال ــ غرفة نومه الرمادية الصفراء ، تنعكس فى مرآة خزانة الملابس صورة جسمين شاحبين ، جسمه وجسم بابز ، يتزاوجان فى جنون بمصاحبة ذكرياته عن جنازة مولى ، ونغمات موسيقى الجمعة الحزينة من بارسيفال ــ يبثها راديو شتوتجارت •

وتغير المنظر مرة أخرى ، واذا بوجه العمة مارى يبتسم له فى مرح شديد ، فى مكان يتزين بنجوم من الصفيح ومصابيح خيالية ثم تحول الوجه أمام عينيه الى وجه تلك الغريبة المنتحبة الخبيثة ، التى حلت محلها خلال تلك الأسابيع الأخيرة الشنيعة التى سبقت التحول النهائى الى النفايات المتخلفة • اشعاع من الحب وعمل الخير ثم أسدل الستار ، وأغلقت النافذة ، ودار المفتاح فى القفل ــ واذا بهما كل فى مكانه ــ هى فى المقبرة ، وهو فى سجنه الخاص محكوم عليه بالحبس الانفرادى ، وذات صباح جميل لايعرف أجله يدركه الموت • العذاب فى صالة البيع الرخيصة فى الدور الأسفل من المبنى • والصلب وسط زينات شجرة عيد الميلاد • فى الخارج أو الداخل ، والعيون مفتوحة أو والعيون مغمضة ــ لا مجال للهروب •

وهمس لنفسه «لا مجال للهروب» وأكد باللفظ الحقيقة ، وحولت كلماته الحقيقة وجعلتها أمرا مؤكدا بغيضا ، ينفتح

تارة الى أعلى ، وتارة الى أسفل ، والى عمق فى اثر عمق من الابتذال الخبيث ، جحيم اثر جحيم من آلام ليس من ورائهـا البتة غاية ٠

وبقوة كقوة الالهام أدرك أن هـذه الآلام لم تكن فقط عديمة الجدوى ، بل كانت كذلك تتراكم ، وتصبح من تلقاء نفسها أبدية ٠ ومن المؤكد ، ومما يفزع كذلك ، أن الموت كما جاء لمولى وكما جاء لعمته مارى ولغيرهما ، لابد أن يأتيه، ولكنه لن يبلغ هذا الحد من الخوف ، ومن الاشمئزاز ، ومن عذابات تأنيب الضمير ، وكراهية النفس ٠ الألم سوف يستمر الى الأبد ، على الرغم من خلوه دائما من المعنى ٠ الانسان فى كل ناحية من نواحيه محدود بشكل بشع وبصورة تدعو الى الازدراء ٠ ولكنه ليس كذلك من ناحية الآلام ٠

هذه الجلطة الدموية المكثفة المظلمة الصغيرة فى حجمها والتى يسميها المرء «أنا» ٠٠ قادرة على تحمـل الآلام قدرة ليست لها حدود ، وسوف تستمر الآلام الى أبد الآبدين على الرغم من الموت ٠ آلام الحياة ، وآلام الموت ، ورتابة الكروب المتتابعة فى صالة البيع السفلى ، والصلب الأخـير فى عالم زائف يتوهج وهج الصفيح والبلاستيك ـ هذه الآلام سوف تبقى دائما يتردد صداها وتتضخم على الدوام ٠ وهذه الآلام لاتنتقل من شخص الى آخر ٠ والعزلة كاملة ٠ ان وعى المرء بوجوده وعى بعزلته دائما ٠ عزلة لاتختلف عن عزلته وهو فى سرير بابز الذى يفوح منه المسك ، أو عزلته وهو يشكو الألم فى أذنه أو ذراعه المكسورة ، أو مرضه السرطانى فى دوره النهائى ، أو وحدته فى آلامه الدائمة ، بعد ما يظن أن كل شىء قد انتهى ٠

وفجأة أدرك أن شيئا قد طرأ على الموسيقى • فلقد تغير ايقاعها • دقت نغمة الانتهاء • نهاية كل شيء لكل انسان • وعزفت موسيقى الموت القصيرة المرحة يسير على نغمتها المشاة حتى حافة الجبل ، وكانوا يترنحون عند سفحه • وواصلت الموسيقى عزف مقطعها الأخير • سقطة الموت ، السقوط فى حفرة الموت • وفى الوقت المحدد وبالضرورة جاءت النغمتان المتوقعتان ، ثم كانت الذروة ، فالنهاية التى لا لبس فيها • وأعقب ذلك خمش ثم دقة حادة ساد بعدها السكون • ومن خلال النافذة المفتوحة أمكنه أن يسمع نقيق الضفادع البعيدة ، وأصوات الحشرات الخشنة الرتيبة • ومع ذلك فقد ظل الصمت سائدا بشكل عجيب • وكالذباب فى كتلة من العنبر ، تاهت الاصوات فى عالم شفاف لا لغو فيه وعجزت عن شقه أو حتى تحويره ، وبقيت فيه نشازا كليا • وازداد الصمت عمقا ، يتحول من كثيف الى أكثف ، لا يحده زمان • الصمت فى كمين ، صمت مترقب متآمر أشد خبثا من مسيرة الموت التافهة المروعة التى سبقتها •

هذه هى الهوة التى ساقه صوت الموسيقى الى حافتها • الى الحافة ، والى مابعد الحافة ، الى هذا السكون الأبدى •

همس قائلا : الألم لا نهاية له ، ولاتستطيع أن تتكلم ، بل ولاتستطيع أن تصرخ •

وقعقع المقعد ، ورفرف الحرير ، وأحس الهواء الذى جلبته الحركة على وجهه ــ كان ذلك اقتراب انسان • ومن خلف جفنيه المغمضين أدرك بشكل ما أن سوزيلا تركع أمامه • وبعد لحظة أحس يديها وهى تمس وجهه ــ راحتاها فوق خديه ، وأصابعها تعبث بعارضتيه •

وأخذت الساعة الكبيرة فى المطبخ تئز ثم بدأت تدق ايذانا بالوقت . دقة ، دقتان ، ثلاث دقات ، أربع . وهبت فى الحديقة الخارجية نسمة هامسة خشخشت بين أوراق الشجر بغير توقف . وصاح الديك ، وبعد لحظة ، ومن بعيد، جاء الصدى ، وتلاه صدى بعد صدى فى تلاحق . ثم كان صدى الصدى ، وأصداء أخرى تتردد . ألحان التحدى تتحداها ألحان أخرى ، وأنغام الاعتراض تعترضها أنغام أخرى . وبعدئذ انضم الى الجوقة صوت آخر مختلف . واضح النبرة ، ولكنه ليس انسانيا . ومن خلال صياح الديك وضوضاء الحشرات نادى :

ـ انتباه ، انتباه ، انتباه .

وكررت سوزيلا بعده الكلمة : «انتباه !» ، وبينما كانت تنطق بالكلمة أحست أصابعها وقد بدأت تتحرك فوق جبهته . وبخفة سارت بها من حاجبيه الى شعره ، ومن عارضتيه الى النقطة التى تتوسط بين العينين . وأخذت تحرك أصابعها الى أعلى والى أسفل ، والى الخلف والى الامام ، تخفف من تقلصات العقل ، وتسوى أخاديد الحيرة والألم . قالت «تنبه الى هذا» وضاعفت من ضغط راحتيها على عظام صدغيه ، ومن ضغط أطراف أصابعها فوق أذنيه . وكررت عبارتها «تنبه الى هذا . الى اللحظة الراهنة . الى وجهك بين راحتى» . ثم خففت من شدة الضغط ، وبدأت أصابعها تتحرك مرة أخرى فوق جبهته .

ومن خلال صياح الديك الاجش الذى كان نشازا فى تلك اللحظة ، نادى الصوت منبها فى الحاف «انتباه ، انتباه ، انتبا ...» وهنا قبل أن تتم الكلمة سكت الصوت .

هل يتنبه الى راحتيها فوق وجهه ، أم هل يتنبه الى وهج الضياء الباطنى ؟ أم الى تلك النجـوم المتكاثرة من الصفيح والبلاستيك ؟ أم ــ من خلال صنوف الابتذال المتدفقة ــ الى تلك النفاية التى كانت مولى فيما مضى ؟ أم الى المرآة فى بيت العاهرة ؟ الى تلك الجثث الملقاة فى الوحل والتراب والصخور المتكسرة والتى لايحصيها العد ؟ وهنـاك أيضـا السـحالى وجونجيلس جونجيلويديس بالملايين ، وطوابير المشاة ، وتلك الوجوه السابحة فى عالم آخـر ، وجـوه الملائكة النورديين الممعنين فى الاصغاء ·

وبدأ طائر المينة ينادى ثانية من الجانب الآخر للبيت :

ــ انتباه ، انتباه ·

هز ويل رأسه وقال : انتباه الى ماذا ؟

ــ الى هذا ·

وغاصت بأظافرها فى جلد جبهته · ثم قالت :

ــ هذا · الآن وفى هذا المكان · وهو ليس شيئا رومانسيا كالمعاناة والآلام · انه مجرد الاحساس بأظافر أصـابعى · وحتى ان كان ذلك أسوأ من الآلام التى عرفتها ، فهو لايمكن أن يدوم الى الأبد أو يستمر الى ما لا نهـاية · ليس هنـاك أبدى ، ولا لانهائى · اللهم الا ــ ربما ــ طبيعة بوذا ·

وحركت يديها ، ولكن اتصـالها به هـذه المرة لم يكن بالاظافر ، انما كان بالجلد ، وانزلقت أطراف أصابعها على حاجبيه ، وبخفة شديدة نقلتها الى جفنيه المغمضين · ولأول ومضة عين استولى عليه خوف قاتل · هل كانت تستعد لفقء

عينيه ؟ وقبع مكانه متأهبا ليلقى برأسه الى الوراء ويثب على قدميه عند أول حركة من حركاتها • غير أن شيئا لم يحدث • وتبددت مخاوفه شيئا فشيئا ، وبقى وعيه بهذه اللمسة الودود التى لم يكن يتوقعها ، والتى يكمن فيها الخطر • وكان الوعى حادا جدا ولأن العينين حساستان الى أقصى حد كان هذا الوعى كذلك مشتملا على كل نفسه بحيث لم يبق له مايدرك به الضوء الباطنى أو الاهوال والامور المبتذلة التى تتكشف له عن طريق هذا الضوء •

وهمست قائلة له : انتبه •

وكان من المستحيل ألا ينتبه • ومهما يكن من أمر فقد تحسست بأطراف أصابعها برفق وفى رقة شديدةأعماق أعماق شعوره • واستطاع الآن أن يرى غزارة الحياة فى هذه الاصابع • أى دفء يشع منها ويشعره بوخز خفيف !

تعجب قائلا : انها كالتيار الكهربائى •

قالت : ولكن الاسلاك لحسن الحظ لاتحمل رسائل • أنت تمس وبهذا المس تمس • اتصال كامل ، وليس هناك ماينقل • الأمر كله تبادل حياة بحياة وصمتت برهة ثم قالت :

ــ هل تدرك ياويل أنك فى هذه الساعات الطوال التى جلسناها هنا معا ــ وهى فى حالتك قرون ، وأبد الآبدين ــ لم تنظر الى مرة واحدة ؟ هل أنت تخشى مايمكن أن تراه ؟

وفكر فى هذا السؤال وأخيرا أومأ برأسه ايجابا •

ثم قال : ربما كان الأمر كذلك • أخشى أن أرى شيئا

يتحتم على أن أشارك فيه ، أمرا ربما تحتم على أن أفعل شيئا بشأنه ٠

ـ لذلك تشبثت بباخ وبالمناظر الطبيعية وبالضياء الصافى فى الفراغ ٠

وقال شاكيا : وهو ماحرمتنى من النظر اليه ٠

ـ لأن الفراغ لايجديك نفعا الا ان أنت شهدت ضياءه فى كل شىء وفى الناس ٠ وهو أحيانا أشد عسرا ٠

تدبر قولها : أشد عسرا ٠

وطافت بذاكرته طوابير المشاة وانعكاس الاجساد فى المرآة ، وكل تلك الجثث الملقاة على وجوه أصحابها فى الوحل، وهز رأسه وقال : هذا مستحيل ٠

وأصرت قائلة : لا ٠ ليس مستحيلا ٠ الضياء والرأفة أمران متلازمان ٠ المتأمل الشره هو الذى يريد أن يمتلك الضياء ولايعبأ بالرأفة ٠ الناس الطيبون فحسب يحاولون أن يكونوا رحماء ويأبون أن يأبهوا بالضياء ٠ وكما عهدت ، المسألة هى أن تفيد من العالمين أكبر الفائدة ٠ ثم قالت : وقد آن لك أن تفتح عينيك وترى كيف يكون شكل الكائن البشرى فى الواقع ٠

وتحركت أطراف أناملها من جفنيه الى جبهته ، ثم الى عارضتيه ، والى خديه ، ثم الى طرفى فكيه ٠ وبعد لحظة أحس بهما على أصابعه ، وكانت تضم يديه الى راحتيها ٠

وفتح ويل عينيه ولأول مرة منذ أن تناول عقار الموكشا وجد نفسه يتفرس وجهها بامعان ٠

وأخيرا همس قائلا : ياالهى !

ضحكت سوزيلا وسألته : هل هو قبيح قبح مصاص الدماء ؟..

ولكن الأمر لم يكن الآن هزلا • وهز ويل رأسه قلقا ، واستمر فى تفرسه • كان محجرا عينيها ومايغشاهما من ظلال أمرا ملغزا ، وفيما خلا هلال ضئيل من الضوء يسطع على عظام خديها ، كان كذلك الجانب الأيمن من خدها بأسره معتما • أما الجانب الأيسر فقد تلألأ باشعاع ذهبى — بريقه خارق للطبيعة ، ولكنه بريق لا هو وهج الظلام المبتذل الخبيث الذى يراه ولا هو اللهب البهيج الذى تكشف له فى الفجر البعيد لأبديته خلف جفنية المغمضين ، كما تكشف له عندما فتح عينية فى الجواهر الناطقة ، وفى تكوينات الفنانين التكعيبين العجيبين ، وفى المناظر الطبيعية التى تغيرت فى شكلها • ان مايراه الآن هو تناقض الاضداد التى تلاقت لقاء لا فكاك منه ، تناقض الضوء يشع من الظلام ، والظلام فى قلب الضياء •

وأخيرا قال : انه ليس الشمس وليس مدينة تشارترز (١) وليس صالون البيع الجهنمى بحمد الله • انه كل ذلك فى وقت واحد • وأنت أنت ، وأنا أنا — وان كان كل منا يختلف عن الآخر تماما • أنا وأنت لو رسمنا رامبرانت ، بل وأضعاف ذلك آلاف المرات •

---

(١) مدينة فى شمال فرنسا • وتشتهر بكتدرائيتها التى يتمثل فيها جمال فن العمارة وتكثر فيها النوافذ ذات الزجاج الملونه — المترجم

وصمت لحظة ، ثم أومأ برأسه ليؤكد ماذكر ، ثم قال : نعم ، هو ذاك . الشمس فى تشارترز ، والنوافذ ذات الزجاج الملون فى صالون البيع . وصالون البيع هو كذلك غرفة التعذيب ، ومعسكر الاعتقال ، والمقبرة تزينها شجرة عيد الميلاد . والآن ينعكس صالون البيع ، فيضم تشارترز وشريحة من الشمس ، وينقلب الى هذا ــ أنت وأنا بريشة رامبرانت . هل لذلك أى معنى لديك ؟

وأكدت له أن له عندها كل معنى فى هذه الدنيا .

ولكن ويل كان منشغلا بالنظر اليها بدرجة لم تمكنه من الاصغاء الى ماكانت تقول . وأخيرا قال : أنت جميلة بشكل لايصدقه أحد . ولو كنت قبيحة بشكل لايصدقه أحد لما اكترثت ، فسوف تظلين صورة من رسم رامبرانت مضاعفة آثارها خمسمائة مرة وأخذ يكرر قوله : جميلة ، جميلة ، ومع ذلك لا أحب أن أتزوج منك . لا ، هذا غير صحيح ، بل أحب ، والى درجة كبيرة جدا حقا . ولكنى اذا لم أفعل ما اكترثت ، فسوف أظل محبا لك . بالطريقة التى يفترض أن يحب بها المرء سواه اذا كان مسيحيا وكرر قوله : المحبة ، المحبة ، انها أيضا من تلك الكلمات التى تلوث معناها . اذا قيل (انه يحب) أو (يمارس الحب) فالاستعمال هنا صحيح . ولكن (المحبة) الخالصة ؟ هذا فحش لا أستطيع النطق به . ولكن دعينا من هذا الآن ...» وابتسم وهز رأسه وقال : صدقت أم لم تصدقى ، أنا الآن أستطيع أن أفهم مايقصدون حينما يقولون (الله محبة) . قد يبدو ذلك هراء ، ولكنه الحق . ثم ان هناك وجهك غير العادى بصورة لاتصدق .

لكأنى أنظر الى كرة من البلور · صورة تتجدد فى كل حين · انك لاتستطيعين أن تتخيلى ···

ولكنها كانت تستطيع أن تتخيل وقالت : لاتنس أننى كنت هناك بنفسى ·

ـ وهل نظرت الى أوجه الناس ؟

أومأت برأسها ايجابا وقالت : نظرت الى وجهى فى المرآة، وطبعا نظرت الى وجه ديوجولد · ورأيت عجبا ! فى تلك المرة الأخيرة التى تعاطينا فيها معا عقار الموكشا ! بدا أول الأمر كأنه بطل من أبطال الاساطير المستحيلة ـ أساطير الهنود فى ايسلندة ، أو الفايكنج فى التبت · ثم فجأة وبغير انذار سابق صار ميتريا بوذا (١) · هو بعينه ميتريا بوذا ! يشع منه الضوء ، ولازلت أرى ···

وسكتت عن الكلام ، وفجأة ألفى ويل نفسه ناظرا الى الثكل مجسدا وكأن سبعة سيوف تطعن قلبها · رأى علامات الألم فى العينين السوداوين ، وحول أطراف فمها ذى الشفتين الغليظتين فعرف أن الجرح كاد أن يقتلها ، وانه لايزال مفتوحا تسيل منه الدماء ـ عرف ذلك وفى قلبه وخز الألم · ضغط على يديها · وبالطبع لم يكن لديه ما يقول ـ لا كلمات ، لا عزاء بفكر فلسفى · لم يكن هناك سوى لغز التلامس المشترك ، هذا الاتصال من الجلد الى الجلد والذى يتدفق بغير نهاية ·

وأخيرا قالت : ما أسهل أن يعود المرء الى الماضى · ذلك

(١) بوذا المنتظر ـ المترجم

أمر غاية في السهولة ، وكثيرا مايتكرر وتنفست تنفسا عميقا واعتدلت في جلستها •

وقد حدث في وجهها وفي جسمها كله تغير آخر أمام عينيه • فلقد رأى في ذلك الجسم النحيل قوة تكفى لمقاومة أى نوع من أنواع المعاناة ، ارادة أقوى من كل السيوف التي يمكن للقدر أن يطعنها بها • رابطة الجأش ، قوية العزيمة •

وعاد الى ذاكرته ذلك الصوت الهادىء الذى كان يخاطبه في حديث متدفق لايقاوم عن الاوز العراقى ، والكاتدرائية، وعن السحب والمياه الساكنة • وبينما كان يستعيد ذكرياته بدا له وجهها متوهجا بشعور النصر • انها قوة كامنة ــ رأى التعبير عنها • وأحس وجودها المريع فتراجع أمامها •

همس قائلا : من تكونين ؟

وحدقت فيه لحظة دون أن تنبس ببنت شفة ، ثم قالت في مرح وهى تبتسم : لا ترع ، فلست أنثى فرس النبى •

وبادلها ابتسامة بابتسامة ــ وكأنه يرد ابتسامة فتاة ضاحكة تشتهى القبل وتدعو اليها في صراحة •

قال : حمدا لله وعاد اليه الحب الذى كان قد تقلص من الفزع ، عاد اليه يجرفه تيار من السعادة •

ــ على أى شىء تحمده ؟

ــ على أنه أعطاك نعمة الاحساس •

ابتسمت مرة أخرى وقالت : أرى أن القط قد خرج من مخبأه •

قال : كل هذه القوة ، وكل هذه الارادة المريعة التى تدعو الى الاعجاب • كان من الممكن أن تكونى شيطانا ، ولكن لحسن الحظ ، وبارادة الله •••

وفك ارتباط يده اليمنى بيدها ، وبطرف سبابته الممتدة لمس شفتيها • واستطرد قائلا : نعمة الاحساس المباركة ــ كان فيها خلاصك • ثم قال : اقصد نصف خلاصك بتعديل للعبارة الأولى ، وقد تذكر الجنون الرهيب الذى لاينطوى على حب الذى أصابه فى الفجوة القرنفلية • وأضاف : انه ناحية واحدة من نواحى خلاصك • لان هناك بالطبع ذلك الأمر الآخر : معرفة من أنت فى الواقع • وصمت لحظة ، واستطرد قائلا : مارى والسيوف تطعن قلبها ، وسيرسى (١) ، ونينون دى لينكلوس (٢) ، والآن ــ من ؟ شخص مثل جوليانا النوريتشيه (٣) وكاترين الجنوية • هل أنت حقا كل هؤلاء ؟

أكدت له أنها كل هؤلاء مضاف اليهن امرأة بلهاء ، وأخرى شديدة القلق وأم ليست على قدر كبير من كفاية الامومة • وهى فوق ذلك شديدة التمسك بالمبادىء حالمة فى يقظتها منذ الطفولة • وكذلك تكمن فى المرأة العجوز التى

---

(١) ساحرة فى الأساطير اليونانية ، استطاعت أن تحول رفقاء أوديسيوس الى خنازير ، ولكنه ارغمها على ابطال السحر ــ المترجم

(٢) امرأة فرنسية جميلة عاشت فى القرن السابع عشر عشقها الكثيرون من مشاهير الرجال ــ المترجم

(٣) كاتبة انجليزية عاشت فى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر وعرفت بكتاباتها الدينية التى عبرت فيها عن حب الله للبشر ، ومن ثم عن بشاعة الخطيئة والآثام ــ المترجم

تعانى سكرات الموت ، والتى نظرت الى من المرآة فى المرة الاخيرة التى تناولنا فيها عقار الموكشا معا • وبعد ذلك نظر ديوجولد ورأى منظره بعد أربعين عاما • وأضافت :

ـ وفى أقل من شهر بعد ذلك كان من الاموات •

ما أسهل الرجوع الى الماضى ، وما أكثر الرجوع اليه •• وفى ظلام شبه اللغز ، وفى توهج الضوء الذهبى العجيب تحول وجهها مرة أخرى الى قناع من الآلام • واستطاع أن يرى عينيها مغمضتين داخل محجريهما المظلمين • فلقد عادت الى زمن آخر وكانت وحيدة فى مكان آخر ، توخزها السيوف ويسيل الدم من جرحها • وكانت الديوك فى الخارج تصيح ، وبدأت مينة أخرى تنادى بنغمة أعلى من سابقتها قليلا مطالبة بالرأفة •

ـ كارونا (١) •

ـ انتباه ، انتباه •

ـ كارونا •

ورفع ويل يده مرة أخرى ولمس شفتيها •

ـ هل تسمعين مايقولون ؟

ومضى وقت طويل قبل أن تجيب • ثم رفعت يدها وأمسكت باصبعه الممتدة وضغطتها بشدة على شفتها السفلى • وقالت :

---

(١) معناها الرأفة ـ المترجم

ـ شكرا لك ٠

وفتحت عينيها مرة أخرى ٠

ـ لماذا تشكرينني ؟ أنت التى علمتنى ما أفعل ٠

ـ والآن أنت الذى ينبغى لك أن تعلم معلمتك ٠

وكمعلمين هنديين روحانيين متنافسين كل منهما يروج لمذهبه الروحانى صاحت المينتان احـداهما تقول : كارونا والاخرى تقول : انتباه ، وكل منهما يحاول أن يغرق حكمة الآخر فى المضاربة ٠ وكان هناك فى الحديقة المجاورة ديك صـغير صـاح بصوت قوى معلنا عن تألهه زاعما أنه وحده يملك جميع الاناث ولايعجز عن ارضائها أبدا ، متحديا كل مدع للذكورة كاذب ، بايمان من لايقهر ٠

ومن خلال قناع الآلام ابتسمت سوزيلا ٠ وقد عادت من عالمها الخاص ـ عالم السـيوف والذكريات ـ الى الحـاضر ٠ وقالت : هذا الصياح الذى يصـدر عن الديك الصـغير كم أعشقه ! ما أشبهه بتوم كريشنا حينما يطوف سائلا كل من لاقاه أن يتحسس عضلاته ٠ وهذه المينات التى لايتصـورها العقل ، انها تردد باخلاص النصائح الطيبة التى لا تفقه لها معنى ٠ انى أعبدها كما أعبد البنطم (دجاج صغير الحجم) الذى أقتنيه ٠

وسألها : وما رأيك فى ذلك النـوع الآخـر من ذوات القدمين ٠ ذلك النوع الذى لايفتن الى هذا الحد ؟

وكانت اجابتها أن انحنت الى الأمام ، وأمسكت به من ناصيته وجذبت رأسه الى أسفل وقبلته فى أرنبـة أنفـه ، وقالت : والآن حان الحين لكى تحرك ساقيك ٠

ونهضت على قدميها ومــدت يدها اليه ٠ وأمسك بهــا وجذبته من مقعده ٠

وقالت : بعض ذوات القدمين يصــيح صــياحا سلبيا ، ويلوك كالببغاء كلاما خلوا من الحكمة ٠

وسألها : ما الذى يضمن لى أنى لا أعود الى الغثيان ؟

وأكدت له فى ابتهاج : ربما عدت اليه ، ولكنك ربمــا عدت أيضا الى هذا ٠

وتوثبا على الاقدام ٠

ضحك ويل : هذا عندى تجسيد خفيف للشر ٠ وأمسكته من ذراعه وسارا معــا حتى النــافذة المفتوحة ٠ واذا برياح خفيفــة تهب متقطعة وتهــز سعف النخيــل ايذانا باقتراب الفجر ٠ وفى أسفل ظهرت شجيرة خبيزة تمتد جــذورها فى الأرض الندية التى تفوح منها رائحة لاذعة ــ وفرة بالغة من أوراق الشــجر البراقة اللامعــة والنباتات المتسلقة قرمزية اللون وقد أظهرها فى ظــلام الليــل الذى تزيد من حلكته الاشجار الباسقة سهم من نور المصباح يخرج من الغرفة ٠

قال غيرمصدق لما يرى : هذا مستحيل ٠وقد طاف بخاطره نور السماء متمثلا فى الرابع عشر من شهر يوليه ٠

ووافقته بأن ذلك مستحيل وقالت : ولكنه ــ كأى شىء آخر فى الكون ــ أمر واقع ٠ والآن وقد أدركت وجــودى ، اسمح لك أن تفعل مايثلج صدرك ٠

ووقف مكانه بلا حراك ٠ يحملق ويحملق وتدور بذهنه أفكار عميقة تتزايد ودلالات عويصة تتكاثر فى تتابع لا نهاية

له • واغرورقت عيناه بالدموع وسالت أخيرا على خديه ، فأخرج منديله ومسحها •

واعتذر قائلا : لا أستطيع أن أكفكف الدمع •

لم يستطع ذلك لانه لم تكن لديه وسيلة أخرى يعبر بها عن الشكران • شكران لامتيازه فى أن يبقى على قيد الحياة ويشهد هذه المعجزة ــ ولا يكفى أن نقول يشهد بل الأصح أن نقول يشارك ، أو أن يكون وجها من وجوهها • الشكران لهبة السعادة المضيئة والفهم الذى لايستند الى معرفة • شكران لانه فى وقت واحد اتحد مع الوحدة المقدسة مع بقائه هذا المخلوق المحدود بين غيره من المخلوقات المحدودة •

قال وهو يخفى منديله : لماذا يبكى المرء حينما يكون شكورا ؟ الله أعلم • ولكن هذا يحدث • وطفت فوق سطح أوحال مطالعاته الماضية فقاعة من فقاقيع التذكر • تذكر قول القائل : الاعتراف بالجميل هو جنة النعيم بعينها ثم قال: هذا هراء ، ولكنى الآن أرى أن بليك (١) كان انما يسجل حقيقة بسيطة • انه جنة النعيم بعينها •

قالت : وهى جنة أكثر نعيما لانها جنة فوق الارض وليست جنة فى السماء •

وعلى حين غرة ، وسط صياح الديوك ونقيق الضفادع، ووسط ضوضاء الحشرات وجدل المعلمين الهنود الروحانيين ، سمع صليل أسلحة آت من بعيد •

---

(١) فنان وشاعر انجليزى (١٧٥٧ ــ ١٨٢٧) ــ المترجم

وتعجبت قائلة : عجبى ، ما هذا ؟

أجاب مبتهجا : انهم الاطفال يلعبون بالصواريخ •

هزت سوزيلا رأسها وقالت : اننا لانشجع هذا النوع من الصواريخ • بل ولا نقتنيها •

وفى الطريق العام الذى يقع خلف جدران المجمع تعالى صوت عربات ثقيلة تصعد فى بطء شديد • وقد شق ضجيج العربات صوت جهير له صرير يلقى من خلال مكبر للصوت كلاما غير مفهوم •

وفى الظلال المخملية بدت اوراق الأشجار كقشور من اليشم والزمرد ، ومن قلب بريق هذا الحشد من الجواهر لمعت قطع من الياقوت المنحوت بصورة عجيبة على شكل خمسة أنجم • شكرا ، شكرا • ومرة اخرى اغرورقت عيناه بالدموع •

وقد تجمعت مقاطع من الكلمات التى خرجت من مكبر الصوت وتكاملت فى الفاظ مفهومة • وأخذ يصغى على الرغم منه •

سمع المنادى يقول : ياأهل بالا • ثم تحول الصوت فى المكبر الى مقاطع منفصلة • وكان ، صرير ثم زئير ، ثم صرير ، ثم بقية العبارة : أنا الراجا أخاطبكم •• الزموا الهدوء ••• رحبوا بأصدقائكم الوافدين عبر المضيق •••

وأشرقت الحقيقة : هذا موروجان

ــ يصحبه جند ديبا

صاح الصوت المتردد المنفعل قائلا : التقدم ، الحياة الحديثة ··· وتنقل من سيرز الى روبك الى الرانى وكوت هومى ، ثم صاح : الحق ، القيم ··· الروحانية الصادقة ·· البترول ·

قالت سوزيلا انظر ، انظر ! انهم يتجهون نحو المجمع ·

وسطعت أشعة موكب المصابيح الأمامية لحظه على الخد الأيسر لتمثال بوذا الصخرى الى جوار بركة اللوتس ثم اختفت ، ثم أشارت مرة أخرى الى امكان التحرر المنشود واختفت للمرة الثانية · وقد ظهرت هذه الأشعة من فجوة تفصل بين أجمتين من آجام الخيزران ·

صاح الصوت الذى تضخم فى مكبر الصوت : عرش أبى ينضم الى عرش أسلاف أمى · أمتان شقيقتان تسيران الى الامام ، بأيد متشابكة ، نحو المستقبل ··· وتعرف منذ الآن باسم مملكة رندانج وبالا المتحدة ··· والكولونيل ديبا ذلك القائد السياسى الروحانى هو أول رئيس للوزراء بالمملكة المتحدة ···

اختفى موكب المصابيح الكشافة خلف سلسلة كبيرة من المبانى وتشتت الصوت الصادر من المكبر حتى سكت نهائيا · ثم ظهرت الاضواء مرة أخرى ووضح الكلام ·

كان المنادى يقول فى غضب : الرجعيون والخائنون لمبادىء الثورة الدائمة ··

وهمست سوزيلا قائلة بنغمة تنم عن الذعر : انهم يقفون أمام منزل الدكتور روبرت ·

وصدرت عن الصوت الكلمة الأخيرة ،واطفئت المصابيح

الكشـافة ، وأوقفت محـركات العـربات التى كانت تزأر بالضجيج • وفى السكون المظلم المتـوقع واصلت الضـفادع والحشرات مناجاتها لا تبالى ، ورددت الميئات نصيحتها الطيبة: انتبـاه ، كارونا • وتطلع ويل الى شـجيرته المحترقة ورأى الحقيقة المثلى للعالم ، كما رأى وجوده ، يومضـان بالضـوء الصافى ، وهو بعينه الرأفة (كما وضح الآن كل الوضوح !) ـ ذلك الضوء الصافى الذى اختار ويل دائمـا ـ كغيره من الناس ـ ان يعمى عنه ، وتلك الرأفة التى آثر عليها التعذيب دائمـا ، التعـذيب يتحمله أو يوقعـه ، فى صـالات البيع الرخيص ، وفى عزلته الزرية ، مع بابز الحية أو مع مـولى الميتة فى مقدمة الصورة ، أو مع جو الديهايد وسط الصورة، وفى الخلفية البعيدة ذلك العالم الكبير عالم القوى المجهولة والاعداد المتكاثرة والمصابين جماعة بالجنـون ، والشـعوذة المنظمة •

وهناك دائما وفى كل مكان صياح المنومين المغناطيسيين أو تسلطهم وهم ساكنون ، وفى أعقاب الموحين الحاكمين تسير دائما وفى كل مكان حشـود المهرجين والمروجين ، ومحترفو الاكاذيب ، والمتعهدون الذين يقدمون أسباب اللهو التى لا تمت بصلة الى الواقع • وضحاياهم فى أزياء موحدة يكيفون منذ المهـد ، وتصرف أنظـارهم بلا توقف ، وينومون بنظـام ، فيواصلون المسير الى الامام والى الخلف طائعين ـ دائما وفى كل مـكان ـ يقتلون ويقتلون فى طـاعة تامة كطـاعة الكلاب المدربة •

ومع ذلك ، وعلى الرغـم من مـوقف الرفض الذى له مايبرره كل التبرير فهنـاك حقيقة ثابتة وسـوف تبقى على

ثباتها دائما وفى كل مكان ـ وهى أن هناك قدرة حتى عند المجنـون على التفكير الذكى ، وقدرة حتى عنـد من يعبـد الشيطان على المحبة · ستبقى هذه الحقيقة : وهى أن أساس الوجود كله يمكن أن يظهر بتمامه فى شجيرة مزهرة ، أو فى وجه انسان ، وستبقى أيضا هذه الحقيقة : وهى أن هنـاك ضياء وان هذا الضياء هو كذلك الرأفة ·

وسمعت طلقة من بندقية ، ثم انفجار طلقات من بنادق آلية ·

وغطت سوزيلا وجهها بيديها · وأخذت ترتجف ولا تملك زمام نفسها ·

وطوق بذراعه كتفيها وضمها اليه ·

ان عمل مائة عام يتحطم فى ليلة واحـدة · ومع ذلك فهناك حقيقة ثابتة ـ وهى حقيقة نهاية الاحـزان وحقيقة الاحزان ذاتها ·

وأديرت محركات العـربات ، وأخـذت الآلات المحركة واحدة بعد الاخرى تزأر زئير الحـركة ، وأشعلت الاضـواء الكاشفة ، وبعد دقيقة من جلبة المنـاورة ، بدأت العـربات تتحرك ببطء شديد عائدة من الطريق الذى أتت منه ·

ودوى مكبر الصوت بفاتحة النشيد العسكرى مصحوبا بأنشودة المرح الفاسق ، وعرف ويل ان هذا هو النشيد القومى لرندانج · وسكت النغم وظهر موروجان مرة أخرى ·

ونادى الصوت : هذا الراجا يتحدث اليكم · وبعـد ما عزفت الموسيقى نغمة خاصة توحى بالاعادة ، تلا المنادى مرة

أخرى ذلك الخطاب الذى ألقــاه من قبل عن التقـــدم والقيم والبترول والروحانية الحق · وبغتة ــ كما حدث من قبل ــ اختفى الموكب عن الانظار والأسماع · وبعد دقيقة واحدة ظهر مرة أخرى مصحوبا بصوت مرتعش يصـــدر عن رجــل يترنم بمزايا أول رئيس للوزراء بالمملكة المتحدة الجديدة ·

وزحف الموكب ، ومن يمينه هذه المرة سطعت الانوار الكاشفة لأول عربة مسلحة على وجه الاســتنارة الهــادىء الباسم · ولبث ذلك لحظة واحدة ، ثم تحرك شــعاع الضــوء فظهر تاثاجاتا (١) للمرة الثــانية ، فالثالثة ، فالرابعــة ، فالخامسة · واختفت العربة الأخيرة · وبقيت حقيقة الاستنارة وقد انصرفت عنها فى الظلام الانظار · وخف صوت محركات العربات ، وتحول صرير مكبر الصوت الذى كان يعلن الخطاب الى تمتمة غير واضحة ، ومع سكون الضوضاء الدخيلة ظهرت الضفادع ، والحشرات التى لاتفتر ، وطيور المينة تصيح :

ــ كارونا ، كارونا وبنغمة أخف : انتباه ·

(١) معناها فى البوذية الواحد المستنير استنارة كاملة ــ المترجم

جمهورية مصر العربية

مطبوعات

المجلس الاعلى للثقافة

رقم

- ٢٥١ -

القاهرة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٤٧٢٩